ASSASSIN'S CREED

عقيدة الحشاشين

1

عصر النهضة

أوليفر بودين

ترجمة: محمد عبد العاطي





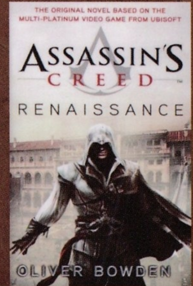


ASSASSIN'S CREED
عقيدة الحشاشين

سوف أسعى للانتقام من الذين خانوا عائلتي...
أنا الحشّاش إزيو أودِتوري دا فيرنزي.

يبدأ شابٌ رحلةَ انتقامٍ ملحمية، إثر تعرضه للخيانة من العائلات الحاكمة في إيطاليا. ومن أجل استئصال الفساد واستعادة شرف عائلته، يتعلّم حِرفة الحشاشين.

وخلال رحلته يستعين إزيو بحِكمة عقول لامعة مثل ليوناردو دا فنشي ونيكولو ماكيافيلي، مُدركًا أن نجاته تتوقف على المهارات التي سيكتسبها.



لحلفائه سيصبح قوة تقود التغيير والنضال في سبيل الحرية والعدالة، ولأعدائه سيصبح تهديدًا يسعى لسحق الطغاة الذين يضطهدون شعب إيطاليا.

وهكذا تبدأ قصة ملحمية حافلة بالمؤامرات والرغبة في الانتقام والصراع على النفوذ.

الحقيقة ستُكتَب بالدماء.

تصميم الغلاف كريم آدم



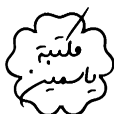




www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb

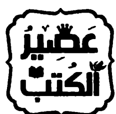
ASSASSIN'S CREED

عقيدة الحشاشين





عصر النهضة



أوليفر بودين

ترجمة: محمد عبد العاطي





telegram @
yasmeenbook

- العنوان الأصلي:
Assassin's Creed #1 Renaissance
- العنوان العربي:
عقيدة الحشاشين، عصر النهضة

- الطبعة الأولى: يناير/2024م

- ترجمة: محمد عبد العاطي
- تحرير: أحمد حسين
- تدقيق لغوي: محمد عبد العال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- رقم الإيداع: 2023/26238م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-344-4



1

وَمَضت المشاعل وتذبذبت أعلى بُرجَي بالازو فيكيو وبارجيلو، ولاح بصيص أضواء بضعة فوانيس في ساحة الكاتدرائية على مبعدة شمالًا، وأضاءت بعضُها الأرصفةَ الممتدَّة بمحاذاة ضفَّتَي نهر أرنو، حيث يُرى -رغم تأخُّر الوقت في مدينة ينسحب معظم سُكَّانها إلى بيوتهم إثر مجيء الليل- بضعة بحَّارة وحمَّالين في العتمة. بعض البحَّارة الذين ما زالوا يعملون في سفنهم وقواربهم سارعوا بإنهاء آخر أعمال ترميمات حبال أشرعة السفن وصواريها في الظلام، وتنظيف الأسطح، وهرع الحمَّالون لنقل البضائع إلى المخازن المجاورة.

تراقصت الأضواء أيضًا في معاصر النبيذ والمواخير، لكن لم يجُب الشوارع سوى قِلَّة من الناس. انقضت سبعة أعوام منذ انتخاب لورِنزو دي مِديتشي، ذي العشرين ربيعًا عندئذٍ، حاكمًا للمدينة، وقد نجح في بسط النظام والهدوء في ظل التنافس المحموم بين أبرز عائلات الصيارفة والتجار الذين جعلوا فلورنسا إحدى أغنى مدن العالم. ورغمًا عن هذا ظلت الضغائن كامنة في الصدور، وظلت الصراعات تحتدم من حين إلى آخر، إذ تسعى كل عُصبة إلى فرض هيمنتها، بعضهم يبدِّلون ولاءهم، وبعضهم يظلون أعداء أَلِدَّاء لا يعرفون إلى الصَّفح سبيلًا.

لم تكن فلورنسا في عام 1476، ذات مساء ربيعي جميل يكاد أن يُنسِي نتانة نهر أرنو إذا هبَّت الرياح في الاتجاه المناسب -لم تكن مكانًا يؤمَن الخروجُ فيه بعد مغيب الشمس.

ارتفع القمر في السماء الزرقاء المخضرَّة، مُباهيًا النجوم النائية، غامرًا بضوئه المساحة المفتوحة حيث ران الصمت على بونتي فيكيو، الجسر القديم، ومتاجره المكتظَّة المحاذية لضفة النهر الشمالية، وسلَّط القمر ضوءه أيضًا على شخص مُتشح بالسواد، يقف على سقف كنيسة سانتو ستيفانو أل بونتي، شابٌّ لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، لكنه طويل ينتصب شامخًا، جال بعينيه مدقِّقًا النظر إلى الحي أسفله، ثمَّ رفع أصابعه إلى شفتيه وصفَّر صفيرًا خافتًا لكنه ثاقب، فظهر شابٌّ آخر، ثمَّ ثلاثة شُبَّان، ثمَّ عشرة، وأخيرًا عشرون شابًّا مثله، معظمهم متشحين بالسواد، بعضهم يعتمر قبعات أو قلانِس خضراء ولازوردية وحمراء حُمرة قانية، وجميعهم يحتزمون سيوفًا وخناجر، خرجوا من الشوارع والأزقَّة المظلمة إلى الساحة، ثمَّ انتشرت عصابة الشبَّان في أنحاء المكان، مختالين معتدِّين بأنفسهم.

نظر الشابُّ من موقعه العالي إلى الوجوه المتشوِّقة الشاحبة تحت ضوء القمر وهي تنظر إليه، ثمَّ رفع قبضته فوق رأسه بتحيَّة تحدٍّ.

صاح: «سنخوض معركتنا معًا!». فرفعوا قبضاتهم أيضًا، وبعضهم استلُّوا أسلحتهم ولوَّحوا بها هاتفين: «معًا!».

تسلَّق الشاب بخفَّة قِطٍّ هابطًا، عبر واجهة المبنى الذي لم يكتمل تشييده، إلى سقف رواق الكنيسة ذي الأعمدة، ثمَّ منه وثب، ورداؤه يرفرف خلفه، هابطًا مقرفصًا بين رفاقه، فتجمَّعوا حوله مترقِّبين.

«صمتًا يا أصدقائي!». رفع يده ليضع حدًّا لصيحة أخيرة طويلة، وابتسم ابتسامة ضارية. «أتعرفون لماذا استدعيتكم الليلة يا حلفائي المخلصين؟ استدعيتكم لأطلب عونكم. منذ مدَّة طويلة ظللت صامتًا وعدوُّنا، تعرفون مَن أقصده، فييري دي باتزي، يشوِّه سمعة عائلتي ويفتري علينا الأكاذيب، مُمرِّغًا اسمنا في الوحل، محاولًا التقليل من شأننا بطريقته المثيرة للشفقة. عادةً ما كنتُ لأنحدر إلى مستوى ركل كلب أجرب، لكن...».

قوطِع الشابُّ بحجر خشن ضخم قُذِف من ناحية الجسر واستقر عند قدميه.

وهتف صوت: «اكتفينا من ترَّهاتك أيها الأبله!».

التفت الشابُّ، بحركة واحدة مع رفاقه، إلى اتجاه الصوت، وقد عرفوا صاحبه، ورأوا عصابة شبَّان آخرين يقتربون عابرين الجسر من الناحية

الجنوبية، زعيمهم يتبختر في مقدِّمتهم، يرتدي بدلة مخملية داكنة وفوقها رداء أحمر مثبَّت بمشبك يحمل شعارًا مرسومًا عليه دلافين ذهبية وصلبان على خلفية زرقاء، ويده على رُمَّانة سيفه، كان رجلًا متوسط الوسامة، شوَّه مظهرَه لؤمُ شفتيه وصِغر ذقنه، ورغم أنه بدين قليلًا، لم يكن ثمَّة شك في القوة الكامنة في ذراعيه وساقيه.

قال الشابُّ بنبرة فاترة: «صباح الخير يا فييري، كُنَّا نتحدث عنك للتَّوِّ»، وانحنى انحناءة متكلَّفة مبالغ فيها، متصنِّعًا الدهشة. «لكن عليك أن تعذرني، لم نتوقَّع حضورك شخصيًّا، ظننتُ أن آل باتزي دائمًا ما يوكلون أعمالهم القذرة إلى آخرين».

اقترب فييري مع جماعته، وتوقَّفوا على بُعد أمتار، وقال: «إزيو أودِتوري! أيها الجرو المدلَّل الحقير! لقلتُ إن عائلتك، عائلة الكَتَبة والمحاسبين، هي التي تختبئ خلف الحرَّاس عند وقوع أبسط مشكلة. جبناء!». أمسك بمقبض سيفه. «سأقول إنكم تخشون تولِّي أموركم بأنفسكم».

«حسنًا، ماذا عساي أن أقول يا فييري البدين؟ عندما قابلتُ أختكَ فيولا آخر مرَّة، بدت راضية عن الطريقة التي تولَّيت بها أمري معها». ابتسم إزيو أودِتوري لعدوِّه ابتسامة واسعة، مغتبطًا بسماع رفاقه يقهقهون خلفه ساخرين.

لكنه أدرك أنه تمادى في الإهانة، إذ احمرَّ فييري غضبًا. «الزم حدودك أيها الوغد الحقير! فلنرَ إذا كنت تقاتل ببراعة كما تثرثر». التفت إلى رجاله شاهرًا سيفه، وأطلق خوارًا: «اقتلوا اللقطاء!».

وفي الحال سُمِعَ أزيز حجر آخر في الهواء، لكن هذه المرَّة لم يُقذَف بوصفه تحدِّيًا، إنما ارتطم بجبين إزيو، مسبِّبًا له جرحًا نازفًا. تقهقر إزيو مترنِّحًا لوهلة، وانطلق وابِل من الحجارة من أيدي أتباع فييري. لم يتسنَّ لأتباع إزيو وقت ليتأهَّبوا للقتال قبل أن تهاجمهم عصابة باتزي، التي اندفعت عبر الجسر، وفي لمح البصر اندلع القتال عنيفًا سريعًا إلى درجة أن الرجال لم يجدوا وقتًا لسحب سيوفهم أو حتَّى خناجرهم، فانهال بعضهم على بعض بالقبضات.

كانت المعركة عنيفة ضارية، ركلات ولكمات وحشية ترافقها قرقعة العظام التي تسبِّب الغثيان. ولوهلة بدا أن الكفَّة قد تميل لأي من الفريقين. ثمَّ رأى إزيو، ببصره الضبابي إثر تدفق الدماء من جبينه، اثنين من أفضل رجاله

تعثَّرا وسقطا، فداس أوباش باتزي عليهما بأقدامهم. ضحك فييري، وسدَّد ضربة نحو رأس إزيو ممسكًا بحجر ثقيل، انخفض إزيو متفاديًا الضربة، لكنها كانت قريبة. وعندئذٍ بدا فريق أودِتوري على وشك الانهزام. تمكَّن إزيو، قبل وقوفه على قدميه، من إخراج خنجره والتطويح به نحو فخذ أحد أوباش باتزي كان يهاجمه شاهرًا سيفًا وخنجرًا، مزق خنجر إزيو ملابس الرجل ولحمه، فأطلق عواء عاليًا وتهالك على الأرض، وألقى أسلحته وأمسك بالجرح بكلتا يديه محاولًا إيقاف النزيف الغزير.

نهض إزيو وَجِلًا، ونظر في ما حوله، فرأى أن عصابة باتزي أحاطت برجاله، وحاصرتهم عند أحد جدران الكنيسة. أحسَّ بساقيه تستعيدان شيئًا من عافيتهما، وشقَّ طريقه نحو رفاقه، انحنى متفاديًا نصل أحد أتباع باتزي، وعاجله بلكمة على فكه، واغتبط برؤية أسنانه تطير، ثمَّ تهالك مهاجمه على ركبتيه. صاح إزيو برجاله مشجِّعًا، لكن في الحقيقة كان يفكر في إيجاد طريقة للانسحاب بكرامة. وعندئذٍ ارتفع صوتٌ عالٍ مرِح طغى على جلبة القتال، صوتٌ مألوف ينادي إزيو من خلف عصابة باتزي.

«أخي الصغير! ماذا تفعل بحق الجحيم؟».

خفق قلب إزيو من شدَّة ارتياحه، وشهق قائلًا: «مرحبًا فدريكو! ماذا تفعل هنا؟ ظننتكُ تمضي وقتك في السهر والعربدة كعادتك!».

- هراء! كنت أعرف أنك تدبِّر أمرًا، وقررت المجيء لأرى ما إذا تعلَّم أخي الصغير أخيرًا كيفية الاعتناء بنفسه، لكن يبدو لي أنك تحتاج إلى بضعة دروس أخرى!

كان فدريكو أودِتوري، أكبر أبناء أودِتوري، رجلًا ضخمًا ذا شهية مفتوحة للخمر والنساء والقتال. خاض في المعركة وهو ما زال يتكلَّم مع شقيقه، ضرب رأسَي اثنين من عصابة آل باتزي معًا، وركل فك آخر وهو يسير بتؤدة مخترقًا الحشد، ووقف بجوار شقيقه وهو يبدو منيعًا من العنف الذي يحيط به. وحولهما تشجع رجالهما، فضاعفوا مجهوداتهم، وبالمقابل انهارت روح أعدائهم المعنوية. تجمع عدد قليل من عُمَّال تجهيز السفن وراحوا يشاهدون من مسافة آمنة، وفي العتمة ظن رجال باتزي أن العُمَّال يمثِّلون تعزيزات آل أودِتوري، وعندما سمعوا زئير فدريكو ورأوا قبضتيه العاتِيَتين وتقليد إزيو له، دبَّ فيهم الذعر سريعًا.

ارتفع صوت فييري دي باتزي الحانق في خضم الجلبة: «تراجعوا!». صاح برجاله بصوت متهدج من الغضب والإرهاق. ثمَّ التقت عيناه بعيني إزيو، وزمجر بتهديد غير مسموع، واختفى في الظلام، عائدًا عبر الجسر القديم، وفي أعقابه رجاله من القادرين على المشي، فطاردهم حلفاء إزيو الظافرون.

هَمَّ إزيو بالانضمام إلى المطاردة، لكن يد شقيقه الضخمة أوقفته. «مهلًا لحظة».

- ماذا تعني؟ لقد جعلناهم يفرُّون!

«لا تتحرَّك». تجهَّم فدريكو وهو يلامس برفق الجرح الذي فوق حاجب إزيو.

قال إزيو: «إنه خدش بسيط».

«أخطر من خدش بسيط». تكلَّم شقيقه وقد اعتراه القلق. «علينا الذهاب إلى طبيب».

بصق إزيو. «ليس لديَّ وقت أهدره في الركض إلى الأطباء، كما إنني...» أطرق مغتمًّا. «...ليس معي أي نقود».

«ها! أفترض أنك بددتها على النساء والنبيذ». ابتسم فدريكو وربَّت بمودَّة على كتف شقيقه الأصغر.

«إنه ليس تبديدًا، فأنت قدوتي». ابتسم إزيو، ثمَّ بدا مترددًا. وأدرك فجأة أن رأسه ينبض بالألم. «لكن رغمًا عن هذا، لن يضيرني الاطمئنان على إصابتي. أفترض أن بوسعك تدبُّر أمر إقراضي بضعة فلورينات».

ربَّت فدريكو على محفظته، فلم تصدر رنينًا. قال: «الحقيقة هي أنني أيضًا مفلس في الوقت الراهن».

ابتسم إزيو إثر رؤيته الحرَج الذي اعترى شقيقه. «وفيمَ بددت نقودك؟ صدقات الكنيسة؟!».

ضحك فدريكو. «حسنًا، فهمت مقصدك». نظر في ما حوله. بنهاية المعركة لم يُصَب من رجالهما إصابة تبقيهم في ميدان المعركة سوى ثلاثة أو أربعة، جميعهم جالسون يتأوَّهون قليلًا، ويبتسمون أيضًا. كان شجارًا حاميًا، لكن لم تُكسر عظام أحد. وبالمقابل استلقى قرابة ستة من أتباع باتزي على الأرض فاقدين الوعي، واثنان منهم على الأقل يرتديان ملابس باهظة.

اقترح فدريكو: «فلنرى إذا لدى أعدائنا المهزومين أي ثروة يمكنهم تقاسمها معنا. حاجتنا أمسُّ من حاجتهم. وأراهن على أنك لن تستطيع تخفيف حملهم دون إيقاظهم!».

قال إزيو: «سنرى»، وشرع في مهمته، حالفه بعض النجاح، وقبل انقضاء بضع دقائق، نجح في جمع عملات ذهبية كافية لملء محفظتيهما. ثمَّ نظر إلى شقيقه نظرة الظافر، وأسمَعه رنين ثروته الجديدة ليؤكد نجاحه.

صاح فدريكو: «كفى! يستحسن أن نترك لهم بعض النقود حتَّى يتمكَّنوا من العودة إلى منازلهم. لسنا لصوصًا، هذه غنائم حرب فحسب. وما زلتُ قلقًا على جرحك، لا بُدَّ أن نفحصه لنطمئن».

أومأ إزيو، واستدار ليجول بناظريه مرَّة أخيرة في الميدان الذي شهد نصر آل أودِتوري. نافد الصبر وضع فدريكو يده على كتف شقيقه الأصغر قائلًا: «فلنذهب»، ودونما إبطاء شرع في السير بإيقاع سريع وجد إزيو المنهك صعوبة في مجاراته، لكن كلما تأخر كثيرًا أو انعطف انعطافة خاطئة، كان فدريكو ينتظره، أو يُهرع عائدًا ليصطحبه. «آسف يا إزيو، أريد أن نبلغ الطبيب في أقصر وقت ممكن».

في الواقع لم يكن منزل الطبيب بعيدًا، لكن إزيو كان يزداد إنهاكًا بمرور كل لحظة. وأخيرًا وصلا إلى حجرة معتمة، مزينة بأدوات غريبة وقوارير من نحاس وزجاج، مرصوفة على طاولات طويلة من خشب البلوط ومتدلية من السقف بجوار حزم أعشاب مجففة. مقر طبيب عائلتهما. بذل إزيو كل ما بوسعه ليظل واقفًا على قدميه.

لم يكن الطبيب سيريسا مسرورًا بإيقاظه في منتصف الليل، لكن تعابير ضيقه تغيَّرت إلى القلق حالما قرَّب شمعة ليفحص جرح إزيو من كثب. قال مغتمًّا: «إممم، إصابتك بالغة هذه المرَّة أيها الشاب، ألا يمكنكم التفكير في وسيلة لقضاء الوقت أفضل من تبادل اللكمات والركلات؟».

تدخَّل فدريكو: «كانت مسألة شرف أيها الطبيب الطيِّب».

رد الطبيب بنبرة فاترة: «فهمت».

قال إزيو: «إنه مجرَّد خدش حقًّا»، رغم أنه يحس بدوار.

وكعادته أخفى فدريكو قلقه خلف حس دعابته قائلًا للطبيب: «أصلحه بأفضل ما يمكنك يا صديقي. هذا الوجه الجميل هو كل ما يملكه أخي».

رد إزيو: «تبًّا لك»، رافعًا إصبعه الوسطى لشقيقه.

تجاهلهما الطبيب. غسل يديه، وتحسَّس الجرح برفق، ثمَّ صب قليلًا من سائل شفاف من إحدى قواريره الكثيرة على قطعة كتان، ومسح بها الجرح، فأحس إزيو بلسعة حادَّة كادت تجعله يقفز من كرسيه، والتوى وجهه من الألم. وبعدما اطمأن الطبيب إلى نظافة الجرح، أخذ إبرةً وخيطًا رفيعًا مصنوعًا من أحشاء حيوان.

قال: «والآن سيؤلمك هذا بشدَّة، قليلًا».

وما إن ثُبِّتت الغرز وضُمِّد الجرح فبدا إزيو مثل تُركي يضع عمامة، ابتسم الطبيب مشجعًا. «حسابي حاليًا ثلاثة فلورينات، سوف آتي إلى قصركم بعد بضعة أيام لأزيل الغرز، وعندئذٍ ستدفع لي ثلاثة فلورينات أيضًا. سينتابك صداع فظيع، لكنه سيزول. حاول أن تنال قسطًا من الراحة، لو بوسعك فعل شيء كهذا! ولا تقلق، مظهر الجرح أسوأ ممَّا هو عليه في الحقيقة، علاوة على أنه لن يخلِّف ندبة، لذا لن تخيِّب آمال السيدات في المستقبل!».

حالما عادا إلى الشارع، وضع فدريكو ذراعه حول شقيقه، وأخرج قنينة وناولها لإزيو، وعندما لاحظ القلق على وجه إزيو قال: «لا تقلق، إنه من أجود أنواع الغرابًّا لدى أبينا، أفضل من لبن الأم لرجل في مثل حالتك».

شربا، وأحسَّا بالسائل الحارق يدفئهما. ثمَّ قال فدريكو: «يا لها من ليلة!».

«حقًّا. لا أتمنى سوى أن تكون كل الليالي ممتعة كهذه...» صمت إزيو عندما رأى شقيقه يبتسم ابتسامة عريضة. «أوه مهلًا!». صحَّح نفسه ضاحكًا: «كلها ممتعة فعلًا».

قال فدريكو: «ومع ذلك لا أظن أن قليلًا من الطعام والشراب فكرة سيئة قبل الذهاب إلى البيت. أعرف أن الوقت تأخر، لكن ثمَّة حانة على مقربة من هنا لا تُغلق أبوابها حتَّى موعد الإفطار و...».

- وأنت وصاحب الحانة صديقان مقربان؟
- كيف خمَّنت؟

وبعد زهاء ساعة، بعدما تناولا وجبة مكونة من حساء توسكاني وشريحة لحم بقر مع قنينة برونيلو، لم يعد إزيو يشعر بأنه جُرح إطلاقًا. كان يافعًا ذا لياقة بدنية عالية، وأحس بأنه استعاد طاقته التي فقدها. لا ريب أن أدرينالين تغلُّبه على عصابة آل باتزي ساهم في سرعة تعافيه.

قال فدريكو: «حان وقت العودة إلى البيت، لا بُدَّ أن أبانا يتساءل عن مكاننا، وأنت من يلجأ إليه للمساعدة في شؤون المصرف، من حسن حظي، فأنا لا أملك دماغًا قادرًا على التعامل مع الأرقام، لذا أفترِض أنه سيقحمني في عالم السياسة في أقرب وقت!».

- عالم السياسة أو السيرك، كلاهما يليق بك.

- ما الفرق بينهما؟

كان والدهما يعهد بكثير من أعمال العائلة لإزيو بدلًا من شقيقه الأكبر، وكان إزيو يعرف أن فدريكو لا يضمر ضغينة إزاء هذه الحقيقة، لمات فدريكو من الملل إذا فُرضت عليه حياة عالم المصارف. المشكلة كانت أن إزيو يحس بأنه لا يختلف كثيرًا عن شقيقه، لكن في الوقت الراهن، فإن يوم ارتدائه الحُلة المخملية السوداء والسلسلة الذهبية التي يرتديها مصرفيو فلورنسا ما زال بعيدًا. وكان إزيو عازمًا على الاستمتاع بأيام الحرية وعدم المسؤولية أيما استمتاع. بيد أنه لم يكن مدركًا لمدى قصر هذه الأيام.

قال فدريكو: «يجدر بنا أن نسرع حتَّى نتجنب توبيخ أبي».

- ربما يكون قلقًا.

«لا، إنه يعرف أن بوسعنا الاعتناء بأنفسنا». نظر فدريكو إلى إزيو مفكرًا. «لكن كان يجدر بنا أن نتعجل». صمت ثمَّ أردف: «ألا تشعر برغبة في المراهنة؟ سباق ربما؟».

- إلى أين؟

«فلنقُل...» أرسل فدريكو بصره إلى أفق المدينة المغمورة بضوء القمر باتجاه برج لا يبعد كثيرًا. «... سقف سانتا ترينيتا، إذا لم يكن مرهقًا لك، ليس بعيدًا، لكن ثمَّة شرطًا واحدًا».

- ما هو؟

- لن نتسابق عبر الشوارع، إنما فوق الأسطح.

أخذ إزيو نفسًا عميقًا، وقال: «حسنًا، جرِّبني».

- حسنًا أيها السلحفاة الصغيرة، هيا!

انطلق فدريكو دون كلمة أخرى، تسلَّق جدارًا قريبًا مكسوًّا بالجص الخشن، متحركًا بسهولة بالغة كأنه عظاءة، ثمَّ توقف في القمة، وبدا كأنه

يتراقص بين الألواح الحجرية الحمراء المستديرة، ضحك، وانطلق مجددًا. وبحلول الوقت الذي بلغ فيه إزيو أسطح المباني، كان شقيقه قد ابتعد مسافة عشرين ياردة. شرع إزيو في المطاردة، ناسيًا آلامه في غمرة حماسته التي يغذِّيها الأدرينالين، ثمَّ رأى فدريكو يثب وثبة هائلة فوق فجوة حالكة الظلام، ويهبط بخفَّة على سطح قصر رمادي منخفض قليلًا عن السطح الذي وثب منه، وركض مسافة أبعد قليلًا، وانتظر. أحس إزيو بوخزة خوف عندما لاحت له هوة الشارع الذي يبعد ثمانية طوابق، لكنه كان متيقنًا من استعداده للموت بدلًا من التردد أمام شقيقه، فاستجمع شجاعته، وقفز قفزة إيمان أعمى، ناظرًا في أثناء تحليقه إلى حجارة الرصف الجرانيتية الصلبة تحت ضوء القمر بعيدًا تحت قدميه السابحتين في الهواء، ولوهلة خاطفة تساءل عمَّا إذا كان قد قدَّر المسافة تقديرًا صحيحًا، إذ بدا جدار القصر كأنه يرتفع لملاقاته، ومن ثَم، بطريقةٍ ما، غاص الجدار إلى الأسفل، ووجد إزيو نفسه على السقف الجديد، مترنِّحًا قليلًا، لكنه واقف على قدميه، منتشيًا ومنقطع الأنفاس.

ناكفه فدريكو: «أخي الصغير أمامه الكثير ليتعلَّمه». وانطلق مجددًا، كأنه طيف بين المداخن، تحت الغيوم المتناثرة. قذف إزيو بنفسه إلى الأمام، مأخوذًا بجموح اللحظة، ثمَّ ظهرت أسفله هوَّات سحيقة أخرى فاغرة فمها، بعضها أزقَّة ضيقة، وبعضها شوارع رئيسية واسعة. لم يعد فدريكو يُرى في أي مكان. انبثق برج سانتا ترينيتا أمام إزيو فجأة، مرتفعًا من سقف الكنيسة الأحمر المنحدر انحدارًا طفيفًا، لكن في أثناء اقترابه تذكر أن الكنيسة تنتصب في منتصف ساحة، وأن المسافة بين سقفها وأسقف المباني المحيطة أطول بكثير من أي مسافة قفز فوقها حتَّى الآن. تجاسر على عدم التردد أو إبطاء سرعته، عاقدًا أمله الوحيد على أن يكون سقف الكنيسة أخفض من السقف الذي سيقفز منه. إذا تمكَّن من دفع نفسه إلى الأمام بقوة كافية، وقذف جسده عاليًا في الهواء، فستتكفل الجاذبية بالباقي، وسيحلِّق في الهواء لثانية أو اثنتين. أبعد عن عقله عواقب الفشل.

اقتربت حافة السقف بسرعة. ثمَّ لا شيء. حلَّق إزيو، مستمعًا إلى همس الهواء في إذنيه، ومن شدَّته ترقرقت عيناه بالدموع. بدا له السقف بعيدًا جدًّا، فخطر له أنه لن يبلغه أبدًا، وأنه لن يضحك أو يقاتل أو يعانق امرأة مرَّة أخرى أبدًا، عجز عن التنفُّس، وأغمض عينيه، وعندئذٍ...

وجد نفسه منحنيًا يحاول تثبيت نفسه بيديه وقدميه، لكنه استعاد توازنه. لقد نجح، بالكاد، لكنه نجح في بلوغ سقف الكنيسة!

لكن أين فدريكو؟ تسلَّق إزيو قاعدة البرج بجهد، والتفت لينظر خلفه إلى الموضع الذي قفز منه، فرأى شقيقه مُحلِّقًا في الهواء بدوره. هبط فدريكو بثبات، لكن وزنه نزع بضع قطع بلاط حمراء من مكانها، وكاد أن يتعثر إثر انزلاق القطع إلى حافة السقف، وتشظيها بعد بضع ثوانٍ على حجارة الرصف الصلبة بالأسفل. لكن فدريكو استعاد توازنه، واعتدل واقفًا، لاهثًا بالطبع، وعلى وجهه ابتسامة فخر واسعة.

قال وهو يقترب من إزيو ويربِّت على كتفه: «أثبتَّ لي أنك لست سلحفاة، تجاوزتني بسرعة البرق».

«لم أعرف أنني تجاوزتك». تكلم إزيو باختصار محاولًا التقاط أنفاسه.

قال فدريكو: «حسنًا، لن تسبقني إلى قمة البرج»، ودفع إزيو جانبًا، وتسلق البرج القصير الذي كان آباء المدينة يفكرون في بناء برج ذي تصميم أحدث بدلًا منه. وهذه المرَّة وصل فدريكو أولًا، حتَّى إنه ساعد شقيقه المصاب على الصعود، وقد بدأ إزيو يتوق إلى بلوغ فراشه. كان كلاهما مجهدًا، وقفا حتَّى هدأت أنفاسهما، ونظرا إلى مدينتهما التي يخيم عليها صمتٌ جليل تحت أضواء الفجر الفضية.

تكلم فدريكو بوقار على غير عادته: «إننا نعيش حياة رائعة يا أخي».

وافقه إزيو: «الأروع. أتمنَّى ألَّا تتغيَّر أبدًا».

صمت كلاهما، إذ لم يرغب أي منهما في إفساد كمال اللحظة، لكن بعد مدَّة تكلم فدريكو بصوت خافت: «أتمنَّى ألَّا تغيِّرنا الحياة أيضًا أبدًا يا أخي. هيا، لا بُدَّ أن نعود، ها هو سقف قصرنا هناك. فلنبتهل إلى الرب ألّا يكون أبي قد ظل مستيقظًا طوال الليل، وإلَّا فسننال عقابًا قاسيًا. فلنذهب».

واتجه نحو حافة البرج ليتسلق هابطًا من السقف، لكنه توقَّف عندما رأى إزيو لبث واقفًا في مكانه. «ما الخطب؟».

قال إزيو: «مهلًا لحظة».

«ما الذي تنظر إليه؟». سأله فدريكو وقد عاد إليه، ثمَّ تابع نظرات إزيو فابتسم ابتسامة واسعة. «أيها الشيطان الماكر! إنك لا تفكر في الذهاب إلى هناك الآن، أليس كذلك؟ دع الفتاة تنام!».

- لا. أرى أن الوقت قد حان لاستيقاظ كرِستينا.

***

لم يكن إزيو قد التقى كرِستينا كالفوتشي من قبل إلَّا لحظة وجيزة، لكنهما تآلفا سريعًا، رغم أن أباءهما لا يزالان يريانهما أصغر من أن يكوِّنوا عبرهما تحالفًا جادًّا. امتعض إزيو، لكن سن كرستينا لم يكن قد تجاوز السابعة عشرة، وأراد والداها من إزيو أن يكبح سلوكياته الجامحة قبل أن يتقبَّلانه. وبالطبع لم يزِد هذا الموقف إزيو إلَّا طيشًا.

ذات يوم كان إزيو وفدريكو يتسكَّعان في السوق الكبير بعدما اشتريا بعض الحُلي البسيطة من أجل احتفال شقيقتهما بيوم القديسة التي تحمل اسمها، يشاهدان فتيات المدينة الجميلات مع وصيفاتهن المصاحبات وهن يتنقَّلن من كشك إلى آخر، يتفحصن شريط زينة هنا، ووشاحًا وقماشًا هناك. لكن فتاةَ بعينها استرعت انتباه إزيو، أجمل وأكثر رشاقة من أي فتاة رآها في حياته. لم ينسَ إزيو ذلك اليوم قط، اليوم الذي وقعت فيه عيناه عليها أول مرَّة.

شهق لا إراديًّا قائلًا: «أوه، انظر! إنها جميلة جدًّا».

قال شقيقه العملي دومًا: «حسنًا، لِمَ لا تذهب وتلقي التحية؟».

صُدم إزيو. «ماذا؟ وبعدما ألقي التحية، ماذا بعد؟».

- لك أن تحاول الحديث معها، عمَّا اشتريته مثلًا، أو عمَّا اشترتْه، لا يهم. اسمعني يا أخي الصغير، معظم الرجال يخافون الفتيات الجميلات، لذا كل من يستجمع شجاعته ويبدأ محادثتهن سيجد لنفسه الأفضلية فورًا. ماذا؟ أتظن أنهن لا يرغبن في أن يُلاحَظن؟ وأنهن لا يرغبن في أن يحظين بمحادثة سريعة مع رجل؟ يرغبن بالتأكيد! على أي حال، لستَ دميمًا، كما إنك من آل أودِتوري. اذهب إليها إذن، سأشغل وصيفتها المصاحبة، في الحقيقة هي نفسها ليست سيئة المظهر.

تذكَّر إزيو أنه عندما انفرد بكرستينا، تسمَّر في مكانه، وانعقد لسانه، مُتمليًّا جمال عينيها الدعجاوين، وشعرها الأسود المحمر، وأنفها الدقيق المرتفع...

حدَّقت إليه، وسألته: «ما الخطب؟».

قال دون تفكير: «ماذا تعنين؟».

- لماذا تقف هكذا دون كلام؟

- أوه... إممم... لأنني أردت أن أسألك سؤالًا.

- ما هو يا تُرى؟

- ما اسمك؟

قلبت عينيها في محجريها، وقالت مع نفسها: *اللعنة، لقد سمعتُ كل هذا من قبل*. وقالت: «ليس اسمًا قد تستفيد منه»، ثمَّ سارت مبتعدة بسرعة، وشيَّعها إزيو بنظراته هنيهة، ثمَّ تبعها.

لحق بها منقطع الأنفاس كأنه ركض ميلًا، وقال: «مهلًا! لم أكن مستعدًا، أردتُ أن أبدو ساحرًا لبِقًا حاضر البديهة! هلَّا منحتني فرصة ثانية؟».

التفتت ناظرة إليه دون أن تبطئ سيرها، لكنها ابتسمت له ابتسامة خاطفة.

تملَّك اليأس إزيو، لكن فدريكو كان يشاهد ما يجري، فقال له: «لا تستسلم الآن! رأيتُها تبتسم لك! ستتذكرك».

تشجع إزيو وتبعها خلسة لئلا تلاحظه، وتعين عليه الاختباء خلف الأكشاك بضع مرَّات، وبعدما غادرتْ الساحة انعطفت إلى زقاق، لكنه تمكَّن من تعقبها بنجاح وصولًا إلى باب قصر عائلتها، حيث رأى رجلًا يعرفه يعترض طريقها. تراجع إزيو.

نظرت كرستينا إلى الرجل غاضبة: «قلت لك من قبل يا فييري، لستُ مهتمة بك. والآن دعني أمُر».

تلاحقت أنفاس إزيو وهو في مخبئه. فييري دي باتزي! بالطبع!

قال فييري: «لكنني مهتم يا آنستي، مهتم جدًّا».

- قِف في الصف إذن.

حاولت تجاوزه، لكنه تحرك ووقف أمامها. «لا أظن يا عزيزتي، سئمتُ انتظارك حتَّى تسلمي لي نفسك بكامل إرادتك». أمسك بذراعها بشدَّة وجذبها إليه وأحاطها بذراعه الأخرى، والفتاة تقاوم محاوِلة الإفلات منه.

«يبدو لي أنك لم تفهم الرسالة». تكلم إزيو فجأة وقد خرج من مخبئه ناظرًا إلى فييري نظرة تحدٍّ.

- آه، الحقير أودِتوري، الكلب الأجرب! ما شأنك بهذا بحق الجحيم؟ فليأخذك الشيطان.

- طاب يومك أيضًا يا فييري، آسف على التدخل، لكن لديَّ انطباع قوي أنك تفسد يوم هذه السيدة الشابة.
- حقًّا؟ معذرة يا عزيزتي ريثما أوسع مُحدَث النعمة هذا ضربًا.

دفع فييري كرستينا جانبًا، واندفع نحو إزيو بلكمة بيمناه، تفاداها إزيو بسهولة وانتحى جانبًا، وعرقل فييري المندفع فأسقطه أرضًا.

سأله إزيو هازئًا: «هل اكتفيت يا صديقي؟». لكن فييري نهض سريعًا، وهاجم مرَّة أخرى بغضب أشد، ونجح في تسديد لكمة قوية إلى جانب فك إزيو، لكن إزيو تجنب لكمة أخرى يسارية خاطفة، وسدد لكمتين لخصمه، واحدة في البطن، وعندما انحنى فييري على نفسه، سدد الثانية إلى فكه. ثمَّ عاد إزيو إلى كرستينا ليطمئن على حالها. تراجع فييري مترنحًا، لكن يده امتدت إلى خنجره، ورأت كرستينا حركته فأطلقت صرخة لا إرادية عندما هوى بالخنجر على ظهر إزيو، لكن إزيو انتبه من الصرخة فاستدار سريعًا وأمسك بمعصم فييري وحاول انتزاع الخنجر منه، فسقط الخنجر على الأرض، ووقف الشابان وجهًا لوجه بأنفاس متلاحقة.

قال إزيو وهو يكز أسنانه: «أهذا أفضل ما يمكنك فعله؟».

- اصمت وإلَّا قتلتك!

ضحك إزيو.

- أظنني ينبغي ألَّا أتفاجأ برؤيتك تحاول فرض نفسك على فتاة لطيفة من الواضح أنها تراك كومة روث –نظرًا إلى الطريقة التي يحاول بها والدك فرض مصالحه المصرفية على فلورنسا.
- أيها الأبله! أبوك هو مَن ينبغي تلقينه درسًا في التواضع!
- حان الوقت للتوقُّف عن تشويه سمعتنا يا آل باتزي. لكنكم لا تقدرون سوى على الثرثرة.

كانت شفة فييري تنزف بشدة، فمسحها بكُمه. «سوف تدفع ثمن ما فعلته، أنت وسلالتك بأكملها. لن أنسى هذا يا أودِتوري!». بصق عند قدميه وانحنى ليحمل خنجره، ثمَّ استدار وركض. نظر إزيو إليه وهو يبتعد.

***

تذكر إزيو كل ذلك، واقفًا على برج الكنيسة وهو ينظر إلى بيت كرستينا، تذكر النشوة التي أحسَّ بها عندما استدار عائدًا إلى كرستينا ورأى دفئًا جديدًا في عينيها وهي تشكره.

كان قد قال لها: «هل أنت بخير يا آنستي؟».

«بخير الآن، بفضلك». ترددت وصوتها ما زال مرتعشًا من الخوف. «سألتني عن اسمي، حسنًا، اسمي كرستينا، كرستينا كالفوتشي».

انحنى إزيو. «تشرَّفت بمعرفتك يا آنسة كرستينا. إزيو أودِتوري».

- أتعرف ذلك الرجل؟

- فييري؟ تتقاطع طرقنا من حين إلى آخر، لكن عائلتينا لا تُكنَّان ودًّا لبعضهما.

- لا أريد رؤيته مرَّة أخرى.

- إذا بيدي حيلة، فلن ترينه.

ابتسمت بحياء، ثمَّ قالت: «إزيو، إنني ممتنَّة لك، ولهذا مستعدة لمنحك فرصة ثانية، بعد بدايتك السيئة معي!». ضحكت برقَّة، ثمَّ قبَّلته على خدِّه واختفت في قصرها.

الحشد الصغير الذي كان قد تجمع حيَّا إزيو بجولة تصفيق، فانحنى لهم مبتسمًا، لكن حالما استدار مبتعدًا أدرك أنه ربما نال فتاته، لكنه أيضًا جرَّ على نفسه خصومة عدو لدود.

«دع كرستينا تنام». قال فدريكو مرَّة أخرى منتشلًا إزيو من استغراقه في التفكير الحالم.

أجاب: «ثمة وقت كاف للنوم، لاحقًا. لا بُدَّ أن أراها».

«حسنًا، إذا لا بُدَّ لك. سأحاول إخفاء أمرك عن أبي، لكن احذر، فرجال فييري ربما لا يزالون على مقربة». أنهى فدريكو كلامه وتسلق هابطًا البرج إلى السقف، وقفز منه إلى عربة قش مركونة في الشارع المؤدي إلى البيت.

شاهد إزيو ابتعاد شقيقه، ثمَّ قرر محاكاته. بدت عربة القش بعيدة بالأسفل، لكنه تذكَّر ما تعلمه، سيطر على أنفاسه، وهدَّأ نفسه، وركَّز.

ثمَّ حلَّق في الهواء، قافزًا أعظم قفزة إيمان أعمى في حياته، ولوهلة ظن أنه أخطأ زاوية قفزته، لكنه ألجم ذُعره اللحظي، وهبط بسلام على القش. قفزة

إيمان أعمى حقيقية! تسارعت أنفاسه قليلًا، لكنه انتشى بنجاحه، ومضى في طريقه.

أطلَّت الشمس فوق التلال الشرقية، لكن لم يظهر سوى قِلة من الناس في الشوارع. همَّ إزيو بالسير في اتجاه قصر كرستينا، لكنه سمع وقع أقدام مسرعة، فاختبأ في ظلال شرفة الكنيسة وحبس أنفاسه. ثمَّ انعطف عند الزاوية فييري واثنان من حراس آل باتزي.

قال الحارس الكبير: «يجدر بنا أن نستسلم يا سيدي، لا بُدَّ أنهم ابتعدوا منذ مدَّة».

رد فييري محتدًّا: «أعرف أنهم في مكانٍ ما هنا، أستطيع أن أشمَّهم». ودار مع رجُليه حول ساحة الكنيسة، عازمًا على عدم الاستسلام.

بدأ ضوء الشمس يقلِّص الظلال، فزحف إزيو بحذر عائدًا إلى كومة القش، واختبأ نافد الصبر مدَّة بدت له دهرًا. اقترب فييري من مخبئه حتَّى بلغت رائحته أنف إزيو فعلًا، لكنه أخيرًا أشار لرجليه إشارة غاضبة لينصرفوا. لبث إزيو مضجعًا مدَّة أطول قليلًا، ثمَّ خرج متنفسًا الصعداء. نفض القش عن ملابسه، وبسرعة قطع المسافة التي تفصله عن كرستينا، مبتهلًا ألَّا يكون أحدٌ في بيتهم قد استيقظ.

كان الصمت لا يزال مخيمًا على القصر، لكن إزيو خمَّن أن الخدم بدؤوا يوقدون نيران المطبخ بالخلف. وكان يعرف مكان نافذة غرفة كرستينا، ألقى حفنة من الحصى على مصراعي النافذة، فبدت الضجة كأنها تصم الآذان، وانتظر وقلبه يدوِّي في صدره، ثمَّ فُتح المصراعان، وأطلت كرستينا من الشرفة، مرتدية ثياب نوم تَشِي بانحناءات جسدها الفاتنة، فأشعلت رغبة إزيو.

هتفت بصوت خافت: «من هنا؟».

تراجع إزيو حتَّى تراه. «أنا!».

تنهدت كرستينا، لكنها كانت تنهيدة لا تخلو من ود. «إزيو! كان ينبغي أن أعرف».

- هلَّا سمحتِ لي بالصعود يا حمامتي؟

ألقت نظرة سريعة فوق كتفها، وأجابته هامسة: «حسنًا، لكن لدقيقة فقط».

- لا أحتاج إلى أكثر من دقيقة.

ابتسمت. «حقًّا؟».

ارتبك إزيو. «لا... آسف، لم أقصد ذلك! دعيني أريك...». نظر في ما حوله ليتأكد من أن الشارع ما زال مقفرًا، ثمَّ وضع قدمه في إحدى الحلقات الحديدية الضخمة المثبتة في الجدار لربط الخيول، ورفع نفسه وقد عثر على موطئ قدم سهلة في حجارة الجدار، وفي غضون ثانيتين رفع نفسه فوق الدرابزين وضم كرستينا بين ذراعيه.

«أوه إزيو». تنهدت وهما يتبادلان القُبل. «رأسك! ماذا كنت تفعل هذه المرَّة؟».

توقَّف إزيو مبتسمًا. «إنه خدش بسيط. والآن بما أنني صعدت، أيمكنني الدخول؟».

- إلى أين؟

تظاهر بالبراءة. «إلى غرفتك بالطبع».

- حسنًا، ربما، في حال تأكدك من أنك لا تحتاج إلى أكثر من دقيقة...

بأذرع متشابكة عبَرا الباب المزدوج إلى غرفة كرستينا الدافئة.

***

بعد ساعة أيقظهما ضوء الشمس المتدفق عبر النوافذ، وضجيج العربات والناس في الشارع، والأسوأ من هذا وذاك، صوت والد كرستينا وهو يفتح باب غرفتها قائلًا: «كرستينا، حان وقت النهوض يا فتاة! مُعلِّمك سيكون هنا في أي لـــ... ماذا بحق الشيطان؟ يا ابن الفاجرة!».

قبَّل إزيو كرستينا قبلة سريعة لكنها محمومة، وقال: «حان وقت الذهاب على ما أظن». والتقط ملابسه وانطلق نحو النافذة. تسلَّق هابطًا الجدار بسرعة وبدأ يرتدي ملابسه، وظهر أنتونيو كالفوتشي عند الشرفة بالأعلى وهو يستعر غضبًا.

قال إزيو: «آسف يا سيدي».

زعق كالفوتشي: «سأعلِّمك الأسف! أيها الحراس! عليكم بهذا البرغوث! اجلبوا لي رأسه، وأريد خصيتيه أيضًا!».

قال إزيو: «قلت لك إنني آسف يا سيدي...» لكن بوابات القصر فُتحت، وتدفق منها حراس كالفوتشي شاهرين سيوفهم. عندئذٍ انطلق إزيو، وقد ارتدى ملابسه بالكاد، راكضًا في الشارع، متجنبًا العربات ودافعًا عن طريقه الناس، رجال أعمال يتَّشحون بملابس سوداء مهيبة، وتجار يرتدون الأحمر والبُنِّي، وعَوَام يتسربلون بأردية منزلية الحياكة، وموكب كنيسة ارتطم إزيو به بعنف فأسقط تمثال العذراء الذي يحمله رهبان يعتمرون قلانِس سوداء. وأخيرًا، بعد انعطافه عبر أزقة، وقفزه فوق جدران، توقَّف إزيو وأصاخ سمعه. صمْت. حتَّى الصيحات واللعنات التي تنهمر عليه من عامة الناس لم تعد تبلغ مسامعه، فتأكد من إفلاته من أيدي الحراس.

لم يأمل سوى في ألَّا يكون السيد كالفوتشي قد تعرف عليه. كرستينا لن تخونه وتفضح أمره، كان متأكدًا من هذا، كما إنها بوسعها التلاعب بأبيها الذي يحبها حبًّا جمًّا. وحتى إذا اكتشف والدها أمره، فزواجه بكرستينا لن يكون أمرًا سيئًا، فوالده يدير أحد أكبر دور المصارف في المدينة، وذات يوم ربما تصبح أكبر من دار آل باتزي، أو حتَّى آل مديتشي، من يدري؟

سار إزيو إلى البيت سالكًا الشوارع الخلفية، وكان أول من قابله فدريكو، الذي نظر إليه مغمومًا وهز رأسه على نحو غير مطمْئن، وقال: «إنك في ورطة الآن، لا تقل إنني لم أحذرك».

2

كان مكتب جيوفاني أودِتوري في الطابق الأول، ويطل على حدائق خلف القصر عبر نافذتين مزدوجتين مفتوحتين على شرفة فسيحة. الغرفة مكسوة بألواح داكنة من خشب البلوط عليها نقوش، لا يخفف من وحشتها سوى زينة من الجص على السقف. ثمَّة مكتبان يواجهان بعضهما، أكبرهما يخُص جيوفاني، والجدران مرصوف بمحاذاتها خزانات كُتب تعج بدفاتر حسابات ومخطوطات جلدية تتدلى منها مؤشرات قراءة حمراء ثقيلة. صُممت الغرفة بحيث توحي لأي زائر بأن: هنا ستجد الثراء والاحترام والثقة. كان جيوفاني أودِتوري –بوصفه رئيس مصرف أودِتوري الدولي المتخصص في إقراض ممالك جرمانيا ضمن ما كان يُعرف بالإمبراطورية الرومانية المقدسة– مدركًا تمام الإدراك لعبء المسؤولية الملقاة على عاتقه، وكان يأمل أن يتعقَّل ابناه الكبيران سريعًا حتَّى يساعداه على حمل المسؤولية التي ورثها من والده، بيد أنه لم ير ما يشير إلى اقتراب تخلِّي نجليه عن طَيشهما. ومع ذلك...

حملق غاضبًا من مقعده عند مكتبه إلى ابنه الأوسط، الواقف بجوار المكتب الآخر الذي أخلاه السكرتير ليمنح الأب وابنه الخصوصية اللازمة لما يخشى إزيو أن تكون مقابلة عمل مؤلمة. كان الوقت عصرًا عندئذٍ. وقد ظل إزيو طوال الصباح متوجسًا من الاستدعاء، لكنه استغل الوقت مختلسًا ساعتَي نوم ضروريتين، وهندم نفسه. خمن أن والده قصد أن يمنحه هذه الفرصة قبل توبيخه.

أرعَد جيوفاني: «أتظنني أعمى وأصم يا بُني؟ أتظنني لم أسمع بشجارك مع فييري دي باتزي وجماعته عند الجسر ليلة البارحة؟ أحيانًا يا إزيو أظنك

لست أفضل منه كثيرًا، وآل باتزي أعداء خطِرون». همَّ إزيو بالكلام، لكن والده رفع يده محذرًا. «دعني أكمل كلامي». أخذ نفسًا عميقًا وتابع: «وكما لو أن ذلك لم يكن سيئًا بما يكفي، قررتَ ملاحقة كرستينا كالفوتشي، ابنة أحد أنجح التجار في توسكانا كلها، ولم تكتف بملاحقتها، إنما واقعتها في فراش غرفتها! هذا فعل شائن لا يغتفر! ألا تضع في حسبانك سمعة عائلتك أبدًا؟». أطرق قليلًا، وتفاجأ إزيو برؤية لمعان خاطف في عيني والده. تابع جيوفاني: «تدرك ما يعنيه هذا، صحيح؟ تدرك الشخص الذي تذكِّرني به، أليس كذلك؟».

طأطأ إزيو رأسه، ثمَّ تفاجأ عندما نهض والده وسار عبر الغرفة وأحاط كتفيه بذراعه، مبتسمًا ابتسامة بانت لها نواجذه. «أيها الشيطان الصغير! إنك تذكِّرني بنفسي عندما كنت في مثل سنك!». لكن ما لبث جيوفاني أن استعاد صرامته. «لكن لا تظن أنني لن أعاقبك دون رحمة إذا لم أكن في حاجة ماسة إليك هنا، لأرسلتك إلى عمك ماريو وأمرته بتجنيدك ضمن مرتزقته. لثُبتَ إلى رشدك عندئذٍ! لكن لا بُدَّ لي من الاعتماد عليك، إننا نمر بفترة حرجة في مدينتنا، ويبدو لي أنك لست فطنًا بحيث تدرك هذا. كيف حال رأسك؟ أرى أنك نزعت الضمادات».

- أفضل كثيرًا يا أبي.
- إذن أفترض أن لا شيء سيعرقل المهام التي أعددتها لك لبقية اليوم.
- أَعِدك يا أبي.
- هذا وعد يجدر بك الالتزام به.

عاد جيوفاني إلى مكتبه، ومن درج أخرج رسالة تحمل ختمه وناولها لابنه، ومعها وثيقتين من الرَّق في ظرف جلدي. «أريد منك توصيل هذه إلى لورنزو دي مديتشي في مصرفه دون إبطاء».

- هل لي أن أسأل عن الغرض منها؟
- عن الوثيقتين، لا تسأل. لكن تجدر بك معرفة أن الرسالة الغرض منها تحديث معلومات لورنزو عن تعاملاتنا مع ميلانو. أمضيتُ صباح اليوم بأكمله في تجهيزها. هذا الأمر مهم، لكن إذا لم أثق بك، فلن تتعلَّم تحمل المسؤولية أبدًا. ثمَّة شائعة عن وجود مكيدة ضد الدوق غالياتزو، مكيدة بشعة، أؤكد لك، وتزعزُع الأوضاع في ميلانو ليس من مصلحة فلورنسا.
- من المتورطون؟

نظر جيوفاني إلى ابنه مضيِّقًا عينيه.

- يقال إن المتآمرين الأساسيين هم جيوفاني لامبوغناني، وجيرولامو أولغياتي، وكارلو فيسكونتي، لكن يبدو أن عزيزنا فرانسسكو دي باتزي مشترك أيضًا. وفوق كل هذا، ثمَّة خطة يجري تنفيذها تشمل أكثر من سياسيِّي الدولتين المدينيَّتين وحدهم. اعتقل رئيسُ القضاة فرانسسكو في الوقت الراهن، لكن آل باتزي لن يروق لهم هذا.

أمسك جيوفاني لسانه هنيهة، ثمَّ تابع:

- ها قد عرفتَ. قلت لك أكثر ممَّا أردتُ قوله. احرص على وصول هذه الأوراق إلى لورنزو سريعًا، سمعت أنه سيغادر إلى كاريجي عمَّا قريب ليستنشق هواء الريف. وعندما يبتعد القط...

- سأوصلها في أقصر وقت ممكن.

- فتى صالح. اذهب الآن!

انطلق إزيو وحده، سالكًا الشوارع الخلفية حتَّى أبعد نقطة، ولم يخطر له قط أن فييري ربما لا يزال يترصده، لكن فجأة، في شارع هادئ على بُعد مسيرة دقائق من مصرف مديتشي، ظهر فييري قاطعًا الطريق عليه. حاول إزيو التراجع، لكنه وجد مزيدًا من رجال فييري يقطعون عليه طريق الانسحاب، فاستدار صائحًا لفييري: «آسف أيها الخنُّوص، لا وقت لديَّ لأوسعك ضربًا مرَّة أخرى الآن».

صاح فييري: «لستُ الذي سيتعرَّض للضرب الآن، أنت محاصَر. لكن لا تقلق، سوف أرسل إكليل زهور جميل إلى جنازتك».

ضيَّق رجال باتزي الخناق على إزيو. لا شك أن فييري قد عرف بأمر سجن والده. نظر إزيو في ما حوله يائسًا، فرأى منازل الشارع العالية وجدرانها تطوِّقه من كل الجوانب. أحكم تعليق الحقيبة التي تحتوي على الوثائق الثمينة حول جسده، ثمَّ اختار أسهل المنازل القريبة منه وقفز على جدرانها، وتشبث بحجارتها الخشنة بيديه وقدميه وتسلق صاعدًا إلى السقف، وتوقَّف لحظة ناظرًا إلى وجه فييري الذي يتميز غيظًا، وقال له: «لا وقت لديَّ حتَّى للتبوُّل عليك». وانطلق عدوًا فوق السقف بأقصى سرعته، وهبط على الأرض برشاقة بعدما ابتعد عن ملاحقيه.

وبعد بضع لحظات بلغ أبواب المصرف، دخل وحالفه الحظ بتعرفه على بويتيو، أحد خدم لورنزو الموثوقين. هرع إزيو إليه.

- مرحبًا إزيو! ما الذي جاء بك إلى هنا متعجلًا هكذا؟

- بويتيو، لا مجال لإهدار أي لحظة. معي رسائل من أبي إلى لورنزو.

ارتسمت الجدية على وجه بويتيو، وبسط يديه.

- يؤسفني أنك تأخرت يا إزيو، لورنزو ذهب إلى كاريجي.

- إذن يجب أن تحرص على تسليمه هذه الأوراق في أقرب وقت ممكن.

- أنا متأكد أنه لن يغيب أكثر من يوم أو نحوه. في أيامنا هذه...

- بدأت أعرف أمر أيامنا هذه! احرص على استلامه هذه الأوراق يا بويتيو! بسرِّيَّة مطلقة! وفي أقرب وقت ممكن!

وعندما عاد إزيو إلى قصر عائلته، اتجه سريعًا إلى مكتب والده، متجاهلًا مناكفات فدريكو المسترخي في الحديقة، ومحاولات سكرتير والده، جوليو، منعه من دخول مُختلَى والده الداخلي. وفيه وجد إزيو والده منهمكًا في نقاش مع رئيس قضاة فلورنسا، أوبرتو ألبرتي، الذي لا غرابة في حضوره، فالرجلان صديقان قديمان، وكان إزيو يعامل ألبرتي كعم له. لكنه لاحظ تعابير الجدية الشديدة على وجهيهما.

قال أوبرتو بنبرة ودودة: «إزيو! كيف حالك يا بني؟ أراك لاهثًا كالعادة».

ألقى إزيو على والده نظرة مُستحِثَّة.

تابع أوبرتو: «أحاول طمأنة أبيك. وقعت العديد من المتاعب، كما تعرف، لكن...». التفت إلى جيوفاني وأكمل كلامه بنبرة أكثر جدية. «... انتهى التهديد».

سأل جيوفاني إزيو باقتضاب: «هل أوصلت الوثائق؟».

- نعم يا أبي، لكن الدوق لورنزو غادر قبل وصولي.

عبس جيوفاني. «لم أتوقَّع أن يغادر مبكرًا هكذا».

قال إزيو: «تركت الوثائق مع بويتيو، سوف يسلمها له في أقرب وقت ممكن».

تكلم جيوفاني مغتمًّا: «ربما لن يكون قريبًا بما يكفي».

ربَّت أوبرتو على ظهر صديقه قائلًا: «اسمع، لن يغيب أكثر من يوم أو يومين. وضعنا فرانسسكو خلف القضبان، فما الذي يمكن أن يحدث في خلال هذا الوقت القصير؟».

بدا جيوفاني مطمئنًا قليلًا، لكن كان من الواضح أن الرجلين لديهما المزيد من النقاش، وأن وجود إزيو لم يعد مرغوبًا.

قال جيوفاني: «اذهب إلى أمك وأختك، عليك أن تقضي بعض الوقت مع بقية أفراد أسرتك، ليس مع فدريكو وحده! وأرِح رأسك هذا، سأحتاج إليك لاحقًا». وصُرِف إزيو بتلويحة من يد والده.

تجوَّل إزيو في أرجاء البيت، أومأ بالتحايا لخدم الأسرة، ولجوليو، الذي يهرع عائدًا إلى مكتب المصرف من مكان ما حاملًا حزمة أوراق ويبدو كدأبه دومًا، مهمومًا بتفاصيل الأعمال الكثيرة التي تدور في رأسه. لوّح لشقيقه، الذي ما زال متبطِّلًا في الحديقة، لكن إزيو لم يرغب في مجالسته، كما أُمِر بمرافقة والدته وشقيقته، وما كان ليعصي لوالده أمرًا، لا سيما بعد نقاشهما في وقت سابق من اليوم.

ثمَّ وجد شقيقته جالسة وحدها في رواق مسقوف عند مقدمة المبنى، وبين يديها كتاب مُهمَل لبترارك، فعرف أنها واقعة في الحب.

«مرحبًا كلوديا».

- مرحبًا إزيو، أين كنت؟

بسط إزيو ذراعيه. «أديت مهمَّة عمل لأبي».

ردت ساخرة: «هذا ليس كل شيء». لكن ابتسامتها كانت باهتة فاترة.

- أين أمي؟

تنهدت كلوديا. «ذهبتْ لمقابلة ذلك الرسام الشاب الذي يتحدَّث الجميع عنه، أتعرفه؟ إنه الذي أنهى مدَّة تلمذته مع فيرُّوكيو».

- حقًّا؟

- ألا تكترث بأي شيء يحدث في هذا البيت؟ طلبتْ منه رسم بعض اللوحات، وتظنها ستكون استثمارًا جيدًا في المستقبل.

- هذه أمّنا التي نعرفها.

لكن كلوديا لم ترد، وأدرك إزيو الحزن في قسمات وجهها، الذي جعلها تبدو أكبر من سنواتها الست عشرة.

سألها: «ما الخطب يا أختي الصغيرة؟»، وجلس على المقعد الحجري بجوارها.

تنهدت، ونظرت إليه مبتسمة بحياء، وأخيرًا قالت: «إنه دوتشو».

- ما مشكلته؟

اغرورقت عيناها بالدموع. «اكتشفتُ أنه ليس وفيًّا لي».

قطب إزيو حاجبيه. كان دوتشو خطيب كلوديا عمليًّا، لكن لم تُعلن خطبتهما رسميًّا...

سألها واضعًا ذراعه حولها: «من أخبركِ بهذا؟».

كفكفت دموعها ونظرت إليه. «فتيات أخريات. كنت أظنهن صديقاتي، لكن بدا لي أنهن استمتعن بإخباري».

نهض إزيو غاضبًا. «لسن سوى طفيليات وضيعات! ستكونين أفضل حالًا دونهن».

- لكنني أحببته!

صمت إزيو لحظة قبل أن يرد. «متأكدة؟ ربما ظننتِ أنك أحببتِه. ما شعورك الآن؟».

جفَّت عينا كلوديا. «أود رؤيته يعاني، ولو قليلًا. لقد جرحني بشدَّة يا إزيو».

نظر إزيو إلى شقيقته، نظر إلى الحزن في عينيها، ورآه حزنًا مشبعًا بغضب مكتوم، فتحجَّر قلبه. «سوف أزوره».

***

لم يكن دوتشو دوفيزي في منزله، لكن مدبرة المنزل أخبرت إزيو بالمكان الذي يمكن أن يجده فيه. شق إزيو طريقه عبر الجسر القديم متجهًا غربًا بمحاذاة الضفة الغربية من نهر أرنو إلى كنيسة سان ياكوبو سوبرانو، التي بجوارها حدائق معزولة، حيث يلتقي العشاق أحيانًا. كان إزيو، رغم غليان دمه غضبًا لشقيقته، يحتاج إلى دليل إضافي على خيانة دوتشو غير القيل والقال، وتوقَّع أن يجد الدليل.

وبالطبع سرعان ما وقع بصره على الشاب الأشقر، متأنقًا غاية الأناقة، جالسًا على مقعد مطل على النهر، وذراعه حول فتاة داكنة الشعر لم يعرفها إزيو، وتقدَّم بحذر.

كانت الفتاة تقول: «إنه جميل يا عزيزي»، رافعة يدها. ورأى إزيو تلألؤ خاتم ماسي.

تكلم دوتشو مُناغيًا: «لا شيء سوى الأفضل لك يا حُبِّي»، وجذب الفتاة إليه يريد تقبيلها.

لكن الفتاة صدَّته. «ليس بهذه السرعة، نتواعد منذ مدَّة قصيرة. وسمعت أنك وعدت كلوديا أودِتوري بالزواج».

بصق دوتشو. «علاقتي بها انتهت. وعلى أي حال والدي يقول إن بوسعي أن أحظى بفتاة أفضل من فتيات آل أودِتوري». أمسك بعجيزتها. «أنتِ مثلًا!».

- أيها الشقي! فلنتمشَّ قليلًا.

قال دوتشو: «أفكر في فعل سيكون أكثر متعة»، وأقحم يده بين فخذيها.

اكتفى إزيو بما رآه، فقال محتدًّا: «أنت! أيها الخنزير القذر!».

بوغت دوتشو، فاستدار مطلقًا سراح الفتاة. «مرحبًا صديقي إزيو». تكلم متصنِّعًا المرح، لكن التوتر كان باديًا في صوته. وتساءل عن مقدار ما رآه إزيو. «لا أظنك قابلتَ... قريبتي».

تقدم إزيو، غاضبًا ممَّا رآه من خيانة، ولكم صديقه السابق على وجهه. «ينبغي أن تخجل من نفسك يا دوتشو! إنك تهين أختي بفجورك علانية مع هذه... هذه العاهرة!».

زمجرت الفتاة: «لِمن تقول عاهرة؟». لكنها نهضت وتراجعت.

قال إزيو لها: «حتَّى فتاة مثلك يمكنها أن تجد لنفسها شخصًا أفضل من هذا الحقير. أحقًّا تظنين أنه سيجعل منك سيدة؟».

قال دوتشو بصوت كالفحيح: «إياك أن تكلمها بهذه الطريقة! على الأقل إنها أكثر سخاء من أختك المتزمِّتة، للأسف، كان بوسعي تعليمها بعض الأشياء، لكن...».

قاطعه إزيو ببرود: «كسرتَ قلبها يا دوتشو».

- حقًّا؟ أمر مؤسف.

- لذا سأكسر ذراعك.

صرخت الفتاة وولَّت هاربة. أمسك إزيو بدوتشو المرعوب وضغط ذراعه اليمنى على حافة المقعد الحجري الذي كان جالسًا عليه مستثارًا قبيل لحظات، وزاد إزيو قوة ضغطه حتَّى انتحب اللعوب دوتشو.

نظر إزيو إليه مزدريًا، وأفلته. سقط دوتشو على الأرض وتدحرج ممسكًا بذراعه المرضوضة متأوهًا، وتمزقت ملابسه الثمينة وتلطخت.

قال إزيو له: «إنك لا تستحق العناء، لكن إذا لم ترغب في تغيير رأيي بشأن ذراعك، فعليك بالابتعاد عن كلوديا، والابتعاد عنِّي».

بعدها سار إزيو مسافة طويلة إلى البيت، هائمًا على وجهه دون هُدى بمحاذاة ضفة النهر حتَّى كاد أن يبلغ الحقول. وعندما قفل راجعًا رأى الظلال استطالت، لكن أفكاره هدأت قليلًا، وقال لنفسه إنه يجب ألَّا يسمح للغضب بالتحكُّم فيه أبدًا.

وقريبًا من البيت، لمح شقيقه الأصغر، الذي لم يره منذ صباح اليوم السابق. حيًّا الصبي بمودة: «بِتروتشو! ماذا تفعل؟ هل هربتَ من مُعلمك؟ وعلى أي حال ألم يحِن موعد نومك؟».

«لا تكن سخيفًا، أكاد أصبح رجلًا بالغًا. في خلال بضع سنوات سوف أقدر على ضربك ضربًا مبرحًا!». ابتسم الشقيقان لبعضهما. وكان بتروتشو يضم إلى صدره صندوقًا مزخرفًا، وفيه لاحظ إزيو حفنة ريش أبيض وبُنِّي. أوضح الصبي: «إنه ريش عُقاب»، وأشار إلى قمة برج مبنى على مقربة. «هناك عش قديم، لا بُدَّ أن الصغار قد كبروا وطاروا. أرى الكثير من الريش عالق في شقوق الحجارة». نظر بتروتشو إلى شقيقه نظرة استعطاف. «إزيو، هلا جلبت لي مزيدًا من الريش؟».

- حسنًا، لماذا تريده؟

خفض بتروتشو بصره.

- إنه سر.

- إذا جلبته لك، فهل ستدخل البيت؟ تأخر الوقت.

- نعم.

- أتعِدني؟

- أعدك.

- حسنًا إذن.

قال إزيو مع نفسه: *حسنًا أسديت كلوديا معروفًا اليوم، ولا أرى سببًا يمنعني من مساعدة بتروتشو أيضًا.*

لم يكن تسلق البرج سهلًا، فحجارته ملساء، وتعين على إزيو التركيز حتَّى يجد فرجات ومواطئ قدم بين الحجارة. ساعدته منحوتات الزينة في الجزء الأعلى. وفي النهاية، استغرق نصف ساعة، لكنه تمكَّن من جمع خمس عشرة ريشة، كانت كل ما استطاع رؤيته، وعاد بها إلى بتروتشو.

قال بِتروتشو مشيرًا إلى الأعلى: «هناك ريشة لم ترها».

زمجر شقيقه: «إلى الفراش!».

ركض بتروتشو.

تمنَّى إزيو أن تسعد والدته بالهدية. لم يكن من الصعب استنتاج أسرار بتروتشو.

ثمَّ ابتسم عندما دخل البيت.



3

استيقظ إزيو متأخرًا في الصباح التالي، لكنه اطمأن عندما وجد أن والده ليس لديه مهمَّة عاجلة. سار متمهلًا إلى الحديقة، حيث وجد والدته تشرف على أعمال العناية بأشجار الكرز التي بدأت أزهارها تتلاشى، ابتسمت عندما رأت إزيو واستدعته بإشارة. كانت ماريا أودِتوري امرأة طويلة مهيبة في بداية الأربعينيات من عمرها، شعرها الأسود الطويل مضفَّر تحت وشاح من نسيج قطني أبيض شفاف مطرَّز بألوان العائلة، الأسود والذهبي. «إزيو! صباح الخير».

- صباح الخير أمي.
- كيف حالك؟ أتمنَّى أن تكون قد تحسَّنت.

تحسَّست جرح رأسه برفق.

- أنا بخير.
- والدك قال إن عليك أن تستريح لأطول مدَّة ممكنة.
- لا أحتاج إلى الراحة يا أمي.
- حسنًا، على أي حال لن تخرج في مغامراتك المثيرة اليوم. أعرف ما تفعله.
- لا أعرف ما تقصدينه.
- لا تتلاعب معي يا إزيو، أعرف بأمر شجارك مع فييري.
- كان ينشر قصصًا مسيئة لعائلتنا، ولا يمكنني التسامح مع ذلك.
- فييري يمر بضغوط، ازدادت منذ اعتقال أبيه.

أطرقت مستغرقة في التفكير، ثمَّ أردفت:

- ربما يتَّسم فرانسسكو دي باتزي بالعديد من الصفات السيئة، لكنني لما تخيَّلته أبدًا قادرًا على الاشتراك في التخطيط لقتل الدوق.

- ماذا سيحدث له.

- سوف تُعقد محاكمة، أظن أن أباك ربما يكون شاهدًا رئيسيًّا، عندما يعود الدوق لورنزو.

بدا القلق على إزيو.

- لا تقلق. ما من شيء نخشاه. ولن أطلب منك فعل أي شيء لا تحبه. في الحقيقة أريد منك مرافقتي لقضاء حاجةٍ ما، لن تستغرق وقتًا طويلًا، وربما تستمتع بها.

- سأسعد بمساعدتك يا أمي.

- هيا إذن. المكان ليس بعيدًا.

غادرا القصر سيرًا على الأقدام، بذراعين متشابكتين، واتجها نحو الكاتدرائية، إلى حي صغير بجواره أقام العديد من فناني فلورنسا وِرشهم واستوديوهاتهم، بعضها، مثل ورش فيروكيو والنجم الصاعد أليساندرو دي موريانو فيلِبيبي، الذي اكتسب لقب بوتيشيلي، كبيرة حافلة بالنشاط، ينشغل فيها المساعدون والمتتلمذون بتحضير الألوان ومزج الأصباغ، إلى جانب ورش أخرى متواضعة. توقَّفت ماريا عند باب أحد هذه الورش وطرقت عليه، ففتحه فورًا شابٌّ وسيم رشيق حسن الهندام، ذو لِمَّة شعر بني داكن ولحية غزيرة، بدا كأنه يكبُر إزيو بستة أو سبعة أعوام. «مادونا أودِتوري! مرحبًا بك! كنت في انتظارك».

«صباح الخير يا ليوناردو». تبادلا قبلتين رسميتين. وقال إزيو مع نفسه: *لا بُدَّ أن هذا الفنان ذو علاقة جيدة بأمي*. لكن أعجبه مظهر الرجل. تابعت ماريا: «هذا ابني، إزيو».

انحنى الفنان لإزيو قائلًا: «ليوناردو دا فينشي. تشرَّفت».

رد إزيو: «تشرَّفت بلقائك يا مايسترو».

«لم أنل هذا اللقب بعد». ابتسم ليوناردو. «عُذرًا! ادخلا! تفضَّلا، انتظرا هنا، سأطلب من مساعدي جلب نبيذ لكما ريثما أحضر اللوحات».

لم يكن الاستوديو ضخمًا، لكن ما فيه من فوضى وتكدُّس جعله يبدو أصغر ممَّا هو عليه. الطاولات تعج بهياكل عظمية لطيور وحيوانات ثدية صغيرة، وقوارير مليئة بسائل شفاف تحتوي على أشياء عضويةٍ ما، استصعب إزيو التعرُّف على أيٍّ منها. وفي الخلف طاولة عمل عريضة عليها هياكل آلات مثيرة للفضول منحوتة نحتًا دقيقًا في الخشب، وحاملا لوحات ثلاثيا الأرجل عليهما لوحتان غير مكتملتين بألوان أدكن من المعتاد وخطوط غير محددة المعالم نسبيًّا. أخذ إزيو وماريا راحتهما. ثمَّ خرج من حجرة داخلية شابٌّ وسيم يحمل صينية عليها نبيذ وقطع كعك صغيرة، قدَّم الصينية لهما مبتسمًا بحياء، وانسحب.

قالت ماريا: «ليوناردو موهوب جدًّا».

- أنتِ أدرَى يا أمي. لا أعرف الكثير عن الفن.

تراءى لإزيو أنه سوف يعيش حياته على خطى والده، لكن استشعر في قرارة نفسه نزعة تمرد ومغامرة يعرف أنها لن تناسب شخصية مصرفيٍّ فلورنسيٍّ. وعلى أي حال كان يرى نفسه، مثل شقيقه الأكبر، رجلًا عمليًّا مغامرًا، ليس فنانًا أو متذوقًا للفنون.

قالت والدته ناظرة إليه: «أتعرف؟ التعبير عن الذات جزء مهم من فهم الحياة والاستمتاع بها إلى أقصى حد. ينبغي أن تجد لنفسك مُتنفَّسًا يا عزيزي».

استاء إزيو. «لديَّ متنفسات عديدة».

«أعني ما عدا المومسات». ردت والدته كأنها تقول حقيقة مُسلَّم بها.

- أمي!

لكن ماريا هزت كتفيها وزمت شفتيها، ثمَّ قالت: «يجدر بك أن تتخذ من رجل مثل ليوناردو صديقًا، أرى أمامه مستقبلًا واعدًا».

- وفقًا لمظهر هذا المكان، أميل لمخالفتك الرأي.

- لا تكن لئيمًا.

قوطعا بعودة ليوناردو من حجرته الداخلية حاملًا صندوقين، وضع أحدهما على الأرض، وسأل إزيو: «أتمانع حمل هذا الصندوق؟ لطلبتُ من أغنيولو حمله، لكن عليه المكوث هنا لحراسة الورشة، كما لا أظنه قويًّا بما يكفي لهذه المهمَّة».

انحنى إزيو ورفع الصندوق، وتفاجأ بمدى ثقله، وكاد يسقِطه.

حذره ليوناردو: «انتبه! اللوحات التي في هذا الصندوق حساسة، ووالدتك دفعت لي للتَّوِّ مبلغًا كبيرًا مقابلها!».

قالت ماريا: «هلا ذهبنا؟». ثمَّ أردفت موجهة حديثها إلى ليوناردو: «أود تعليقها في أقرب وقت! اخترتُ أماكن أتمنَّى أن توافق عليها».

حارَ إزيو قليلًا من كلام والدته، وتساءل مع نفسه: *أيستحق هذا الفنان الشاب الصاعد كل هذا التقدير؟*

وفي أثناء سيرهم، راح ليوناردو يتكلَّم بود ولباقة، ووجد إزيو نفسه يعجب بالرجل رغمًا عن نفسه. لكن كان ثمَّة شيء بشأن ليوناردو وجده إزيو غريبًا مقلقًا، شيء عجز عن تحديده تحديدًا دقيقًا. برود؟ انفصال عن بقية البشر؟ ربما يهيم بعقله فوق السحاب، مثل فنانين كثيرين آخرين، كما يشاع. بيد أن إزيو أحس إزاء الرجل باحترام غريزي فوري.

سأله ليوناردو: «ما مهنتك يا إزيو».

أجابت ماريا: «إنه يعمل مع والده».

- آه، في المجال المالي! حسنًا، لقد وُلِدتَ في المدينة المناسبة إذن.

قال إزيو: «إنها مدينة جيدة للفنانين أيضًا، هناك الكثير من رعاة الفنون الأثرياء».

تذمر ليوناردو: «لكن الفنانين كثيرون، ومن الصعب لفت الانتباه، لذا أجدني ممتنًّا لوالدتك. ولا تنسَ أن لديها عينين خبيرتين متذوقتين!».

سأله إزيو متذكرًا التنوُّع الذي رآه في الاستوديو: «هل تركِّز على الرسم؟».

بدا ليوناردو مستغرقًا في التفكير. «هذا سؤال صعب. في الحقيقة أجد صعوبة في التركيز على أي شيء الآن وقد صرت حرًّا في اختياراتي. أعشق الرسم، وأعرف أن بوسعي ممارسته، لكن... بطريقةٍ ما أرى النهاية قبل بلوغها، وهذا يصعِّب عليَّ إكمال الأعمال أحيانًا، لا بُدَّ أن أتعرَّض للضغط! لكن هذا ليس كل شيء. أحيانًا أحسُّ بأن عملي تنقصه... لا أدري... الغاية. أيبدو لك هذا منطقيًّا؟».

قالت ماريا: «ينبغي لك أن تقوِّي إيمانك بنفسك يا ليوناردو».

- شكرًا لك. لكن من حين إلى آخر أجدني أفضِّل الأعمال العملية، الأعمال ذات التأثير المباشر في الحياة. أريد فهم الحياة، وخباياها، وخبايا كل شيء.

قال إزيو: «إذن لتعيَّن عليك أن تصبح مئة رجل في رجل واحد».

- أتمنَّى ذلك! أعرف المجالات التي أريد استكشافها: العِمارة، وعلم التشريح، وحتى الهندسة. لا أريد تصوير العالم بفرشاتي، بل أريد تغييره.

تكلم ليوناردو بشغف أثار إعجاب إزيو بدلًا من ضيقه، إذ اتضح له أن الرجل لا يتفاخر، بل بدا مُعذَّبًا بالأفكار التي تعترك في عقله. ثمَّ خطر لإزيو أن الرجل سيخبرهما بأنه لديه اهتمامات بالموسيقى والشعر أيضًا!

سأل ليوناردو: «أتريد وضع الصندوق أرضًا لتستريح قليلًا؟ ربما يكون ثقيلًا عليك».

كز إزيو أسنانه. «لا، شكرًا. كدنا أن نصل على أي حال». وعندما وصلوا إلى قصر أودِتوري، حمل الصندوق إلى صالة المدخل ووضعه أرضًا بأقصى بطء وحِرص تتيحهما له عضلاته المجهدة، وأحسَّ بارتياح غامر لا يود الاعتراف به حتَّى لنفسه.

قالت والدته: «شكرًا لك يا إزيو، سنتدبر أمرنا دونك الآن، لكن بالطبع إذا رغبت في مساعدتنا على تعليق اللوحات...».

- شكرًا يا أمي، أرى أن من الأفضل أن تتوليا هذه المهمَّة بنفسيكما.

مد ليوناردو يده مصافحًا. «سررت بلقائك يا إزيو، آمل أن يجمعنا القدر مرَّة أخرى».

- وأنا أيضًا.

قالت ماريا له: «يستحسن أن تستدعي أحد الخدم لمساعدة ليوناردو».

قال ليوناردو: «لا، أفضِّل تولي هذه المهمَّة بنفسي. تخيلي إذا أسقط أحدٌ صندوقًا!». ثمَّ انحنى ورفع الصندوق الذي وضعه إزيو، وحمله تحت ذراعه، وقال لماريا: «هلا بدأنا العمل؟».

قالت ماريا: «تعالَ من هنا. وداعًا يا إزيو، أراك عند العشاء. هيا يا ليوناردو».

شاهدهما إزيو وهما يغادران الصالة، وقال مع نفسه إن ليوناردو هذا جدير بالاحترام بلا شك.

وفي العصر بعد الغداء، جاء جوليو مسرعًا -كدأبه دومًا- ليخبر إزيو بأن والده يطلب حضوره إلى المكتب، فهرع في أعقاب السكرتير عبر الرواق الطويل الذي تحفه زينة خشب البلوط إلى خلف القصر.

«آه، إزيو! ادخل يا بُنَي». تكلم جيوفاني بنبرة رسمية جادَّة. كان واقفًا خلف مكتبه، ورأى إزيو على سطحه رسالتين كبيرتين مغلفتين بقماش مخملي ومختومتين.

قال إزيو: «يقال إن الدوق لورنزو سيعود غدًا أو بعد غد على أبعد تقدير».

«أعرف. لكن ينبغي ألَّا نهدر أي وقت. أريد منك توصيل هذه إلى شركاء لي، هنا في المدينة». دفع الرسائل فوق المكتب.

- نعم يا أبي.
- كما أريد منك جلب رسالة ينبغي أن تكون قد أحضرَتها حمامة زاجلة إلى قُن الطيور في الساحة عند نهاية الشارع. واحرص على ألَّا يراك أحد تأخذها.
- سأحرص.
- جيد. عُد إلى هنا فورًا حالما تنتهي، أود مناقشة بعض المسائل المهمَّة معك.
- حسنًا.
- اضبط سلوكك هذه المرة، تجنب الشجارات.

قرر إزيو الذهاب إلى قن الحمام أولًا. اقترب الغسق، وكان إزيو يعرف أن قلة من الناس يخرجون في هذا الوقت، وبعد قليل ستحتشد الساحة بالفلورنسيين الذي يخرجون للتمشي في فترة المساء. وعندما بلغ وجهته لاحظ كتابة غرافيتي على الجدار فوق القن، وحارَ في أمرها. هل كُتِبت مؤخرًا أم أنه لم يلاحظها من قبل؟ تعرف على سطر من سِفر *الجامعة*: «**كلما ازدادت معرفتنا، ازداد حزننا**». وأسفل العبارة أضاف شخص آخر بخط قبيح: «**أين النبي؟**».

لكنه سرعان ما أعاد تركيزه إلى مهمته، عرف فورًا الحمامة التي يسعى إليها، إذ كانت الوحيدة التي عقدت رسالة بساقها، حلَّها بسرعة وأعاد الطائر برفق إلى مكانه. ثمَّ تردد. أينبغي أن يقرأ الرسالة؟ لم تكن مختومة. بسرعة بسط اللفافة الصغيرة، ولم يجد مكتوبًا عليها سوى اسم، اسم فرانسسكو دي باتزي. هز إزيو كتفيه، وافترض أن والده سيفهم المغزى من الاسم. لم يعرف إزيو سر أهمية ذِكر اسم والد فييري أحد المتورطين في مؤامرة الإطاحة بدوق ميلانو، فهذه حقيقة يعرفها جيوفاني سلفًا، إلَّا إذا كان الاسم يمثِّل تأكيدًا.

لكن تعين عليه التعجل حتَّى ينهي مهامه. أقحم الرسالة في جراب حزامه، واتجه إلى العنوان المكتوب على الظرف الأول، فاجأه موقعه، إذ وجده حيًّا تكثُر فيه المواخير. كان يذهب إليه كثيرًا مع فدريكو، قبل أن يقابل كرستينا، لكنه لم يشعر فيه بالراحة قط. وضع يده على مقبض خنجره ليطمئن نفسه وهو يقترب من الزقاق القذر المعتم الذي أشار إليه والده. وجد المكان حانة وضيعة، سيئة الإضاءة، تقدم الكيانتي الرخيص في أكواب فخارية.

حارَ في ما ينبغي له فعله بعد وصوله، إذ بدا له المكان خاليًا، ثمَّ تفاجأ بصوت إلى جانبه.

«هل أنت صبي جيوفاني؟».

التفت فواجه رجلًا خشن المظهر تفوح من أنفاسه رائحة البصل، وترافقه امرأة ربما كانت جميلة ذات يوم، لكن بدا أن السنوات التي أمضتها مستلقية على ظهرها سلبتها معظم جمالها، وإذا بقي منه شيء فقد كان في عينيها الصافيتين الذكيتين.

قالت للرجل: «لا، أيها الأبله، يصادف أنه يبدو نسخة من والده».

قال الرجل متجاهلًا تعليقها: «لديكَ شيء لنا، أعطِني إياه».

تردد إزيو. وتحقَّق من العنوان، فوجده العنوان الصحيح.

مال الرجل مقتربًا وقال: «ناولني إياه يا صديقي»، غامرًا إزيو بموجة جديدة من أنفاسه الكريهة. هل يقتات الرجل على البصل والثوم؟

وضع إزيو الرسالة في يد الرجل المفتوحة، فأطبق عليها فورًا ونقلها إلى جراب معلق إلى جانبه.

قال: «فتى مطيع»، ثمَّ ابتسم. ودُهش إزيو برؤية أن الابتسامة أضفت على وجه الرجل نبلًا، لكن ليس كلماته. وأردف: «ولا تقلق، لسنا مُعديين». صمت ونظر إلى المرأة. «أو على الأقل لستُ مُعديًا».

ضحكت المرأة ولكمته على ذراعه، ثمَّ ذهبا.

خرج إزيو من الزقاق شاعرًا بالراحة، ثمَّ وجَّهه عنوان الرسالة الثانية إلى شارع غرب بيت المعمودية، منطقة أفضل، هادئة في مثل هذا الوقت من اليوم. هرول إزيو عبر شوارع المدينة.

وجد في انتظاره أسفل قوس يمتد بين طرفي الشارع رجلًا ضخمًا بدا كجندي، يرتدي ما بدا كملابس ريفية جلدية، لكنه نظيف المظهر والرائحة وحليق الذقن.

أشار لإزيو بالاقتراب. «هنا».

قال إزيو: «لديَّ شيء لك، من...».

«جيوفاني أودِتوري؟». تكلم الرجل بصوت أعلى من الهمس قليلًا.

- نعم.

ألقى الرجل نظرة سريعة في ما حوله، ومن بداية الشارع إلى نهايته، فلم ير سوى مُشعِل مصابيح على مبعدة: «هل تبِعك أحد؟».

- لا، لماذا ينبغي أن يتبعني أحد؟

- لا عليك. أعطني الرسالة.

ناوله إزيو الرسالة.

قال الرجل: «الأحداث تزداد سخونة. أخبر والدك بأنهم سيتحرَّكون الليلة. ينبغي له تأمين نفسه».

بوغت إزيو. «ماذا؟ ما الذي تتحدَّث عنه؟».

قال: «قلتُ لك أكثر ممَّا ينبغي، أسرِع إلى البيت»، وتلاشى في الظلال.

هتف إزيو: «مهلًا! ماذا تعني؟ عُد إلى هنا!».

لكن الرجل اختفى.

تقدم إزيو في الشارع مسرعًا إلى مُشعِل مصابيح الشوارع، وسأله: «كم الساعة الآن؟».

ضيَّق الرجل عينيه ونظر إلى السماء، وقال: «انقضت ساعة منذ بدء مناوبتي، ممَّا يعني أنها الساعة العشرين».

أجرى إزيو حسابًا سريعًا. لا بُدَّ أنه غادر القصر قبل ساعتين، وستستغرق عودته قرابة عشرين دقيقة. انطلق راكضًا وقد تملَّك روحه هاجسٌ فظيع.

وحالما لاح له قصر أودِتوري من بعيد، أدرك أن خطبًا قد وقع، إذ لم ير أي إضاءة، ووجد البوابة الأمامية مفتوحة. أسرع وهو يهتف راكضًا: «أبي! فدريكو!».

وجد صالة القصر الكبيرة مظلمة وخالية، لكنه تبيَّن في العتمة طاولات مقلوبة، وكراسي مكسورة، وأواني فخارية وزجاجية مهشمة، ورأى أن شخصًا أنزل لوحات ليوناردو من الجدران ومزقها بسكين. ثمَّ سمع من الظلام بالخلف صوت نشيج، نشيج امرأة، أمه!

وما إن تحرك نحو الصوت أحس بهيئة شخص خلفه، رافعًا شيئًا فوق رأسه، استدار إزيو وأمسك الشمعدان الفضي الثقيل الذي يهوي على رأسه، وجذبه بعنف فتخلَّى عنه مهاجِمه بصرخة ذعر. ألقى الشمعدان بعيدًا وأمسك بذراع مهاجمه، وجذبه نحو مصدر الضوء المتاح شاهرًا خنجره.

«أوه سيدي إزيو، هذا أنت! حمدًا للرب!».

تعرف إزيو على صوت ثمَّ وجه مدبرة المنزل أنيتا، وهي امرأة قروية شديدة البأس تعمل في خدمة العائلة منذ سنوات.

سأل أنيتا وهو يمسك بيديها ويكاد يهزها من شدَّة ارتياعه: «ماذا حدث؟».

- جاؤوا... حرس المدينة، اعتقلوا والدك وفدريكو، وحتى بِتروتشو الصغير انتزعوه من ذراعي أمه!

- أين أمي؟ أين كلوديا؟

«نحن هنا». سُمع صوت من الظلال، ثمَّ ظهرت كلوديا، وأمها مستندة إلى ذراعها. عدل إزيو كرسيًّا لتجلس أمه عليه، وفي الضوء المعتم رأى أن كلوديا تنزف وملابسها متسخة وممزقة. لم تُظهِر ماريا ما يدل على أنها تعرفت على إزيو، جلست على الكرسي وهي تندب وتتمايل، وبين يديها الصندوق الصغير المليء بالريش الذي أعطاه بتروتشو لها قبل يومين، لكن المدَّة بدت دهرًا.

«رباه، كلوديا! أأنت بخير؟». نظر إليها والغضب يجيش بداخله. «هل...؟».

- لا، أنا بخير. عنَّفوني قليلًا ظنًّا أنني قد أخبرهم بمكانك. لكن أمي... أوه إزيو، لقد اقتادوا أبي وفدريكو وبتروتشو إلى القصر القديم.

قالت أنيتا: «أمكما في حالة صدمة، عندما قاومَتهم... أولئك اللقطاء!».

فكر إزيو بسرعة. «لسنا بمأمن هنا، هل من مكان يمكنكِ اصطحابهما إليه يا أنيتا؟».

تكلمت أنيتا بصعوبة مع اختناق صوتها بالخوف والحزن: «نعم، نعم... بيت أختي. ستكونان بأمان هناك».

- يجب أن نتحرَّك بسرعة. سيعود الحراس من أجلي بلا شك. أمي، كلوديا، ينبغي ألَّا نهدر وقتًا، لا تأخذا شيئًا، اذهبا مع أنيتا فحسب، الآن! دعي أمي تستند إليك يا كلوديا.

رافقهما إلى خارج المنزل المنكوب، وهو نفسه لا يزال مصدومًا، وقدَّمهما في الطريق ثمَّ تركهما في رعاية أنيتا المقتدرة الوفية، التي بدأت تتمالك نفسها. تلاطمت في عقل إزيو تعقيدات التطورات الجديدة وما سيترتب عليها، إذ تزعزع عالمه بأكمله. يائسًا حاول تقييم كل ما حدث، ومعرفة ما عليه فعله الآن، ما عليه فعله لإنقاذ والده وشقيقيه... أدرك على الفور أنه عليه إيجاد طريقة لرؤية والده، ليعرف منه سبب هذا الاعتداء الغاشم على العائلة. لكن القصر القديم؟! كان متأكدًا أنهم أودعوا أقاربه الزنازين الصغيرة في البرج. ربما ستسنح له فرصة... لكن المكان محصَّن كقلعة حربية، وسيُضاعَف فيه عدد الحراس الليلة.

مرغِمًا نفسه على الهدوء والتفكير بوضوح، انسل عبر الشوارع إلى ساحة السِنيوريا، *(مقر مسؤولي الحكومة)*، والتصق بجدرانها، ونظر إلى الأعلى، فرأى مشاعل موقدة في فتحات سطح الجدار في قمة البرج، مضيئةً زهرة السوسن الحمراء الضخمة التي تمثِّل شعار المدينة، ورأى الساعة الكبيرة على جانب البرج، وفي نقطة أعلى تبيَّن ضوء شمعة خافت في نافذة صغيرة مزودة بقضبان قريبًا من القمة، كما رأى حراسًا مرتكزين خارج بوابة القصر الضخمة، ومزيدًا منهم عند الفتحات التي على سطح الجدار، لكن إزيو لم ير حارسًا على قمة البرج، الذي كانت فتحاته أعلى من مستوى النافذة التي يريد بلوغها.

عبَر الساحة مبتعدًا عن القصر، ووجد طريقه إلى شارع ضيق متفرع من الساحة، بمحاذاة الجانب الشمالي من القصر. ومِن حسن الحظ كان الناس لا يزالون يتجوَّلون، مستمتعين بهواء المساء، وبدا لإزيو أنه خرج فجأة إلى عالم مختلف عن عالمهم، وأنه فقد كل صِلاته بالمجتمع الذي كان منغمسًا فيه قبل ثلاث أو أربع ساعات. انزعج من فكرة أن حياة كل أولئك الناس مستمرة بروتينها الرتيب، بينما تشظَّت حياته وحياة عائلته. ومجددًا أحس بقلبه ينقبض بموجة غضب وخوف شديدين. لكنه أعاد عقله إلى المهمَّة التي بين يديه، وارتسمت على وجهه ملامح الحزم.

وجد الجدار فوقه عاليًا إلى درجة تسبِّب الدوار، لكنه رأى الظلام حليفًا له، كما رأى أن الحجارة التي شيد بها القصر غير ملساء وستعينه على التسلُّق. ثمَّ أدرك أنه قد يواجه مشكلة في حال تمركز أي حراس على الجدران الشمالية، لكن رأى ألا يشغل باله بهم ويتعامل معهم عندما يجدهم، وتمنى أن يكون معظمهم مجتمعين على امتداد واجهة المبنى عند الناحية الغربية.

أخذ نفسًا ونظر في ما حوله، فلم ير أحدًا في الشارع المظلم، وقفز متشبثًا بالجدار بقوة بيديه وحذائه الجلدي الناعم، وبدأ يتسلق.

وحالما بلغ فتحات الجدار التي تُطلق منها السهام، انخفض إلى وضعية القرفصاء متحفزًا، رأى حارسين، لكنهما يوليانه ظهره وينظران إلى الساحة المضاءة بالأسفل. لبث إزيو ساكنًا هنيهة، حتَّى تأكد من أن أي صوت أصدره لم ينبِّه الحارسين إلى وجوده. ثمَّ انطلق منخفضًا نحوهما، وهاجمهما، جذبهما من عنقيهما بذراعيه، مستغلًا وزنيهما وعنصر المفاجأة، فأسقطهما على ظهريهما، وبلمح البصر نزع خوذتيهما وخبط رأسيهما ببعضهما بعنف، فغابا عن الوعي قبل أن ترتسم الدهشة على وجهيهما. وكان إزيو يعرف أنه إذا لم ينجح ما فعله، لما وجد خيارًا سوى نحْرهما دون تردد.

توقَّف ساكنًا مرَّة أخرى، لاهثًا. ثمَّ قرر التوجه إلى البرج، ووجد حجارته ملساء نسبيًّا، ستصعِّب مهمته، والأصعب أنه سيضطر إلى الدوران من جانب البرج الشمالي إلى الغربي، حيث توجد نافذة الزنزانة التي يقصدها. ابتهل ألَّا ينظر أحد من الساحة أو الجدران إلى أعلى، إذ لم يحب فكرة أن يُسقَط بسهم قوس نشَّاب بعدما بلغ هذا الحد.

الزاوية التي يلتقي عندها الجداران الشمالي والغربي وجدها عسيرة، وللحظة علِق متسمِّرًا، باحثًا عن شق يضع فيه يده أو موطئ قدم. ثمَّ نظر

إلى الأسفل، فرأى على الجدران البعيدة أحد الحراس يرفع بصره، ورأى إزيو الوجه الشاحب بوضوح، ورأى عيني الرجل. التصق بالجدار. بملابسه الداكنة تخيل أنه سيبدو واضحًا كصرصار على غطاء مائدة أبيض. بيد أن الرجل خفض بصره وواصل سيره على نحو يتعذر تفسيره. ألم يره؟ أم لم يصدق ما رأته عيناه؟ انقبض حلق إزيو من جهده وتوتره، ولم يتمكَّن من الاسترخاء والتنفس إلَّا بعد مُضي دقيقة طويلة.

وبعد مجهود خارق وصل إلى هدفه، وامتنَّ لوجود إفريز ضيق، وقف عليه وهو ينظر إلى الزنزانة الضيقة خلف النافذة. قال مع نفسه إن الرب رحيم، إذ تعرَّف على هيئة والده وهو يوليه ظهره، وبدا كأنه يقرأ مستعينًا بضوء الشمعة الخافت.

ناداه بصوت خافت: «أبي!».

التفت جيوفاني بسرعة. «إزيو! باسم الرب كيف...!».

«لا تشغل بالك يا أبي». وعندما اقترب جيوفاني من النافذة رأى إزيو يديه داميتين وتغطيهما الكدمات ووجهه شاحب ذابل. «رباه، ماذا فعلوا بك يا أبي؟».

- تعرضت لشيء من الضرب، لكنني بخير، الأهم هو كيف حال أمك وأختك؟
- بأمان الآن.
- مع أنيتا؟
- نعم؟
- حمدًا للرب.
- ماذا حدث يا أبي؟ هل كنت تتوقَّع هذا؟
- ليس بهذه السرعة. اعتقلوا فدريكو وبتروتشو أيضًا، أظنهما في الزنزانة التي خلف هذه. كان يجدر بي اتخاذ احتياطات.
- عن ماذا تتحدَّث؟

«لا وقت الآن». كاد جيوفاني أن يصرخ. «اسمعني جيدًا، عليك أن تعود إلى منزلنا. ثمَّة باب خفي في مكتبي، يؤدِّي إلى حجرة سرية ستجد فيها صندوقًا، خذ كل ما تجده في الصندوق، أتسمعني؟ *كل شيء!* معظم الأشياء ستبدو لك غريبة، لكن جميعها مهمَّة».

«كما تأمر يا أبي». حرك إزيو وزنه قليلًا وهو لا يزال متشبثًا بقضبان النافذة. لم يجرؤ على النظر إلى الأسفل، ولم يعرف إلى متى سيتمكّن من الوقوف بلا حراك.

- ضمن محتويات الصندوق ستجد رسالة ومعها بعض الوثائق، عليك أن تأخذها دون تأخير، الليلة، إلى السيد ألبرتي.

- رئيس القضاة؟

- بالضبط. والآن اذهب!

«لكن يا أبي...». وجد إزيو صعوبة في الكلام، تمنّى لو أمكنه فعل ما هو أكثر من مجرَّد نقل وثائق، وتلعثم: «هل آل باتزي هم من دبَّروا هذا؟ قرأتُ الرسالة التي أخذتها من الحمامة الزاجلة، ذُكِر فيها...».

عندئذٍ أسكته جيوفاني، وسمع إزيو مفتاحًا يدور في قفل باب الخزانة.

قال جيوفاني متجهمًا: «سيقتادونني للاستجواب. ابتعد قبل أن يكتشفوا أمرك. رباه، إنك فتى شجاع، سوف تكون جديرًا بمصيرك. والآن، للمرَّة الأخيرة، اذهب!».

تحرَّك إزيو مبتعدًا عن الإفريز، وتشبث بالجدار بعيدًا عن النافذة وهو يسمع اقتياد والده. لم يُطِق سماع ما يحدث. ثمَّ تجلَّد استعدادًا للهبوط. كان يعرف أن الهبوط أصعب من الصعود، لكن في خلال الساعات الثماني وأربعين الأخيرة فحسب اكتسب خبرة كبيرة في تسلّق المباني صعودًا وهبوطًا. والآن تسلق هابطًا من البرج، انزلق بضع مرات، لكنه استعاد ثباته، حتَّى بلغ سطح الجدار، حيث يستلقي الحارسان كما تركهما. ضربة حظ أخرى! كان قد ضرب رأسيهما معًا بكل ما لديه من قوة، لكن إذا كانا قد استعادا وعيهما وهو ما زال في قمة البرج وأطلقا الإنذار... لم يحتمل إزيو التفكير في العواقب.

وبالفعل لم يكن أمامه وقت للتفكير في هكذا أشياء. مال فوق فتحات رمي السهام ونظر إلى الأسفل. عامل الوقت كان مهمًّا. فكر في أنه إذا رأى شيئًا يمكن أن يخفف من شدَّة هبوطه على الأرض، فربما يتجاسر على القفز. وبعدما تكيفت عيناه مع العتمة رأى ظُلَّة كشك مهجور ملتصق بالجدار بعيدًا بالأسفل. أينبغي أن يخاطر؟ إذا نجح فسيكسب بضع دقائق ثمينة، وإذا فشل فستكون ساقه المكسورة أهون مشكلاته. لم يجد خيارًا سوى أن يثق بنفسه.

أخذ نفسًا عميقًا، وغاص في الظلام.

انهارت الظُّلَّة تحت وزنه إثر هبوطه من الارتفاع العالي، لكنها كانت مثبتة بإحكام فوفرت المقاومة اللازمة لتخفيف سرعة السقوط. ترنَّح إزيو قليلًا،

وأدرك أنه سيجد في الصباح عددًا من ضلوعه تغطيها الكدمات. لكنه نجح في الهبوط! ولم يُطلَق أي إنذار.

نفض نفسه وهرول متجهًا إلى ما كان منزله قبل ساعات. وعندما وصل أدرك أن والده في خضم عجلته لم يخبره بمكان الباب السري. جوليو سيعرف، لكن أين جوليو الآن؟

من حسن الحظ لم يكن ثمَّة حراس يجوسون في محيط المنزل، فوصل إزيو إليه دون صعوبة، ثمَّ توقَّف أمام الباب لمدَّة دقيقة، غير قادر على حمل نفسه على اجتياز ظلام المدخل، بدا المنزل له كأنه تغير، ودُنِّست حُرمته. ومجددًا تعيَّن على إزيو استجماع شتات أفكاره، مدركًا أن مهمته الحالية في غاية الأهمية، إذ صارت عائلته تعتمد عليه. اندفع داخل المنزل، إلى الظلام، ثمَّ وقف في المكتب، الذي تضيئه شمعة واحدة إضاءة شاحبة مقلقة، ونظر في ما حوله.

قلب الحراس المكان رأسًا على عقب، وبدا واضحًا أنهم صادروا عددًا كبيرًا من الوثائق المصرفية. كما إن فوضى خزانات الكتب المتساقطة، والكراسي المقلوبة، والأدراج الملقاة على الأرض، والأوراق والكتب المبعثرة في كل مكان –لم تسهِّل مهمَّة إزيو. لكنه كان يعرف المكتب، وبصره حاد. لجأ إلى ذكائه. كانت الجدران سميكة، أي يمكن أن يُخفي أي جدار حجرة بداخله. لكن إزيو اتجه إلى الجدار الذي شيد فيه المستوقد الضخم وبدأ البحث منه، حيث تبلغ الجدران أقصى سُمكها حتَّى تضم قاعدة المدخنة. قرَّب الشمعة ودقق النظر وهو يصيخ سمعه تحسُّبًا لعودة الحراس. وأخيرًا، على الجانب الأيسر من إطار المستوقد، خُيِّل له أنه رأى خطًا باهتًا يمثِّل معالم باب مثبَّت في الألواح الخشبية التي تزين الجدران. لا بُدَّ من وجود وسيلة قريبة لفتحه. نظر بعناية إلى التمثالين المنحوتين بحيث يُثبَّت إطارُ المستوقد الرخامي على كتفيهما، بدا أنف الذي إلى اليسار كأنه كُسِر وأُصلِح، إذ ظهر شق رفيع حول قاعدته. لمس إزيو الأنف فوجده غير ثابت قليلًا، وبقلب خافق حرَّكه برفق، فتحرك الباب إلى الداخل بدفع من مفاصل صامتة مزودة بزنبرك، كاشفًا عن دهليز ذي أرضية حجرية يفضي إلى اليسار.

وعند دخوله تعثرت قدمه اليمنى بلوح حجري هبط إلى الأسفل، وإثر حركته أُضيئت فجأة مصابيح زيت مثبتة على جدران الدهليز. امتد الدهليز مسافة قصيرة منحدرًا إلى الأسفل قليلًا، وانتهى بحجرة دائرية ديكورها لا يشبه الديكور الإيطالي المعتاد، إنما أقرب إلى السُّوري، فومضت في عقل إزيو صورة **قلعة مصياف** المعلقة في مكتبة والده الخاصة، وقد كانت

القلعة معقل **جماعة الحشّاشين** القديمة. لكن لم يكن لديه وقت للتفكير في ما إذا كان الديكور ذا أهمية خاصة. لم تكن الحجرة مؤثثة، وفي مركزها صندوق ضخم مدعم بالحديد وموصد بإحكام بقفلين ثقيلين. نظر إزيو في أنحاء الحجرة بحثًا عن مفتاح ربما يكون في أي مكان، لكن ما عدا الزينة بدت الحجرة خالية. ثمَّ بدأ يتساءل عمَّا إذا عليه العودة إلى المكتب أو الذهاب إلى مكتبة والده ليبحث هناك، وعما إذا لديه وقت يتيح له مزيدًا من البحث، وبالمصادفة لامست يده أحد القفلين، فانفتح، وانفتح الآخر أيضًا بسهولة. هل منحه والده قوةً ما؟ هل القفلان مُجهَّزان بطريقةٍ ما بحيث يستجيبان للمسة شخص بعينه؟ تتلاطم الألغاز، لكن ما من وقت للتفكير فيها.

فتح الصندوق فرأى أنه يحتوي على قلنسوة بيضاء، بدا جليًّا أنها قديمة، مصنوعة من مادة صوفية لم يميزها، واعترت إزيو رغبة غامضة في ارتداء القلنسوة، وحالما وضعها على رأسه سَرَت في جسده قوةٌ غريبة. ثمَّ انزل القلنسوة من رأسه، لكنه لم ينزعها.

ووجد في الصندوق أيضًا واقي ذراع جلدي، ونصل خنجر مشقوق غير متصل بمقبض، إنما بآلية غريبة عجز إزيو عن استيعاب طريقة عملها. ووجد سيفًا، وصفحة من الرَّق عليها حروف ورموز وما بدا كجزء من مخطط، والرسالة والوثائق التي أمره والده بأخذها إلى أوبرتو ألبرتي. جمعَ كل الأشياء، وأغلق الصندوق، وعاد إلى مكتب والده، وأغلق الباب السري خلفه بعناية. وفي المكتب وجد حقيبة وثائق ملقاة كان يملكها جوليو، ووضع محتويات الصندوق فيها وعلَّقها على صدره، وربط حزام السيف حول خصره. ومن ثَم، جاهلًا بالمغزى من مجموعة الأشياء الغريبة هذه، وليس لديه الوقت للتفكير في سبب احتفاظ والده بهكذا أشياء في حجرة سرية –سار عائدًا بحذر إلى بوابة القصر الرئيسية.

لكن ما إن وصل إلى الفناء الأمامي، رأى اثنين من حرس المدينة داخلين إلى القصر، ورأياه أيضًا ففات أوان الاختباء.

صاح أحدهما: «قِف!»، وتقدما نحوه بسرعة. لم يكن ثمَّة مجال للانسحاب، ورأى إزيو أنهما استلَّا سيفهما سلفًا.

«لماذا جئتما؟ لتعتقلاني؟».

قال الذي تكلم أولًا: «لا. أُمِرنا بقتلك». وهاجم الحارس الثاني إزيو.

استلَّ إزيو سيفه واشتبك مع الحارس، وكان السيف سلاحًا لم يعتَده، لكنه أحسَّ به خفيفًا مطاوِعًا في يده، كأنه ظل يقاتل به طوال حياته. صدَّ

الضربات الأولى، يمينًا ويسارًا، وكلا الحارسين يهاجمه في الوقت نفسه. تطاير الشرر من السيوف الثلاثة، لكن إزيو أحس بنصله صلدًا، شفرته حادَّة باترة. أوشك الحارس الثاني على أن يهوي بسيفه ليفصل ذراع إزيو عن كتفه، لكن إزيو راوغ إلى اليمين، أسفل السيف، واعتدل وهاجم، فتفاجأ الحارس وفقد توازنه إثر ارتطام ذراعه التي تحمل السيف بكتف إزيو، الذي استغل زخم اندفاعه ليسدد طعنة إلى الأعلى اخترقت قلب الرجل، ثمَّ اعتدل واقفًا ورفع قدمه اليسرى دافعًا الحارس الميت حتَّى يستل سيفه، واستدار بسرعة ليواجه الحارس الآخر، الذي اندفع مزمجرًا شاهرًا سيفه الثقيل. «استعد للموت أيها الخائن!».

- لستُ خائنًا، ولا أحد من عائلتي خائن.

سدد الحارس ضربة، فمزق كُم قميص إزيو الأيسر وأصابه بجرح طفيف، أجفل إزيو لكن لثانية فحسب. وعاود الحارس الهجوم مستغلًا الفرصة، فتركه إزيو يندفع إلى الأمام، وتراجع هو خطوة، وعرقله بقدمه، وهوى بضربة قوية على عنق الحارس المترنح، فقطع رأسه قبل ارتطامه بالأرض.

وقف إزيو مرتعشًا هنيهة في الصمت المفاجئ الذي أعقب القتال، لاهثًا. هذان الاثنان أول مَن يقتلهما في حياته. لكن هل هذا صحيح؟ إذ أحس في دواخله بأنه عاش حياة أخرى أقدم، حياة بدا له أنه كان متمرسًا فيها على القتل لسنوات عديدة.

وقد أخافه هذا الإحساس. كاد أن يشيب من أهوال هذه الليلة. لكن هذا الإحساس الجديد بدا كأنه نداء بعث لقوى مظلمة في أعماقه الدفينة، ليس مجرَّد أثر للأحداث المروعة التي وقعت في الساعات القليلة الماضية. تهدَّل كتفاه وهو يسير عبر الشوارع المظلمة إلى قصر ألبرتي، وظل يجفل من أي صوت، ويتلفت حوله باستمرار. بلغ الإرهاق منه كل مبلغ، لكنه استطاع التحمل بطريقةٍ ما، وأخيرًا وصل إلى بيت رئيس القضاة. رفع بصره إلى واجهة المبنى، فرأى ضوءًا خافتًا خلف إحدى النوافذ الأمامية. طرق على الباب بقوة مستخدمًا مقبض سيفه.

لم يجبه أحد، وتملَّكه النَّزَق ونفاد الصبر، فطرق مرَّة أخرى طرقًا أعنف وأعلى. ما من مُجيب.

وبعد المحاولة الثالثة، فُتحت كوة في الباب لوهلة وجيزة وأُغلِقت، وفُتِح الباب سريعًا. رحَّب بإزيو خادمٌ مسلح مرتاب، وتلعثم إزيو بالغرض من مجيئه، فاقتاده الخادم إلى غرفة في الطابق الأول حيث يجلس ألبرتي إلى

مكتب مغطى بالأوراق، وخلفه خُيِّل إلى إزيو أنه رأى رجلًا طويلًا قويًا، لم يبدُ منه سوى جانب وجهه فلم يميزه.

نهض ألبرتي متفاجئًا. «إزيو؟ ماذا تفعل هنا في هذه الساعة؟».

- لــ... لا أ...

اقترب ألبرتي منه ووضع يده على كتفه. «مهلًا يا بُني، استرح واستجمع أفكارك».

أومأ إزيو. شعر بشيء من الأمان، والهشاشة أيضًا، من تأثير الأحداث المتلاحقة منذ خروجه لتوصيل رسائل والده. ثمَّ عرف من ساعة نحاسية على المكتب أن الوقت قريب من منتصف الليل. هل يُعقَل أن اثنتي عشر ساعة فقط انقضت منذ أن خرج إزيو الفتى مع والدته لجلب اللوحات من استوديو رسام؟ أحس بأنه على وشك البكاء رغمًا عن نفسه، لكنه تمالك نفسه، وتكلم إزيو الرجل: «سُجِن أبي وأخواي، لا أدري بأمر مَن، وأمي وأختي مختبئتان، وقصر عائلتنا خُرِّب ونُهب. كلَّفني أبي بتوصيل هذه الرسالة والأوراق إليك...» أخرج الوثائق من جرابه.

قال ألبرتي: «شكرًا لك»، ووضع نظارة وقرَّب رسالة جيوفاني إلى شمعة على مكتبه. كانت الغرفة غارقة في صمت مطبق ما عدا تكّات الساعة وطقطقة الجمرات في المستوقد من حين إلى آخر. وإذا كان ثمَّة وجود لشخص آخر في الغرفة، فقد نسيه إزيو.

حوَّل ألبرتي انتباهه إلى الوثائق، واستغرق وقتًا في قراءتها بتأنٍّ، ثمَّ وضع إحداها خلسة داخل صدريته السوداء، وأزاح الأخريات جانبًا بعناية، بعيدًا عن الأوراق التي على مكتبه.

قال وهو ينزع نظارته: «وقع سوء تفاهم فظيع يا عزيزي إزيو. صحيحٌ أنه وُجِّهت اتهامات، اتهامات خطِرة، وستُعقد محاكمة صباح الغد. لكن يبدو أن شخصًا ما، لأسباب تخصه، مفرط التعصب. لا تقلق، سوف أسوِّي كل شيء».

لم يتجاسر إزيو على تصديقه. «كيف؟».

- الوثائق التي أحضرتَها فيها دليل على مؤامرة ضد والدك وضد المدينة. سأقدم هذه الأوراق في جلسة الاستماع في الصباح، وسيُطلَق سراح جيوفاني وشقيقيك. أضمن لك هذا.

أحس الشاب بالارتياح يغمره، وصافح رئيس القضاة بحرارة. «كيف عساي أن أشكرك؟».

«إقامة العدالة وظيفتي يا إزيو، وأتولاها بجدية شديدة، و...» تردد لكسر من الثانية. «... والدك أحد أعز أصدقائي». ابتسم ألبرتي. «أين آداب لياقتي؟ لم أقدم لك كأس نبيذ... وأين ستمضي الليلة؟ ما زال أمامي عمل مستعجل، لكن خدمي سيوفرون لك طعامًا وشرابًا وفراشًا دافئًا».

***

ساعتها لم يعرف إزيو سبب رفضه لذلك العرض اللطيف.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بمدة عندما غادر إزيو قصر رئيس القضاة. رفع قلنسوته مجددًا، وجال في الشوارع محاولًا ترتيب أفكاره. وعلى الفور عرف المكان الذي تأخذه قدماه إليه.

وحالما بلغ وجهته، تسلق إلى الشرفة بسهولة لم يتخيَّل أنها ممكنة. ربما أمدَّ وضعُه الحرجُ عضلاتَه بالقوة. طرق برفق على مصراعي النافذة، ونادى بصوت خافت: «كرستينا! حُبِّي! استيقظي». انتظر صامتًا كقط، وأصاخ سمعه، فسمعها تتحرَّك في فراشها وتنهض، ثمَّ جاء صوتها مشوبًا بالخوف من خلف المصراعين: «من أنت؟».

- إزيو.

فتحت المصراعين بسرعة. «ماذا حدث؟ ما الخطب؟».

- أدخليني من فضلك.

جالسًا على فراشها روى لها القصة كلها.

قالت: «كنتُ أعرف أن خطبًا ما وقع، بدا أبي مشغول البال مساء اليوم. لكن يبدو أن كل شيء سيكون على ما يرام».

«أرجو منك أن تسمحي لي بالمكوث هنا الليلة. لا تقلقي، سأغادر قبل الفجر. وأريد منك أن تحتفظي لي بشيء». أخرج جرابه ووضعه بينهما. «لا بُدَّ أن أثق بك».

- أوه إزيو، لك أن تثق بي بالطبع.

نام بين ذراعيها نومًا مضطربًا.

4

ذات صباح غائم، والمدينة مختنقة بحرارة رطبة احتجزتها الغيوم العالقة في السماء، وصل إزيو إلى ساحة السِنيوريا، وتفاجأ بوجود حشد كثيف، ورأى منصة منصوبة، وفوقها طاولة مغطاة بنسيج ثقيل منقوش عليه شعار المدينة، وخلف الطاولة يقف أوبرتو ألبرتي ورجل فارع الطول قوي البنية ذو أنف حاد وعينين حذرتين ثاقبتين ويرتدي عباءة قرمزية، لم يعرفه إزيو، لكن استرعى انتباهه الآخرون الواقفون على المنصة، والده وشقيقاه، جميعهم مقيدون بالأغلال، وخلفهم نُصِب هيكل مرتفع يحمل عارضة ضخمة تتدلى منها ثلاث أُنشوطات.

كان إزيو قد وصل إلى الساحة مُفعمًا بتفاؤل يشوبه قلق. ألم يخبره رئيس القضاة بأن الأمر برمَّته سوف يُسوَّى اليوم؟ والآن تغيرت مشاعره. ثمَّة خطب ما، خطب جلل. حاول شق طريقه إلى الأمام، لكنه عجز عن اختراق الحشد، وأحس بخوفه المَرَضي من الأماكن الضيقة يكاد يخنقه. توقَّف محاولًا تهدئة نفسه، والتفكير مليًّا في ما عليه فعله، ثمَّ رفع قلنسوته فوق رأسه، وعدَّل سيفه المعلق من حزامه. لا يُعقل أن يخذله ألبرتي! طوال الوقت لاحظ إزيو أن الرجل الطويل، الذي يبدو إسبانيًّا من ملابسه وسحنته، يجول بعينيه الثاقبتين بين الحشد. مَن هو؟ لماذا حرك شيئًا في ذاكرة إزيو؟ هل رآه في مكانٍ ما من قبل؟

تقدم رئيس القضاة، متألقًا بعباءة مَنصِبه، ورفع ذراعيه لتهدئة الناس، فخيَّم صمت مطبق في الحال.

«جيوفاني أودِتوري..»، تكلم ألبرتي بنبرة آمِرة لكن إزيو لمس فيها شيئًا من الخوف. «أنت وشركاؤك مُتَّهمون بجريمة الخيانة. ألديك أي دليل يدحض هذا الاتهام؟».

بدا جيوفاني متفاجئًا منزعجًا. «نعم، لديك جميع الأدلة في الوثائق التي أُوصِلت لك ليلة أمس».

لكن ألبرتي قال: «لا أعرف شيئًا عن الوثائق التي تتكلَّم عنها يا أودِتوري».

أدرك إزيو فورًا أن هذه محاكمة صورية، لكنه عجز عن استيعاب ما بدا كخيانة سافرة من جانب ألبرتي، فصاح: «هذا كذب!»، لكن صوته تلاشى في خضم هدير الحشد. جاهد ليقترب من المنصة، دافِعًا المواطنين الغاضبين جانبًا، لكنهم كانوا كُثُر، وظل عالقًا وسطهم.

تكلم ألبرتي مرَّة أخرى: «جمعنا الأدلة التي ضدك ونظرنا فيها، ووجدناها دامغة. وفي غياب أي دليل يثبت العكس، فإنني مُلزَم بحكم منصبي بإعلان أنك وشركاؤك -فدريكو وبتروتشو، وإزيو غيابيًّا- مذنبون في التُّهمة الموجهة إليكم». توقَّف وخيم الصمت على الحشد مجددًا. «وعليه أحكم عليكم جميعًا بالموت. ستنفَّذ العقوبة فورًا!».

ارتفع هدير الحشد مجددًا. وإثر إشارة من ألبرتي، جهَّز الجلاد الأنشوطات، بينما أخذ اثنان من مساعديه بتروتشو الصغير، الذي كان يقاوم دموعه، إلى المشنقة، ووضعا الحبل حول عنقه وهو يبتهل متلهفًا والقس ينثر الماء المقدس على رأسه. ثمَّ جذب الجلَّاد ذراع المشنقة، فتدلى الصبي وراح يركل الهواء حتَّى صار هامدًا. حرك إزيو شفتيه دون أن يصدر صوتًا: «لا!»، عاجزًا عن تصديق ما يراه. «لا! رباه، لا!». لكن حلقه غص بكلماته، وشلَّته صدمة الفقد.

كان التالي فدريكو، ظل يصيح ببراءته وبراءة عائلته، محاولًا بلا جدوى التملص من الحراس الذين يقتادونه عنوة نحو المشنقة. فقد إزيو صوابه، وحاول يائسًا التحرُّك إلى الإمام مرَّة أخرى، رأى دمعة وحيدة تنحدر على خد والده الشاحب. مرتاعًا شاهد إزيو شقيقه الأكبر وصديقه الحميم يرتج عند نهاية الحبل. استغرق رحيله عن العالم مدَّة أطول، لكنه همد أخيرًا، متأرجحًا أسفل المشنقة، التي أصدرت عارضتها الخشبية صريرًا في الصمت. صارع إزيو مشاعر عدم التصديق. هل يحدث هذا حقًّا؟

سرت همهمَّة وسط الحشد، ثمَّ أخمدها صوت قوي. كان جيوفاني أودتوري يتكلَّم: «أنت الخائن يا أوبرتو، أنت، أحد أقرب أصدقائي الذين ائتمنتهم على حياتي! وقد كنتُ مغفلًا، لم أدرك أنك واحد منهم!». رفع صوته بصيحة غضب وكرْب شديدين. «أنهيت حيواتنا اليوم، لكن صدقني، سوف ننهي حياتك بالمقابل!».

أحنى رأسه مطرقًا. ثمَّ ساد صمت مطبق لا تخدشه سوى همهمات القس وجيوفاني أودتوري يسير مرفوع الرأس إلى المشنقة ليُسلِم روحه.

حالت الصدمة دون إحساس إزيو بالحزن في البداية، كأنما هوت عليه قبضة فولاذية عملاقة. لكن حالما فُتحت الكوة أسفل والده، لم يتمالك نفسه، وصاح بصوت متهدِّج: «أبي!».

وعلى الفور وقعت عليه عينا الإسباني. هل يتسم بصر هذا الرجل بسمة خارقة للطبيعة حتَّى يميِّزه بين هذا الحشد الهائل؟ رأى إزيو الإسباني يميل نحو ألبرتي، ويهمس له ويشير.

«أيها الحراس!». صاح ألبرتي وهو يشير أيضًا. «هناك! إنه واحد منهم أيضًا، اقبضوا عليه!».

قبل أن تطبق لجة حشد الناس عليه، شق إزيو طريقه نحو الطرف بالقوة، وانهال بقبضتيه على كل من اعترض طريقه. كان أحد الحراس في انتظاره، انقض على إزيو وسحب قلنسوته عن رأسه، فاستجاب إزيو لغريزةٍ ما بداخله فاستلَّ سيفه بيد، وبالأخرى أمسك الحارس من عنقه. كانت ردة فعل إزيو أسرع بكثير ممَّا توقَّعها الحارس، وقبل أن يتمكَّن من رفع ذراعيه ليدافع عن نفسه، شدَّد إزيو قبضته على العنق والسيف، وطعن الحارس بحركة سريعة، محركًا السيف إلى الأسفل عندما سحبه فاندلقت أحشاء الحارس على حجارة الرصف. ثمَّ ألقى الجثة جانبًا، واستدار إلى المنصة ناظرًا إلى ألبرتي، وصاح بصوت مرتعش من الغضب والكراهية: «سوف أقتلك انتقامًا لما فعلتَه!».

اقترب منه حراس آخرون، وتغلبت عليه غريزة البقاء، فأسرع مبتعدًا عنهم إلى الشوارع الضيقة الآمنة نسبيًّا خلف الساحة، وأُحبط عندما رأى حارسين آخرين يهرعان ليقطعا طريقه.

توقَّفوا عند طرف الساحة. واجهه الحارسان قاطعان طريق هروبه، واقترب الآخرون من خلفه. قاتلهم إزيو قتالًا مسعورًا، ثمَّ سقط سيفه من يده

إثر حركة دفاعية من أحدهم، فخشي أن تكون هذه نهايته واستدار ليهرب من مهاجميه، لكن قبل أن يطلق ساقيه للريح، حدث أمر مذهل. من الشارع الضيق الذي همَّ إزيو بالركض إليه، على بُعد بضعة أمتار منه، ظهر رجل يرتدي ملابس خشنة، وبسرعة البرق انقض على الحراس من الخلف، مستخدمًا خنجرًا طويلًا شلَّ الأذرع التي تحمل السيوف بتمزيق أوتارها. تحرك بسرعة بالغة إلى درجة عجز إزيو عن تتبُّع حركاته. التقط سيف الشاب وألقاه له. وفجأة تعرف إزيو على الرجل، واشتم مرَّة أخرى رائحة البصل والثوم، التي بدت عندئذٍ أزكى من شذا الورد الدِّمشقي.

قال الرجل: «ابتعد من هنا»، ثمَّ اختفى هو أيضًا.

انطلق إزيو في الشارع، ومال عنه إلى الأزقة التي يعرفها كما يعرف راحة يده من غزواته الليلية مع فدريكو. تلاشت صيحات المطاردة خلفه. ثمَّ اتجه نحو النهر، ووجد ملاذًا في كوخ مُراقِب مهجور خلف مخزن يملكه والد كرستينا.

في تلك الساعة لم يعد إزيو صبيًّا وصار رجلًا. أحس بعبء مسؤولية الانتقام وتصحيح الوضع كعباءة ثقيلة على كاهله.

تهالك على كومة جوالات مهملة، وأحس بجسده كله يرتعش. تداعى عالمه بأكمله. والده... فدريكو... و، رباه، لا، بتريتشيو الصغير... جميعهم رحلوا، ماتوا، قُتلوا. انهار واضعًا يديه على رأسه، عاجزًا عن السيطرة على جيشان حزنه وخوفه. لم يتمكَّن من إبعاد يديه عن وجهه إلا بعد عدَّة ساعات، وقد احتقنت عيناه بالدماء واتَّقَدَتا بمقْتٍ مرير. عندئذٍ أدرك إزيو أن حياته السابقة انتهت، وأن إزيو الفتى مات إلى الأبد، وأدرك أن حياته صارت لها غاية واحدة، غاية واحدة فقط –الانتقام.

***

في وقت متأخر من اليوم، مدركًا تمام الإدراك أن الحراس لا يزالون يبحثون عنه دون كلل أو ملل، اتجه إزيو عبر الأزقة الخلفية إلى قصر عائلة كرستينا، لم يرغب في تعريضها لأي خطر، لكن تعيَّن عليه أخذ جرابه بمحتوياته الثمينة. انتظر في تجويف مظلم في جدار تفوح منه نتانة البول، وظل ساكنًا حتَّى عندما تراكضت الجرذان عند قدميه، إلى أن عرف من ضوء عبر نافذة غرفة كرستينا أنها أوت إلى فراشها.

«إزيو!». صاحت عندما رأته على شرفة غرفتها. «حمدًا للرب أنك حي». غمر الارتياح وجهها، لكن لوهلة وجيزة، واكتست تعابيرها بالحزن. «والدك، وشقيقاك...». عجزت عن إنهاء كلامها، وطأطأت رأسها.

احتضنها إزيو، ولعدة دقائق ظلا متعانقين فحسب.

وأخيرًا ابتعدت عنه. «إنك مجنون! لماذا لا تزال في فلورنسا؟».

قال مغتمًا: «عليَّ تولِّي بعض الأمور. لكن ليس بوسعي البقاء هنا مدَّة طويلة، سأعرض عائلتك لخطر داهم. إذا ظنوا أنكم تؤوني...».

لاذت كرستينا بالصمت.

«أعطني حقيبتي وسأذهب».

جلبتها له، لكن قبل أن تناولها له قالت: «ماذا عن أسرتك؟».

- هذا واجبي الأول. عليَّ أن أدفن موتاي. لن أحتمل إلقاءهم في قبر جماعي كالمجرمين.

- أعرف مكانهم.

- كيف؟

- لم يكُف الناس عن الحديث عنهم طوال اليوم. لكن لن يكون هناك أحد الآن. جثامين والدك وشقيقيك بجوار بوابة سان نيكولو، مع جثث المشرَّدين. أعدُّوا حفرة هناك، وينتظرون وصول عربات الحجر الكلسي في الصباح. آه، إزيو!..

تكلَّم إزيو مفجوعًا لكن بهدوء:

- لا بُدَّ أن أحرص على مغادرة أبي وشقيقي ظهر الأرض مغادرة لائقة. ليس بمقدوري أن أقيم لهم قداسًا مهيبًا، لكن بوسعي أن أجنِّب جثامينهم الإهانة.

- سأذهب معك!

- لا! أتدركين ما سيحدث إذا قُبِض عليكِ معي؟

خفضت كرستينا عينيها، وأردف إزيو: «وعليَّ الحرص على سلامة أمي وأختي أيضًا». تردد قليلًا ثمَّ تابع: «سأغادر إذن، وربما لن أعود أبدًا. السؤال هو... هل ستغادرين معي؟».

تراجعت كرستينا، ورأى إزيو جمهرة مشاعر متصارعة في عينيها، رأى فيهما الحب، حب عميق راسخ. لكن إزيو نضج أكثر منها بكثير منذ أول مرَّة تعانقا فيها. لا تزال كرستينا فتاة صغيرة، فكيف يتوقَّع منها الإقدام على مثل هذه التضحية الكبيرة؟ «أرغب يا إزيو، إنك لا تعرف مدى رغبتي... لكن عائلتي... سيُفجَع والداي...».

نظر إزيو إليها بعطف. رغم أنهما في السن نفسها، فما مر به مؤخرًا جعله أكثر نضجًا منها بكثير. لم تعد لديه عائلة يعتمد عليها، لم تعد لديه سوى المسؤوليات والواجبات، كلها شاقة. «أخطأتُ بطلبي منك مرافقتي. وربما... من يدري، عندما نتجاوز كل شيء...». رفع يده إلى عنقه، ومن طيات ياقته أخرج سلسلة ذهبية في طرفها قلادة فضية ثقيلة، ونزعها. كانت القلادة تحمل نقشًا بسيطًا، الحرف 'أ' الذي يمثل اسم عائلته. «أريد منك الاحتفاظ بهذه. خذيها، أرجوك».

بيدين مرتعشتين أخذتها وهي تنشج نشيجًا خافتًا. نظرت إلى القلادة، ثمَّ رفعت بصرها إلى إزيو، لتشكره، وتقدِّم مزيدًا من الأعذار.

لكنه اختفى.

***

على الضفة الجنوبية من نهر أرنو، بجوار بوابة سان نيكولو، وجد إزيو المكان الكئيب الذي رُصفت فيه الجثث بجوار حفرة واسعة، ورأى حارسين يبدوان مجندين جديدين مثيرين للشفقة يتجوَّلان على مقربة، يكادان يجُرَّان حربتيهما على الأرض جرًّا. ثار غضب إزيو عند رؤيتهما، واجتاحته رغبة غريزية في قتلهما، لكن الموت الذي شهده اليوم كان كافيًا له، وهذان الحارسان مجرَّد فتيان من الريف ارتديا زيهما بدافع العوز فحسب. ثمَّ انقبض قلبه عندما رأى جثث والده وشقيقيه ملقاة بجوار الحفرة، والأنشوطات لا تزال حول أعناقهم المتقرحة، لكنه رأى أنَّ بمستطاعه، حالما ينام الحارسان، إذ سيناماان بلا شك، أن يحمل الجثث إلى ضفة النهر، حيث جهَّز قاربًا مفتوحًا حمَّله بأغصان أشجار مقطوعة.

وعندما انقضى معظم الليل، وبزغت أولى خيوط ضوء الفجر من الأفق الشرقي، كان إزيو قد أكمل مهمته، ووقف وحده على ضفة النهر، يشاهد

القارب الذي يحمل جثث والده وشقيقيه مشتعلًا وينجرف ببطء مع التيار نحو البحر. ظل يشاهد حتَّى تذبذب ضوء النار وتلاشى بعيدًا...

سار عائدًا أدراجه إلى المدينة، وقد تبدد حزنه أمام عزيمة صلبة تملَّكته. ثمَّة كثير ممَّا عليه فعله. لكن عليه أن يرتاح أولًا. عاد إلى كوخ المراقب، وأعد لنفسه مرقدًا مريحًا بقدر الإمكان. رأى ألا يحرم نفسه من إغفاءة قصيرة، لكن حتَّى في أثناء نومه لم تبارح كرستينا أفكاره أو أحلامه.

***

كان يعرف تقريبيًّا موقع بيت شقيقة أنيتا، رغم أنه لم يذهب إليه قط، أو يقابل باولا، لكن أنيتا كانت مُرضعته، وعرف أنه إذا لم يستطع أن يثق بأحد، فبإمكانه الثقة بأنيتا. تساءل عمَّا إذا سمعت، ولا بُدَّ أنها سمعت، بما حاق بوالده وشقيقيه، وعما إذا أخبرت والدته وشقيقته.

اقترب من البيت متوخِّيًا الحذر الشديد، سالكًا مسارًا غير مباشر، راكضًا حيثما أمكنه الركض فوق الأسقف حتَّى يتفادى الشوارع المزدحمة حيث كان متأكدًا أن أوبرتو ألبرتي قد أرسل رجاله للبحث فيها. عجز إزيو عن إخراج خيانة ألبرتي من رأسه. أي جماعة أشار والده إليها عندما كان عند المشنقة؟ ما الذي قد يدفع ألبرتي إلى قتل أحد أقرب حلفائه؟

كان إزيو يعرف أن بيت باولا في شارع شمال الكاتدرائية، لكن عندما وصل إلى الشارع لم يعرف البيت تحديدًا. رأى بضع لافتات معلقة في واجهات المباني. لم يكن بوسعه إطالة الوقوف في الشارع لئلا يعرفه شخص ما. وحالما همَّ بالمغادرة رأى أنيتا نفسها، قادمة من ناحية ساحة سان لورنزو.

جذب قلنسوته مغطِّيًا وجهه، وسار إليها بإيقاع طبيعي، محاولًا الاختلاط بعامة الناس الغادين والرائحين لقضاء شؤونهم. تجاوز أنيتا نفسها، وامتنَّ لأنها لم تُظهِر ما يشير إلى تعرفها عليه. وبعد بضعة أمتار أبطأ سرعته وتأخر عنها بخطوة.

«أنيتا...»

كانت حاضرة البديهة فلم تلتفت. «إزيو، إنك بأمان».

- لا أظن. هل أمي وشقيقتي...؟

«إنهما محميتان. أوه يا إزيو، والدك المسكين، وفدريكو، و...». حاولت كبح نشيجها. «... بتروتشو الصغير. إنني قادمة للتوِّ من سان لورنزو، أشعلت من أجلهم شمعة للقديس أنطونيو. يقال إن الدوق سيعود قريبًا. ربما...».

- هل تعرف أمي وكلوديا بما حدث؟

- رأينا أن من الأفضل ألّا نخبرهما.

فكر إزيو لوهلة. «أجل، من الأفضل. سأخبرهما عندما يحين الوقت المناسب». صمت، ثمَّ أردف: «هلا اصطحبتني إليهما؟ عجزت عن تحديد بيت شقيقتك».

- إنني في طريقي إليها الآن، ابق قريبًا واتبعني.

تأخر عنها قليلًا، ولم يدعها تغيب عن بصره.

كانت الدار التي دخلت أنيتا إليها ذات واجهة كئيبة أشبه بواجهات الحصون، لكن حالما دخلا، دُهش إزيو، إذ رأى ما لم يتوقَّعه.

وجد نفسه في صالة استقبال شاسعة عالية السقف ومترفة الزينة، معتمة الإضاءة وحبيسة الهواء، تغطي الجدران ستائر مخملية حمراء داكنة وبُنيَّة، تتخللها نجود شرقية تصور مشاهد ترف باذخ ومُتع جنسية عارمة، ثمَّة شموع مضاءة، والهواء يعبق برائحة البخور، معظم الأثاث أرائك عليها وسائد مكسوة بأقمشة غالية، ومناضد منخفضة مليئة بصوانٍ عليها نبيذ في أباريق فضية وكؤوس فينيسية وأوعية ذهبية مليئة بالفواكه المجففة. لكن الناس الموجودين في الصالة كانوا الأشد إثارة للدهشة، قرابة عشر فتيات حسناوات، يرتدين الحرير والساتان بألوان خضراء وصفراء وفقًا للموضة الفلورنسية، لكن تنانيرهن مشقوقة حتَّى أعلى الفخذ، وبلوزاتهن بها فتحات عنق منخفضة بحيث لا تدع مجالًا للخيال. وثمة عدد من الأبواب في أطراف الصالة الثلاثة أسفل الستائر وأغطية النجود.

جال إزيو بناظريه في ما حوله، إذ لم يعرف أين ينبغي له أن ينظر، وسأل أنيتا: «هل أنت متأكدة أننا جئنا إلى المكان الصحيح؟».

- بالطبع! ها هي أختي جاءت لتحيتنا.

ظهرت امرأة طويلة لا بُدَّ أنها في أواخر الثلاثينيات من عمرها لكنها بدت أصغر بعشر سنوات، جميلة كأي أميرة وتأنُّقها أفضل من معظمهن، سارت

نحوهما من وسط الصالة، لاحت مسحة حزن على عينيها زادت من إشعاع جاذبيتها، فحرَّكت شيئًا في إزيو، رغم كل شواغله.

مدت إليه يدها ذات الأصابع الطويلة والمرصعة بالجواهر. «تشرَّفت بلقائك يا سيد أودتوري». نظرت إليه نظرة تقييم وإعجاب. «أنيتا تمتدحك دومًا، والآن أرى السبب».

احمر إزيو خجلًا رغما عنه، وقال: «شاكرٌ لك كلماتك اللطيفة يا مادونا...».

- أرجوك، خاطبني بباولا.

انحنى إزيو.

- لساني يعجز عن التعبير عن امتناني لك لتوفير الحماية لأمي وشقيقتي يا مادو... أعني يا باولا.

- هذا أقل ما أمكنني فعله.

- أهما هنا؟ أيمكنني رؤيتهما؟

- ليستا هنا، هذا المكان لا يليق بهما، كما إن بعض زبائني ذوو مناصب رفيعة في حكومة المدينة.

- إذن هل هذا المكان... أستميحك عذرًا، هل هذا المكان هو ما أظنه؟

ضحكت باولا.

- بالطبع! لكنني آمل أن يكون مختلفًا عن المواخير الحقيرة بجوار الرصيف! الوقت مبكر على بدء العمل، لكننا نحب أن نكون مستعدين، دائمًا ما يأتي زبون عابر في طريقه إلى مكتبه. توقيتك مثالي.

- أين أمي؟ أين كلوديا؟

- إنهما بأمان يا إزيو، لكن من المخاطرة اصطحابك إليهما الآن، وعلينا أن نحرص على أمنهما أشد الحرص.

أخذت بيده إلى أريكة وجلست معه، وقد اختفت أنيتا عندئذٍ في أحشاء الدار لشأن يخصها. تابعت باولا: «أرى أن من الأفضل لك أن تغادر فلورنسا معهما في أقرب فرصة، لكن عليك أن ترتاح أولًا، عليك أن تستجمع قواك، فأمامك رحلة طويلة شاقة. ربما يجدر بك أن...».

«هذا لطف منك يا باولا». قاطعها برفق. «إنك محقة في ما تقترحينه، لكن الآن لا يمكنني البقاء».

- لماذا؟ إلى أين ستذهب؟

في أثناء نقاشهما تسلل الاسترخاء إلى إزيو، وهدأت أفكاره وهمومه المتلاطمة. وأخيرًا وجد نفسه قادرًا على التعافي من صدمته وخوفه، إذ توصَّل إلى قرار ووضع نصب عينيه هدفًا، مدركًا أن كليها لا يمكن التراجع عنه. قال: «سوف أقتل أوبرتو ألبرتي».

اعترى القلق باولا. «أتفهَّم رغبتك في الانتقام، لكن رئيس القضاة رجلٌ ذو نفوذ قوي، وأنت لست قاتلًا بالفطرة يا إزيو...».

قال مع نفسه: *القدر يجعل منِّي قاتلًا*. لكنه قال لباولا بكل ما أمكنه من تهذيب: «اعفيني من المحاضرة»، إذ عزم على مهمته أشد العزم.

تجاهلته باولا وأكملت كلامها: «... لكن بوسعي أن أجعلك قاتلًا».

حاول إزيو مداراة شكوكه. «ولماذا عساك تريدين تعليمي كيفية القتل؟».

هزت رأسها. «حتَّى أعلمك كيفية البقاء على قيد الحياة».

- لا أظنني أحتاج إلى أي تدريب منك.

ابتسمت. «أعرف إحساسك، لكن من فضلك اسمح لي بصقل المهارات التي أعرف أنك تملكها بالفطرة. اعتبر تدريبي لك سلاحًا إضافيًّا في مخزون أسلحتك».

***

بدأت تدريبه في اليوم نفسه، مستعينةً بالفتيات اللاتي في خارج أوقات دوامهن وخَدَم الدار الموثوقين. في الحديقة ذات الجدران العالية خلف الدار قسَّمت باولا عشرين من العاملين لديها إلى خمس مجموعات، كل مجموعة تتكون من أربعة أفراد، ثمَّ طلبت منهم التجوُّل في أنحاء الحديقة، والتحرُّك جيئة وذهابًا، والحديث والضحك. ألقت بعض الفتيات على إزيو نظرات جريئة وابتسمن له، لكن إزيو، الذي ما زال يحمل حقيبته الثمينة، ظل منيعًا ضد إغراءاتهن.

قالت باولا له: «التستُّر مهم جدًّا في مجال عملي، يجب أن نكون قادرين على السير في الطرقات بحرية، وأن تقع علينا الأنظار لكن لا نُرى. أنت أيضًا يتعين عليك تعلم كيفية الاختلاط مثلنا كما ينبغي والذوبان وسط حشود المدينة». همَّ إزيو بالاحتجاج لكنها رفعت يدها. «أعرف! أنيتا قالت لي إنك لا

تفتقر إلى البراعة، لكنك ستتعلَّم أكثر ممَّا تظن. أريدك منك أن تختار مجموعة وتحاول الاختلاط معها بحيث أعجز عن تمييزك. تذكَّر ما كاد أن يحدث في ساحة الإعدام».

وخزت الكلمات القاسية إزيو، لكن المهمَّة لم تبد له صعبة، نظرًا إلى اعتياده التخفي. لكن تحت عينيها اليقظتين وجد المهمَّة أصعب ممَّا توقَّع. ظل يرتطم بالناس بطريقة خرقاء، أو يتعثَّر، وأحيانًا يجعل الفتيات أو الخدم في مجموعته المختارة ينفرون مبتعدين عنه، فيصير مكشوفًا. كانت الحديقة جميلة يانِعة تغمرها أشعة الشمس، وتزقزق الطيور على أشجار الزينة، بيد أن عقل إزيو صار متاهة من شوارع المدينة العدائية، يرى فيها عدوًّا محتملًا في كل شخص عابر. ظلت انتقادات باولا المتواصلة تثير حنقه. ما انفكت تقول له: «انتبه! لا تندفع هكذا!». «أظهر لفتياتي شيئًا من الاحترام! توخ الحذر عندما تقترب منهن!». «كيف تريد الاختلاط بالناس وأنت تصادمهم؟». «أوه، أزيو! توقَّعتُ منك أفضل من هذا!».

لكن أخيرًا، في اليوم الثالث، قلَّت تعليقات باولا اللاذعة، وفي صباح اليوم الرابع صار إزيو قادرًا على المرور أمام عيني باولا دون أن تلاحظه، وبعد انقضاء خمس عشرة دقيقة دون أن تقول كلمة، هتفت: «حسنًا يا إزيو، استسلمت! أين أنت؟».

راضيًا عن نفسه خرج إزيو من بين مجموعة فتيات، وقد كان متنكرًا على هيئة أحد الخدم الشبان. ابتسمت باولا وصفَّقت، وشاركها الآخرون التصفيق.

لكن العمل لم ينتهِ عند هذا الحد.

قالت باولا له في صباح اليوم التالي: «والآن بعدما تعلمت كيفية الذوبان في الحشود، سأعلمك كيفية استغلال مهارتك الجديدة في السرقة».

اعترض إزيو، لكن باولا أوضحت له: «إنها مهارة مهمَّة من مهارات النجاة التي ربما تحتاج إليها في رحلتك. الرجل لا قيمة له دون مال، وربما لا تكون قادرًا دومًا على كسْبه كسبًا شريفًا. أعرف أنك لن تأخذ شيئًا من شخص معوز، أو من صديق. اعتبر هذه المهارة مطواة نادرًا ما تستخدمها لكن وجودها بحوزتك مُطَمْئن».

كان تعلُّم نشل الجيوب أصعب كثيرًا. تمكَّن إزيو من الانسلال خلسة قرب فتاة بنجاح، لكن حالما قبضت يده على المحفظة التي عند خصرها،

صرخت: «أوقفوا اللص!»، وهربت منه. ثمَّ عندما نجح في نشل بضع قطع نقدية معدنية بنجاح، مكث في مكانه للحظة، منتشيًا بانتصاره، ثمَّ أحس بيد ثقيلة على كتفه، وسمع الخادم الذي يؤدِّي دور مراقب المدينة يقول مبتسمًا: «قبضت عليك!». لكن باولا لم تبتسم، وقالت: «حالما تسرق من شخص يا إزيو، عليك ألَّا تتسكَّع في المكان».

لكنه صار يتعلَّم سريعًا، وبدأ يدرك أهمية اكتساب المهارات التي يتدرب عليها إذ لا بُدَّ منها من أجل إكمال مهمته بنجاح. وما إن أفلح في سلب عشر فتيات، الخمس الأخيرات منهن دون ملاحظة باولا، أعلنت اكتمال الدرس.

قالت: «إلى عملكن يا فتيات، انتهى وقت اللعب».

تذمرت الفتيات وهن يودعن إزيو على مضض: «أيجب أن نذهب الآن؟ إنه ظريف وبريء جدًّا...». لكن باولا صرفتهن بصرامة.

سارت معه وحدهما في الحديقة، وكعادته كان يبقي إحدى يديه على جرابه. قالت: «والآن بعدما تعلمتَ كيفية الاقتراب من العدو، علينا أن نجد لك سلاحًا ملائمًا، سلاحًا يسهُل إخفاؤه، ليس كالسيف».

- حسنًا، ماذا تقترحين عليَّ استخدامه؟

قالت: «تعرف الإجابة سلفًا!»، وأخرجت النصل المكسور وواقي الرسغ اللذين أخذهما إزيو من صندوق والده، اللذين كان يظن حتَّى الآن أنهما محفوظين بأمان في جرابه. مصدومًا فتحه ونقب فيه، فلم يجدهما بالطبع.

«باولا! كيف بحق الشيطان؟..».

ضحكت باولا. «كيف أخذتهما؟ مستعينةً بالمهارات نفسها التي علَّمتك إياها للتو. وهذا درس آخر لك، الآن وقد صرت تعرف كيفية نشل الجيوب، عليك أن تتعلَّم أيضًا كيفية حماية نفسك من الذين يتحلون بالمهارة نفسها!».

نظر إزيو متجهِّمًا إلى النصل المكسور، الذي أعادته باولا له مع واقي الرسغ. قال: «ثمة آلية من نوعٍ ما تحكم عملهما، لكنها تبدو معطوبة».

قالت: «آه، صحيح. أظنك تعرف السيد ليوناردو، أليس كذلك؟».

«دا فينشي؟ نعم، قابلته قبل مدَّة قصيرة...». قطع كلامه، مرغمًا نفسه على عدم استدعاء الذكرى المؤلمة. «لكن كيف لرسام أن يساعدني في هذا الشأن؟».

- إنه أكثر من مجرَّد رسام. اذهب إليه بالقِطَع، وسترى.

استشعر إزيو معقولية كلامها، فأومأ موافقًا، ثمَّ قال: «قبل مغادرتي، هل لي أن أسألك سؤالًا أخيرًا؟».

- بالتأكيد.

- لماذا ساعدتني بإخلاص، وأنا غريب عنك؟

ابتسمت باولا ابتسامة حزينة. وردًّا على سؤاله، رفعت كُم عباءتها كاشفةً عن ذراع رقيقة شاحبة، شُوِّه جمالها بندوب طويلة متعرجة وقبيحة داكنة. نظر إزيو وعرف. تعرضت هذه السيدة للتعذيب في وقتٍ ما.

قالت باولا: «أنا أيضًا عرفت الخيانة».

وأدرك إزيو يقينًا أنه لاقى روحًا مُتَّقدة.

5

لم تكن المسافة بعيدة من دار المتعة الذي تملكه باولا إلى الشوارع الخلفية المزدحمة حيث توجد ورشة ليوناردو، لكن إزيو اضطر إلى عبور ساحة الكاتدرائية المزدحمة الواسعة، حيث وجد أن مهارة الاختلاط بالحشود مفيدة على نحو خاص. انقضت عشرة أيام منذ الإعدام، وكان من المرجح أن يظن ألبرتي أن إزيو غادر فلورنسا منذ مدة، لكن إزيو رأى ألَّا يخاطر، وكذلك ألبرتي، حسبما بدا من عدد الحراس المنتشرين في الساحة وحولها. كما كان من المتوقَّع أن يوجد في المكان عملاء سرِّيُّون يرتدون ملابس عادية. كان إزيو يبقي رأسه منخفضًا، لا سيما عندما مر بين الكاتدرائية وبيت المعمودية حيث الاكتظاظ الشديد. مر بجوار برج أجراس جيوتو، الذي ينتصب شاهقًا في المدينة منذ قرابة مئة وخمسين عامًا، ثمَّ مر بقبة كاتدرائية برونيليستشي الحمراء الضخمة، التي اكتمل تشييدها قبل خمسة عشر عامًا. وكان مدركًا لوجود مجموعات سياح فرنسيين وإسبان، دون أن يلتفت لرؤيتهم، يحدِّقون إلى المباني بإعجاب وانبهار غير مصطنع، فخالجه الفخر بمدينته. لكن هل ما زالت مدينته حقًّا؟

كبح أفكاره الكئيبة، وسار مسرعًا من جانب الساحة الجنوبي إلى ورشة ليوناردو. قيل له إن المعلم موجود في الباحة الخلفية. كان الاستوديو في حالة فوضى أشد من أي وقت مضى، لكن بدا أن ثمَّة نظامًا ما في خضم الجنون. أُضيف إلى الأشياء الغريبة التي رآها إزيو في زيارته السابقة، ثمَّة أداة خشبية غريبة متدلية من السقف، بدت كنسخة مكبَّرة من هيكل عظمي لخفاش. وعلى أحد الحوامل لوح مثبت عليه جلد كتابة يحمل تصميمًا ضخمًا شديد التعقيد، وفي إحدى زواياه كتابة متعذرة القراءة بخط يد ليوناردو.

انضم إلى أغنيولو مساعد آخر يُدعى إنوسينتو، وكان الاثنان يحاولان فرض نظامٍ ما على الاستوديو بترتيب الأشياء لتسهيل معرفة أماكنها.

قال أغنيولو لإزيو: «إنه في الباحة الخلفية، اذهب إليه من هنا، لن يمانع».

وجد إزيو ليوناردو منهمكًا في نشاط مثير للفضول. تُرى أقفاص الطيور المغردة في كل مكان في فلورنسا، يعلقها الناس على نوافذهم ويستمتعون بأصوات الطيور، وعندما تنفق يستبدلونها ببساطة. كان ليوناردو محاطًا بقرابة عشرة أقفاص، اختار قفصًا، وإزيو يشاهده، وفتح باب السلة المجدولة الصغير، ورفع القفص، وشاهد طائر زُقَيْقيَّة يطير حرًّا. شاهد ليوناردو تحليقه بتركيز شديد، ثمَّ عاد ليحمل قفصًا آخر فلاحظ وجود إزيو.

ابتسم ليوناردو ابتسامة دافئة عندما رأى إزيو، وعانقه، ثمَّ تجهم وجهه. «إزيو! يا صديقي، لم أتوقَّع رؤيتك هنا بعدما مررتَ به. لكن مرحبًا، مرحبًا بك، انتظرني لحظة، لن أستغرق وقتًا طويلًا».

شاهد إزيو ليوناردو يطلق طائرًا تلو آخر من طيور السُّمنة، والدُّغناش، والقُنْبرة، علاوة على عنادل باهظة الثمن، وطوال الوقت يراقب طيرانها بتركيز.

سأله إزيو متعجبًا: «ماذا تفعل؟».

أجاب ليوناردو ببساطة: «كل حياة ثمينة. لا أحتمل رؤية رفاقي من المخلوقات حبيسين هكذا لا لشيء سوى أن لها أصوات جميلة».

«أهذا السبب الوحيد الذي يدفعك لإطلاق سراحها؟». خمَّن إزيو وجود دافع آخر خفي.

ابتسم ليوناردو، لكنه لم يقدم إجابة مباشرة. «امتنعت عن أكل أي لحوم أيضًا. لماذا ينبغي أن يموت حيوانٌ مسكينٌ لا لشيء سوى أن مذاقه طيب؟».

- لن يجد مزارعو تربية الحيوانات عملًا.
- بإمكانهم جميعهم زراعة الذرة.
- تخيل مدى الملل عندئذٍ. كما ستغرق الأسواق بالذرة.
- آه، نسيتُ أنك من أسرة مصرفية. كما نسيتُ آداب اللياقة، ما سبب حضورك؟
- أحتاج إلى معروف يا ليوناردو.
- بم يمكنني خدمتك؟

- لديَّ شيء... ورثتُه من أبي أريد منك إصلاحه، إن استطعت.

برقت عينا ليوناردو. «بالتأكيد. تعال من هنا، سنذهب إلى حجرتي الداخلية، أولئك الصبية يبعثرون كل شيء في الاستوديو دومًا، أحيانًا أتساءل عن سبب تكليف نفسي عناء توظيفهم!».

ابتسم ازيو، إذ بدأ يرى السبب. لكن في الوقت نفسه استشعر أن حُب ليوناردو الأول كان، وسيظل دومًا، عمله.

«تعالَ من هنا».

كانت حجرة ليوناردو الداخلية الأصغر نسبيًّا في حالة فوضى أسوأ من حالة الاستوديو، لكن رغمًا عن أكداس الكتب والعينات والأوراق المسوَّدة بكتابات تتعذر قراءتها، كان الرسام دائم التأنق والتعطر. راكم أشياء فوق أشياء أخرى حتَّى ظهرت مساحة على طاولة عمل ضخمة.

قال: «اعذرني على هذا الارتباك. أخيرًا صار لدينا واحة! فلنرَ ما جلبتَه لي، أم ترغب في كأس نبيذ أولًا؟».

- لا، لا.

قال ليوناردو متحمسًا: «حسنًا! فلنره إذن!».

أخرج إزيو النصل وواقي الرسغ والآلية بحرص، وكان قد غلَّف القطع سابقًا بصفحة غامضة من الرَّق وجدها مع القطع. حاول ليوناردو تركيب القطع معًا لكنه فشل، وبدا يائسًا للحظة.

قال: «لا أدري يا إزيو، هذه الآلية قديمة، قديمة جدًّا، لكنها شديدة التعقيد أيضًا، ويمكنني قول إن تصميمها سابق حتَّى لزماننا. شيء مذهل». رفع بصره. «لم أر شيئًا مثله قط. ويؤسفني قول إنني لا يمكنني فعل الكثير دون التصميمات الأصلية».

ثمَّ أولى انتباهه لصفحة الرَّق التي التقطها ليعيد تغليف قطع إزيو. صاح: «مهلًا لحظة!»، وراح يتفحصها بتدقيق. ثمَّ وضع النصل المكسور وواقي الرسغ جانبًا، وبسط الصفحة، وبدأ ينقب في صف كتب قديمة ومخطوطات في رف قريب، وهو يعود إلى الصفحة من حين إلى آخر. عثر على الكتابين اللذين يريدهما، ووضعهما على الطاولة وبدأ يتصفَّحهما بعناية.

سأله إزيو نافد الصبر قليلًا: «ماذا تفعل؟».

قال ليوناردو: «هذا أمر مثير للاهتمام. هذه تبدو كأنها صفحة من مُجلَّد مخطوطات».

- مجلد ماذا؟

- إنها صفحة من كتاب قديم، ليس مطبوعًا، إنما كتب يدويًّا. إنه قديم جدًّا في الواقع. ألديك المزيد من هذه الصفحات؟

- لا

- أمر مؤسف. ينبغي للناس ألَّا يمزقوا الصفحات من الكتب بهذه الطريقة.

أطرق ليوناردو، ثمَّ تابع:

- إلَّا إذا... ربما تكون الصفحات كلها معًا...

- ماذا؟

- لا شيء. اسمع، فحوى هذه الصفحة مُشفَّر، لكن إذا صحَّت نظريتي... وفقًا لهذه الرسوم ربما يكون...

انتظر إزيو بقية الكلام، لكن ليوناردو شرد بأفكاره إلى عالم خاص به. جلس إزيو وانتظر بصبر وهو يشاهد ليوناردو ينقب عددًا من الكتب واللفافات ويتصفَّحها بتركيز، ويُحيل جزءًا كتاب إلى آخر، ويدون ملاحظات، بطريقة كتابته المعكوسة الغريبة بيده اليسرى. افترض إزيو أنه ليس الوحيد الذي يعيش حياته حذِرًا متلفتًا باستمرار. كما بدا لإزيو، من القليل الذي رآه ممَّا يجري في الاستوديو، أنه إذا علمت الكنيسة ببعض الأشياء التي يمارسها ليوناردو، فسيتعرَّض صديقه لعقاب شديد.

وأخيرًا رفع ليوناردو رأسه، وعندئذٍ كان إزيو قد بدأ يغفو. «أمر لافت!» تمتم ليونارد مع نفسه، ثمَّ بصوت أعلى: «أمرٌ لافت! إذا غيَّرنا مواقع الحروف ثمَّ اخترنا كل حرف ثالث...».

شرع في العمل، قرَّب إليه النصل وواقي الرسغ والآلية، ثمَّ نبش كومة أشياء تحت الطاولة وأخرج صندوق أدوات، وجهَّز مِلْزَمة، واستغرق في عمله صامتًا. انقضت ساعة، ثمَّ ساعتين... عندئذٍ كان إزيو ينام بهدوء، تهدهده أصوات النقر والخدش الخافتة الصادرة عن عمل ليوناردو. وأخيرًا...

«إزيو! استيقظ!».

- هه!

«انظر!». أشار ليوناردو إلى سطح الطاولة، حيث رُكِّب نصل الخنجر، بعد إصلاحه، في الآلية الغريبة، التي بدورها رُكِّبت في واقي الرسغ. صُقِل كل شيء حتَّى بدا كأنه صُنِع للتَّوِّ، لكنه لم يكن لامعًا. قال ليوناردو: «قررتُ أن يكون الطلاء معتم غير ذي بريق، مثل درع روماني، فكل ما يلمع تحت الشمس من شأنه أن يشي بمكانك ويهلكك».

التقط إزيو السلاح ورفعه بين يده، وجده خفيفًا، لكن النصل القوي متوازن فيه على نحو مثالي. لم ير إزيو شيئًا كهذا قط. خنجر مزوّد بزنبرك يمكن إخفاؤه أعلى المعصم. ما على إزيو سوى ثنْي يده حتَّى يخرج النصل، جاهزًا للقطع أو الطعن وفقًا للحاجة.

قال إزيو متذكرًا الطيور: «ظننتك رجل سلام».

أجاب ليوناردو بنبرة حازمة: «الأفكار تتطلَّب أحداثًا سابقة». ثمَّ أخرج مطرقة وإزميلًا من صندوق أدواته وأردف: «إنك أيمن؟ صحيح؟ جيد. من فضلك ضع إصبع خاتمك الأيمن على كتلة الخشب هذه».

- ماذا تفعل؟

- آسف، هكذا ينبغي أن يجري الأمر. النصل مصمم لضمان الالتزام التام من جانب مُستخدِمه أيًّا يكن.

- ماذا تعني؟

- النصل لن يعمل بكفاءة إلَّا إذا قطعنا ذلك الإصبع.

رمش إزيو. برقت في ذهنه عدَّة صور: تذكر صداقة ألبرتي المزعومة مع والده، وطمأنة ألبرتي لاحقًا له بعد اعتقال والده، وتذكر عمليات الإعدام، ومطاردته. كز أسنانه قائلًا: «افعلها».

«ربما يجدر بي استعمال ساطور جزَّار». أخرج ليوناردو ساطورًا من درج في الطاولة. «والآن، ضع إصبعك... هكذا».

تجلَّد إزيو وليوناردو يرفع الساطور. أغمض عينيه وهو يسمع الساطور يهوي على كتلة الخشب، لكنه لم يشعر بألم. فتح عينيه، فرأى الساطور مغروزًا في كتلة الخشب، على بعد بوصات من يده السليمة.

«أيها الوغد!». صُدم إزيو وثار غضبًا من المزحة السمجة.

رفع ليوناردو يديه. «اهدأ! كانت مزحة بسيطة فحسب! أعترف أنها قاسية، لكنني عجزت عن المقاومة. أردت معرفة مدى عزيمتك. استعمال هذه الآلة كان يتطلَّب فعلًا تقديم تضحية كهذه، أمرٌ له علاقة بطقوس انضمام من زمن غابر، على ما أظن. لكنني أدخلت تعديلًا أو تعديلين، حتَّى تُبقي على إصبعك. انظر! النصل يخرج بعيدًا عن أصابعك. وقد أضفت مقبضًا ينبثق عندما يخرج النصل. ما عليك سوى تذكُّر أن تبسط أصابعك في أثناء خروج النصل! إذن لك أن تحتفظ بإصبعك. لكن يجدر بك ارتداء قفازين عندما تستخدمه، النصل حادٌّ جدًّا».

كان إزيو مبهورًا، وممتنًّا، فتبدَّد غضبه سريعًا. قال: «هذا مذهل». وراح يفتح الخنجر ويغلقه عدَّة مرَّات حتَّى تمكَّن من توقيت انبثاقه توقيتًا مثاليًّا. «لا يُصدَّق».

وافقه ليوناردو: «أليس كذلك؟ أمتأكد أنك ليس لديك مزيد من مثل هذه الصفحة؟».

- آسف.

- حسنًا، اسمع، إذا صادفت أي صفحات أخرى، فاجلبها لي من فضلك.

- أعِدك. بكم أدين لك مقابل...؟

- تكفيني متعة تعلُّم أشياء جديدة. ما من...

قوطعا بطرق عنيف على باب الاستوديو الخارجي، فهرع ليوناردو إلى مقدمة المبنى، وبدا أغنيولو وإنوسينتو خائفين. زعق الطارق على الجهة الأخرى من الباب: «افتحوا الباب بأمر الحرس الفلورنسي!».

صاح ليوناردو: «مهلًا لحظة!»، وهمس لإزيو: «ابقَ هنا بالخلف». ثمَّ فَتح الباب ووقف عنده معترضًا طريق الحارس.

سأل الحارس بنبرة رسمية عالية مُتنمِّرة: «أأنت ليوناردو دا فينشي؟».

قال ليوناردو: «بم يمكنني خدمتك؟»، وتقدَّم إلى الشارع، مرغمًا الحارس على التراجع خطوة.

- إنني مخوَّل بطرح أسئلة عليك.

عندئذٍ كان ليوناردو قد تحرك بطريقة مدروسة حتَّى صار الحارس مولِّيًا ظهره لمدخل الاستوديو.

- ما الخطب؟
- ورد إلينا تقرير بأنك شُوهِدت برفقة عدو للمدينة مطلوب للعدالة.
- ماذا؟ أنا؟ برفقة؟ هذا قول شائن!
- متى كانت آخر مرَّة تكلمت مع إزيو أودِتوري أو رأيته؟
- مَن؟
- لا تمارس معي ألاعيب سخيفة. نعرف أنك كنت مقربًا من العائلة، وأنك بعت للأم عددًا من لوحاتك الملطخة. ربما يجدر بي إنعاش ذاكرتك قليلًا.

ضرب الحارس بعقب رمحه ليوناردو في بطنه، فأطلق صيحة ألم حادَّة وانحنى وسقط على الأرض، ثمَّ ركله الحارس قائلًا: «مستعد للكلام الآن؟ لا أطيق الفنانين، يا لكم من حفنة مخنثين!».

وجد إزيو الوقت ليتسلَّل بهدوء عبر المدخل ويقف خلف الحارس. كان الشارع خاليًا، ومؤخِّرة عنق الحارس المتعرِّق مكشوفة، فكانت اللحظة المناسبة لتجريب لعبته الجديدة. رفع يده، مطلقًا آلية انبثاق النصل بصمت، وبحركة رشيقة من يده اليمنى المفتوحة، طعن إزيو عنق الحارس من الجانب، وكان النصل الذي شُحِذ للتَّوِّ في غاية الحدَّة، فقطع الوريد الوداجي بسهولة، وسقط الحارس، وقد مات قبل أن يرتطم بالأرض.

ساعد إزيو ليوناردو على النهوض.

قال الفنان مترنحًا: «شكرًا لك».

- آسف، لم أقصد قتله، لم يكن ثمَّة وقت لـ...
- أحيانا لا نجد أمامنا خيارات كثيرة. لكن ينبغي أن أكون قد اعتدت هذا الآن؟
- ماذا تعني؟
- كنتُ متورطًا في قضية سالتَريلي.

عندئذٍ تذكر إزيو. كان ياكوبو سالتَريلي شابًّا يعمل مساعدًا للفنانين، قبل أسابيع اتهمه مجهول بممارسة الدعارة، وكان ليوناردو، مع ثلاثة آخرين، ضمن المتهمين بأنهم من زبائنه. أغلقت القضية لعدم كفاية الأدلة، لكن

الوصمة لم تُمحَ تمامًا. قال: «لكننا لا نقاضي مثل هؤلاء الأشخاص هنا، أتذكَّر أن الألمان يلقِّبونهم بـ *الفلورنسيين*».

قال ليوناردو ممتعضًا: «لكنها ما زالت مخالفة للقانون، رسميًّا. يمكن أن تُفرض على المرء غرامة. ومع وجود رجال مثل ألبرتي في السلطة...».

- ماذا سنفعل بهذه الجثة؟

قال ليوناردو: «أوه.. إنها حظ غير مرتقب. ساعدني على سحبها إلى الداخل قبل أن يرانا أي أحد، سأضعها مع الآخرين».

- حظ غير مرتقب؟ الآخرين؟

- القبو بارد قليلًا، لا تتحلل الجثث فيه إلا بعد أسبوع. من حين إلى آخر أجلبُ جثة أو جثتين لا يريدهما أحد من المستشفى. كل شيء غير رسمي بالطبع. أفتح الجثث، وأنبش فيها قليلًا.. إنها تساعدني في أبحاثي.

نظر إزيو إلى صديقه نظرة فيها أكثر من مجرَّد الفضول.

- ماذا؟

- أظنني أخبرتك يا إزيو، إنني أحب اكتشاف كيفية عمل الأشياء.

سحبا الجثة بعيدًا عن الأنظار، ثمَّ جاهد مساعدا ليوناردو ليدخلاها عبر الباب ويهبطا بها بضع درجات سلالم حجرية، بعيدًا عن الأنظار.

قال إزيو: «لكن ماذا إذا أرسلوا آخرَ خلفه، ليتقصَّى ما حدث له؟».

هز ليوناردو كتفيه. «سأنكر إنكارًا قاطعًا». غمز لإزيو. «لستُ دون أصدقاء ذوي نفوذ هنا يا إزيو».

كان إزيو محتارًا، قال: «حسنًا تبدو واثقًا بنفسك بما فيه الكفاية...».

- لا تذكر هذه الحادثة لأي أحد آخر فحسب.

- لن أفعل. وشكرًا لك يا ليوناردو، على كل شيء.

- من دواعي سروري.

ارتسمت على وجه ليوناردو نظرة تعطُّش وهو يردف:

- لا تنسَ، إذا وجدت مزيدًا من صفحات مجلد المخطوطات فاجلبها لي، ربما نجد فيها تصميمات أخرى.

- أعِدك.



عاد إزيو إلى بيت باولا بمزاج رائق، لكنه لم ينسَ الذوبان في الحشود في طريقه شمالًا عبر البلدة.

استقبلته باولا بشيء من الارتياح. «غبتَ مدَّة أطول ممَّا توقَّعتُ».

- ليوناردو يحب الكلام.

- آمل أنه لم يكتفِ بالكلام.

- أوه، لا. انظري!

وأظهر لها خنجر الرسغ، أبرزه من كُمّه متباهيًا، ومبتسمًا ابتسامة صبيانية.

«عجيب».

نظر إزيو إليه منتشيًا. «أجل، عليَّ التدرُّب على استخدامه. أريد الحفاظ على أصابعي كلها».

بدت باولا جادَّة. «حسنًا يا إزيو، تبدو مستعدًّا. علَّمتك المهارات التي تحتاج إليها، وليوناردو أصلح سلاحك». أخذت نفسًا عميقًا. «ما عليك سوى تنفيذ المهمَّة».

«أجل». تكلم إزيو بصوت خافت وقد اكفهرَّت تعابير وجهه. «السؤال هو ما أفضل طريقة للاقتراب من ألبرتي».

بدت باولا غارقة في التفكير. «الدوق لورنزو موجود معنا، وهو ليس سعيدًا بالإعدامات التي قررها ألبرتي في غيابه، لكن لا سلطة للدوق على رئيس القضاة. لكن لا يهم. سيقام عرض سابق للعرض الرسمي لآخر أعمال المايسترو فيروكيو في دير سانتا كروسي غدًا ليلًا. كل المجتمع الفلورنسي سيكون هناك، وفيهم ألبرتي». نظرت إليه. «أرى أن عليك أيضًا أن تكون هناك».

عرف إزيو أن المنحوتة التي سيُكشف الستار عنها تمثالٌ برونزي لداؤود، البطل التوراتي، الذي تبجِّله فلورنسا، المدينة الواقعة بين سندان روما جنوبًا ومطرقة ملوك فرنسا المتعطشين للأراضي شمالًا. نُحت التمثال برعاية عائلة مديتشي وقُرِّر نصبه في القصر القديم. كان المايسترو قد بدأ العمل عليه قبل

ثلاثة أو أربعة أعوام، وثمة إشاعة مفادها أن رأس التمثال نُحت وفقًا لنموذج تلميذ فيروكيو الشاب الوسيم عندئذٍ، فتى اسمه ليوناردو دا فينشي. على أي حال، كانت الحماسة تسود الأجواء، وبدأ الناس يفكرون في ما سيرتدونه في المناسبة.

كان إزيو مشغول البال بشؤون أخرى.

طلب من باولا: «اعتني بأمي وأختي في أثناء غيابي».

- سأفعل، كأنهما أمي وأختي.

- وإذا أصابني مكروه...

- لن يصيبك. تحلَّ بالإيمان.

وصل إزيو إلى سانتا كورسي في وقت مناسب من مساء اليوم التالي، وكان قد أمضى الساعات السابقة في تجهيز نفسه، وصقْل مهارات استخدام سلاحه الجديد، حتَّى اطمأن إلى كفاءته في استخدامه. لم تبرح عقله مشاهد موت والده وشقيقيه، وترددت في أذنيه نبرة صوت ألبرتي القاسية وهو يصدر الحُكم.

عند اقترابه، رأى هيئتَي شخصين تعرف عليهما يسيران أمامه، بعيدان قليلًا عن مجموعة صغيرة من الحراس تحمل أزياؤهم شارة مرسوم عليها خمس دوائر حمراء على خلفية صفراء. بدا الشخصان كأنهما يتجادلان، فأسرع إزيو متقدمًا ليقترب منهما مسافة كافية للتنصُّت عليهما. توقَّفا أمام مدخل الكنيسة المُعمَّد، وحام إزيو على مقربة منهما، بعيدًا عن أعينهما، ليستمع. تكلم الرجلان وهما يتوخيان التكتُّم. أحدهما كان أوبرتو ألبرتي، والآخر شاب نحيل في أواسط أو أواخر العشرينيات من عمره، ذو أنف بارز ووجه صارم، يرتدي ملابس مترفة مع قبعة وعباءة حمراوين، وفوق العباءة يضع رداءً رماديًّا ضاربًا إلى الفضي. الدوق لورنزو، العظيم، كما يلقِّبه رعاياه، ممَّا يثير امتعاض آل باتزي وعُصبتهم.

كان ألبرتي يقول: «لا ترهقني بهذا الأمر، اتخذتُ إجراءً بناءً على معلومة تلقيتها ودليل دامغ، تصرفتُ وفقًا للقانون وضمن حدود منصبي».

- لا! تجاوزتَ حدودك يا رئيس القضاة، واستغللت غيابي عن فلورنسا لتفعل فعلتك. إنني في غاية الاستياء.

- من أنت لتتحدَّث عن الحدود؟ استوليتَ على السلطة في هذه المدينة، ونصَّبتَ نفسك دوقًا عليها، دون موافقة رسمية من السنيوريا أو من أي أحد آخر!

- لم أفعل شيئًا كهذا!

أطلق ألبرتي ضحكة تهكُّمية.

- ستقول هذا بالطبع! إنك البريء دومًا! تحيط نفسك في كاريجي برجال معظمنا يعدُّونهم مفكرين أحرارًا خطِرين، فيسينو، وميراندولا، وذلك البغيض بوليزيانو! لكن على الأقل سنحت لنا الفرصة لمعرفة مدى نفوذك، ويمكنني قول إنه محدود عمليًا، وهذا درس قيِّم لي ولحلفائي.

- أجل. حلفاؤك آل باتزي. همُ محور هذه القضية، أليس كذلك؟

تفحَّص ألبرتي أظفاره هنيهة قبل أن يرد: «يجدر بك الحذر ممَّا تقوله، أيها الدوتشي، ربما تسترعي انتباه الأشخاص الخطأ». لكنه لم يبدُ واثقًا بنفسه تمام الثقة.

قال لورنزو: «أنت من يجدر به صَوْن لسانه يا رئيس القضاة. وأقترح عليك نقل هذه النصيحة إلى شركائك. اعتبرها تحذيرًا ودِّيًّا». وسار مبتعدًا مع حارسه نحو الدير. وبعد لحظة، تبعه ألبرتي وهو يتمتم بلعنات، وبدا لإزيو أن الرجل يلعن نفسه.

كانت أروقة الدير المُعمَّدة مزينة بستائر ذهبية استعدادًا للمناسبة، فعكست الضوء على نحو باهر من مئات الشموع. وعلى منصة بجوار النافورة التي في المركز مجموعة موسيقيين تعزف، وعلى منصة أخرى نُصِب التمثال البرونزي، بنصف الحجم الطبيعي وذو الجمال الأخَّاذ. دخل إزيو، متخفِّيًا بالأعمدة والظلال، ورأى لورنزو يُغدق الإطراء على الفنان. تعرف إزيو أيضًا على الشخص الغامض ذي القلنسوة الذي كان حاضرًا في منصة الإعدام مع ألبرتي.

وعلى مبعدة كان ألبرتي نفسه يقف محاطًا بأعضاء معجبين من طبقة النبلاء المحلية، ومما سمعه إزيو، أمكنه فهم أنهم يهنِّئون رئيس القضاة على تخليص المدينة من داء عائلة أودِتوري. لم يخطر له أن لوالده أعداءً كثيرين وأصدقاء كثيرين أيضًا في المدينة، لكنه أدرك أنهم لم يجرؤوا على التحرُّك ضده إلَّا في غياب حليفه الرئيسي، لورنزو. ابتسم إزيو عندما قالت امرأة نبيلة

لألبرتي أنها كانت تأمل أن يقدِّر الدوق نزاهته، وكان واضحًا أن ألبرتي لم يعجبه التعليق. ثمَّ سمع إزيو المزيد.

تساءل أحد النبلاء: «ماذا عن الابن الآخر؟ اسمه إزيو، أليس كذلك؟ هل هرب إلى الأبد؟».

ابتسم ألبرتي. «الفتي لا يمثِّل أي تهديد، ضعيف جسديًّا وأضعف عقليًّا، سيُقبَض عليه ويُعدَم قبل نهاية هذا الأسبوع».

ضحك رفاقه المحيطون به.

سأله رجل آخر: «إذن ما خطوتك التالية يا أوبرتو؟ ربما رئاسة السنيوريا، أليس كذلك؟».

بسط أوبرتو ذراعيه. «إذا شاء الرب. اهتمامي الوحيد هو الاستمرار في خدمة فلورنسا بمثابرة وإخلاص».

«حسنًا، مهما يكن ما تختاره، اعلم أننا نساندك».

ابتسم ألبرتي، لكن بتواضع. «إنني في غاية الامتنان. سوف نرى ما يجلبه المستقبل. والآن، يا أصدقائي، أقترح أن نضع السياسة جانبًا ونُسلِّم أنفسنا لمتعة مشاهدة هذا العمل الفني الجليل، الذي تبرع به نبلاء مديتشي بسخاء».

انتظر إزيو حتَّى تفرق رفاق ألبرتي باتجاه *داوُود*. ومن جانبه أخذ ألبرتي كأس نبيذ وجال بناظريه في المكان، وفي عينيه مزيج من الرضا والإرهاق. عرف إزيو أن هذه هي فرصته، جميع الأعين مصوَّبة إلى التمثال، وجواره يتلجلج فيروكيو محاولًا إلقاء كلمة قصيرة. انسل إزيو إلى جانب ألبرتي.

قال إزيو بصوت كالفحيح: «لا بُدَّ أن لسانك آلمك عندما قلت ذلك الإطراء الأخير، لكن يلائمك أن تظل غير مخلص حتَّى النهاية».

جحظت عينا ألبرتي من الرعب وقد تعرف على إزيو. «أنت!».

- نعم يا رئيس القضاة، أنا زيو، أتيت لأنتقم لمقتل أبي -صديقك- وشقيقَي البريئين.

سمع ألبرتي نقرة زنبرك، صوت معدني، ورأى النصل عند عنقه.

قال إزيو ببرود: «وداعًا يا رئيس القضاة».

شهق ألبرتي: «توقَّف. لفعلتَ الأمر نفسه لو كنت مكاني، من أجل حماية من تحبهم. سامحني يا إزيو، لم أجد خيارًا آخر».

مال إزيو نحوه، متجاهلًا استرحامه. كان يعرف أن الرجل كان لديه خيار آخر، خيار مُشرِّف، لكنه كان متبلِّدًا فاتر الهمَّة. «أتظنني لا أحمي الذين أحبهم؟ أي رحمة كنتَ لتُبديها لأمي وأختي إذا وقعتا بين يديك؟ والآن، أين الوثائق التي جلبتها لك من أبي؟ لا بُدَّ أنك تحتفظ بها في مكان آمن».

«لن تستعيدها أبدًا. أحملها معي شخصيًّا دومًا!». حاول ألبرتي دفع إزيو بعيدًا، وفتح شفتيه ليناديَ الحراس، لكن إزيو غرز الخنجر في حلقه، وسحب النصل قاطعًا الوريد الوداجي. عجز ألبرتي حتَّى عن الغرغرة وتهالك على ركبتيه، ويديه تمسكان غريزيًّا بعنقه في محاولة عقيمة لإيقاف الدماء المنبجسة، ثمَّ سقط على جانبه، فانحنى إزيو وقطع محفظة الرجل من حزامه، وألقى عليها نظرة سريعة، فوجد أن ألبرتي في لحظات عجرفته الأخيرة كان يقول الحقيقة، كانت الوثائق موجودة معه فعلًا.

لكن عندئذٍ ساد صمت. توقَّفت كلمة فيروكيو تدريجيًّا إذ بدأ الضيوف يلتفتون ويحدِّقون، غير مستوعبين لما حدث. وقف إزيو وواجههم.

«نعم! ما ترونه حقيقي! ما ترونه هو الانتقام! عائلة أودِتوري ما زالت مستمرة. ما زلتُ هنا! إزيو أودِتوري!».

التقط أنفاسه في اللحظة نفسها التي دوَّى فيها صوت امرأة: «*حشَّاش!*».

وعندئذٍ سادت الفوضى. انتشر حراس لورنزو الشخصيين حوله، شاهرين سيوفهم، وتراكض الضيوف في شتى الاتجاهات، بعضهم حاول الهروب، والشجعان منهم راحوا يأتون بحركات كأنهم يحاولون القبض على إزيو، لكن لم يجرؤ أحدٌ منهم على المحاولة بجدية. لاحظ إزيو الشخص الذي يضع القلنسوة ينسل مبتعدًا إلى الظلال. وقف فيروكيو بجوار تمثاله حاميًا. صرخت النساء، وصاح الرجال، وتدفق حرس المدينة إلى أروقة الدير وهم لا يدرون من يسعون خلفه. استغل إزيو الوضع، وتسلق إلى سقف صف الأعمدة وانطلق فوقه إلى الفناء الذي خلفه، فقادته بوابته المفتوحة إلى الساحة التي أمام الكنيسة، حيث تجمع حشد فضولي منجذبًا إلى الجلبة القادمة من الداخل.

سأل أحدهم إزيو: «ماذا يحدث؟».

أجابه إزيو: «حُقِّقت العدالة». ثمَّ ركض ناحية الشمال الغربي عبر المدينة إلى قصر باولا.

توقَّف في طريقه ليتحقَّق من محتويات محفظة ألبرتي. على الأقل كانت كلمات الرجل الأخيرة صادقة، وجد إزيو كل الوثائق، ووجد شيئًا آخر أيضًا، رسالة بخط يد ألبرتي لم تُرسَل. ظن إزيو أنه قد يجد فيها معلومات جديدة، فكسر الختم ومزق المظروف الجلدي.

لكنه وجدها رسالة شخصية من ألبرتي إلى زوجته. وفي أثناء قراءتها تمكَّن إزيو على الأقل من فهم العوامل التي من شأنها تلطيخ نزاهة المرء.

حُبِّي..

أدوِّن هذه الأفكار على الورق أملًا في أن أتحلَّى بالشجاعة ذات يوم لإبلاغك بها. بمرور الوقت، لا بُدَّ أنك ستعرفين أنني خُنتُ جيوفاني أودِتوري، وَصَمتُه بالخائن وحكمت عليه بالإعدام. على الأرجح سينظر التاريخ إلى هذه الحادثة بوصفها مسألة سياسة وجشع. لكن عليك أن تفهمي أن القدر لم يدفعني لفعل ما فعلتُه، إنما الخوف.

عندما سلب آل مديتشي من عائلتنا كل ما نملك، وجدتُ نفسي خائفًا، عليك، وعلى ابننا، وعلى المستقبل. هل من أمل في هذا العالم لرجل بلا مال ولا سُلطة؟ أما الآخرين فقد منحوني مالًا وأرضًا ولقبًا مقابل تعاوني معهم.

هكذا انتهيت إلى خيانة أقرب صديق لي. كانت فعلة شنيعة، لكنها بدت ضرورية وقتذاك.

وحتَّى الآن، عندما أفكر في ما حدث وما فعلته، لا أرى خيارًا آخر...

طوى إزيو الرسالة بعناية وأعادها إلى المحفظة، وقرر أن يعيد ختمها ويحرص على إيصالها. كان عازمًا على عدم الانحدار إلى مستوى الخِسَّة، أبدًا.

6

قال لباولا ببساطة: «أُنجِزت المهمَّة».

عانقته لوهلة وجيزة، وتراجعت. «أعرف. سعيدة برؤيتك سالمًا».

- أرى أن الوقت قد حان لمغادرة فلورنسا.

- إلى أين ستذهب؟

- شقيق والدي، ماريو، يملك قلعة بجوار مونترِجيوني. سنذهب إليه.

قالت: «يبحثون عنك بحثًا محمومًا يا إزيو، نشروا ملصقات «مطلوب» عليها صورتك في كل مكان، وبدأ خطباء العامة يتحدَّثون ضدك». أطرقت مستغرقة في التفكير، ثمَّ تابعت: «سأطلب من العاملين لديَّ الخروج وتمزيق أكبر عدد ممكن من الملصقات، والخطباء يمكن رشوتهم حتَّى يتحدَّثوا عن أشياء أخرى». ثمَّ خطرت لها فكرة أخرى: «وسأعِدُ وثائق سفر لثلاثتكم».

هز إزيو رأسه وهو يفكر في ألبرتي. «ما هذا العالم الذي نعيش فيه حيث يسهل التلاعب بآراء الناس؟».

«وُضِع ألبرتي في موقف رأى أنه سيستحيل عليه الخروج منه، لكن كان ينبغي له التمسُّك بمبادئه بقوة». تنهَّدت. «الحقيقة تُباع وتشترى كل يوم. هذا واقعٌ عليك اعتياده يا إزيو».

ضم يديها بين يديه. «شكرًا لكِ».

«ستكون فلورنسا مكانًا أفضل الآن، لا سيما إذا تمكَّن الدوق لورنزو من إنجاح انتخاب أحد رجاله رئيسًا للقضاة. لا وقت لدينا الآن، والدتك وشقيقتك هنا». استدارت وصفَّقت. «أنيتا!».

خرجت أنيتا من الجهة الخلفية من البيت، ومعها ماريا وكلوديا. كان لم الشمل مفعمًا بالمشاعر. رأى إزيو أن والدته لم تتعاف كثيرًا، ولا تزال قابضة على صندوق بتروتشو المليء بالريش، بادلته العناق ساهمة فيما نظرت باولا إليهما بابتسامة حزينة.

أما كلوديا فقد تشبثت به بقوة. «إزيو! أين كنت؟ باولا وأنيتا كانتا لطيفتين معنا، لكنهما لم تسمحا لنا بالذهاب إلى البيت. وأمي لم تنطق بكلمة منذ...» قطعت كلامها وهي تغالب دموعها، ثمَّ تابعت: «لكن الآن ربما يتمكَّن أبي من ترتيب أمورنا، لا بُدَّ أنه كان سوء تفاهم فظيع، أليس كذلك؟».

نظرت باولا إلى إزيو وقالت برقَّة: «أرى أن هذا هو الوقت المناسب، لا بُدَّ أن تعرفا الحقيقة قريبًا».

تأرجحت نظرات كلوديا بين إزيو وباولا واستقرت على شقيقها. وكانت ماريا قد جلست بجوار أنيتا، التي تحيطها بذراعها. حدَّقت ماريا في الفراغ وهي تمسح على الصندوق وعلى شفتيها ابتسامة باهتة.

سألت كلوديا بنبرة خوف: «ما الخطب يا إزيو؟».

- حدث أمر.

- ماذا تعني؟

لم يُحر إزيو ردًّا، لكن تعابير وجهه أخبرت شقيقته بكل شيء.

- أوه، رباه، لا!

- كلوديا...

- قل لي إن هذا غير صحيح!



طأطأ إزيو رأسه.

صرخت كلوديا: «لا، لا، لا، لا، لا!».

حاول تهدئتها: «شش، بذلت كل ما بوسعي يا صغيرتي».

دفنت كلوديا وجهها في صدره وبكت، بنشيج مرير، وبذل إزيو كل ما بوسعه لمواساتها. نظر فوق رأسها إلى أمه، فبدت له كأنها لم تسمع. ربما كانت تعلم سلفًا بطريقة تخصها. بعد كل النوازل التي دهمت حياة إزيو، لم يوشك أن ينهارَ إلَّا عندما رأى والدته وشقيقته في غياهب اليأس. ظل واقفًا، ممسكًا بشقيقته بين ذراعيه مدَّة بدت دهرًا، شاعرًا بعبء مسؤولية العالم

بأكمله على كتفيه. الآن وجبت عليه حماية أسرته، ووجب عليه الذود عن شرف اسم عائلة أودِتوري. لم يعُد لإزيو الصبي وجود... بدأ يستجمع أفكاره.

قال لكلوديا حالما هدأت قليلًا: «اسمعي، ما يهم الآن هو أن نغادر، إلى مكان آمن، حيث يمكنك وأمي أن تكونا بمأمن. لكن حتَّى ننجح أريد منك أن تكوني شجاعة، عليك أن تكوني قوية من أجلي، وتعتني بأمنا، فهمت؟».

استمعتْ، ثمَّ تنحنحت وابتعدت عنه قليلًا، ورفعت رأسها ناظرة إليه. «نعم».

- إذن علينا بدء تجهيزاتنا الآن، اذهبي واحزمي ما تحتاجين إليه، لكن فليكن قليلًا، سنغادر سيرًا على الأقدام، ترتيب عربة سينطوي على خطورة. ارتدي أبسط ملابسك، علينا ألَّا نلفت الانتباه. أسرعي!

ذهبت كلوديا مع والدتهما وأنيتا.

قالت باولا له: «يجدر بك الاستحمام وتغيير ملابسك، ستشعر بتحسُّن».

بعد ساعتين صارت أوراق سفرهم جاهزة وبإمكانهم المغادرة. تفقد إزيو محتويات حقيبته بعناية للمرة الأخيرة. ربما يستطيع عمَّه تفسير فحوى الوثائق التي أخذها من ألبرتي، التي من الواضح أنها كانت مهمَّة جدًّا له. ثمَّ تحسس خنجره المثبت على ذراعه اليمنى، خفيًّا، وشد حزامه. اقتادت كلوديا ماريا إلى الحديقة ووقفت بجوار الباب الذي سيخرجون منه، مع أنيتا، التي كانت تغالب دموعها.

التفت إزيو إلى باولا. «وداعًا، وشكرًا لكِ مجددًا، على كل ما فعلتِه من أجلنا».

أحاطته بذراعيه وقبَّلته قريبًا من شفتيه. «كن بأمان يا إزيو، وكن يقظًا. أظن أن رحلتك طويلة».

انحنى لها، ثمَّ رفع قلنسوته وانضم لوالدته وشقيقته، حاملًا الكيس الذي حزموا فيه أغراضهم. قبَّلوا أنيتا مودِّعين، وبعد لحظات صاروا في الشارع، سائرين شمالًا، وذراع كلوديا حول ذراع والدتها. ظلوا صامتين برهة. وراح إزيو يطيل التفكير في المسؤولية الجسيمة التي فُرضت عليه، وابتهل أن يقدر على توليها، لكنها شاقة، عليه أن يظل قويًّا متماسكًا، من أجل كلوديا وأمه المسكينة التي بدت كأنها تقوقعت على نفسها تمامًا.

كانوا قد بلغوا مركز المدينة عندما بدأت كلوديا تتكلَّم، وتدفقت منها الأسئلة بلا انقطاع. ولاحظ إزيو ممتنًّا أن صوتها ثابت.

قالت: «كيف يعقل أن يحدث لنا ما حدث؟».

- لا أدري.

- أتظن أننا سنقدر على العودة يومًا؟

- لا أدري يا كلوديا.

- ماذا سيحدث لمنزلنا؟

هز إزيو رأسه. لم يجد وقتًا لأي ترتيبات، وحتى إذا سنح له الوقت، فمن الذي سيتعاون معه؟ لربما يتمكَّن الدوق لورنزو من إغلاق القصر وحراسته، لكن هذا أمل ضئيل.

«هل... هل أقيمت لهم جنازة لائقة؟».

«نعم. رتبتها بنفسي». كانوا يعبرون نهر أرنو عندئذٍ، وألقى إزيو نظرة نحو النهر.

أخيرًا اقتربوا من بوابات المدينة الجنوبية، وكان إزيو ممتنًا لبلوغهم هذا الحد دون أن يعرفهم أحد، لكنها كانت لحظة خطرة، لأن البوابات عليها حراسة مشدَّدة. من حسن الحظ أن أوراق السفر التي وفرتها باولا بأسماء مزيفة كانت متقنة بما يكفي، وكان الحراس يبحثون عن شاب يائس وحده، وليس أسرة صغيرة متواضعة المظهر.

تحرَّكوا جنوبًا بإيقاع ثابت، لم يتوقَّفوا إلا عندما ابتعدوا عن المدينة ليبتاعوا خبزًا وجبنًا ونبيذًا من بيت مزرعة، وليستريحوا ساعة في ظل شجرة بلوط عند طرف حقل ذرة. أرغم إزيو نفسه على التحلِّي بالصبر، إذ بقي أمامهم قرابة ثلاثين ميلًا حتَّى يبلغوا مونترجيوني، وعليهم التحرُّك بإيقاع الأم، التي كانت امرأة قوية في بداية الأربعينيات من عمرها، لكن الصدمة الهائلة التي تعرضت لها جعلتها تشيخ. ابتهل ازيو أن تتعافى أمه حالما يبلغوا منزل عمه ماريو، لكنه بدا له أن أي تعافي سيكون بطيئًا. وكان يأمل، إذا تفادوا أي عقبات، أن يبلغوا منزل ماريو بحلول عصر اليوم التالي.

قضوا تلك الليلة في حظيرة مهجورة، كانت نظيفة على الأقل وفيها قش دافئ. تعشُّوا ببقايا غدائهم، ووفروا كل راحة ممكنة لماريا، التي لم تتذمَّر، بل وبدت غير واعية بمحيطها، لكن عندما حاولت كلوديا أخذ صندوق بتروتشو

منها تمهيدًا لنومها، احتجت بعنف ودفعت ابنتها بعيدًا وشتمتها بأقذع الألفاظ. صُدم الأخ وأخته من سلوك أمهما.

لكنها نامت نومًا هادئًا، وبدت نشيطة في الصباح. اغتسلوا في جدول صغير، وشربوا من مياهه الصافية بدلًا من الإفطار، واستأنفوا رحلتهم. كان يومًا مشمسًا دافئًا تتخلله نسمات باردة، فأحرزوا تقدُّمًا جيدًا، ولم تمر بهم سوى بضع عربات على الطريق، ولم يروا أحدًا سوى مجموعة غريبة من العمال في الحقول والبساتين التي مروا بجوارها. تمكَّن إزيو من شراء فواكه قليلة، بما يكفي كلوديا وأمه، لكنه لم يكن جائعًا على أي حال، إذ بدد التوتر شهيته.

وفي العصر أخيرًا، اغتبطوا برؤية بلدة مونترِجيوني المسوَّرة الصغيرة تغمرها الشمس فوق تلَّتها على مبعدة. كان ماريو يحكم المقاطعة عمليًّا، وسيكونون داخل نطاق حكمه بعد ميل أو ميلين. تحمست المجموعة الصغيرة وحثَّت خُطاها.

قال إزيو لكلوديا مبتسمًا: «كدنا أن نصل».

فأجابته مبتسمة: «حمدًا للرب».

وما كادوا يسترخون حتَّى ظهرت، عند انحناءة في الطريق، هيئةُ شخص مألوف ومعه قرابة عشرة رجال يرتدون أزياء بالأزرق والذهبي، واعترضوا طريقهم. كان أحد الحراس يحمل الشعار المألوف المقيت المكون من دلافين ذهبية وصلبان على خلفية زرقاء.

حيَّاهم الشخص: «إزيو! طاب يومك، ويوم أسرتك، أو على الأقل ما بقي منها! يا لها من مفاجأة سارة!». أومأ لرجاله، فانتشروا على الطريق شاهرين رماحهم.

- فييري!
- بنفسه. حالما أطلقوا سراح والدي، كان سعيدًا بتمويل فرقة المطاردة الصغيرة هذه لي. آلمني رحيلك، كيف تغادر فلورنسا دون أن تودعني كما ينبغي؟

تقدم إزيو خطوة مشيرًا إلى كلوديا وأمه لتقفا خلفه. «ماذا تريد يا فييري؟ ظننت أنك ستكون راضيًا بما تمكَّن آل باتزي من تحقيقه».

بسط فييري ذراعيه. «ماذا أريد؟ حسنًا، لا أدري من أين أبدأ. أريد أشياء كثيرة! دعني أفكر... أريد قصرًا أكبر، وزوجة أجمل، ومزيدًا من المال... وماذا أيضًا؟ آه، نعم! أريد رأسك!». استلَّ سيفه، مشيرًا لحراسه بالاستعداد، وتقدم نحو إزيو بنفسه.

«إنني متفاجئ يا فييري، أحقًّا ستقاتلني وحدك؟ لكن صبيانك المتنمِّرين خلفك بالطبع!».

«لا أظنك جديرًا بسيفي». أعاد سيفه إلى غمده. «سأقضي عليك بقبضتي». وأردف موجها كلامه إلى كلوديا: «آسف على إزعاجكِ يا عزيزتي، لكن لا تقلقي، لن يستغرق هذا وقتًا طويلًا، ثمَّ سأرى ما يمكنني فعله لمواساتك، ومن يدري، ربما لمواساة أمك أيضًا!».

تقدم إزيو سريعًا وهوى بقبضته على فك فييرى، فترنح متفاجئًا، لكنه استعاد توازنه، ولوَّح لرجاله أن يتراجعوا وانقض على إزيو مطلقًا زمجرة غاضبة وهو يكيل اللكمة تلو اللكمة. كان هجوم فييري ضاريًا، فحاول إزيو المراوغة بمهارة، لكنه عجز عن توجيه ضربات فعالة. اشتبك الرجلان، وتصارعا للسيطرة على بعضهما، ومن حين إلى آخر كانا يتراجعان مترنحين ثمَّ يقذف كلاهما نفسه على الآخر بضراوة أشد. وفي النهاية تمكَّن إزيو من استغلال غضب فييري ضده، إذ لا يقاتل أحد بفعالية في خضم الغضب. اندفع فييري مصوبًا لكمة هائلة بيمناه، فتقدَّم إزيو خطوة فارتدَّت الضربة عن كتفه دون تأثير، وحمل زخم اندفاع فييري وزنه إلى الإمام مترنحًا، فعرقل إزيو خصمه من كاحليه فأسقطه متدحرجًا على التراب. فهرع فييري على أطرافه الأربعة نازفًا حانقًا ليحتمي خلف حراسه، ثمَّ نهض ونفض عن نفسه الغبار بيديه المتقرحتين.

قال: «سئمتُ من هذا». وزعق بحراسه: «اقضوا عليه، وعلى المرأتين أيضًا. سأجد من هي أفضل من تلك السحلية النحيلة وأمها الشبيهة بالجثة!».

صاح إزيو لاهثًا: «جبان!»، وامتشق سيفه، لكن الحراس شكَّلوا دائرة حوله مصوبين إليه رماحهم. وأدرك أنه سيجد صعوبة بالغة في قتالهم.

ضاقت الدائرة، وظل إزيو يلوح بسيفه في ما حوله، محاولًا إبقاء أمه وشقيقته خلفه، لكن الوضع بدا ميؤوسًا منه، وكانت ضحكة فييري المزعجة ضحكة انتصار.

فجأة سُمِع صوتُ صفير غريب، وخرَّ اثنان من الحراس إلى يسار إزيو على رُكبهم وسقطوا إلى الأمام متخلِّين عن أسلحتهم، وعلى ظهر كل منهما سكين مغروز حتَّى مقبضه صُوِّب بدقة مميتة، وتدفقت الدماء تحت قميصيهما راسمةً زهرتين قرمزيتين.

تقهقر باقي الحراس وَجِلين، لكن ليس قبل أن يسقط واحد آخر منهم على الأرض، وفي ظهره سكين أيضًا.

زعق فييري بصوت مشروخ من الرعب: «أي شعوذة هذه؟». واستلَّ سيفه متلفِّتًا بجنون.

أُجيب بضحكة خشنة مدويَّة. «ليس للأمر علاقة بالشعوذة يا فتى، إنما هي مهارة!». أتى الصوت من أيكة صغيرة على مقربة.

قال فييري: «أظهِر نفسك».

خرج من بين الأشجار رجلٌ ضخم مُلتحٍ ينتعل حذاءً طويل العنق ويرتدي درعًا خفيفة، وظهر خلفه عدَّة آخرين، يرتدون ملابس مشابهة. قال الرجل متهكمًا: «كما تشاء».

زمجر فييري: «مرتزقة!». ثمَّ التفت إلى حراسه. «ماذا تنتظرون؟ اقتلوهم! اقتلوهم جميعًا!».

لكن الرجل الضخم تقدم وانتزع سيف فييري منه برشاقة مذهلة، وكسر نصله على ركبته بسهولة كأنه غصن. «لا أظنها فكرة جيدة يا بن باتزي، لكن لا بُدَّ لي من قول إنك جدير باسم عائلتك».

لم يرد فييري عليه، وحث رجاله على القتال، فتقدَّموا على مضض نحو الغرباء. والتقط فييري رمح أحد الحراس الميتين وهاجم إزيو، وأسقط سيفه من يده وهو يسحبه.

قال الضخم: «إليك يا إزيو! استخدم هذا!»، وألقى إليه سيفًا آخر، حلق في الهواء وسقط على سن رأسه مهتزًّا على الأرض عند قدمي إزيو، فحمله بسرعة البرق. كان سلاحًا ثقيلًا، فاضطر إزيو إلى استخدام كلتا يديه للتلويح به، ونجح في قطع رأس رمح فييري. أما فييري نفسه، عندما رأى أن رجاله ينهزمون بسهولة أمام المرتزقة، وأن اثنين منهم سقطا سلفًا، صاح طالبًا منهم الانسحاب وولَّى هاربًا وهو يطلق اللعنات.

اقترب الرجل الضخم من إزيو والمرأتين مبتسمًا ابتسامة واسعة. «يسعدني أنني أتيت إليكم، ويبدو أنني وصلت في الوقت المناسب».

- إنني شاكرٌ لك، أيًّا تكن.

ضحك الرجل مرَّة أخرى، وبدا صوته مألوفًا.

سأله إزيو: «هل أعرفك؟».

- انقضت مدَّة طويلة، لكنني متفاجئ بعدم تعرفك على عمك!

- عمي ماريو؟

- هو نفسه!

عانق إزيو عناقًا قويًّا، ثمَّ اقترب من ماريا وكلوديا، وانقبضت أساريره عندما رأى حالة ماريا. قال لكلوديا: «اسمعي يا بُنيتي، سأصطحب إزيو إلى القلعة الآن، لكنني سأترك رجالي لحراستكما، سيقدمون لكما طعامًا وشرابًا. وسأرسل راكبًا سيعود بعربة لتحملكما بقية الطريق. مشيتم بما يكفي، وأرى أن زوجة أخي...». صمت ثمَّ تابع: «في غاية الإرهاق».

- شكرًا لك يا عمي.

- اتفقنا إذن. سنراكم عمًّا قريب.

استدار وأصدر أوامره لرجاله، ثمَّ وضع ذراعه حول كتف إزيو واقتاده إلى ناحية قلعته، التي بدت أبرز مبنى في البلدة الصغيرة.

سأله إزيو: «كيف عرفت أنني قادم في الطريق؟».

أجاب ماريو مراوغًا قليلًا: «أوه... صديقٌ لي في فلورنسا أرسل رسولًا على ظهر حصان سبقكم إليَّ. لكنني كنت أعرف سلفًا ما حدث، ليست لديَّ قوة كافية للزحف على فلورنسا، لكن الآن وقد عاد لورنزو، فلنأمل أن يتمكَّن من كبح جماح آل باتزي. أخبرني بمصير أخي، ومصير ابنَي أخي».

تردد إزيو، إذ ما زالت ذكرى موت أقربائه جرحًا نازفًا في ذاكرته. «كلهم... كلهم أُعدِموا بتهمة الخيانة... تمكَّنتُ من الهروب بشق الأنفس».

قال ماريو دون صوت: «رباه!». والتوى وجهه من الألم. «أتعرف سبب حدوث كل هذا؟».

«لا، آمل أن تقدر على مساعدتي على إيجاد الإجابات». وتابع إزيو إخبار عمه عن الصندوق المخفي في قصر العائلة ومحتوياته، وعن انتقامه من

ألبرتي والوثائق التي أخذها منه. «يبدو لي أن أهم ما فيها قائمة أسماء». ثمَّ أطرق حزينًا. «أكاد لا أصدق ما حلَّ بنا!».

ربَّت ماريو على ذراع ابن أخيه، وقال: «أعرف بعض شؤون أبيك». وخطر لإزيو أن ماريو لم يُظهِر دهشةً عندما أخبره بشأن الصندوق الخفي في الحجرة السرية. «سنصل إلى تفسير يا إزيو. لكن الآن علينا الحرص على تلبية احتياجات والدتك وشقيقتك، قلعتي ليست مكانًا يليق بأي امرأة مهما يكن قدْرها، والجنود من أمثالي لا يستقرون ويتزوجون أبدًا، لكن ثمَّة دير راهبات على بعد قرابة ميل ستجدان الأمان والرعاية فيه، إذا وافقتَ سنرسلهما إلى هناك. أنا وأنت أمامنا مهام كثيرة».

أومأ إزيو. رأى أن يرتب أمورهما في الدير، ويقنع كلوديا بأن هذا أفضل حل مؤقت، إذ كان يعرف أنها لن تصبر طويلًا على حياة العزلة.

اقتربا من البلدة الصغيرة. قال إزيو: «ظننت أن مونترجيوني تعادي فلورنسا».

أجابه عمَّه: «لا نعادي فلورنسا بقدر ما نعادي آل باتزي. إنك كبير بما يكفي لمعرفة تعقيدات التحالفات بين الدُّول المدينية، سواء أكانت مُدنًا كبيرة أم صغيرة. تدوم الصداقة عامًا، وتنقلب عداوة في العام التالي، ثمَّ تعود الصداقة مجددًا، وهكذا دواليك، إلى الأبد، كلعبة شطرنج جنونية. لكنك ستحب بلدتنا، الناس صادقون وكادحون، والبضائع التي ننتجها جيدة ومتينة، القس رجل صالح، لا يسرف في شرب الخمر، ولا يتدخل في ما لا يعنيه، كما أبذلُ ما بوسعي في حضوره، لكنني لم أكن قط أحد أبناء الكنيسة البارِّين. أفضل ما في البلدة هو النبيذ، أفضل كيانتي تتذوقه مصدره بساتين الكروم التي نملكها. هيا، شارفنا على الوصول».

كانت قلعة ماريو مقرًا قديمًا لآل أودِتوري، شيدت قرابة عام 1250، لكن موقعها كان يضم مبنى أقدم بكثير. عدَّل ماريو المبنى وأضاف إليه، فصار يبدو مثل فيلا شخص ثري، لكن الجدران عالية ويبلغ سُمكها عدَّة أقدام، ومنيعة التحصين. أمام القلعة بدلًا من حديقة يمتد ميدان تدريب شاسع، رأى إزيو فيه قرابة عشرين شابًّا مسلَّحًا منهمكين في تدريبات متعدِّدة لتحسين مهاراتهم القتالية.

قال ماريو: «ما أجمل العودة إلى الديار. لم تأتِ إلى هنا منذ أن كنت صبيًّا صغيرًا. حدثت بعض التغييرات منذئذٍ. ما رأيك؟».

- إنها مثيرة للإعجاب يا عمي.

كان باقي اليوم حافلًا بالنشاط. اصطحب ماريو إزيو في جولة حول القلعة، ثمَّ رتب له مكان إقامته، وحرص على استقرار كلوديا وماريا بأمان في دير الراهبات القريب، الذي كانت رئيسته صديقة قديمة مقربة من ماريو (ويشاع أنها كانت عشيقته قبل مدَّة طويلة). في الصباح التالي أُستُدعي إزيو مبكرًا إلى حجرة عمل ماريو، وهي مكان واسع عالي السقف، جدرانه مزينة بخرائط ودروع وأسلحة، ومؤثث بطاولات وكراسي ثقيلة من خشب البلوط.

ذات يوم بعدها بوقت قريب قال ماريو لإزيو بنبرة رسمية: «تدبَّر لنفسك الملابس والمعدات الملائمة، سأرسل معك أحد رجالي، ثمَّ عُد وسنبدأ».

- نبدأ ماذا يا عمي؟

بدا ماريو مندهشًا. «ظننتك أتيت إلى هنا لتتدرَّب».

- لا يا عمي، لم أكن أنوي التدريب. أتيت لأن قلعتك كانت أول مكان خطر لي عندما اضطررنا إلى الهروب من فلورنسا، وكنت أعتزم اصطحاب أمي وأختي إلى مكان أبعد.

تجهَّم ماريو. «لكن ماذا عن أبيك؟ ألا تظن أنه كان ليريد منك أن تكمل عمله؟».

- أي عمل؟ المجال المصرفي؟ عمل العائلة انتهى، لم يعد لبيت أودِتوري وجود، إلَّا إذا تمكَّن الدوق لورنزو من إبقائه بعيدًا عن أيدي آل باتزي.

قال ماريو: «لم أقصد ذلك»، وصمت ثمَّ تابع: «أتعني أن جيوفاني لم يخبرك قط؟».

- آسف يا عمي، ليست لديَّ أدنى فكرة عمَّا تتحدَّث عنه.

هز ماريو رأسه. «لا أدري فيم كان والدك يفكر، ربما رأى أن الوقت المناسب لم يحن بعد. لكن الأحداث الآن تجاوزت مثل هذه الاعتبارات». نظر إلى إزيو بجدية. «يجب علينا أن نتحدث، حديثًا صعبًا طويلًا. اترك لي الوثائق التي في جرابك، عليَّ دراستها، وأنت اذهب إلى البلدة لتجهز نفسك. إليك قائمة بما ستحتاج إليه والمال اللازم له».

مشوشًا انطلق إزيو إلى البلدة برفقة أحد رقباء ماريو، محارب مخضرم أشيب يُدعى أورازيو، وتحت إرشاده ابتاع إزيو خنجر حرب ودرع خفيفة،

ومن الطبيب المحلي ضمادات وأدوات طبية أساسية. ثمَّ عاد إزيو إلى القلعة فوجد ماريو ينتظره نافد الصبر.

قال إزيو: «مرحبًا، فعلتُ ما طلبتَه».

- وبسرعة أيضًا، أحسنت! والآن علينا تدريبك على القتال كما ينبغي.

- عمي، أعذرني. كما قلت لك، لا أنوي البقاء هنا.

عض ماريو شفته. «اسمع يا إزيو، بالكاد تمكَّنتَ من الصمود أمام فييري. إذا لم أصل إليك...» أطرق قليلًا. «حسنًا، غادِر إذا لا بُدَّ لك، لكن على الأقل تعلم أولا المهارات والمعارف اللازمة للدفاع عن نفسك، وإلَّا فلن تصمد أسبوعًا في الطريق».

لاذ إزيو بالصمت.

واصل ماريو الضغط عليه: «ليس من أجلي، تدرَّب من أجل أمك وأختك».

قلَّب إزيو خياراته في ذهنه، واضطر إلى الإقرار بأن عمه محق. قال: «حسنًا إذن، بما أنك تكرمت واشتريت لي ملابسي وأسلحتي».

ابتسم ماريو ابتسامة واسعة وربَّت على كتفه. «رجل صالح! ستعيش وتشكرني ذات يوم!».

***

في الأسابيع التالية، خضع إزيو لتدريب مكثف على استخدام الأسلحة، وبينما كان يتعلَّم مهارات قتالية جديدة، تعلم أيضًا المزيد عن خلفية عائلته، والأسرار التي لم يتسنَّ لوالده الوقت ليخبره بها. ثمَّ سمح ماريو له بالاطلاع على مكتبته، فبدأت تساوره هموم أنه ربما يكون مستقبله أهم ممَّا كان يظن.

سأل عمَّه: «أتقول إن أبي كان أكثر من مجرَّد مصرفي؟».

أجاب ماريو بجدية: «أكثر بكثير. أبوك كان قاتلًا مدرَّبًا تدريبًا عاليًا».

- مُحال. لطالما عرفتُ أبي مصرفيًّا، ورجل أعمال... كيف يُعقل أنه كان قاتلًا؟

«لا يا إزيو، كان أكثر من ذلك، وُلِد ورُبِّي ليقتُل. كان من كبار أعضاء «جماعة الحشَّاشين». تردَّد ماريو ثمَّ تابع: «لا بُدَّ أنك عثرت على مزيد من المعلومات بهذا الشأن في المكتبة. علينا مناقشة الوثائق التي عُهِدت إليك وكنتَ، حمدًا للرب! حاضر البديهة فاستعِدتها من ألبرتي. وقائمة الأسماء التي

ذكرتَها ليست قائمة بالأشخاص المدينين، إنما تضم أسماء جميع المسؤولين عن مقتل أبيك، وهم رجال يمثِّلون جزءًا من مؤامرة أكبر».

وجد إزيو صعوبة في استيعاب كل هذه المستجدات، كل ما ظن أنه يعرفه عن والده، وعائلته، كل شيء بدا نصف حقيقة. كيف أمكن لوالده إخفاء كل هذا عنه؟ بدا كل شيء غريبًا لا يُصدَّق. اختار إزيو كلماته بعناية، فلا بُدَّ أن لوالده سبب دفعه للتكتُّم. «أتقبّل عدم معرفتي بجوانب من حياة أبي، وسامحني على تشكيكي في كلامك، لكن ما الداعي إلى هذه السرِّيَّة الشديدة؟».

تمهَّل ماريو قبل أن يجيب: «أتعرف شيئًا عن «فرسان الهيكل»؟».

- سمعت بهم.
- أُسِّست الجماعة قبل عدَّة قرون، بعد وقت قصير من الحملة الصليبية الأولى، وصارت نخبة محاربين في سبيل الرب. عمليًّا كانوا رهبانًا يرتدون الدروع. نذروا على أنفسهم حياة الفقر والامتناع عن مُتع الدنيا. لكن توالت السنين، وتغيَّر وضعهم، بمرور الوقت انخرطوا في المعاملات المالية الدولية، وحقَّقوا فيها نجاحًا كبيرًا أيضًا. وصارت جماعات فرسان أخرى - فرسان الإسبتارية وفرسان تيوتون- تنظر إليهم بازدراء، وبدأت قوتهم تثير قلق الكثيرين، حتَّى الملوك. أسسوا قاعدة في جنوب فرنسا، وخططوا لإنشاء دولتهم. كانوا لا يدفعون الضرائب، ويملكون جيشًا خاصًا استبدُّوا به على الجميع. وأخيرًا، قبل قرابة مئتي عام، تحرك ضدهم ملك فرنسا فيليب الوسيم، في حملة تطهير عنيفة، اعتُقِل فرسان الهيكل، وطُردوا، وذبحوا، وفي النهاية عاقبهم البابا بالحرمان الكَنَسي. لكن تعذَّر استئصالهم جميعًا، إذ كان لديهم خمسة عشر مجمعًا في جميع أنحاء أوروبا. لكن اليأس استولى على فرسان الهيكل بعد مصادرة عقاراتهم وممتلكاتهم، وبدا أن شوكتهم كُسِرت.
- ماذا حدث لهم؟

هز ماريو رأسه. «بالطبع كان تظاهرهم بالانكسار حيلة ليضمنوا نجاتهم، نقلوا أنشطتهم إلى الخفاء، مكتنزين ثرواتهم التي نهبوها، وحافظوا على منظمتهم، ثمَّ صاروا أشد عزمًا على بلوغ هدفهم الحقيقي».

- وماذا كان هدفهم؟

«بل قُل ماذا هو هدفهم!». برقت عينا ماريو. «هدفهم الذي لن يتنازلوا عنه هو السيطرة على العالم. وثمة منظمة واحد فقط تكرِّس جهودها لوضع حد لهم: «جماعة الحشَّاشين»، التي تشرَّف أبوك، وأتشرَّف أنا أيضًا، بالانتماء إليها».

احتاج إزيو إلى لحظة ليستوعب ما سمعه. «وهل كان ألبرتي من فرسان الهيكل؟».

أومأ ماريو متجهِّمًا. «نعم، وكذلك جميع المذكورين في قائمة أبيك».

- و... فييري؟

- منهم أيضًا، ووالده فرانسسكو، وعشيرة باتزي كلها.

فكر إزيو مليًّا وقال: «هذا يفسر الكثير... ثمَّة شيء لم أُريك إياه بعد...». رفع كُم قميصه كاشفًا عن خنجره السري.

قال ماريو: «آه، تصرَّفتَ بحكمة بعدم الكشف عن الخنجر حتَّى تأكُّدك من أنك تستطيع أن تثق بي ثقة تامة. كنت أتساءل عمَّا حدث له، وأرى أنك أصلحته. كان ملكًا لأبيك، منحه له أبونا، الذي أخذه من جدنا. كُسر في... مواجهة خاضها أبوك قبل سنوات عديدة، ولم يجد حِرفيًّا ماهرًا أو جديرًا بالثقة لإصلاحه. أحسنت صُنعًا يا بُني».

قال إزيو: «ورغمًا عن هذا، كل هذا الحديث عن الحشَّاشين وفرسان الهيكل يبدو كأنه من حكاية قديمة... غرائبيٌّ للغاية».

ابتسم ماريو. «كأنه من صفحة رق عليها كتابة سرية ملغزة؟».

- أتعرف بأمر صفحة مجلد المخطوطات؟

هز ماريو كتفيه. «هل نسيت؟ كانت مع الأوراق التي أعطيتها لي».

«هلّا أخبرتني بماهية تلك الصفحة؟». كان إزيو مترددًا بشأن ذِكر صديقه ليوناردو إلَّا عند الضرورة القصوى.

قال ماريو: «حسنًا، أيًّا كان من أصلح نصلك، فلا بُدَّ أنه تمكَّن من قراءة جزء من الصفحة على الأقل»، ورفع يده عندما هَمَّ إزيو بفتح شفتيه. «لكنني لن أسألك. أرى أنك تود حماية شخصٍ ما، وأحترم رغبتك. لكن الصفحة ليست مجرَّد إرشادات عن كيفية عمل السلاح. صفحات مجلد المخطوطات مشتتة في جميع أنحاء إيطاليا، وهي دليل التنظيم الداخلي لجماعة الحشَّاشين،

وأصولها وغاياتها وأساليبها. يمكننا قول إنها «عقيدتنا». كان والدك يعتقد أن مجلد المخطوطات يحوي سرًّا قويًّا، أمر من شأنه تغيير العالم». صمت مفكرًا، ثمَّ أردف: «ربما لهذا استهدفوه».

تلاطم عقل إزيو إثر سماعه كل هذه المعلومات، وتعذر عليه استيعابها دفعة واحدة. «حشَّاشون، فرسان معبد، مجلد المخطوطات الغريب...».

- سأكون مرشدك يا إزيو، لكن أولًا عليك تعلُّم النظر إلى الأمور بذهن مفتوح، وتذكَّر دومًا: ما من حقيقة مطلقة، وكل شيء مباح.

لم يُدلِ ماريو بالمزيد بعدها، رغم إلحاح إزيو. واصل العم إخضاع ابن أخيه للتدريبات العسكرية الصارمة، فوجد إزيو نفسه من الفجر إلى الغسق يتدرب مع مرتزقة شبان في ميدان التدريب، ثمَّ يتهالك على الفراش مرهقًا إلى درجة العجز عن التفكير في أي شيء سوى النوم. ومن ثَم، ذات يوم...

«أحسنت يا بن أخي! أراك صرت مستعدًّا».

سُر إزيو. «شكرًا يا عمي، على كل ما قدمته لي».

أجاب ماريو بمعانقة الفتى عناقًا عنيفًا. «أنت من عائلتي! لم أفعل شيئًا سوى واجبي ورغبتي!».

- يسعدني أنك أقنعتي بالبقاء سابقًا.

نظر ماريو إليه باهتمام شديد. «إذن... هل أعدت النظر في قرار مغادرتك؟».

بادله إزيو النظرات. «آسف يا عمي، فقد حسمت أمري. من أجل سلامة أمي وكلوديا ما زلت أعتزم الذهاب إلى الساحل والإبحار إلى إسبانيا».

لم يخفِ ماريو استياءه. «معذرة يا بن أخي، لم أعلِّمك المهارات التي تتقنها الآن بدافع التسلية أو من أجل مصلحتك وحدك، علمتك حتَّى تكون جاهزًا للهجوم على أعدائنا».

- سأفعل إذا وجدوني.

قال ماريو بمرارة: «تريد أن تغادر إذن؟ أن تتخلى عن كل ما قاتل والدك ومات من أجله؟ وأن تتخلى عن إرثك؟ حسنًا! لا أستطيع التظاهر بأنك لم تخيب أملي، خيبة مريرة. لكن فليكُن، سيصطحبك أورازيو إلى دير الراهبات عندما تجد الوقت المناسب لسفر أمك. أتمنَّى لك حظًّا سعيدًا».

أنهى ماريو كلامه وأدار ظهره لابن أخيه وسار مبتعدًا.

***

انقضى مزيدٌ من الوقت، إذ وجد إزيو نفسه مضطرًا إلى منح والدته ما يكفي من السلام والهدوء ليمهد الطريق لتعافيها. وهو نفسه بدأ تجهيزات المغادرة منقبض الصدر. وأخيرًا خرج ليزور دير الراهبات الزيارة التي حسبها الأخيرة لوالدته وشقيقته قبل سفرهم، ووجدهما في حال أفضل ممَّا كان ليجرؤ على أن يأمله. كلوديا صادقت بعض الراهبات الأصغر سنًّا، وتفاجأ إزيو ممتعضًا عندما بدا واضحًا له أن شقيقته بدأت تروق لها حياة الراهبات، كما وجد والدته تتعافى ببطء. ثمَّ احتجَّت رئيسة الدير عندما سمعت خططه، ونصحته بأن والدته في أمسِّ الحاجة إلى الراحة.

لذا ساورته الهواجس عندما عاد إلى قلعة ماريو، وكان مدركًا أن هذه الهواجس تنامت بمرور الوقت.

في تلك الفترة كانت تجري استعدادات عسكرية في مونترجيوني، وذات يوم كُثِّفت التحرُّكات وبدا الجميع مستعجلين، فانشغل إزيو بما رآه، لم يجد عمه في أي مكان، وعثر على أورازيو في حجرة الخرائط. سأله: «ماذا يجري؟ أين عمي؟».

- إنه يستعد للمعركة.

- ماذا؟ معركة مع مَن؟

- أوه، أظنه كان ليخبرك إذا قررتَ البقاء، لكن جميعنا نعرف أنك لا تنوي البقاء.

- حسنًا...

- اسمع، صديقك القديم فييري دي باتزي تمركز في سان جيمِنيانو، وزاد عدد جنود الحامية ثلاثة أضعاف، ويخبر الجميع بأنه، حالما يستعد، سيأتي ليدمر مونترجيوني حتَّى يسويها بالأرض. لذا سنذهب إليه في عقر داره، لنسحقه ونلقنه درسًا لن ينساه عمَّا قريب.

أخذ إزيو نفسًا عميقًا. لا شك أن هذه التطورات غيرت كل شيء. وربما كان القَدَر، الدافع الذي ظل إزيو يبحث عنه دون وعي منه. «أين عمي؟».

- في الإسطبلات.

خرج إزيو دونما إبطاء.

صاح أورازيو: «مهلًا! إلى أين ذاهب؟».

- إلى الإسطبلات! لا بُدَّ من وجود حصان لي أيضًا!

ابتسم أورازيو وهو يشاهد الفتى يبتعد.

7

قاد ماريو، وإزيو راكب إلى جواره، قواته إلى مكان قريب من سان جيمِنيانو في منتصف ليلة ربيعية عام 1477، بدايةً لمواجهة صعبة.

«أخبرني مرَّة أخرى بما دفعك إلى تغيير رأيك». تكلم ماريو وهو ما زال شديد السرور بقرار ابن أخيه.

- تُحب سماعه فحسب، أليس كذلك؟

- وماذا لو أحببت؟ على أي حال، كنت أعرف أن ماريا ستستغرق وقتًا أطول حتَّى تتعافى، وهما بأمان حيث هما، كما تعرف أنت أيضًا.

ابتسم إزيو. «كما أخبرتك سلفًا، أردتُ تولِّي المسؤولية، وكما أخبرتك سلفًا، فييري يهددك بسببي».

- وكما أخبرتك، أيها الشاب، إنك تملك حسًّا معقولًا بأهمية نفسك. الحقيقة هي أن فييري يهددني لأنه من فرسان الهيكل ونحن حشَّاشين.

في أثناء كلامه كان ماريو ينظر مدققًا إلى أبراج سان جيمِنيانو العالية المشيدة قريبًا من بعضها، بدت المباني المربعة كأنها تناطح السماء، وراود إزيو إحساسٌ غريب بأنه رأى هذا المشهد من قبل، لكنه بدا له كأنه كان في حلم أو حياة أخرى، لأنه لم يتذكر مناسبة بعينها رأى فيها المكان.

كانت قمم الأبراج مضاءة بمشاعل، كما لاحت العديد من المشاعل في أعلى جدران البلدة وبواباتها.

قال ماريو: «يبدو أن فييري حرص على تحصين البلدة، ونظرًا إلى المشاعل يبدو أنه يتوقَّع مجيئنا. أمر مؤسف، لكنني لست متفاجئًا، إذ لديه

جواسيس كما لدي». صمت، ثمَّ تابع: «أرى رُماة عند المتاريس، والبوابات عليها حراسة مشدَّدة». واصل مسح المدينة بعينيه. «لكن رغمًا عن كل هذا، يبدو أنه ليس لديه عدد كاف من الرجال لجميع البوابات، البوابة الجنوبية تبدو أقل مِنعة، لا بُدَّ أنها المكان الذي لا يرجِّح هجومنا عبره، إذن سنهجم من هناك».

رفع ذراعه وركل خاصرتي حصانه. تقدمت قواته خلفه، وظل إزيو إلى جانبه. قال ماريو بنبرة صارمة: «إليك الخطة، أنا ورجالي سنشتبك مع الحراس عند البوابة، في هذه الأثناء عليك أن تجد طريقة لتسلق الجدار وفتح البوابة من الداخل. علينا التسلل بصمت وسرعة».

نزع من كتفه حزام عريض مثبت فيه سكاكين تُستخدم بإلقائها وناوله لإزيو. «خذ هذه، استخدمها للتخلص من الرماة».

وحالما اقتربوا مسافة كافية، ترجلوا وقاد ماريو مجموعة من أفضل جنوده نحو جماعة الحراس المتمركزين عند مدخل المدينة الجنوبي. تركهم إزيو، وهرع مجتازًا مئة ياردة على قدميه مستخدمًا غطاء الأجمات والشجيرات لإخفاء تقدمه، حتَّى وجد نفسه عند أسفل الجدار. رفع قلنسوته، وبضوء المشاعل التي في البوابة رأى أن ظل قلنسوته يحمل شبهًا غريبًا برأس النسر. نظر إلى الأعلى، فرأى الجدار يرتفع فوقه خمسين قدمًا أو أكثر، ولم ير أحدًا في فتحات الرماية بالأعلى. أحكم تثبيت حزام السكاكين، وبدأ التسلُّق، ووجده صعبًا، إذ شُيِّدَ الجدار بحجارة مستوية يصعُب إيجاد موطئ قدم فيها، لكن الكُوَّات القريبة من قمة الجدار سهَّلت عليه تثبيت نفسه وهو ينظر بحذر فوق حواف فتحات الرماية. رأى بمحاذاة المتاريس إلى يساره اثنين من الرماة، ظهرهما إليه، منحنيين فوق الجدار وقوسيهما مشدودين، كانا قد رأيا بدء هجوم ماريو، واستعدا لإطلاق سهامهما على المرتزقة الحشَّاشين. لم يتردَّد إزيو، فإما حياتهما أو حياة أصدقائه، والآن ثمَّن المهارات التي أصر عمه على تعليمها له. وبسرعة، ركز عقله وعينيه في العتمة، وسحب سكينين وألقاهما، واحدًا تلو الآخر، بدقة مميتة. أصاب الأول مؤخِّرة عنق أحد الرماة إصابة قتلته في الحال، فهوى الرجل من الجدار دون أن تَنِدَّ عنه أنَّة، وانطلق السكين الثاني على مستوى أخفض قليلًا، وانغرز بقوة في ظهر الرجل الثاني، فأطلق صيحة قصيرة وترنح إلى الأمام وسقط في الظلام الذي تحته.

رأى إزيو البوابة تحته عند نهاية سلَّم حجري ضيق، وتذكر عندئذٍ مسرورًا أن عدد قوات فييري ليس كافيًا لحراسة المدينة بفعالية تامة، إذ لم يكن يوجد جنود من الداخل. هبط السلالم مسرعًا، كأنه يحلِّق، ووجد الذراع التي تحرِّك المزاليج الحديدية الثقيلة التي توصد الأبواب المصنوعة من خشب البلوط التي يبلغ ارتفاعها عشرة أقدام، جذب الذراع، مستنفرًا كل قوته، إذ لم يصمَّم بحيث يحركه رجل واحد، لكن أخيرًا تمَّت المهمَّة، وجذب إحدى الحلقات الضخمة المثبتة في الباب بارتفاع الكتف، وبدأت البوابة تُفتح، وفي أثناء فتحها رأى إزيو ماريو ورجاله في ختام مهمتهم الدموية، ورأى اثنين من الحشَّاشين ميتين، وعشرين من قوَّات فييري قد أُرسِلوا إلى خالقهم.

قال ماريو: «أحسنت يا إزيو!».

حتَّى الآن لم ترِن أجراس الإنذار، لكنها مسألة وقت ليس إلَّا.

قال ماريو: «هيا تحرَّكوا بهدوء، الآن!»، والتفت إلى أحد رقبائه قائلًا: «عُد واجلب القوة الرئيسية».

ثمَّ تقدم حذرًا عبر الشوارع الصامتة. لا بُدَّ أن فييري فرض حظر تجوُّل إلى درجة ما، إذ لم يظهر أحد في الشارع. ثمَّ كادوا أن يصطدموا بإحدى دوريات باتزي، لكنهم تسلَّلوا عائدين إلى الظلال، وتركوا الدورية تمُر، ثمَّ انقضوا عليها من الخلف وقضوا على رجالها بفعالية تامَّة.

سأل إزيو عمه: «ما الخطوة التالية؟».

«علينا أن نجد مكان قائد الحراس هنا، اسمه روبرتو، لا بُدَّ أنه يعرف مكان فييري». بدا ماريو متوتِّرًا أكثر من المعتاد. «إننا نستغرق وقتًا أطول من اللازم. من الأفضل أن ننقسم. اسمع، أعرف روبرتو، في هذه الساعة من الليل سيكون ثملًا في حانته المفضلة أو نائمًا في القلعة. تولَّ أنت أمر القلعة، اصطحب معك أورازيو واثني عشرة رجلًا». نظر إلى السماء، فرأى أولى خيوط الفجر، وتذوَّق الهواء، فوجد فيه برودة اليوم الجديد. «قابلني بجوار الكاتدرائية قبل صياح الديوك لتقدِّم تقريرك. ولا تنسَ، إنني أترك لك قيادة عصابة المشاغبين هذه!». ابتسم لرجاله بودٍّ، واقتاد قوَّته واختفى في شارع يفضي إلى أعلى تلٍّ.

قال أورازيو مبتسمًا: «القلعة شمال غرب المدينة... يا سيدي». وابتسم الآخرون أيضًا. استشعر إزيو طاعتهم لماريو وعدم رضاهم بأن يكونوا تحت قيادة شابٍّ غِرٍّ عديم الخبرة.

قال إزيو بحزم: «فلنذهب إذن. اتبعوني عند إشارتي».

كانت القلعة تمثِّل أحد جوانب الساحة الرئيسية في المدينة، وليست بعيدة عن الكاتدرائية، قرب قمة التل الصغير الذي شيدت المدينة عليه. وصلوا إلى القلعة دون صعوبة، لكن قبل أن يدخلوها لاحظ إزيو عددًا من حراس باتزي متمركزين عند مدخلها. أشار إلى رجاله بأن يبقوا بالخلف، وسار نحو الحراس متسلِّلًا في الظلال وصامتًا كثعلب، حتَّى صار قريبًا منهم بحيث يمكنه التنصت على نقاش يدور بين اثنين. اتضح له أنهما غير سعيدين بقيادة فييري، وكان الأشد امتعاضًا من بينهما مسترسلًا في تذمُّره.

كان يقول: «أؤكد لك يا تيبالدو، لستُ راضيًا عن ذلك الجرو فييري، لا أظنه قادرًا على تصويب بوله في دلو، ناهيك بالدفاع عن مدينة أمام جنود شديدي البأس. أما القائد روبرتو، فهو يثمل حتَّى يصير كقنينة كيانتي تمشي على قدمين!».

حذَّره تيبالدو: «إنك تثرثر كثيرًا يا زوهاني، تذكَّر ما حدث لبرناردو عندما تجرَّأ على فتح فمه».

ألجم الآخر نفسه، وأومأ مغمومًا: «إنك محق... سمعتُ أن فييري فقأ عينيه».

- حسنًا، أود الإبقاء على بصري، لو تكرَّمت، لذا يجدر بنا إنهاء هذا الحديث. لا نعرف عدد رفاقنا الذين يشاطروننا الرأي، وفييري لديه جواسيس في كل مكان.

راضيًا بما سمعه عاد إزيو إلى جنوده. نادرًا ما يقاتل الجنود الساخطون بفعالية، لكن من الوارد أن يكون تحت إمرة فييري جنود أقوياء من مشايعي آل باتزي الأوفياء. وأما في ما يلي بقية رجال فييري، عرف إزيو بنفسه مدى سطوة الخوف عليهم. لكن المهمَّة الآن هي الوصول إلى القلعة، جال إزيو بناظريه في الساحة، فوجدها مظلمة وخالية تمامًا ما عدا حراس آل باتزي القليلين.

«أورازيو».

- نعم سيدي.
- هلّا اشتبكت مع أولئك الرجال وقضيت عليهم؟ بسرعة وهدوء. سأحاول الصعود على السقف وأرى إذا لديهم مزيد من الحراس في الفناء.
- هذا ما جئنا من أجله يا سيدي.

ترك إزيو أورازيو لتولِّي أمر الحراس، وتحقَّق من أن معه عددًا كافيًا من السكاكين في حزامه، ثمَّ ركض مسافة قصيرة تفصله عن شارع جانبي بمحاذاة القلعة، وتسلَّق إلى سقف مجاور، ومنه قفز إلى سقف القلعة، ورأى أن القلعة في وسطها فناء داخلي. حمد الرب لأن فييري أهمل نشر حراس في الأبراج العالية بمنازل كبار العائلات المحلية المنتشرة في أنحاء المدينة، فمن تلك الأماكن العالية لأمكنهم مراقبة كل ما يجري. لكن إزيو عرف أيضًا أن نيل السيطرة على تلك الأبراج سيكون أول أهداف قوة ماريو الرئيسية. ومن سقف القلعة رأى الفناء خاليًا، فقفز هابطًا إلى سقف المدخل ذي الأعمدة، ومنه قفز إلى الأرض. ثمَّ لم يجد صعوبة في فتح البوابة وإدخال رجاله، الذين سحبُوا جثث أفراد الدورية بعيدًا عن الأنظار في ظلال المدخل ذي الأعمدة، ولتجنُّب إثارة الشكوك أغلقوا بوابات القلعة خلفهم.

بدت القلعة مهجورة، لكن سرعان ما جاءت أصوات من الساحة بالخلف، وظهرت مجموعة أخرى من رجال فييري، فتحوا البوابات ودخلوا الفناء وهم يسندون بينهم رجلًا ضخمًا بدينًا باديًا عليه السُّكر.

تساءل الرجل: «أين ذهب حراس البوابات؟ لا تقولوا لي إن فييري تخلَّى عنِّي وأرسلهم في دورية أخرى من دورياته اللعينة!».

قال أحد الرجال الذين يسندونه راجيًا: «سيد روبرتو، ألم يحن وقت استراحتك؟».

- ماذا تعني؟ عدتُ إلى هنا على ما يرام، أليس كذلك؟ على أي حال، ما زال الليل طفلًا يحبو!

تمكَّن القادمون الجدد من إجلاس قائدهم على حافة نافورة في وسط الفناء، وتجمعوا حوله وهم لا يدرون ما ينبغي لهم فعله.

قال روبرتو كأنه يرثى لحاله: «سيظن أي أحد أنني قائد غير كفء!».

قال الرجل الأقرب إليه: «غير صحيح يا سيدي!».

قال روبرتو: «هذا رأي فييري، ينبغي أن تسمعوا طريقة كلامه معي!». صمت ناظرًا في ما حوله وحاول التركيز ثمَّ تابع حديثه بنبرة أقرب إلى النحيب: «استبدالي مسألة وقت ليس إلَّا، أو ربما يحدث الأسوأ!». توقَّف مجددًا وهو ينشج بأنفه. «أين تلك القنينة اللعينة؟ أعطني إياها!». شرب جرعات كبيرة، ونظر إلى القنينة ليتأكد من فراغها قبل أن يقذفها بعيدًا. «كل هذا خطأ ماريو! لم أصدِّق عندما أخبرني جواسيسنا بأنه آوى ابن أخيه، بل وأنقذ الوغد الصغير من فييري نفسه! والآن أعمى الغضب فييري، وأنا عليَّ مواجهة رفيقي القديم!». نظر في ما حوله مُنهَكًا. «صديقي القديم ماريو! كُنَّا إخوة سلاح ذات يوم، أكنتم تعرفون هذا؟ لكنه رفض الانضمام إلى آل باتزي معي، رغم أن أموالهم ومساكنهم ومعداتهم أفضل، كل شيء! ليته هنا الآن. أعرف أنني أطلب المستحيل، لكن...».

«معذرة». قاطعه إزيو متقدمًا إليه.

قال روبرتو: «ماذ... مَن أنت؟».

- اسمح لي بالتعريف بنفسي، أنا ابن أخ ماريو.

«ماذا؟». زأر روبرتو ونهض مترنحًا محاولًا بلا جدوى الإمساك بسيفه. «اعتقلوا الكلب!». ومال مقتربًا فشم إزيو من أنفاسه رائحة النبيذ الحامضة، والبصل أيضًا. «أتعرف يا إزيو؟». ابتسم. «ينبغي أن أكون ممتنًّا لك، فالآن وقد قبضت عليك، لن يرفض فييري لي طلبًا. ربما أتقاعد. فيلا جميلة مطلَّة على الشاطئ، ربما...».

قال إزيو: «لا تَبْنِ قصورك في الهواء أيها القائد».

استدار روبرتو فرأى ما اكتشفه رجاله سلفًا، أنهم محاصرون بالمرتزقة الحشَّاشين، وجميعهم مدججين بالسلاح.

«آه». تهالك روبرتو جالسًا مرَّة أخرى، وقد تملَّكه الإحباط.

قُيِّد حراس باتزي وقُذفوا في زنازين القلعة، وجلس روبرتو، وقد زُوِّد بقنينة جديدة، مع إزيو عند طاولة في حجرة مُطلَّة على الفناء، وتحدَّثا. ثمَّ اقتنع روبرتو أخيرًا.

- أتريد فييري؟ سأخبرك بمكانه. هذا يناسبني على أي حال. اذهب إلى قصر الدولفين في الساحة بجوار البوابة الشمالية، يعقدون اجتماعًا هناك...

- بمَن يجتمع؟ أتعرفهم؟

هز روبرتو كتفيه. «مزيد من الموالين له من فلورنسا، على ما أظن. يُفترض أن يجلبوا تعزيزات معهم».

قاطعهما أورازيو باديًا عليه القلق. «إزيو! أسرع! تدور معركة بجوار الكاتدرائية، يجدر بنا الذهاب!».

- حسنًا، فلنذهب!

- ماذا عنه؟

نظر إزيو إلى روبرتو. «اتركه. أظنه اختار الجانب الصحيح أخيرًا».

حالما خرج إزيو إلى الساحة، سمع جلبة قتال قادمة من المساحة المفتوحة أمام الكاتدرائية، وعندما اقترب رأى أن رجال عمه، بظهورهم إليه، يُرغَمون على الانسحاب أمام فرقة كبيرة من قوات باتزي. شق إزيو طريقه مستخدمًا سكاكينه وقاتل حتَّى وصل إلى جانب عمه وأخبره بما عرفه.

«هنيئًا لروبرتو!». تكلم ماريو دون أن يتوقَّف لحظة عن إعمال سيفه في مهاجميه. «لطالما تأسفتُ لانحيازه إلى آل باتزي، لكنه ثاب إلى رشده أخيرًا. اذهب! أعرف ما يخطط فييري له».

- لكن ماذا عنك؟ هل ستقدر على صدَّهم؟

بدا ماريو متجهِّمًا. «لمدَّة قصيرة على الأقل. لكن ينبغي أن تكون قوتنا الرئيسية قد استولت على معظم الأبراج بحلول هذا الوقت، سيأتون للانضمام إلينا. أسرع يا إزيو، لا تدع فييري يهرب!».

كان القصر في أقصى شمال المدينة، بعيدًا عن القتال، لكن حراس باتزي كثيرون حوله، على الأرجح كانوا التعزيزات التي تحدث روبرتو عنها، فتعيَّن على إزيو اختيار طريقه بحرص حتَّى يتجنبهم.

وصل في الوقت المناسب. بدا أن الاجتماع انتهى، ورأى مجموعة من أربعة رجال يرتدون عباءات يسيرون نحو مجموعة خيول مربوطة. تعرف إزيو على ياكوبو دي باتزي، وابن أخيه فرانسسكو، وفييري نفسه، وشهق مدهوشًا إثر رؤيته الإسباني الطويل الذي كان حاضرًا عند إعدام والده، وازدادت دهشة إزيو عندما رأى شعار أحد الكرادلة مطرزًا على كتف رداء أحد حراس الرجل. توقَّف الرجل بجوار الخيول، وتمكَّن إزيو من الاختباء خلف شجرة مجاورة

محاولًا التنصت على حوارهم. أصاخ سمعه، وجاءته الكلمات متقطعة، لكنه سمع ما يكفي لاستثارة فضوله.

كان الإسباني يقول: «اتفقنا إذن. فييري، أنت ستبقى هنا لإعادة تأسيس وجودنا في أقرب وقت ممكن. فرانسسكو سينظم قواتنا في فلورنسا حتَّى تحين الفرصة المواتية للهجوم. وأنت يا ياكوبو، عليك بالاستعداد لتهدئة الناس حالما نبسط سيطرتنا. لا تستعجلوا، التخطيط المتروِّي يزيد من احتمال نجاحنا».

قال فييري: «لكن يا سيد رودريغو، ماذا سأفعل حيال ذلك السِّكِّير ماريو؟».

«تخلَّص منه! يستحيل أن يعرف ما نخطط له». ركب الرجل الذي يُدعى رودريغو على حصانه، ورأى إزيو وجهه بوضوح لوهلة، رأى العينين الباردتين، والأنف المعقوف، وخمَّن أنه في أواسط الأربعينيات من عمره.

زمجر فرانسسكو: «لطالما سبَّب لنا المتاعب، مثل أخيه الوغد».

قال فييري: «لا تقلق يا أبي، سأجمع شملهم بالموت عمَّا قريب».

قال المدعو رودريغو: «هيا، مكثنا مدَّة أطول من اللازم». امتطى ياكوبو وفرانسسكو حصانيهما المُطهَّمَيْن بجواره، واتجهوا نحو البوابة الشمالية، التي بدأ حراس باتزي يفتحونها. وأردف رودريغو: «فليرشدنا أبو الفهْم»

انطلقوا خارجين وأُغلقت البوابة خلفهم. تساءل إزيو عمَّا إذا كانت الفرصة سانحة لقتل فييري، لكن حراسه كثر، كما ربما يكون من الأفضل أسره واستجوابه. ركز إزيو على حفظ الأسماء التي سمعها وعزم على إضافتها إلى قائمة الأعداء التي دوَّنها والده، لأن من الواضح أنهم جميعهم مشتركون في مؤامرة قيد التنفيذ.

وفي هذه الأثناء وصلت فرقة أخرى من حراس باتزي، اقترب قائدها من فييري راكضًا.

عاجله فييري بحدة: «ما الخطب؟».

- أيها القائد، أحمل خبرًا سيئًا. رجال ماريو أودِتوري اخترقوا آخر دفاعاتنا.

ابتسم فييري مكشرًا عن أسنانه. «هذا ما يظنه. لكن انظر». لوح نحو الرجال الأشداء حوله. «وصل مزيد من الرجال من فلورنسا. سوف نكنسهم

كالقمامة إلى خارج سان جيمِنيانو قبل نهاية اليوم!». رفع صوته مخاطبًا الجنود المجتمعين: «أسرِعوا لملاقاة عدوكم! اسحقوهم كالحشرات!».

أطلق جنود مليشيا آل باتزي صيحة حرب عظيمة، واصطفُّوا خلف ضباطهم وتحرَّكوا عبر البوابة الشمالية نحو الجنوب لملاقاة مرتزقة ماريو. ابتهل إزيو ألَّا يؤخذ عمه على حين غرَّة، لأن قوات باتزي صارت تفوقه عددًا بكثير. لكن فييري تخلَّف عن قواته، بقي وحده مع حرسه الشخصي، وعاد إلى أمان القصر. لا بُدَّ أنه لديه شؤون متعلقة بالاجتماع عليه تولي أمرها في القصر، أو ربما عاد ليرتدي درعه استعدادًا للقتال. وعلى أي حال ستشرق الشمس قريبًا. خرج إزيو من الظلام وأنزل قلنسوته من رأسه.

قال: «صباح الخير يا سيد باتزي، هل كانت ليلتك حافلة؟».

استدار فييري إليه، ولوهلة ارتسمت ملامح الصدمة والذعر على وجهه. لكنه استعاد رباطة جأشه وبدأ يتبجح: «ربما كان ينبغي أن أعرف أنك ستظهر مرَّة أخرى. تصالح مع خالقك يا إزيو، لديَّ أشياء أهم منك عليَّ التعامل معها. لستَ سوى بيدق يُسقَط من فوق لوح».

اندفع حراسه نحو إزيو، لكنه بادر بالانقضاض عليهم، وصرع أوَّلهم مستخدمًا آخر سكاكينه. أصدر النصل الصغير في الهواء أزيز شيطانيًّا. ثمَّ امتشق سيفه وأخرج خنجره واشتبك مع بقية الحراس، راح يقطع ويطعن كمجنون في دوامة من الدماء، بحركات محسوبة ومميتة، حتَّى هرع الحارس الأخير مبتعدًا وهو يعرج. وعندئذٍ تحرك فييرى نحو إزيو، ملوحًا بفأس معارك بشع أخرجه من سرج حصانه، الذي ما زال واقفًا حيث كانت الخيول الأخرى مربوطة. انحنى إزيو ليتفادى تصويبة قاتلة، لكن الضربة، رغم ارتدادها عن درعه، جعلته يترنَّح ويسقط، ويفلت سيفه. وعلى الفور وقف فييري فوقه، وركل السيف بعيدًا عن متناوله، رافعًا الفأس فوق رأسه. استجمع إزيو قواه وصوب ركلة إلى منفرج خصمه، لكن فييري توقَّع الركلة وقفز متراجعًا، وحالما انتهز إزيو الفرصة لينهض، ألقى فييري فأسه على معصمه الأيسر، فأسقط الخنجر منه وجرحه جرحًا عميقًا على ظاهر يده اليسرى، ثمَّ أخرج فييري خنجره.

قال فييري: «إذا أراد المرء إنجاز عمل بإتقان، فليؤدِّه بنفسه. أحيانًا أتساءل عن سبب دفعي الأموال لهؤلاء الحراس المزعومين. وداعًا يا إزيو!». وهاجم عدوه.

استشرى الألم في جسد الشاب عندما جرح الفأس يده، وجعل دماغه يسبح في ضباب أبيض كثيف. لكن عندئذٍ تذكر ما تدرب عليه، وقد استيقظت غريزته، انتفض، وحالما هم فييري بتسديد الضربة القاضية على خصمه الذي من المفترض أن يكون أعزل، ثنى إزيو يده اليمنى وبسط أصابعه، وعلى الفور اشتغلت آلية خنجر والده الخفي، فانبثق النصل من تحت أصابعه. كان فييري رافعًا ذراعه، وخاصرته مكشوفة، فصوب إزيو النصل إليها، وانغرز النصل دون أدنى مقاومة.

وقف فييري لوهلة متسمِّرًا، ثمَّ أسقط أسلحته وخر على ركبتيه، والدماء تتدفق كشلال من بين ضلوعه. أمسك إزيو به وهو يتهالك على الأرض.

قال له بنبرة إلحاح: «ليس لديك وقت يا فييري، الآن حانت فرصتك للتصالح مع خالقك، فأخبِرني، ماذا كنتم تناقشون؟ ما خططكم؟».

أجاب فييري بابتسامة بطيئة. «لن تهزمونا أبدًا، لن تتغلَّبوا على آل باتزي، وقطعًا لن تتغلَّبوا على رودريغو بورجيا أبدًا».

أدرك إزيو أن أمامه لحظات وجيزة قبل أن يتحدَّث إلى جثة، فضغط بإلحاح اشد: «أخبِرني يا فييري! هل اكتشف أبي خططكم؟ ألهذا دبَّرتم قتله؟».

لكن شحُب وجه فييري، وقبض على ذراع إزيو بشدة، وسال خيط دماء من زاوية فمه وبدأت عيناه تنطفئان، لكنه رغم حالته تمكَّن من رسم ابتسامة ساخرة. «إزيو، ما الذي تأمل سماعه؟ اعتراف كامل؟ آسف، ليس لدي... الوقت...» شهق محاولًا التنفس وسالت مزيد من الدماء من فمه. «أمر مؤسف، حقًّا، في عالم آخر لربما كنا... أصدقاء».

أحس إزيو بالقبضة على ذراعه ترتخي.

وعندئذٍ تجدَّدت آلام جرح يده مضاعفة، مع الذكرى المريرة لموت أقربائه، وتملكه غضب بارد، فقال مخاطبًا الجثة: «أصدقاء؟! أيها الحثالة! ينبغي أن تترك جثتك على جانب طريق لتتعفَّن مثل غراب نافق! لن يفتقدك أحد! لا أتمنَّى لك سوى أن تعود إلى الحياة لتعاني مزيدًا من المعاناة! و...».

«إزيو». سمع من خلفه صوت حازم. «كفى! عامل الرجل بشيء من الاحترام».

نهض إزيو واستدار ليواجه عمه. «الاحترام؟ بعد كل ما حدث؟ أتظن، إذا انتصر هو، أنه ما كان ليعلقنا من أقرب شجرة؟».

كان ماريو منهكًا، ملطخًا بالدماء ومعفَّرًا بالتراب، لكنه انتصب حازمًا.

«لكنه لم ينتصر يا إزيو، وأنت لست مثله. لا تصبح مثله». جثا بجوار الجثة، ومد يده التي يرتدي فيها قفاز وأغمض عيني فييري، وقال: «فليمدَّك الموت بالسلام الذي كانت تسعى إليه روحك البائسة الغاضبة. فلترقد بسلام».

شاهد إزيو صامتًا، ثمَّ قال عندما نهض عمه: «هل انتهينا؟».

أجاب ماريو: «لا، ما زال القتال محتدمًا. لكن الكفة تميل لصالحنا، روبرتو استمال بعض رجاله إلينا. إنها مسألة وقت». صمت ثمَّ قال: «لا بُدَّ أنك ستحزن بمعرفة أن أورازيو مات».

- أورازيو..!

- قبل موته أخبرني بإعجابه بشجاعتك، كن جديرًا بالمدح يا إزيو.

«سأحاول». عض إزيو شفته. كان هذا درسًا آخر تعلَّمه، رغم أنه لم يدرك هذا إدراكًا واعيًا.

قال ماريو: «عليَّ العودة إلى رجالي. لكن معي شيء لك، شيء سيعرِّفك بالمزيد عن عدوك. رسالة أخذتها من أحد القساوسة هنا، أُرسِلت إلى والد فييري، لكن من الواضح أن فرانسسكو ليس هنا حتَّى يستلمها». ناوله ورقة ختمها مكسور. «هذا القس نفسه سيتولى طقوس الجنازة. سأرسل أحد رقبائي ليشرف على الترتيبات».

- أود إخبارك بأمور...

رفع ماريو يده. «لاحقًا، عندما تنتهي مهمتنا هنا. لن يستطيع أعداؤنا، بعد هذه النكسة، أن يتحرَّكوا بالسرعة التي كانوا يأملونها، ولورنزو في فلورنسا سيكون شديد الحذر. لنا الأفضلية عليهم في الوقت الراهن. على أن أعود. اقرأ الرسالة يا إزيو، وفكِّر في فحواها. واعتنِ بيدك».

غادر ماريو. ابتعد إزيو عن جثة فييري، التي بدأ الذباب يحوم حولها، وجلس تحت الشجرة التي اختبأ خلفها آنفًا، وفتح الرسالة وقرأ:

السيد فرانسسكو:

امتثلتُ لما طلبتَه فتحدثتُ مع ابنك. أوافقك في تقييمك، لكن جزئيًّا. أجل، فييري متهور، وكثيرًا ما يتصرَّف دون تفكير، ويعامل رجاله كأنهم أدوات لهو، كأنهم قطع شطرنج لا يبدي اهتمامًا بحيواتها أكثر من اهتمامه بما إذا كانت من العاج أو من الخشب. وعقابه قاس للغاية، تلقيت تقارير عن ثلاثة رجال على الأقل سبَّب لهم إعاقات.

بيد أنني لا أظنه، وفقًا لتعبيرك، ميؤوسًا منه، بل أرى الحل أمرًا بسيطًا. إنه يسعى لنيل رضاك واهتمامك. تحدث نوبات طيشه نتيجة لعدم الأمان الناجم عن إحساسه بدونيته. وهو يتحدَّث عنك كثيرًا وبحُب، ويعبِّر عن توقه إلى التقرُّب إليك. لذا أظن أن سلوكياته الغاضبة الجامحة مَرَدّها رغبته في أن يكون موضع اهتمام، ورغبته في الحب.

افعل ما تراه مناسبًا إزاء المعلومات التي أخبرتك بها. والآن أود أن أطلب منك إنهاء هذه المراسلات، لأن فييري إذا اكتشف طبيعة ما ناقشه، فسأخشى ما قد يحل بي.

مُخلصك،

الأب جيوكوندو

ظل إزيو جالسًا مدَّة طويلة بعدما قرأ الرسالة، مستغرقًا في التفكير. نظر إلى جثة فييري، فرأى محفظة في حزامه لم يلاحظها سابقًا، سار وأخذها، وعاد إلى الشجرة لتفحص محتوياتها. وجد صورة مصغرة لامرأة، وبضعة فلورينات في جراب، ودفتر ملاحظات صغير لم يستخدم، وصفحة من الرَّقِّ

مطوية بعناية. فتحها إزيو بيدين مرتعشتين، وعرفها على الفور، كانت صفحة من مجلد المخطوطات...

ارتفعت الشمس، وظهرت مجموعة من الرهبان حاملين نقَّالة خشبية، وضعوا جثة فييري عليها، وحملوها مبتعدين.

***

انقلب الربيع صيفًا مجددًا، فأفسحت زهور الميموزا والأزاليا المجال للزنابق والورود. وعاد سلام متذبذب إلى توسكانا. كان إزيو راضيًا برؤية والدته تواصل تعافيها، لكن أعصابها تشظَّت بالمأساة التي نزلت بها، فبدا لإزيو أنها ربما لن تغادر هدوء وسلام دير الراهبات أبدًا. وكانت كلوديا تفكِّر في أخذ أول النذور التي تمهِّد للرهبنة، وهذا الاحتمال لم يسر إزيو كثيرًا، لكنه كان يعرف أن شقيقته ولدت بنزعة عناد مثله، وأن محاولة إثنائها لن تؤدِّي إلَّا إلى تشديد عزمها.

أمضى ماريو وقته في ضمان أن سان جيمِنيانو -منطقته التي صارت تحت سيطرة رفيقه القديم روبرتو بعد إقلاعه عن الشراب وإصلاح مسلكه- لم تعد تمثِّل تهديدًا، وأن آخر جيوب مقاومة آل باتزي حُسِمت. كانت مونترجيوني آمنة، وبعد انتهاء احتفالات النصر مُنح مرتزقة ماريو إجازة مستحقة، استغلوها كما يحلو لهم، بقضاء الوقت مع عائلاتهم، أو الشراب، أو العربدة، لكنهم لم يهملوا تدريباتهم قط، وحافظ خدمهم على أسلحتهم حادَّة وعلى دروعهم خالية من الغبار، كما حرص البناؤون والنجارون على صيانة تحصينات البلدة والقلعة. وشمالًا، انتفى مؤقتًا التهديد الخارجي الذي كانت تمثِّله فرنسا، لأن الملك لويس كان مشغولًا بالتخلُّص من آخر الغزاة الإنجليز ومواجهة المشكلات التي يسبِّبها له دوق برغندي. وجنوبًا كان البابا سكستس الرابع، وهو حليف محتمل لآل باتزي، مشغولًا بترقية أقربائه والإشراف على تشييد كنيسة مهيبة في الفاتيكان إلى درجة تمنعه من التفكير في التدخل في توسكانا.

بيد أن ماريو وإزيو خاضا نقاشات عديدة طويلة متعلِّقة بالتهديد الذي يعرفان أنه لم ينتهِ.

قال ماريو لابن أخيه: «عليَّ إخبارك بالمزيد عن روديغو بورجيا. وُلد في فالنسيا، لكنه درس القانون في بولونيا ولم يعد قط إلى إسبانيا، إذ إن وجوده

هنا أنسب لطموحاته. وهو في الوقت الراهن عضو بارز في الإدارة البابوية في روما، لكنه يضع نُصب عينيه طموحًا أعلى دومًا. إنه أحد أقوى الرجال نفوذًا في أوربا، لكنه أكثر من مجرَّد سياسي ماكر في الكنيسة». خفض ماريو صوته. «رودريغو زعيم فرسان الهيكل».

أحس إزيو بانقباض في صدره. «هذا يفسر وجوده عند مقتل أبي وشقيقَي. هو المدبر».

- أجل، ولا أظنه نسيك، لا سيما أنك أدَّيت دورًا محوريًّا في فقدانه قاعدة نفوذه في توسكانا، كما يعرف السلالة التي تنحدر منها، والخطر الذي تمثِّله له دومًا. كن مدركًا تمام الإدراك يا إزيو، أنه سيدبِّر قتلك حالما تسنح له فرصة.

- إذن عليَّ مواجهته إذا أردت أن أكون حرًّا يومًا.

- يجب أن يبقى تحت أنظارنا. لكن لدينا شؤون قريبًا من الديار أولًا، وقد كفانا نضالنا مدَّة طويلة بما يكفي. تعالَ إلى مكتبي.

سارا من الحديقة التي كانا يتمشَّيان فيها إلى حجرة داخلية في القلعة، عند نهاية الرواق الممتد من حجرة الخرائط. الحجرة هادئة، معتمة دون أن تكون موحشة، مليئة بالكتب، تبدو أقرب لحجرة رجل أكاديمي من كونها حجرة قائد عسكري، كما تحتوي رفوفها على قطع أثرية تبدو كأنها جُلبت من تركيا أو سوريا، والكتب التي رأى إزيو ما مكتوب على كعوبها كانت مكتوبة باللغة العربية، فتعيَّن عليه سؤال عمه عنها، لكنه لم يتلق سوى إجابات غامضة.

فتح ماريو صندوقًا وسحب منه مظروف وثائق جلدي، وأخرج منه حزمة أوراق، تعرف إزيو على بعضها فورًا. «إليك قائمة والدك يا فتى. ينبغي ألَّا أخاطبك بهذا، لأنك صرت رجلًا، محاربًا حقيقيًّا خالص النسب. أضفتُ الأسماء التي أخبرتني بها في سان جيمِنيانو». نظر إلى ابن أخيه، وناوله الوثيقة. «حان وقت بدء عملك».

قال إزيو ببرود وحزم: «كل فارس هيكل في هذه القائمة سيلقى حتفه بنصلي». برقت عيناه إثر رؤيته اسم فرانسسكو دي باتزي. «هذا، سوف أبدأ به. إنه أسوأ رجال العشيرة ومتعصِّب في كراهيته لحلفائنا آل مديتشي».

وافقه مارو: «معك حق. إذن هل ستعد العُدَّة للذهاب إلى فلورنسا؟».

- هذا ما أعتزم فعله.

- جيد. لكن ثمَّة مزيد ممَّا عليك معرفته إذا أردت أن تكون على أهبة الاستعداد. تعالَ.

استدار ماريو إلى خزانة كتب ولامس زرًّا خفيًّا على جانبها، فدارت على مفاصل صامته وانفتحت كاشفة عن جدار حجري بالخلف، وفيه عدد من الكوَّات المربَّعة، خمس منها مشغولة، والبقية فارغة.

ومضت عينا إزيو إثر رؤيته الكوات الخمس فيها صفحات من مجلد المخطوطات!

قال ماريو: «أرى أنك تعرفت على هذه، ولستُ متفاجئًا، إذ رأيتَ الصفحة التي تركها والدك لك، التي تمكَّن صديقك الذكي في فلورنسا من حل شفرتها، وهذه الصفحات هي التي تمكَّن جيوفاني من العثور عليها وترجمَتها قبل موته».

أضاف إزيو: «والصفحة التي أخذتُها من جثة فييري، لكن فحواها لا يزال لغزًا».

- إنك محق للأسف. لستُ مثقفًا باحثًا مثلما كان والدك، لكن مع كل صفحة أضافها، وبالاستعانة بالكتب في مكتبتي، أجدني أقترب من حل اللغز. انظر! أترى شكل تقاطع الكلمات من صفحة إلى أخرى وكيفية التقاء الرموز؟

دقق إزيو النظر، واجتاح دماغَه إحساسُ تذكُّر غريب، كما لو أن غريزةً وراثية تستيقظ بداخله، وإثر هذا الإحساس بدت شخبطات صفحات مجلد المخطوطات كأنها تُبعث فيها الحياة، وتنحل تعقيداتها أمام عينيه. «أجل! ويبدو لي أن ثمَّة جزء من صورةٍ ما تحتها... انظر، إنها أشبه بخريطة!».

- جيوفاني، وأنا الآن، تمكَّنَّا من استجلاء ما يبدو كنبوءة مكتوبة على امتداد هذه الصفحات، لكنني لم أعرف مضمونها بعد. ثمَّة كلام عن '*قطعة عَدَن*'. كتبها حشَّاش مثلنا قبل زمن طويل، يبدو أن اسمه *الطائر*. وثمَّة مزيد. كتبَ عن '*شيء مخفي تحت الأرض، شيء قوي بقدر ما هو قديم*'، لكننا لم نكتشف ماهيته بعد.

- إليك صفحة فييري، أضفها إلى الجدار.

- ليس بعد! سأنسخها قبل ذهابك، خذ الصفحة الأصلية إلى صديقك العبقري في فلورنسا. ينبغي ألا يعرف الصورة الكاملة، أو على الأقل ما نعرفه حتّى الآن، كما ربما تكون معرفته بهذه المعلومة خطرًا عليه. لاحقًا ستنضم صفحة فييري إلى الأخريات على هذا الجدار، وسنكون قد اقتربنا خطوة من حل اللغز.

- ماذا عن الصفحات الأخرى الغائبة؟

- لم تُكتشف بعد. لا تشغل نفسك بها، عليك بالتركيز على المهمَّة التي أمامك الآن.

8

كانت أمام إزيو استعدادات قبل مغادرته مونترجيوني. وكان أمامه المزيد ممَّا عليه تعلمه، إلى جانب عمه، عن **عقيدة الحشَّاشين**، حتَّى يصبح في أتم الجاهزية لمواجهة مهمته. كما تعيَّن عليه ضمان الأمان النسبي له على الأقل في فلورنسا، والتفكير في مسكن له هناك، إذ ذكر جواسيس ماريو أن قصر آل أودِتوري أُغلِق، لكنه ظل تحت حماية آل مديتشي فلم يلحقه تخريب. تأخرت عدَّة أشياء وظهرت بضع عقبات جعلت إزيو نافد الصبر، حتَّى جاءه عمه ذات يوم في مارس وأمره بحزم حقائبه.

قال ماريو: «كان شتاءً طويلًا».

- طويلًا جدًّا.

- لكن الآن رُتِّب كل شيء. وأود تذكيرك بأن الاستعدادات المتقنة الدقيقة سبب معظم الانتصارات. والآن انتبه! لديَّ صديقة في فلورنسا رتَّبت لك مسكنًا آمنًا في مكان ليس ببعيد عن منزلها.

- من هي يا عمي؟

بدا ماريو متحفظًا. «اسمها ليس بذي أهمية لك، لكن أعدك بأنها جديرة بالثقة، كما تثق بي. على أي حال إنها بعيدة عن منزلها الآن. إذا احتجت إلى مساعدة، فتواصل مع مدبرة منزلكم القديمة، أنيتا، وهي لم تغير عنوانها والآن تعمل مع آل مديتشي. لكن من الأفضل أن يعرف بوجودك في فلورنسا أقل عدد ممكن من الناس. لكن ثمَّة شخص واحد يجب عليك التواصل معه، رغم صعوبة الوصول إليه، كتبتُ اسمه هنا، عليك السؤال عنه بتكتم. حاول سؤال صديقك العالِم عندما تريه صفحة مجلد المخطوطات، لكن لا تخبره بالكثير،

من أجل مصلحته! وهذا هو عنوان مسكنك». ناول إزيو قصاصتَي ورق وجرابًا جلديًّا منتفخًا. «ومئة فلورين لتقضي بها شؤونك، وأوراق سفرك، ستجدها جاهزة. أفضل خبر هو أن بإمكانك المغادرة غدًا!».

استغل إزيو الوقت القصير المتاح ليذهب إلى دير الراهبات ويودع والدته وشقيقته، ثمَّ ليحزم جميع ملابسه ومعداته الأساسية، وليودع عمه ورجال البلدة ونساءها الذين ظلوا رفاقه وحلفاءه مدَّة طويلة. لكن بقلب مفعم بالبهجة والعزيمة أسرج حصانه وانطلق من بوابات القلعة في فجر اليوم التالي، وسار في رحلة طويلة، خالية من الأحداث، امتدَّت يومًا، وبحلول وقت العشاء كان قد استقر في مسكنه الجديد، واستعد ليعيد التعرُّف على المدينة التي ظلت دياره طوال حياته لكنه لم يرها منذ مدَّة طويلة. إلَّا أن عودته لم تكن بدافع الحنين، حالما استراح وسمح لنفسه بنزهة حزينة مارًّا أمام واجهة منزل عائلته، سار مباشرة إلى ورشة ليوناردو دا فينشي، دون أن ينسى صفحة مجلد المخطوطات التي أخذها من فييري دي باتزي.

منذ رحيل إزيو كان ليوناردو قد وسَّع ورشته ضامًّا المبنى الذي إلى يساره، مستودع واسع به مساحة كافية لجميع المخرجات المادية التي تتشكل في مخيلة الفنان. ثمَّة طاولتان طويلتان تمتدان بين طرفي المكان المضاء بمصابيح زيت ونوافذ عالية، إذ لا حاجة لليوناردو بالأعين المتطفلة. وثمَّة عدد هائل من الأدوات والآلات وقطع المعدات الهندسية على الطاولات ومعلقة من الجدران ومتناثرة غير مكتملة في وسط الحجرة، علاوة على مئات الرسوم ومسوَّدات اللوحات مثبتة على الجدران. وفي فوضى الإبداع هذه، كان يوجد ستة مساعدين مشغولين يذرعون المكان، تحت إشراف أغنيولو وإنوسينتو الأكبر منهم سنًّا قليلًا لكنهما لا يقلان عنهم جاذبية. كما كان يوجد في الحجرة نموذج لعربة، تبدو دائرية ومدججة بالأسلحة، فوقها غطاء مصفَّح على شكل غطاء قِدر مرفوع، على قمَّته فجوة يمكن لرجل أن يخرج رأسه عبرها ليتحقَّق من الاتجاه الذي تسير الآلة إليه. وعلى مبعدة رسم لقارب على شكل سمكة قرش لكن على ظهره بُرج غريب، والأغرب من هذا، بدا من الرسم أن القارب يبحر تحت سطح الماء. خرائط، رسوم تشريحية توضِّح كل شيء، من آلية عمل العين، والاتصال الجنسي، والجنين داخل الرحم... وأشياء كثيرة أخرى عجزت مخيلة إزيو عن تفسيرها، وقد ملأت الرسوم كل مساحة الجدران المتاحة. والعينات وركام الأشياء التي تزدحم بها الطاولات ذكَّرت

إزيو بزيارته الأخيرة إلى المكان، لكنها تضاعفت مئة ضعف. وثمة صور دقيقة التفاصيل لحيوانات مألوفة وأخرى أسطورية، وتصميمات لكل شيء من مضخَّات المياه إلى الجدران الدفاعية.

بيد أن أهم ما لفت انتباه إزيو كان شيئًا معلقًا من السقف على ارتفاع منخفض، تذكر أنه رأى نسخة منه سابقًا، نموذجًا مصغَّرًا، لكن هذا بدا نموذجًا بالحجم الطبيعي لما قد يكون آلة حقيقية ذات يوم. ما زال يبدو كهيكل عظمي لخفاش، وقد بُسط جلد حيواني متين من نوعٍ ما مشدودًا فوق إطارات بروزين خشبيين. وعلى مقربة حامل ثلاثي الأرجل مثبَّت عليه أوراق عمل، من بين الملاحظات والحسابات قرأ إزيو:

... زنبرك من القرون أو الفولاذ مثبَّت على خشب صفصاف مغلَّف بالقصب.

القوة الدافعة تبقي الطيور في مسار طيرانها في الأوقات التي لا تضغط أجنحتها الهواء، حتَّى إنها ترتفع إلى الأعلى.

إذا كان رجل يبلغ وزنه مئة رطل في النقطة أ، ويرفع الجناح ببكرته، التي يبلغ وزنها مئة وخمسين رطلًا، بقوة تساوي ثلاثمئة رطلًا، فسيرفع نفسه بجناحين...

تعذَّر على إزيو فهم ما قرأه، لكنه استطاع قراءته على الأقل، لا بُدَّ أن أغنيولو نقله من شخبطات ليوناردو. وعندئذٍ رأى إزيو أغنيولو ينظر إليه، فوجَّه الشاب انتباهه إلى شيء آخر سريعًا. كان يعرف مدى حرص ليوناردو على أسراره.

وفي الحال جاء ليوناردو نفسه من ناحية الاستوديو القديم، وهرع إلى إزيو وعانقه بحرارة. «عزيزي إزيو! ها قد عُدتَ! إنني سعيد جدًّا برؤيتك. بعد كل ما حدث، ظننا...» ترك جملته معلقة، وبدا قلقًا.

حاول إزيو إنعاش مزاجه. «يا لهذا المكان! بالطبع أعجز عن فهم أيًّا ممَّا أراه، لكن أفترض أنك تعرف ما تفعله! هل تخليت عن الرسم؟».

قال ليوناردو: «لا، إنما أتابع... أشياء أخرى... لفتت انتباهي».

- هذا ما أراه. كما توسَّعت، لا بُدَّ أن عملك مزدهر. هبت رياحك مواتية في العامين الماضيين.

لكن ليوناردو رأى الحزن الخفي والتجهُّم الذي ارتسم على وجه إزيو عندئذٍ.

قال ليوناردو: «ربما. إنهم يتركونني وشأني، يبدو لي أنهم يظنون أنني سأكون مفيدًا لمَن يظفر بالسلطة المطلقة ذات يوم، أيًّا يكن... لكنني لا أرى أن أي طرف سيحسم الصراع لصالحه». ثمَّ غيَّر الموضوع. «لكن ماذا عنك يا صديقي؟».

نظر إزيو إليه. «آمل أن يأتي وقت، ذات يوم، نجلس ونتحدث باستفاضة عن كل ما حدث منذ لقائنا آخر مرَّة. لكن الآن أحتاج إلى مساعدتك مرَّة أخرى».

بسط ليوناردو ذراعيه. «إنني على أهبة الاستعداد!».

- معي شيء أود أن أريك إياه، أظنه سيثير اهتمامك.

- إذن يجدر بك المجيء إلى الاستوديو، المكان أهدأ هناك.

ما إن عادا إلى مقر ليوناردو القديم، أخرج إزيو صفحة مجلد المخطوطات من محفظته وبسطها على الطاولة أمامهما.

اتسعت عينا ليوناردو من الحماسة.

سأله إزيو: «أتتذكر الصفحة الأولى؟».

«وكيف لي أن أنسى؟». حدَّق الفنان إلى الصفحة. «هذه أشد إثارة للاهتمام! أيمكنني تفحصها؟».

- بالتأكيد.

تمعن ليوناردو في الصفحة بتدقيق بالغ، ممرِّرًا إصبعه على الرَّق، ثمَّ قرَّب إليه ورقة وأقلام، وبدأ ينسخ الكلمات والرموز، ثمَّ راح يذرِّع المكان جيئة وذهابًا، متأرجحًا بين الكتب والمخطوطات، غارقًا في التفكير. شاهده إزيو بامتنان وصبر.

قال ليوناردو: «عجبًا. ثمَّة لغات مجهولة هنا، أجهلها أنا على الأقل، لكنها تُسفِر عن نمطٍ ما. إمممم، أجل، توجد حاشية هنا باللغة الآرامية توضح الأمور قليلًا». رفع رأسه. «أتعرف؟ إذا وضعنا هذه مع الصفحة القديمة، فسيُخيَّل

إليَّ أنهما جزء من دليل إرشادي، من ناحية على الأقل، دليل عن ضروب عديدة من الاغتيالات، وبالطبع تنطوي الصفحة على أكثر من هذا بكثير، لكنني ليست لديَّ فكرة أوضح. ما أعرفه هو أننا لم نكتشف سوى النزر اليسير من فحوى هذه الصفحة. سيتعيَّن علينا الحصول على الصفحات كاملة، لكن لا فكرة لديك عن مكان باقي الصفحات، أليس كذلك؟

- بلى.

- أو عن عدد صفحات المجلد كاملًا؟

- من الممكن... أن تكون معروفة.

قال ليوناردو: «آها، أسرار! حسنًا، لا بُدَّ لي من احترامها». واسترعى انتباهه شيءٌ آخر. «لكن انظر إلى هذا!».

نظر إزيو من فوق كتف ليوناردو لكنه لم ير شيئًا سوى سلسلة رموز في مجموعات متقاربة على شكل أوتاد. «ما هذه؟».

- لا أستطيع تبيُّنها، لكن إذا صح تخميني، فهذا القسم يحتوي على صيغة لمعدن أو سبيكة لا نعرف عنها شيئًا، وهذا، منطقيًّا، ينبغي أن يكون وجوده مستحيلًا!

- هل من شيء آخر؟

- نعم، جزء كان سهلًا على حل تشفيره. إنه رسم تخطيطي لسلاح آخر، يبدو مكمِّلًا للسلاح الذي لديك. لكن علينا صنع هذا من الصفر.

- سلاح من أي نوع؟

- بسيط جدًّا، إنه لوح معدني مغلَّف بواقٍ جلدي، ترتديه على ذراعك اليسرى -أو ذراعك اليمنى إذا كنت أعسر مثلي- وتستخدمه لصد ضربات السيوف أو حتَّى الفؤوس. الميزة اللافتة هي أن المعدن الذي سوف نسبُكه، رغم قوته الشديدة بطبيعة الحال، خفيفٌ جدًّا. كما يتضمَّن السلاح خنجرًا ذا نصلين ومزوَّد بزنبرك كالخنجر الأول.

- أترى أن بمقدورك صُنعه؟

- نعم، لكنه سيحتاج وقتًا أطول.

- ليس أمامي متسع من الوقت.

فكَّر ليوناردو مليًّا. «أظنني لديَّ كل ما أحتاج إليه هنا، ورجالي ماهرين بما يكفي لصوغ هذا المعدن». واستغرق في التفكير مجددًا، وشفتاه تتحرَّكان بالعمليات الحسابية التي يجريها في ذهنه، وقرر: «سأستغرق يومين، عُد عندئذٍ وسنرى مدى نجاح السلاح!».

انحنى إزيو. «ليوناردو، إنني في غاية الامتنان لك. ويمكن أن أدفع لك».

«بل أنا الممتن. صفحات مجلد المخطوطات التي تجلبها توسِّع معارفي. كنت أتخيَّل نفسي مبتكرًا، لكنني أجد في هذه الصفحات العتيقة ما يثير اهتمامي وفضولي». ابتسم، وغمغم كأنه يحادث نفسه: «وإنني لجد مدين لك لإطْلاعي عليها، دعني أرى أي صفحة أخرى تجدها. مصدرها شأنٌ يخصُّك، لست مهتمًّا سوى بفحواها، وينبغي ألا يعرف عنها أحد آخر خارج دائرة المقرَّبين منك. هذا كل التعويض الذي أطلبه».

- أعدك وعدًا مخلصًا.
- شكرًا! أراك يوم الجمعة إذن، عند المغيب.
- حسنًا.

***

نفَّذ ليوناردو ومساعدوه مهمَّتهم خير تنفيذ. كان السلاح الجديد مفيدًا غاية الفائدة، رغم أنه دفاعي عمليًّا. على سبيل التجربة تظاهر مساعدو ليوناردو بالهجوم على إزيو، لكن مستخدمين أسلحة حقيقية، منها سيوف مزدوجة النصال وفؤوس معارك، ونجح واقي الذراع، رغم خفته، في صدِّ أقوى الضربات.

- هذا سلاح مذهل يا ليوناردو.
- بالفعل.
- ومن شأنه إنقاذ حياتي.
- فلنأمل ألَّا تصاب بندوب أخرى كالممتدَّة على ظاهر يدك اليسرى.
- هذا تذكار أخير من... صديق قديم. لكن الآن أود استشارتك في شأن آخر.

هز ليوناردو كتفيه. «سأساعدك إذا استطعت».

ألقى إزيو نظرة سريعة على مساعدي ليوناردو. «ربما من الأفضل على انفراد».

- اتبعني.

أزال إزيو غلاف قصاصة الورق التي أعطاها له ماريو وناولها لليوناردو. «هذا اسم الشخص الذي طلب عمي منِّي مقابلته، أخبرني بأن من المستحسن ألَّا أحاول الوصول إليه مباشرة».

كان ليوناردو يحدِّق إلى الاسم المكتوب على الورقة، وعندما رفع رأسه بدا وجهه مشوبًا بالقلق. «أتعرف من هذا؟».

- قرأت الاسم، *لا فولبِه*. أظنه لقب.
- **الثعلب**! أجل، لكن لا تذكره بصوت عالٍ أو في مكان عام. إنه رجل لديه أعين في كل مكان، لكن هو نفسه لا يُرى أبدًا.
- أين يمكن أن أجده؟
- تستحيل معرفة مكانه، لكن إذا أردتَ بدء البحث، فيجدر بك توخي أشد درجات الحذر واقصد منطقة السوق القديم.
- لكن كل لص ليس في السجن أو عند المشنقة يتسكَّع هناك.

«أخبرتك بأن تتوخَّى الحذر». نظر ليوناردو في ما حوله كأنه يخشى تنصُّت أحدٌ عليه. «ربما... أتمكَّن من إرسال رسالة إليه... اذهب للبحث عنه غدًا بعد صلاة المساء... ربما يحالفك الحظ... وربما لا يحالفك».

ثمَّة شخص واحد في فلورنسا كان إزيو عازمًا على رؤيته مرَّة أخرى، رغمًا عن تحذير عمه بألَّا يفعل. طوال وقت غيابه لم تبتعد الفتاة عن قلبه، والآن تزايدت وخزات الحب بمعرفة أنها نفسها لم تعد بعيدة عنه. لم يكن بوسعه المخاطرة كثيرًا في المدينة. تغيَّر وجهه، صارت زواياه أبرز، وتقدَّم في السن ومر بمزيد من التجارب، لكن ما زال من الممكن التعرُّف عليه. ساعدته القلنسوة، أتاحت له 'الاختفاء' بين الحشد، وخفضها فوق رأسه، لكنه كان يعرف أن آل باتزي، رغم سيطرة آل مديتشي حاليًا، لم يعيدوا سيوفهم إلى أغمادها، ظلوا يترقَّبون، يقظين، كان متيقنًا من هذا بقدر يقينه أنهم إذا قبضوا عليه على حين غرة فسيقتلونه، بصرف النظر عمَّا قد يفعله آل مديتشي. ورغمًا عن كل هذا، في الصباح التالي لم يعد قادرًا على منع قدميه من اقتياده إلى قصر آل كالفوتشي.

وجد باب الشارع مفتوحًا، كاشفًا عن فناء يغمره ضوء الشمس، فرآها هناك، وقد صارت أنحف، وربما أطول، شعرها معقود إلى الأعلى، لم تعد فتاة بل امرأة. نادى اسمها.

عندما رأته امتقعت بشدة حتَّى ظن أنها سيُغمى عليها، لكنها تمالكت نفسها، وتكلمت مع خادمتها فصرفتها، وخرجت إلى إزيو بذراعين ممدودتين، فجذبها سريعًا بعيدًا عن الشارع إلى ممر مقنطر معزول على مقربة، حجارته الصفراء مزينة باللبلاب. مسح إزيو على عنقها، ولاحظ أن السلسلة الرفيعة التي في طرفها قلادته ما زالت حول عنقها، والقلادة مخبأة في صدرها. «إزيو!».

- كرستينا!

- ماذا تفعل هنا؟

- جئت لشأن متعلق بأبي.

- أين كنت؟ لم أسمع عنك خبرًا منذ عامين.

- كنت... بعيدًا، لشأن متعلق بأبي أيضًا.

- قالوا إنك ميت لا محالة، وكذلك أمك وأختك.

- كُتب لنا قدر مختلف. لم أستطع مراسلتك، لكنك لم تبرحي أفكاري.

غامت عيناها فجأة، بعدما كانتا تتراقصان، واعتراها الاضطراب.

سألها: «ما الخطب يا عزيزتي؟».

«لا شيء». حاولت الابتعاد عنه قليلًا، لكنه لم يشأ إفلاتها.

- من الواضح أنك منزعجة. أخبريني!

التقت نظراتهما، واغرورقت عيناها بالدموع. «أوه إزيو، إنني مخطوبة!».

بوغت إزيو بالرد، فأفلت ذراعيها، مدركًا أنه كان يمسكها بشدَّة، ويؤلمها. رأى طريقه الموحش الذي سيتعين عليه السير فيه وحده.

قالت: «أبي أرغمني. ظل يلح عليَّ مرارًا حتَّى أختار. وأنت اختفيت، وظننتك مت. ثمَّ بدأ والداي يرحبان بزيارات مانفريدو دي أرزينتا، ابن أسرة ثرية من تجار الجواهر، انتقلوا إلى هنا من لوكا بعد مغادرتك فلورنسا بوقت قصير. آه، رباه يا إزيو، ظلوا يطلبون منِّي ألّا أخذل العائلة، وأن أجد الزوج المناسب قبل فوات الأوان. ظننت أنني لن أراك أبدًا، والآن...».

قوطعت بصوت فتاة تبكي مذعورة عند نهاية الشارع، حيث توجد ساحة صغيرة.

توترت كرستينا على الفور. «هذا صوت غيانيتا، أتتذكرها؟».

سمعا مزيدًا من الصرخات والهتافات، وهتفت غيانيتا مناديةً اسمًا: «مانفريدو!».

قال إزيو: «يجدر بنا أن نرى ما يجري»، وسار في الشارع باتجاه الجلبة. وفي الساحة وجدا صديقة كرستينا غيانيتا، وفتاة أخرى لم يعرفها إزيو، ورجل عجوز، تذكر إزيو أنه كان يعمل كبيرًا لسكرتيري والد كرستينا.

قال إزيو: «ماذا يجري».

صرخت غيانيتا: «مانفريدو! ديون المقامرة مجددًا! هذه المرَّة سيقتلونه بلا شك!».

صاحت كرستينا: «ماذا؟».

قال السكرتير: «آسف يا سيدتي، رجلان يدين مانفريدو لهما بالمال، سحباه إلى أسفل الجسر الجديد، وقالا إنهما سيضرباه حتَّى يتحصلا على ديونهما. آسف يا سيدتي، لم يسعني فعل شيء».

- لا بأس يا ساندو، اذهب واستدعِ حراس البيت. يجدر بي الذهاب و...

تدخَّل إزيو: «مهلًا لحظة، من هو مانفريدو بحق الشيطان؟».

نظرت كرستينا إليه كأنها تنظر من خلف قضبان سجن، وقالت: «خطيبي».

قال إزيو: «دعيني أرى ما يمكنني فعله»، وهرع مبتعدًا في الشارع المؤدي إلى الجسر. وبعد دقيقة، وقف على قمة حاجز ترابي، ناظرًا إلى شريط الأرض الضيق بجوار أول أقواس الجسر، قريبًا من مياه نهر آرنو الصفراء الثقيلة بطيئة الجريان. وهناك، كان ثمَّة شاب يرتدي ملابس أنيقة بالأسود والفضي جاثيًا على ركبتيه، وثمَّة رجلان آخران يتعرَّقان ويلهثان وهما يركلان الشاب بقسوة وينحنيان وينهالان عليه بقبضاتهما.

«أقسم لكما إنني سأدفع ما عليَّ!». تأوَّه الشاب الذي يرتدي الأسود والفضي.

فقال أحد مُعذِّبَيه: «اكتفينا من أعذارك، إنك تجعلنا نبدو مغفلين، لذا الآن سنجعل منك عظة وعبرة»، ووضع حذاءه الضخم على عنق الشاب، ممرغًا وجهه في الطين، وركله رفيقه في ضلوعه.

وهمَّ المعتدي الأول بالدَّوس على كليتي الشاب، لكنه أحسَّ بنفسه يُمسك من مؤخِّرة عنقه وذيل معطفه، ويُرفَع في الهواء، ويحلِّق، ثمَّ يهبط بعد ثوانٍ بين الأقذار والحطام الذي جُرف حول قاعدة عمود الجسر، وفي خضم اختناقه بالمياه القذرة التي تدفَّقت في فمه لم يلاحظ أن رفيقه تعرض للمحنة نفسها.

مد إزيو يده إلى الشاب الملطخ بالطين وساعده على النهوض.

«شكرًا يا سيدي، أظنهم كانوا ليقتلوني حقًّا هذه المرة، لكانت حماقة منهم، بوسعي أن أدفع لهم، صدقًا!».

- ألا تخشى أن يلاحقوك مرَّة أخرى؟

- ليس بعد الآن وهم يظنون أن لديَّ حارسًا شخصيًّا مثلك.

- لم أعرِّفك بنفسي. إزيو... دي كاسترونوفو.

- مانفريدو دي أرزينتا، في خدمتك.

- لستُ حارسك الشخصي يا مانفريدو.

- لا يهم. خلَّصتني من هذين المهرجين، وأنا ممتنٌّ لك. لا بُدَّ أن تسمح لي بمكافأتك، لكن أولًا دعني أغتسل وأصطحبك لتناول شراب. هناك دار قمار بجوار شارع فيورداليسو...

- مهلًا لحظة.

قاطعه إزيو عندما رأى كرستينا ورفيقاتها يقتربن.

- ما الخطب؟

- هل تقامر كثيرًا؟

- لِمَ لا؟ إنه أفضل وسيلة لتزجية الوقت.

- هل تحبها؟

- ماذا تعني؟

- خطيبتك، كرستينا، أتحبها؟

توجَّس مانفريدو من صرامة مُنقِذه المفاجئة. «أحبها بالتأكيد، أؤكد لك رغم أن هذا ليس من شأنك. أقتلني الآن وسأموت مُحبًّا لها».

تردد إزيو. بدا الشاب صادقًا. «اسمعني إذن. لن تقامر مجددًا أبدًا، هل سمعت؟».

تملَّك الخوف مانفريدو. «نعم!».

- أقسم لي!

- أقسم.

- إنك لا تدرك كم أنت محظوظ. أريد منك أن تعدني بأن تكون لها زوجًا صالحًا، وإذا سمعتُ أنك لم تفِ بوعدك، فسأطاردك وأقتلك بنفسي.

أدرك مانفريدو أن مُنقذه جادٌّ في كل كلمة قالها، ونظر إلى عينيه الرماديتين الباردتين، فومض عقله بذكرى باهتة، وقال: «هل أعرفك؟ ثمَّة شيء... تبدو لي مألوفًا».

قال إزيو: «لم نتقابل قط، وينبغي ألَّا نتقابل أبدًا، إلَّا إذا...» قطع كلامه، إذ رأى كرستينا تنتظر عند طرف الجسر ناظرة إليهما. «اذهب إليها، وأوف بوعدك».

«سأفعل». تردد مانفريدو. «إنني أحبها حقًّا. ربما تعلمتُ درسًا اليوم. سوف أبذل كل ما بوسعي لإسعادها، لا أحتاج إلى تهديدك لحياتي حتَّى تجعلني أعدك بهذا».

- هذا ما آمله. والآن اذهب!

لبث إزيو هنيهة يشاهد مانفريدو يتسلق الحاجز الترابي، شاعرًا بعينيه تنجذبان إلى عيني كرستينا، والتقت نظراتهما لوهلة ورفع يده من طرف خفي على سبيل الوداع، ثمَّ استدار وسار مبتعدًا، ولم يشعر بقلبه منقبضًا بشدَّة هكذا منذ موت والده وشقيقيه.

***

حلَّ مساء يوم السبت وإزيو ما زال مغتمًّا كئيبًا. في أحلك اللحظات كان يبدو له أنه فقد كل شيء، والد، وشقيقين، ومنزل، ومكانة، ومسيرة مهنية، والآن زوجة! لكن عندئذٍ ذكَّر نفسه بالعطف والحماية اللتان شملهما به ماريو، وبوالدته وشقيقته، اللتان استطاع إنقاذهما وحمايتهما. أما مستقبله وعمله،

فما زالا في متناوله، إلَّا أنهما يتخذان مسارًا لم يتخيَّله حتَّى اليوم. أمامه مهمَّة عليه تأديتها، وتلهُّفه على كرستينا لن يعينه على إكمالها. سيستحيل عليه اقتلاعها من قلبه، لكن لا خيار أمامه سوى تقبُّل الوحدة التي كتبها عليه القدر. أهذا هو نهج حياة الحشَّاش؟ أهذا ما يتطلبه الالتزام بعقيدة الحشَّاشين؟

سار إزيو إلى السوق القديم معتكر المزاج، المنطقة يتحاشاها معظم الذين يعرفهم، وهو نفسه لم يزُر المكان إلَّا مرَّة واحدة. ساحة السوق القديم مهملة قذرة، وكذلك المباني والشوارع المحيطة بها. وثمة عدد من الناس يغدون ويروحون، لكنهم ليسوا في نزهة مسائية، إنما يسيرون واضعين نُصب أعينهم غاية بعينها، لا يهدرون وقتًا، ولا يتلفَّتون. كان إزيو قد حرص على ارتداء ملابس بسيطة، ولم يحمل سيفًا، لكنه ارتدى واقي الذراع الجديد وخنجره المنبثق أيضًا، تحسُّبًا للطوارئ، لكن رغم هذا كان يعرف أنه يسهُل تمييزه عن الحشد في هذا المكان، وظل متيقظًا حذرًا.

كان يتساءل عن المسار الذي سيسلكه بعدما وصل، وفكر في الذهاب إلى حانة خفيضة تقدم الجعة في ركن الساحة، ليرى ما إذا بإمكانه أن يعرف الوسيلة التي قد تمكِّنه من التواصل مع الثعلب، وفجأة ظهر شاب نحيل أمامه مصطدمًا به.

«معذرة يا سيدي». تكلم الشاب بتهذيب، مبتسمًا، وتحرك سريعًا متجاوزًا إزيو، فامتدت يد إزيو غريزيًّا متحسسًا حزامه. كان قد ترك ممتلكاته الثمينة مخبأة بأمان في مسكنه، لكنه أخذ معه بضعة فلورينات في محفظة حزامه، والآن اختفت. استدار بسرعة فرأى الشاب متجهًا نحو أحد الشوارع الضيقة الممتدَّة من الساحة، وسار خلفه، وعندما رآه اللص ضاعف سرعته، لكن إزيو لم يدعه يغيب عن بصره وركض خلفه، ثمَّ لحق به أخيرًا وأمسك بتلابيبه قبل أن يدخل مبنى عاليًا غير مميز في شارع سان أنجلو.

زمجر به: «أعِدها لي».

رد اللص متحدِّيًا: «لا أعرف ما تتكلَّم عنه». لكن عينيه فضحتا خوفه.

همَّ إزيو بإخراج نصله، لكنه ألجم غضبه، إذ خطر له فجأة أن الرجل ربما يمده بالمعلومة التي يبحث عنها، فقال له: «لا يهمني إيذاؤك يا صديقي، أعِد لي المحفظة وسننسى ما حدث».

تردد الشاب، ثمَّ قال ممتعضًا: «أنت الفائز»، ومد يده إلى الحقيبة المتدلية على جانبه.

قال إزيو: «أمرٌ واحد فقط».

بدا الشاب محترسًا. «ماذا؟».

- أتعرف أين ربما أجد رجلًا يسمِّي نفسه الثعلب؟

عندئذٍ بدا الشاب خائفًا أيما خوف. «لم أسمع به قط. خذها، إليك نقودك يا سيدي، والآن دعني أذهب!».

- أخبرني أولًا.

«مهلًا لحظة». سمع إزيو صوتًا أجشَّ من خلفه. «ربما أستطيع مساعدتك».

التفت إزيو فرأى رجلًا عريض المنكبين طويلًا مثله لكن يكبُره بعشر أو خمس عشرة سنة، ويعتمر قلنسوة لا تشبه قلنسوته تحجب وجهه جزئيًّا، لكن تحتها تبيَّن إزيو عينين بنفسجيتين ثاقبتين تشعَّان بطاقة غريبة تخترقه.

قال الرجل: «من فضلك أطلِق سراح زميلي، سأجيبك نيابة عنه». ووجه كلامه إلى اللص الشاب قائلًا: «أعِد للسيد نقوده يا كورادِن، واغرب عن وجهي، سنتحدث عن هذا لاحقًا». تكلم الرجل بنبرة ثقة وسلطة دفعت إزيو إلى إفلات قبضته، وفي خلال لحظة وضع كورادن محفظة إزيو في يده واختفى في المبنى.

سأل إزيو: «من أنت؟».

ابتسم الرجل ببطء. «اسمي جيلبرتو، لكن تُطلَق عليَّ ألقاب عديدة، القاتل، على سبيل المثال، والسفاح، لكنني معروف بين أصدقائي بـــ *الثعلب*». انحنى انحناءة خفيفة وهو لا يزال محدِّقًا بعينيه الثاقبتين إلى إزيو. «وأنا في خدمتك يا سيد أودِتوري، كنت أنتظر مجيئك».

- كيف... كيف عرفت اسمي؟

- مهنتي هي معرفة كل شيء في هذه المدينة، وأظن أنني أعرف سبب اعتقادك بأنني أستطيع مساعدتك.

- عمي أعطاني اسمك...

ابتسم الثعلب مرَّة أخرى، لكنه لم يتكلَّم.

- أريد العثور على شخص... وأن أسبقه بخطوة أيضًا، إن استطعتُ.

- عمَّن تبحث؟

- فرانسسكو دي باتزي.

ارتسمت الجدية على وجه الثعلب. «اسم كبير. ربما أستطيع مساعدتك». صمت مفكِّرًا. «سمعت أن أُناسًا من روما وصلوا إلى رصيف السفن قبل وقت قصير، وقد جاؤوا لحضور اجتماع يُفترَض ألَّا يعرف أحدٌ بشأنه، لكنهم لا يعرفونني، ناهيك بأن يعرفوا أنني أعيُن هذه المدينة وآذانها. مستضيف الاجتماع هو الرجل الذي تنشُده».

- متى سيُعقد الاجتماع؟

ابتسم الثعلب مجددًا.

- الليلة! لا تقلق يا إزيو، إنه ليس القدر. لأرسلتُ أحدًا ليصطحبك إليَّ إذا لم تعثر عليَّ بنفسك، لكنني رأيت أن أتسلَّى باختبارك، قِلَّةٌ ممَّن يبحثون عنِّي ينجحون.

- أتعني أنك نصبت لي فخ كورادن؟

«سامحني على ميولي المسرحية، لكنني أردت أيضًا التأكد من أنك غير مُراقَب. وكورادن شابٌّ، أردتُ اختباره أيضًا. كما ترى، ربما نصبتُ لك فخًّا به، لكنه لم تكن لديه فكرة عن الخدمة التي يؤدِّيها لي، كان يظن أنني اخترتك ضحيةً له!». صارت نبرة كلامه رسمية جادَّة. «والآن عليك أن تجد طريقة للتجسس على هذا الاجتماع، لكن المهمَّة لن تكون سهلة». نظر إلى السماء. «حل الغروب. علينا أن نتعجل، أقصر طريق يمر عبر أسطح المباني. اتبعني!».

ودون كلمة أخرى استدار وتسلق الجدار الذي خلفه بسرعة بالغة، حتَّى وجد إزيو صعوبة في مجاراته، انطلقا فوق الأسقف الحمراء، قافزين فوق هوَّات الشوارع في ضوء الشفق، صامتَين كقطتين، بأقدام ناعمة كأقدام ثعلبين راكضين، اتجها ناحية الشمال الغربي عبر المدينة، حتَّى وصلا إلى واجهة كنيسة سانتا ماريا نوفيلا. توقَّف الثعلب، ولحق إزيو به بعد ثوانٍ، لكنه لاحظ أن لهاثه أشد من لهاث الرجل الأكبر سنًّا.

قال الثعلب: «حظيتَ بمعلِّم جيد». فخطر لإزيو، رغمًا عن براعة معلمه، فقد تغلَّب صديقه الجديد عليه بسهولة، فشدَّد عزمه على صقل مهاراته. لكن الآن ليس وقت المنافسات والألعاب.

قال الثعلب مشيرًا إلى الأسفل: «هناك يعقد السيد فرانسسكو اجتماعه».

- في الكنيسة؟

- تحتها. هيًّا!

في تلك الساعة كانت الساحة التي أمام الكنيسة مقفرة تقريبًا. قفز الثعلب من السقف الذي كانا عليه، هابطًا برشاقة بوضعية القرفصاء، وحذا إزيو حذوه. طافا في أنحاء الساحة وجانب الكنيسة حتَّى بلغا بوابة خلفية في جدارها، أشار الثعلب لإزيو بالدخول، ووجدا نفسيهما في كنيسة روشيلاي، توقَّف الثعلب بجوار الضريح البرونزي في الكنيسة وقال: «توجد شبكة متعرجة من سراديب الموتى ممتدَّة في جميع أنحاء المدينة، أجدها مفيدة للغاية في مجال عملي، لكنها ليست حِكرًا عليَّ للأسف، ورغمًا عن هذا لا يعرفها كثيرون، أو يعرفون كيفية إيجاد طريقهم فيها، لكن فرانسسكو دي باتزي ممَّن يعرفونها، وهنا بالأسفل يعقد اجتماعه مع القادمين من روما. هذا أقرب مدخل من مكانهم، لكن عليك الذهاب إليهم وحدك. ستجد مصلى، وهو جزء من سرداب موتى، على بعد خمسين ياردة إلى يمينك حالما تهبط. وتوخَّ الحذر، لأن الأصوات تنتقل بوضوح شديد هنا بالأسفل، كما ستجد المكان مظلمًا أيضًا، لذا دع بصرك يتكيف مع العتمة، ثمَّ سترشدك أضواء الكنيسة».

وضع يده على نتوء حجري في العمود الذي يسند الضريح، وضغط عليه، فهبط عند قدميه لوح حجري مثبت بمفاصل ظاهرة كاشفًا عن سلالم حجرية. تنحى جانبًا قائلًا: «حظًّا موفقًا يا إزيو».

- ألن تأتي؟

- ليس بالضرورة. رغمًا عن كل مهاراتي، الشخصان يصدران ضجيجًا أعلى ممَّا يصدره واحد. سأنتظرك هنا. هيا، اذهب!

هبط إزيو تحت الأرض وتلمَّس طريقه على امتداد الدهليز الحجري الرطب الممتد إلى يمينه. تمكَّن من تحسُّس طريقه، فالجدران قريبة بحيث يمكنه ملامسة كلا الجانبين بيديه، وغمره الارتياح لأن قدميه لم تصدرا صوتًا على الأرضية الترابية. وظل من حين إلى آخر يمر بأنفاق متفرعة يحس بها بدلًا من أن يراها عندما لا تلامس يداه شيئًا سواء خواء أسود. التيه هنا سيكون كابوسًا، إذ لن يجد طريق العودة أبدًا. أفزعته أصوات خافتة في البداية، ثمَّ أدرك أنها خشخشة جرذان، لكن عندما لامس جرذ قدمه تمكَّن بالكاد من

كبح صرخة. ثمَّ لمح عبر كوات منحوتة في الجدران جثثًا دفنت في الماضي السحيق، جماجمها مغلفة بشباك العناكب. ثمَّة شيء بدائي مرعب في سراديب الموتى، وتعين على إزيو لجم ذعره المتزايد.

وأخيرًا رأى ضوءًا خافتًا أمامه، فسار نحوه متحركًا ببطء. بقي في الظلال وهو يقترب من مجال سمع خمسة رجال رآهم أمامه، راسمين أشكالًا ظلية أمام ضوء مصباح مصلى ضيق عتيق.

تعرَّف على فرانسسكو فورًا، رجل نحيل ضئيل البنية، كان، عند وصول إزيو، منحنيًا أمام قسيسين حليقي الرأس جزئيًّا، لم يعرفهما إزيو، أكبر الاثنين سنًّا كان يمنح مباركته بصوت واضح: «وبركات الرب العظيم، الأب والابن والروح القدس عسى أن تحل عليكم دومًا...». وعندما سقط الضوء على وجهه عرفه إزيو، كان ستيفانو دا بانيوني، سكرتير ياكوبو عم فرانسسكو، وياكوبو نفسه يقف بجواره.

قال فرانسسكو عندما انتهت المباركة: «شكرًا لك أيها الأب». ثمَّ اعتدل في وقفته وخاطب رجلًا رابعًا كان يقف بجوار القسيسين. «قدِّم لنا تقريرك يا برناردو».

- كل شيء جاهز، لدينا مخزون كامل من السيوف والهراوات والفؤوس والسهام والأقواس.

قال القس الأصغر سنًّا: «خنجر بسيط سيكون أنسب للمهمَّة».

قال فرانسسكو: «هذا يتوقَّف على الظروف يا أنتونيو».

تابع القس الأصغر: «أو السم. لكن لا يهم، ما دام سيموت في النهاية. لن أسامحه بسهولة على إسقاط فولتيرا، مسقط رأسي وديارى الحقيقية الوحيدة».

قال الرجل المدعو برناردو: «اهدأ، جمينا لدينا دوافع كافية، والآن بفضل البابا سكستس، صارت لدينا الوسائل».

رد أنتونيو: «بالفعل يا سيد بارونشيلي، لكن هل نلنا مباركته؟».

جاء صوت من الظلال العميقة التي خلف المصباح عند مؤخِّرة الكنيسة: «إنه يبارك عمليتنا «شريطة ألَّا يُقتل أحد»».

خرج صاحب الصوت إلى مجال إضاءة المصباح، فحبس إزيو أنفاسه إذ تعرَّف على الشخص الذي يرتدي رداءً قرمزيًّا ويضع قلنسوة، لكن كل

وجهه، عدا شفتيه المزدريتين، محجوب بظل قلنسوته. إذن هذا هو الزائر المهم القادم من روما: رودريغو بورجيا، الإسباني!

شاركه جميع المتآمرين ابتسامة العارف التي ارتسمت على شفتيه، إذ كانوا يعرفون لمَن يدين البابا بولائه، ويعرفون أن مَن يسيطر عليه هو الكاردينال الواقف أمامهم، لكن، بطبيعة الحال، لا يمكن لكبير الأساقفة أن يتغاضى صراحة عن سفك الدماء.

قال فرانسسكو: «عظيمٌ أن المهمَّة ستنفذ أخيرًا، فقد اكتفينا من العقبات، بيد أن قتلهم في الكاتدرائية سيعرِّضنا لنقدٍ قاسٍ».

قال رودريغو حازمًا: «إنه خيارنا الوحيد والأخير، وبما أننا نؤدِّي عمل الرب بتخليص فلورنسا من أولئك الحثالة، فالمكان مناسب. وحالما نسيطر على المدينة، فليتذمَّر الناس منا، إذا تجرأوا!».

قال برناردو بارونشيلي: «لكنهم يغيِّرون خططهم باستمرار. حتَّى إنني سأطلب من شخص دعوة شقيقه الأصغر جوليانو لنحرص على وجوده في الوقت المناسب لحضور القداس الكبير».

ضحك جميع الرجال من كلامه، عدا ياكوبو، والإسباني، الذي لاحظ تعابير وجهه المتجهمة.

سأل رودريغو رجل آل باتزي الأكبر سنًّا: «ما الأمر يا ياكوبو؟ أتظن أنهم يشكُّون في حدوث شيء؟».

وقبل أن يتكلَّم ياكوبو، قال ابن أخيه بنفاد صبر: «مستحيل! آل مديتشي أغبى وأشدُّ غرورًا من أن يلاحظوا!».

وبخه ياكوبو: «لا تقلل من شأن أعدائنا. ألا ترى أن أموال آل مديتشي هي التي حرَّكت الحملة ضدنا في سان جيمِنيانو؟».

زمجر ابن أخيه: «لن تحدث مشكلات كهذه في هذه المرَّة»، ممتعضًا من فضح سوء تقديره أمام رفاقه، وذكرى موت ابنه لا تزال حيَّة في عقله.

وفي الصمت الذي أعقب كلامه، التفت برناردو إلى ستيفانو دي بانيوني قائلًا: «أود أن أستعير مجموعة من عباءات القساوسة الخاصة بكم من أجل صباح الغد أيها الأب. سيشعرون بأنهم بأمان إذا ظنوا أنهم محاطين برجال الدين».

سأل رودريغو: «من سينفذ الضربة؟».

قال فرانسسكو: «أنا!».

«وأنا!». أبدى ستيفانو وأنتونيو وبرناردو استعدادهم.

قال رودريغو: «عظيم. عمومًا أرى أن الخناجر ستكون أفضل، يسهُل إخفاؤها، وفعالة عن قرب. لكن يستحسن أن نجلب مخزون أسلحة البابا أيضًا. لا أشك، لكن ستحدث فوضى وأشياء غير متوقَّعة حالما نقضي على الإخوة مديتشي». رفع يده ورسم شارة الصليب إزاء رفاقه المتآمرين، «فليكن الرب معكم يا سادة. وفليرشدنا أبو الفهم. ثمَّ نظر في ما حوله. وقال: «حسنًا، أرى أن نقاشنا انتهى. لكن اعذروني على المغادرة حالًا، عليَّ قضاء عدَّة شؤون قبل عودتي إلى روما، ويجب أن أبدأ رحلتي قبل الفجر. لا أريد أن أُرى في فلورنسا في يوم نهاية آل مديتشي».

انتظر إزيو، ملتصقًا بجدار في الظلال، حتَّى غادر الرجال الستة، تاركين إياه في الظلام. وعندما تأكد أنه صار وحده تمامًا أخرج مصباحه وأشعله.

عاد من حيث أتي، ووجد الثعلب ينتظر في مصلى روشيلاي المعتم. أخبره إزيو مغتمًّا بما سمعه.

قال الثعلب عندما أنهى إزيو كلامه: «... أن يقتلوا لورنزو دي مديتشي في الكاتدرائية عند القداس الكبير صباح الغد؟». ورأى إزيو الرجل لأول مرَّة حائرًا لا يدري ما عساه أن يقول. «هذا انتهاك لحرمة الأماكن المقدسة! بل أسوأ... إذا سقطت فلورنسا في أيدي آل باتزي، فليكن الرب في عوننا».

استغرق إزيو في التفكير، وسأله: «أيمكنك أن تحجز لي مقعدًا في الكاتدرائية غدًا؟ قريبًا من المذبح وآل مديتشي».

بدا الثعلب مغتمًّا. «أمرٌ صعب، لكن ربما لا يكون مستحيلًا». نظر إلى الشاب. «أعرف ما تفكر فيه يا إزيو، لكن لا يمكنك تنفيذ هذه المهمَّة وحدك».

«يمكنني المحاولة، ولديَّ عنصر المفاجأة. كما إن وجود أكثر من وجه غريب بين الأرستقراطيين بجوار المذبح قد يثير شكوك آل باتزي. لا بُدَّ أن تساعدني على الدخول يا جيلبرتو».

أجابه جيلبرتو: «خاطبني بالثعلب»، وابتسم. «الثعالب وحدها تضاهيني في الدهاء». صمت ثمَّ تابع: «قابلني أمام الكاتدرائية قبل نصف ساعة من القداس الكبير». نظر إلى إزيو نظرة يملأها الاحترام. «سأساعدك إذا استطعت يا سيد إزيو. لكان والدك فخورًا بك».

9

استيقظ إزيو قبل فجر اليوم التالي، الأحد 26 أبريل، واتجه إلى الكاتدرائية. لم ير سوى قِلة قليلة من الناس، وبضعة رهبان وراهبات في طريقهم لأداء طقوس تسبيحة الضحى. مدركًا أن عليه التخفِّي، تسلق بجهد إلى قمة برج الأجراس وشاهد الشمس تشرق على المدينة، ثمَّ بدأت الساحة تحته تمتلئ تدريجيًّا بمواطنين من شتَّى طبقات المجتمع، أُسر وأزواج، وتجار، ونبلاء، متحمسين لحضور شعائر اليوم الرئيسية، وممتنين لحضور الدوق وشقيقه الأصغر شريكه في الحكم. طاف إزيو بعينيه بين الناس مدقِّقًا، وعندما رأى الثعلب وصل إلى سلالم الكاتدرائية، تحرك إلى جانب البرج البعيد عن الأنظار وتسلق هابطًا، رشيقًا كقرد، لينضم إلى الثعلب، متذكرًا أن يبقي رأسه منخفضًا ويذوب في الحشد بقدر مستطاعه. تعيَّن عليه ارتداء أفضل ملابسه للمناسبة، ولم يحمل سلاحًا ظاهرًا، رغم أن كثيرًا من الرجال، من طبقة التجار والمصرفيين الأثرياء، كانوا يعلِّقون سيوف مراسم من أحزمتهم. عجز عن مقاومة البحث عرضيًّا عن كرستينا، لكن عينيه لم تقعا عليها.

قال الثعلب عند اقتراب إزيو منه: «ها أنت ذا، أجريت كل الترتيبات، وحجزت لك مكانًا بجوار الممر في الصف الثالث». في أثناء كلامه انفرج الحشد الواقف على السلالم، ورفع صفٌ من المُنادين أبواقهم إلى شفاههم. فتابع الثعلب: «إنهم قادمون».

داخلين إلى الساحة من جانب بيت المعمودية، ظهر لورنزو مديتشي أولًا، وزوجته كلاريس إلى جانبه، ممسكة بيد لوكريرزيا، ابنتهم الكبرى، وسار بييرو البالغ من العمر خمس سنوات بفخر إلى يمين والده. وخلفهم ظهرت

مادالينا ذات الأعوام الثلاثة، ترافقها مربيتها، ثمَّ الرضيع ليو، تحمله مربيته مقمَّطًا بساتان أبيض. وفي أعقابهم جوليانو وعشيقته، فيوريتا، الحبلى في شهورها الأخيرة. انحنى حشد الناس في الساحة عند مرور آل مديتشي، واستقبلهم عند مدخل الكاتدرائية قسيسان، تعرف إزيو عليهما شاعرًا برعدة رعب، ستيفانو دا بانيوني والآخر الذي من فولتيرا، أنتونيو مافيي، عرف إزيو اسمه الكامل من الثعلب.

دخلت عائلة مديتشي الكاتدرائية، وخلفهم القساوسة، يتبعهم مواطنو فلورنسا، بترتيب رُتبهم. نكز الثعلب إزيو وأشار، فلمح إزيو بين الحشد فرانسسكو دي باتزي وشريكه في التآمر، برناردو بارونشيلي، متنكِّرًا بزي شمَّاس. حثَّ الثعلب إزيو بصوت كالفحيح: «اذهب الآن، كن قريبًا منهم».

تزاحم كثيرٌ من الناس في الكاتدرائية حتَّى لم تعد تتسع للمزيد، فتعيَّن على الذين كانوا يأملون أن يجدوا مكانًا الرضا بالبقاء بالخارج. بلغ إجمالي عدد المجتمعين عشرة آلاف، ولم ير الثعلب حشدًا هائلًا كهذا في فلورنسا طوال حياته، وابتهل بصمت راجيًا نجاح إزيو.

بالداخل جلس الناس في الحرِّ الخانق، ولم يتمكَّن إزيو من الاقتراب من فرانسسكو والآخرين كما كان يريد، لكنه ظل يتابعهم من كثب، مفكِّرًا في ما قد يفعله حتَّى يصل إليهم حالما يبدؤون هجومهم. في هذه الأثناء كان أسقف فلورنسا قد اتخذ مكانه أمام المذبح، وبدأ القداس الكبير.

وبينما كان الأسقف يبارك الخبز والنبيذ لاحظ إزيو فرانسسكو وبرناردو يتبادلان النظرات، وكان آل مديتشي جالسين أمامهم مباشرة. وفي اللحظة نفسها نظر القسيسان بانيوني ومافيي في ما حولهما خلسة من مكانهما عند درجات سلم المذبح السفلى. التفت الأسقف مواجهًا جماعة المصلين، رافعًا كأسًا ذهبية، وبدأ يتكلَّم.

«دماء المسيح...».

وعندئذٍ حدث كل شيء دفعة واحدة. هبَّ بارونشيلي واقفًا وصاح: «مُت أيها الخائن!»، وغرز خنجرًا في عنق جوليانو من الخلف، فانبجست الدماء من الجرح، وتناثرت على فيوريتا، التي هوت على ركبتيها صارخة.

زعق فرانسسكو: «دعني أجهِز على الوغد!»، ودفع بمرفقه بارونشيلي جانبًا، وألقى بجوليانو، الذي يحاول إيقاف نزيف جرحه بيديه، على الأرض،

وجثا فوقه وانهال بخنجره على جسد ضحيته مرارًا، بهياج شديد إلى درجة أنه طعن فخذه هو نفسه دون أن يلاحظ. كان جوليانو قد مات منذ مدَّة عندما طعنه فرانسسكو للمرة الألف، طعنة أخيرة.

في هذه الأثناء كان لورنزو قد أطلق صيحة ذعر واستدار مواجهًا المعتدين على شقيقه، وهرعت كلاريس والمربيات بالأطفال وفيوريتا إلى مكان آمن. ساد الهرج والمرج. كان لورنزو قد رفض مزدريًا فكرة مرافقة حرسه الشخصي له مرافقة لصيقة، إذ لم يُسمع قط عن هجوم بنيَّة القتل في كنيسة، والآن حاول الحراس جاهدين الوصول إليه عبر حشد المصلين المضطربين المذعورين الذين يتدافعون ويدوس بعضهم على بعض في سبيل الابتعاد عن المجزرة، لكن الوضع فاقمه الحر وعدم وجود مساحة للتحرُّك أي حركة...

باستثناء المنطقة التي أمام المذبح مباشرة، حيث وقف الأسقف وقساوسته المساعدون مشدوهين، متسمِّرين في أماكنهم. لكن بانيوني ومافيي، عندما رأيا لورنزو يوليهما ظهره، انتهزا الفرصة واستلَّا خنجريهما من عباءتيهما وانقضَّا عليه من الخلف.

نادرًا ما يكون القساوسة قتلةً متمرِّسين، وهذان الاثنان، مهما بلغت شدَّة رسوخ إيمانهما بقضيتهما، لم يصيبا لورنزو سوى بجراح سطحية قبل أن يبعدهما، لكن بعد اشتباك تغلَّبا عليه مرَّة أخرى، ثمَّ اقترب فرانسسكو منهم، وهو يعرج من جرحه الذي أصاب نفسه به لكنه مدفوع بالكراهية التي تغلي بداخله، ويزأر باللعنات وهو يمشي شاهرًا خنجره. أما بانيوني ومافيي، فقد انحلَّت عزيمتهما بما اقترفا وولَّيا هاربَيْن في اتجاه المحراب، وتركا لورنزو يترنَّح نازفًا وعلى كتفه الأيمن جرح عطَّل ذراعه التي تحمل السيف.

صاح فرانسسكو: «انتهت أيامك يا لورنزو! عائلتك المُنحلَّة بأكملها ستموت بسيفي!».

استدار لورنزو. «وضيع! سأقتلك الآن!».

قال فرانسسكو ساخرًا: «بذراعك هذه؟»، ورفع خنجره ليطعن.

وحالما هوت قبضته، أمسكت يد قوية بمعصمه وأوقفت حركته، ثمَّ جذبته ليستدير، فوجد فرانسسكو نفسه ينظر إلى وجه عدو لدود آخر.

زمجر: «إزيو! أنت! هنا!؟».

- انتهت أيامك *أنت* يا فرانسسكو!

بدأ الحشد يخف، وتمكَّن حراس لورنزو من الاقتراب قليلًا. ووصل بارونشيلي إلى جانب فرانسسكو صارخًا: «هيا، علينا أن نغادر. انتهي الأمر!».

قال فرانسسكو: «سأتعامل مع هؤلاء الكلاب أولًا». لكن وجهه كان شاحبًا وجرحه ينزف بغزارة.

- لا! علينا أن ننسحب!

بدا فرانسسكو غاضبًا أشد الغضب، لكن ارتسم الإذعان على ملامح وجهه، وقال لإزيو: «هذه ليست النهاية».

- ليست النهاية بالطبع. سأطاردك حيثما ذهبت يا فرانسسكو، حتَّى أقتلك.

استدار فرانسسكو حانقًا وتبع بارونشيلي، الذي اختفى سلفًا خلف المذبح العالي. لا بُدَّ من وجود باب في المحراب يفضي إلى خارج الكاتدرائية. همَّ إزيو بملاحقتهما.

«مهلًا!». سمع إزيو صوتًا مشروخًا من خلفه. «دعهما يذهبان، لن يبتعدوا كثيرًا، أحتاج إليك هنا، أحتاج إلى مساعدتك».

التفت إزيو فرأى الدوق ممدَّدًا على الأرض بين مقعدين مقلوبين، وعلى مبعدة عائلته رابضة تنتحب، كلاريس مرتعبة تضم إليها طفليها الكبيرين، وفيوريتا تحدِّق متبلِّدة في اتجاه جثة جوليانو الملتوية المشوهة.

وصل حراس لورنزو، فقال لهم: «اعتنوا بعائلتي، اصطحبوهم إلى القصر وأحكِموا إغلاق الأبواب، ستسود الفوضى المدينة لما حدث».

ثمَّ التفت إلى إزيو. «أنقذتَ حياتي».

«أدَّيتُ واجبي! والآن يجب أن يدفع آل باتزي الثمن كاملًا!». ساعد إزيو لورنزو على النهوض، وأجلسه برفق على مقعد. ثمَّ رفع بصره فلم ير الأسقف والقساوسة الآخرين في أي مكان، وخلفه وجد الناس لا يزالون يتدافعون ويتعاركون في سبيل الخروج من الكاتدرائية عبر الباب الغربي الرئيسي. قال: «يجب أن ألاحق فرانسسكو!».

قال لورنزو: «لا! لا يمكنني بلوغ مكان آمن وحدي، لا بُدَّ أن تساعدني، اصطحبني إلى سان لورنزو، لديَّ أصدقاء هناك».

تعذَّب إزيو، لكنه كان يعرف أن عائلته مدينة للورنزو بالكثير، ولا يمكنه لومه على فشله في منع مقتل والده وشقيقيه، فكيف كان لأي أحد أن يتنبأ بالهجوم المفاجئ؟ والآن لورنزو نفسه وقع ضحية، لا يزال على قيد الحياة، لكنه لن يعيش طويلًا إلَّا إذا أوصله إزيو إلى أقرب مكان يمكن أن يُعالَج فيه. لم تكن كنيسة سان لورنزو تبعد سوى مسافة قصيرة شمال غرب بيت المعمودية.

ضمَّد إزيو جراح لورنزو بقدر مستطاعه، بأشرطة مزقها من قميصه، ثمَّ رفعه برفق حتَّى أوقفه على قدميه. «ضع ذراعك حول كتفي. جيد. والآن، لا بُدَّ من وجود مخرج خلف المذبح...».

سارا بصعوبة في الاتجاه الذي سلكه مهاجموهما، وبلغا بابًا صغيرًا مفتوحًا على عتبته بقع دماء. لا شك أنه الطريق الذي سلكه فرانسسكو. أيمكن أن يكون مختبئًا متربِّصًا به؟ سيصعُب على إزيو إخراج خنجره، وسيصعب عليه أكثر القتال، وهو يسند لورنزو إلى جانبه الأيمن. لكن كان قد ثبَّت واقي الذراع المعدني على ذراعه اليسرى.

سارا إلى الساحة خارج جدار الكاتدرائية الشمالي، واستقبلتهما مشاهد الاضطراب والفوضى، ثمَّ اتجها غربًا بمحاذاة جانب الكاتدرائية، بعدما توقَّف إزيو ليضع رداءه على كتفي لورنزو في محاولة مرتجلة لإخفاء هويته. وفي الساحة التي بين الكاتدرائية وبيت المعمودية وجدا مجموعات رجال يرتدون شعارات آل باتزي وآل مديتشي مشتبكين في قتال محتدم بالأيدي، فتمكَّن إزيو من تجاوزهم دون أن يلاحظوه، لكن عندما بلغا الشارع المفضي إلى ساحة سان لورنزو، جابههما رجلان يرتديان شعار الدولفين والصلبان، كلاهما يحمل سيفًا قبيحًا معقوفًا عريض الشفرة.

قال أحد الحارسين: «توقَّفا! إلى أين ذاهبين؟».

أجابه إزيو: «عليَّ مرافقة هذا الرجل إلى مكان آمن».

قال الحارس الثاني متأفِّفًا: «ومَن قد يكون؟»، واقترب مدققًا النظر إلى وجه لورنزو، فأشاح الدوق بوجهه، وهو يكاد يغمى عليه، لكن إثر حركته انزلق الرداء كاشفًا عن شعار آل مديتشي المنقوش على صُدرته.

«أوه!». تكلم الحارس الثاني مستديرًا إلى رفيقه. «يبدو أننا اصطدنا سمكة كبيرة يا تيرزاغو!».

تسارع عقل إزيو. لا يمكنه إفلات لورنزو، الذي ما زال يفقد دماءه، لكن إذا لم يفلته، فلن يستطيع استخدام سلاحه. رفع قدمه اليسرى بسرعة ودفع الحارس من مؤخرته، فسقط منبطحًا، وفي خلال ثوانٍ انقضَّ رفيقه على إزيو شاهرًا سيفه، وحالما هوى به تفاداه إزيو مستخدمًا واقي ذراعه، فأطاح بالسيف، وجرح الرجل بالخنجر مزدوج النصل المثبت في واقي ذراعه، لكنه ضربته لم تكن قوية بما يكفي لقتل الرجل، وعندئذٍ كان الحارس الثاني قد نهض، وهبَّ لمساعدة رفيقه، الذي يترنَّح متقهقرًا، ومدهوشًا لأنه لم يقطع ذراع إزيو.

صدَّ إزيو السيف الثاني بالطريقة نفسها، لكن هذه المرَّة تمكَّن من تمرير واقي الذراع على نصل السيف حتَّى ارتطم بمقبضه، مقرِّبًا يده من معصم الرجل، فأمسكه وثناه بسرعة وقوة جعلت الرجل يفلت سلاحه مطلقًا صرخة ألم حادَّة. ثمَّ التقط إزيو السيف بسرعة قبل أن يسقط على الأرض. كان صعبًا عليه العمل بيسراه ووزن لورنزو يعوقه، لكنه أدار السيف وطعن به عنق الحارس قبل أن نهوضه. وعندئذٍ كان الحارس الثاني يهاجمه مجددًا، وهو يخور غاضبًا، فتفادى إزيو سيفه، وتبادل مع الحارس عدَّة طعنات وضربات، لكن الحارس، وهو لا يزال جاهلًا بالواقي المعدني الخفي على ذراع إزيو، ظل يصوِّب عليه ضربات متتالية بلا جدوى. أحس إزيو بألم في ذراعه، وتمكَّن بالكاد من البقاء واقفًا، لكنه رأى فرصة أخيرًا، إذ لم تعد خوذة الرجل ثابتة، والرجل غير مدرك لهذا وينظر إلى الأسفل إلى ذراع إزيو، مستعدًّا لتصويب ضربة أخرى، وبسرعة رفع إزيو سيفه ضاربًا، وتظاهر بأنه أخطأ، لكنه نجح في إسقاط الخوذة، وعاجل الرجل بضربة قوية بالسيف الثقيل على جمجمته فشقها نصفين، وظل السيف مغروزًا إذ عجز إزيو عن اقتلاعه. وقف الرجل ساكنًا متسمِّرًا لوهلة، وعينيه متسعتان من الدهشة، وخرَّ ميتًا. نظر إزيو في ما حوله سريعًا وواصل سيره في الشارع مسندًا لورنزو.

«بقيت مسافة قصيرة يا سُموَّك».

وصلا إلى الكنيسة دون عقبات أخرى، لكنهما وجدا الأبواب مُحكمة الإغلاق. نظر إزيو خلفه، فرأى عند نهاية الشارع أن جثتَي الحارسين اللذين قتلهما اكتشفها حراس آخرون من رفاقهما، وينظرون في اتجاه باب الكنيسة. طرق الباب طرقًا عنيفًا، ففُتحت فيه كوة ضيقة، كاشفةً عن عين وجزء من وجهٍ مُرتاب.

قال إزيو لاهثًا: «لورنزو أُصيب، ونحن مطارَدان! افتحوا الباب!».

أجابه الرجل من الداخل: «أريد كلمة السر». فحارَ إزيو، لكن لورنزو سمع صوت الرجل وتعرَّف عليه، فاستجمع قواه قليلًا، وصاح: «أنجِلو! أنا لورنزو! افتح الباب اللعين!».

قال الرجل من الداخل: «بحق هرمس مثلث العظمة، حسِبناك قُتلت!»، والتفت وزعق بشخص غير مرئي: «اسحب مزاليج هذا الشيء، بسرعة!».

أُغلقت الكوة وسُمع صوت مزاليج تُسحب بسرعة. في هذه الأثناء بدأ حراس آل باتزي يركضون، وفي الوقت المناسب فُتح أحد مصراعَي الباب الثقيلين فدخل إزيو ولورنزو، وأغلق خلفهما بسرعة، وأعاد البوابون المزاليج إلى أماكنها. سمعوا جلبة معركة فظيعة بالخارج. ثمَّ وجد إزيو نفسه ينظر إلى رجل مهذب يبدو في الرابعة والعشرين من عمره.

عرف الرجل بنفسه: «أنجِلو بوليزيانو. أرسلتُ بعض رجالنا من الخلف ليتصدُّوا لجرذان باتزي الذين خارج الباب، لن يزعجونا مرَّة أخرى».

- إزيو أودِتوري.

«آه، لورنزو تحدَّث عنك...» قاطع نفسه، وقال: «يمكننا التحدُّث لاحقًا، دعني أساعدك على إجلاسه على مقعد حتَّى نلقى نظرة على جراحه».

قال إزيو: «إنه بأمان الآن»، وسلَّم لورنز لخادمين اقتاداه برفق إلى مقعد بجوار جدار الكنيسة الشمالي.

«سنوقف نزيفه ونضمد جراحه، وما إن يتعافى قليلًا سنعيده إلى قصره. لا تقلق يا إزيو، إنه بأمان فعلًا الآن، ولن ننسى ما فعلته».

لكن إزيو كان يفكر في فرانسسكو دي باتزي، إذ تسنى الوقت للرجل حتَّى يبتعد في هروبه. قال: «أستأذنكم للمغادرة».

هتف لورنزو: «مهلًا!».

أومأ إزيو لبوليزيانو وذهب إلى لورنزو وجثا بجواره.

قال لورنزو: «أنني مدين لك يا سيدي. ولا أعرف سبب مساعدتك لي، أو كيفية معرفتك بما كان يُدبَّر في حين عجز جواسيسي». صمت وتجعدت عيناه من الألم وأحد الخدم ينظف جرح كتفه، ثمَّ تابع: «من أنت؟».

قال بوليزيانو: «إنه إزيو أودِتوري»، واقترب واضعًا يده على كتف إزيو.

«إزيو!». حدَّق لورنزو إليه متأثِّر تأثُّرًا عميقًا. «والدك كان رجلًا عظيمًا وصديقًا عزيزًا، وأحد أقوى حلفائي، كان يفهم معنى الشرف والولاء، ولم يقدِّم مصلحته الشخصية على مصلحة فلورنسا، لكن...» صمت وابتسم ابتسامة باهتة. «كنتُ حاضرًا عندما مات ألبرتي، هل كنتَ الفاعل؟».

- نعم.

- نلتَ انتقامًا لائقًا وسريعًا. وكما ترى، لم أنجح مثلك، لكن الآن حَكم آل باتزي، بطموحهم المفرط، على أنفسهم بالهلاك. أبتهِل أن...

أحد رجال دورية مديتشي الذين أُرسِلوا للتصدِّي لحراس آل باتزي الذي كانوا يطاردون إزيو -جاء مسرعًا، ووجهه مبتل بالعرق والدماء.

سأله بوليزيانو: «ما الخطب؟».

- خبر سيئ يا سيدي. أعاد آل باتزي ترتيب صفوفهم ويهاجمون القصر القديم، لن نقدر على صدِّهم مدَّة طويلة.

امتقع بوليزيانو. «هذا خبر سيئ حقًّا. إذا سيطروا عليه، فسيقتلون كل مَن يقع في أيديهم من مناصرينا، وإذا استولوا على السلطة...»

«إذا استولوا على السلطة»، قاطعه لورنزو. «فبقائي على قيد الحياة لن يعني شيئًا، سنموت جميعًا». حاول النهوض، لكنه تهالك مضجعًا وهو يئن من الألم. «أنجلو! عليك بقيادة كل جنودنا الموجودين هنا و...»

- لا! مكاني جوارك. علينا اصطحابك إلى قصر مديتشي في أقرب وقت ممكن، من هناك يمكننا تنظيم صفوفنا والمقاومة.

قال إزيو: «أنا سأذهب إليهم، لديَّ ثأر مع فرانسسكو على أي حال».

نظر لورنزو إليه. «لقد فعلتَ ما يكفي».

- ليس قبل ان أنهي مهمتي يا سموك. وأنجلو محق، الأولوية هي الذهاب بك إلى أمان قصرك.

تدخل رسول آل مديتشي: «سادتي، لديَّ خبر آخر. رأيت فرانسسكو دي باتزي يقود جنودًا إلى خلف القصر القديم. إنه يسعى للدخول من جانب مبنى السِنيوريا غير المؤمن».

نظر بوليزيانو إلى إزيو. «اذهب وتسلَّح وخذ مفرزة جنود من هنا، وأسرع. سيصطحبك هذا الرجل ويرشدك، سيريك طريقًا آمنًا لمغادرة هذه الكنيسة، ثمَّ ستستغرق عشر دقائق حتَّى تبلغ القصر القديم».

انحنى إزيو، ودار على عقبيه ليغادر.

قال لورنزو: «فلورنسا لن تنسى أبدًا ما تفعله من أجلها، فليحفظك الرب».

بالخارج كانت معظم أجراس الكنائس ترنُّ، إلى جانب جلبة قعقعة السيوف وصرخات الناس وأنينهم. استولت على المدينة فوضى عارمة، بالعربات المشتعلة في الشوارع، وجنود الفريقين الذين يتراكضون في شتى الاتجاهات، أو يواجه بعضهم بعضًا في قتال محتدم، وتناثر الموتى في كل مكان، في الساحات والشوارع الطويلة. لكن الاضطراب كان شديدًا بحيث لم يسمح للغربان بالتجرُّؤ على الاقتراب من الوليمة التي تنتظر إليها من أسطح المنازل بأعينها السوداء النَّهمة.

وجد إزيو باب القصر القديم مفتوحًا، وجلبة القتال قادمة من داخله، فأوقف مجموعة جنوده الصغيرة، وخاطب ضابطًا تابعًا لآل مديتشي يقود مجموعة جنود أخرى راكضًا نحو القصر. «أتعرف ما يجري؟».

- اقتحم آل باتزي القصر من الخلف وفتحوا الأبواب من الداخل، لكن رجالنا بالداخل يقاومونهم، لم يتجاوزوا الفناء، إذا حالفنا الحظ سنتمكَّن من تطويقهم بالداخل.

- هل من خبر عن فرانسسكو دي باتزي؟

- هو ورجاله عند المدخل الخلفي للقصر، إذا سيطرنا عليه فسنحتجزهم بلا شك.

التفت إزيو إلى رجاله وصاح: «هيا بنا!».

اندفعوا عبر الساحة وسلكوا شارعًا ضيقًا يمتد بمحاذاة جدار القصر الشمالي، الجدار الذي تسلقه إزيو قبل مدَّة طويلة حتَّى يبلغ نافذة زنزانة والده. انعطف يمينًا فوجد جنود آل باتزي تحت قيادة فرانسسكو يحرسون المدخل الخلفي، فتأهبوا للقتال فورًا، وعندما تعرف فرانسسكو على إزيو، صاح: «أنت مجددًا؟ لماذا لم تمُت بعد؟ لقد قتلت ابني!».

- هو من حاول أن يقتلني!

- اقتلوه! اقتلوه الآن!

اشتبك الفريقان بشراسة، طعنًا وبترًا بغضب مستعر، إذ كان آل باتزي يدركون مدى أهمية تأمين طريق انسحابهم. تملَّك إزيو غضب بارد، وشق طريقه نحو فرانسسكو الذي يقاتل مولِّيًا باب القصر ظهره. كان السيف الذي أخذه إزيو من مخزن أسلحة آل مديتشي جيد التوازن ونصله من فولاذ توليدو، لكنه لم يكن مألوفًا لديه، فصارت ضرباته أقل فعالية من المعتاد. كان يشوِّه الرجال الذين يقفون في طريقه بدلًا من قتلهم، وهذا لاحظه فرانسسكو.

«تظن نفسك مبارزًا بارعًا يا غلام، أليس كذلك؟ أراك عاجزًا عن الإجهاز على أي خصم. سأعطيك درسًا عمليًّا».

انقضَّا على بعضهما، وتطاير الشرر من نصليهما، لكن فرانسسكو وجد مساحة مناورة أقل من مساحة إزيو، ويكبُره بعشرين سنة، فبدأ يتعب، رغم أنه لم يقاتل كثيرًا اليوم.

وأخيرًا صاح: «أيها الحراس! إليَّ!».

لكن رجاله كانوا قد تراجعوا أمام هجوم آل مديتشي الضاري، فصار في مواجهة إزيو وحدهما. نظر فرانسسكو في ما حوله يائسًا بحثًا عن طريق للانسحاب، لكن لم يكن ثمَّة طريق آمن عبر القصر، ففتح الباب الذي خلفه وصعد سلَّمًا حجريًّا على امتداد الجزء الداخلي من الجدار. أدرك إزيو أن معظم مدافعي مديتشي سيتركزون عند واجهة المبنى حيث يدور معظم القتال، لذا على الأرجح لن يوجد عدد كافٍ من الرجال لتغطية الخلف أيضًا. أسرع إزيو خلف فرانسسكو إلى الطابق الثاني.

وفيه كانت الغرف خالية، بما أن جميع ساكني القصر، ما عدا بضعة موظفين فرُّوا حالما رأوهما، كانوا بالأسفل يقاتلون لاحتواء آل باتزي في الفناء. تقاتل فرانسسكو وإزيو عابرين البهو الرسمي المذهَّب عالي السقف حتَّى وصلا إلى شرفة عالية فوق ساحة مبنى السنيوريا، بلغتهم جلبة المعركة من الأسفل، وصاح فرانسسكو طالبًا النجدة يائسًا، لكن لم يسمعه أحد، وآخر طريق لانسحابه قُطع عليه.

قال إزيو: «قف وقاتل، صرنا وحدنا الآن».

- ملعون!

هاجمه إزيو، فأصابه في ذراعه اليسرى. «هيا يا فرانسسكو، أين شجاعتك التي أبديتها عندما قتلت أبي؟ وعندما طعنت جوليانو صباح اليوم؟».

«ابتعد عنِّي بحق الجحيم، أيها النبت الشيطاني!». هاجم فرانسسكو، لكنه كان منهكًا، وطاشت ضربته، ثمَّ ترنَّح إلى الأمام فاقدًا توازنه، فتحرك إزيو جانبًا برشاقة، ورفع قدمه راكلًا نصل سيف فرانسسكو إلى الأسفل بقوة، فأسقط الرجل معه.

وقبل أن ينهض فرانسسكو، داس إزيو على يده، فجعله يفلت مقبض سيفه، ثمَّ أمسك بكتفه وقلبه على ظهره، فقاوم محاولًا النهوض، وعاجله إزيو بركلة عنيفة على وجهه، انقلبت عينا فرانسسكو في محجريهما وهو يترنَّح على حافة الإغماء. جثا إزيو وفتش جيوب الرجل العجوز شبه الغائب عن الوعي، وانتزع درعه وصُدريته، كاشفًا عن جسد شاحب هزيل، لكنه لم يجد سوى حفنة فلورينات في محفظته، لم يجد معه وثائق، أو أي شيء ذي أهمية.

ألقى إزيو سيفه جانبًا، وأطلق خنجره ذا النصل المنبثق، ثمَّ وضع يده تحت عنق فرانسسكو وجذبه إلى الأعلى حتَّى كاد وجهاهما أن يتلامسا.

تذبذب جُفنا فرانسسكو حتَّى فُتحت عيناه، فأفصحتا عن رعب شديد. قال بصعوبة بصوت كالنقيق: «أبقِ على حياتي!».

عندئذٍ ارتفعت صيحة نصر صاخبة من الفناء بالأسفل، أصغى إزيو للأصوات، وسمع ما يكفي ليفهم أن آل باتزي دُحِروا. قال: «أبقي على حياتك؟ عمَّا قريب سأبقي على حياة الذئاب المسعورة!».

صرخ فرانسسكو: «لا! أتوسَّل إليك!».

قال إزيو: «هذه من أجل أبي»، وطعنه في معدته. «وهذه من أجل فيديريكو»، وطعنه مرَّة أخرى. «وهذه من أجل بتروتشو، وهذه من أجل جوليانو!».

سالت الدماء من جراح فرانسسكو، وتلطخ إزيو بها، لكنه لواصل طعن الرجل المحتضر إذا لم يستحضر كلمات ماريو: 'لا تصبح مثله'، فتراجع جالسًا على عقبيه. كانت عينا فرانسسكو لا تزالان ترمشان، لكن ضوءهما بدأ يخبو، ثمَّ تمتم بكلام، فمال إزيو نحوه ليسمعه.

«قس... قس... ارحمني وأحضِر لي قسًّا».

صُدم إزيو بشدَّة، الآن وقد انحسر غضبه، من الوحشية التي تصرَّف بها، التي تتنافى مع تعاليم **العقيدة**. قال: «ما من وقت. سأطلب تلاوة قداس من أجل روحك».

تحشرج حلق فرانسسكو، ثمَّ تشنَّجت أطرافه وارتعش وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، والتوى رأسه إلى الخلف، فاغرًا فمه وهو يخوض المعركة المستحيلة مع العدو الخفي الذي سنواجهه جميعًا ذات يوم، ثمَّ همد، وقد استحال شيئًا واهيًا متغضِّنًا شاحبًا.

تمتم إزيو: «فلترقد بسلام».

ارتفع هدير جديد من الساحة، جاء خمسون أو ستون رجلًا من الركن الجنوبي الغربي راكضين، يقودهم رجل عرفه إزيو، ياكوبو، عم فرانسسكو! رافعين راية آل باتزي عاليًا.

صاحوا مقتربين: «الحرية! الحرية! الشعب والحرية!»، وفي الحال تدفقت قوات آل مديتشي إلى خارج القصر لملاقاة العدو، لكنهم كانوا مرهقين، وكما رأى إزيو، أقل عددًا.

استدار عائدًا إلى الجثة، وقال: «حسنًا يا فرانسسكو، أظنني وجدت طريقة تسدد بها دَينك، حتَّى بعد موتك». وبسرعة أدخل يديه تحت كتفي الجثة، ورفعها، فدُهِش من خفَّتها، وحملها إلى الشرفة، ثمَّ أخذ حبلًا من راية معلَّقة، وربط أحد طرفي الحبل حول عنق العجوز الهامد، وأوصل الطرف الآخر بعمود حجري متين، ثمَّ استنفر كامل قوَّته لرفع الجثة، وألقاها فوق حاجز الشرفة، فتدلَّى الحبل وتوقَّف، وتعلَّقت جثة فرانسسكو وقدميه متجهتان نحو الأرض بالأسفل بعيدًا.

أخفى إزيو نفسه خلف عمود، وهتف بصوت كالرعد: «ياكوبو! ياكوبو دي باتزي! انظر! زعيمكم مات، وانتهت قضيتكم!».

رأى بالأسفل ياكوبو يرفع رأسه، ويترنَّح، وخلفه تردَّد رجاله أيضًا. وتابع جنود آل مديتشي نظراته، فهتفوا متحمِّسين وهاجموا بروح معنوية أقوى، لكن آل باتزي اضطربت صفوفهم، ولاذوا بالفرار.

***

انتهى كل شيء في غضون أيام. كُسرت شوكة آل باتزي في فلورنسا، صودرت بضائعهم وممتلكاتهم، ومُزِّقت راياتهم وعُفِّرت بالتراب. ورغمًا عن

مناشدة لورنزو الناس أن يتعاملوا برحمة، فقد طارد الفلورنسيون وقتلوا كل متعاطف مع آل باتزي عثروا عليه، لكن بعض الشخصيات البارزة نجحت في الفرار. واحد فقط من المقبوض عليهم نال العفو، رافايلي رياريو، ابن أخ للبابا، رآه لورنزو ساذجًا بريئًا لا يمكن أن يكون قد شارك في المؤامرة مشاركة فعالة، لكن كثيرًا من مستشاري الدوق رأوا أن لورنزو أظهر في قراره هذا إنسانيةً زائدة على حساب الفطنة السياسية.

ثار سكستس الرابع غضبًا، ووضع فلورنسا تحت الحرمان، لكنه لم يسعه فعل شيء آخر، ولم يأبه له الفلورنسيون.

أما إزيو فكان أول الذين استُدعوا لمقابلة الدوق، وجد لورنزو واقفًا في شرفة مطلة على نهر أرنو، متأملًا المياه. كانت جراحه لا تزال مضمدة لكنها تشفى، واختفى الشحوب من خدَّيه. وقف فخورًا شامخًا، وأصبح الرجل يستحق اللقب الذي أطلقته فلورنسا عليه: العظيم.

بعدما تبادلا التحايا، أومأ لورنزو إلى النهر. «أتعرف يا إزيو، عندما كنت في السادسة من عمري، سقطت في نهر أرنو، ووجدت نفسي أنجرف إلى الأعماق، متيقنًا أن حياتي انتهت، لكنني استيقظت على صوت نحيب أمي، وإلى جانبها رأيت رجلًا غريبًا يبتسم مبتلًا، ذلك الغريب كان اسمه أودِتوري. وهكذا بدأت علاقة طويلة مزدهرة بين عائلتينا». التفت ونظر إلى إزيو بوقار. «يؤسفني عجزي عن إنقاذ أقاربك».

لم يحر إزيو ردًّا. فعالم السياسة القاسي، حيث تغدو الحدود الفاصلة بين الحق والباطل ضبابية، كان عالمًا يفهمه لكن يرفضه. قال: «أعرف أنك كنت لتنقذهم إن استطعت».

- منزل عائلتك، على الأقل، آمن وتحت حماية المدينة. عيَّنت مدبرة منزلكم القديمة، أنيتا، مسؤولة عنه، كما عينت عمالًا وحراسًا له على حسابي. مهما يحدث، فسيكون في انتظارك متى ما رغبتَ في العودة إليه.

- هذا سخاء منك يا سموك.

كان إزيو يفكر بكرستينا. ألا يحتمل ألَّا يكون الأوان قد فات على إقناعها بفسخ خطبتها، والزواج بها، وإعادة عائلة أودِتوري إلى الحياة؟ لكن السنتين الماضيتين غيَّرتاه حتَّى تعذر التعرُّف عليه، والآن صار لديه واجب آخر،

واجبه نحو **العقيدة**. وقال أخيرًا: «حقَّقنا نصرًا عظيمًا، لكننا لم نفُز بالحرب، فكثير من أعدائنا هربوا».

- لكننا ضمنَّا أمان فلورنسا. أراد البابا سكستس إقناع نابولي بالتحرُّك ضدنا، لكنني أقنعت فرديناندو بعدم الالتفات للبابا، وكذلك بولونيا وميلانو.

رأى إزيو ألَّا يخبر الدوق بالمعركة الأكبر التي يخوضها، لأنه لم يكن واثقًا من أن لورنزو مطلع على أسرار الحشَّاشين. قال: «من أجل ضمان أمننا أكثر، أريد منك أن تأذن لي بالذهاب والبحث عن ياكوبو دي باتزي».

اكفهرَّ وجه لورنزو، وقال غاضبًا: «ذلك الجبان! فر قبل أن نقبض عليه».

- ألديك فكرة عن مكان وجوده؟

هز لورنزو رأسه. «لا. أخفوا أنفسهم جيدًا. ذكر جواسيسي في تقاريرهم أن بارونشيلي ربما يحاول الذهاب إلى القسطنطينية، أما الآخرين...».

قال إزيو: «أخبرني بأسمائهم». واستشف لورنزو من حزم صوته أنه رجل لا يُنصح باستعدائه.

- كيف عساي أن أنسى أسماء قتلة شقيقي؟ إذا بحثت عنهم ووجدتهم، فسوف أكون مدينًا لك إلى الأبد. إنهم القسيسَين أنتونيو مافيي وستيفانو دا بانيوني، وبرناردو بارونشيلي الذي ذكرته، وآخر، غير مشترك في جرائم القتل اشتراكًا مباشرًا، لكنه حليف خطِر لأعدائنا، إنه كبير أساقفة بيزا، فرانسسكو سالفياتي، من عائلة رياريو، الذين يؤدُّون المهام القذرة للبابا. عفوت عن ابن عمه، محاولًا ألَّا أكون مثله. أتساءل أحيانًا عن مدى حكمة أفعالي».

قال إزيو: «لدَّي قائمة، سأضيف إليها أسماءهم». واستعد للمغادرة.

سأله لورنزو: «إلى أين ستذهب الآن؟».

- سأعود إلى عمي ماريو في مونترجيوني، ستكون قاعدتي هناك.

- اذهب بعون الرب يا صديقي إزيو. لكن قبل ذهابك، لديَّ شيء قد يثير اهتمامك...

فتح لورنزو محفظة جلدية مثبَّتة في حزامه وأخرج منها صفحة من الرَّق، وقبل أن يبسطها عرفها إزيو.

تابع لورنزو بصوت خافت: «أتذكر أنني تحدَّثت قبل سنوات مع والدك عن الوثائق القديمة، التي كانت من اهتماماتنا المشتركة. أعرف أنه ترجم بعضًا منها. خذ هذه، وجدتها بين أوراق فرانسسكو دي باتزي، وهو لم يعد بحاجة إليها. رأيت أنها ربما تعجبك، ذكَّرتني بوالدك. ربما ترغب في إضافتها إلى... مجموعته».

- إنني في غاية الامتنان لهذا.

- هذا ما ظننتُه، آمل أن تجد الصفحة مفيدة.

تكلم لورنزو بطريقة جعلت إزيو يتساءل عن مقدار ما يعرفه الدوق حقًّا.

***

قبل أن يحزم أغراضه ويستعد للرحلة، أسرع إزيو، حاملًا صفحة مجلد المخطوطات التي منحها لورنزو له، لزيارة صديقه ليوناردو دا فينشي، الذي كانت ورشته تعمل كأن شيئًا لم يحدث، رغم أحداث الأسبوع السابق.

حيَّاه ليوناردو. «سعيد برؤيتك سليمًا آمنًا يا إزيو».

- أرى أن الاضطرابات لم تمسَّك بسوء أيضًا.

- قلت لك، إنهم يدعونني وشأني. لا بُدَّ أنهم يظنونني مجنونًا أو سيئًا أو خطِرًا فلا يقتربون منِّي! تناول بعض النبيذ، وثمَّة كعك أيضًا، إذا لم يفسد، مدبِّرو منزلي لا فائدة منهم. وأخبرني بما يجول في ذهنك.

- سأغادر فلورنسا.

- بهذه السرعة؟ لكن قيل لي إنك بطل الساعة! فلماذا لا تسترخي وتستمتع بمكانتك؟

- ليس لديَّ وقت.

- ألديك مزيد من الأعداء عليك ملاحقتهم؟

- كيف عرفت؟

ابتسم ليوناردو.

- شكرًا لك على مجيئك لتوديعي.

- قبل أن أذهب، جلبت لك صفحة أخرى من مجلد المخطوطات.

- هذا خبر جيد حقًّا، هل لي أن أراها؟

- بالتأكيد.

قرأ ليوناردو الصفحة الجديدة بتمعُّن، ثمَّ قال: «بدأتُ أستوعب هذا. ما زلت غير قادر على رؤية الرسم البياني العام في الخلفية، لكن الكتابات بدأت تبدو لي مألوفة. هذه الصفحة تبدو كأنها تتضمَّن وصفًا لسلاح آخر». نهض وجلب بضعة كتب قديمة مهترئة إلى الطاولة. «فلنرى... لا بُدَّ لي من القول، أيًّا كان المخترع الذي كتب كل هذا، فلا بُدَّ أنه كان سابقًا لزمانه بمدَّة طويلة جدًّا. التفاصيل الآلية وحدها...» خفت صوته حتَّى صمت غارقًا في التفكير. «أها! فهمت يا إزيو! إنه تصميم لنصل آخر، نصل يمكن تركيبه في الآلية التي تثبتها على ذراعك، إذا احتجت لاستخدام هذا النصل بدلًا من الأول».

- وما الفرق بين النصلين؟
- إذا كنتُ محقًا، فهذا النصل أشدُّ فتكًا. إنه مجوف في الوسط، أترى؟ وعبر الأنبوب المخفي في النصل يمكن لمستخدمه حقن السم في جسد ضحيته، مسببًا الموت حيثما وقعت الطعنة! هذا الشيء سيجعلك لا تُقهر!
- أيمكنك صنعه؟
- بالشروط السابقة نفسها؟
- بالطبع.
- جيد! ما المدَّة المتاحة لي؟
- حتَّى نهاية الأسبوع. عليَّ أن أستعد، و... ثمَّة شخص أريد أن أحاول مقابلته... لأودِّعه. لكن عليَّ السفر في أقرب وقت ممكن.
- الوقت ضيق. لكن ما زالت لديَّ الأدوات التي احتجتُ إليها في المهمَّة الأولى، ومساعديَّ صاروا متمرِّسين، لذا لا أرى مانعًا.

***

استغل إزيو الوقت لتسوية شؤونه في فلورنسا، وحزم حقائبه، والترتيب مع ساع لتوصيل رسالة إلى مونترجيوني. ثمَّ وجد نفسه يرجئ مرارًا المهمَّة الأخيرة التي فرضها على نفسه، لكنه كان يعرف أنه لن يستطيع تجاهلها. وأخيرًا، في الأمسية قبل الأخيرة له في فلورنسا، ذهب إلى قصر كالفوتشي، شاعرًا بقدميه كالرصاص.

لكن عندما اقترب من القصر وجده مظلمًا ومغلقًا، وتسلَّق سريعًا، مدركًا أنه يتصرَّف كمجنون، إلى شرفة غرفة كرستينا، فوجد مصاريع نوافذها مغلقة بإحكام، ورأى زهورًا في أصص في الشرفة زاوية ميتة. وفي أثناء

تسلُّقه هبوطًا، مرهقًا، أحس كأنما سُجِّي قلبُه بكفن، ثمَّ ظل عند الباب ساهمًا، لمدَّة لم يعرف مدى طولها، لكن لا بُدَّ أن شخصًا كان يشاهده، ففي النهاية فُتحت نافذة في الطابق الأول وأخرجت امرأة رأسها.

«لقد رحلوا. توقَّع السيد كالفوتشي حدوث الاضطرابات وانتقل مع عائلته إلى لوكا، ديار خطيب ابنته».

- لوكا؟

- نعم. سمعت أن العائلتين صارتا مقرَّبتين.

- متى سيعودون؟

«لا أدري». نظرت المرأة إليه بتمعُّن. «هل أعرفك؟ أرأيتك في مكانٍ ما؟».

قال إزيو: «لا أظن».

أمضى ليلته وأحلامه تتأرجح بين كرستينا ونهاية فرانسسكو الدموية.

كانت السماء غائمة في الصباح، منسجمةً مع مزاج إزيو. ذهب إلى ورشة ليوناردو، سعيدًا بأن هذا هو يوم مغادرته فلورنسا. وجد النصل الجديد جاهزًا وقد كُسِي بطبقة فولاذ رمادية معتمة، وصلبًا وحادًّا بحيث يقطع منديلًا حريريًّا بإسقاطه فوق شفرته، ورأى الثقب في سنِّ النصل دقيقًا.

«المقبض يحتوي على السم، يمكنك حقنه بضغط عضلة ذراعك على الزر الداخلي. احذر، إنه حساس جدًّا».

- أي سم ينبغي أن استخدمه؟

- استخدمتُ مستخلصًا قويًّا من الشوكران لتبدأ به، وعندما ينفد، اطلب من أي طبيب.

- السم؟ من طبيب؟

- العقاقير التي تشفي، عندما تُعطى بتركيزات عالية بما يكفي، يمكنها أن تقتل.

أومأ إزيو حزينًا. «إنني مدين لك مرَّة أخرى».

- إليك صفحة مجلد المخطوطات. أيجب أن تغادر بهذه السرعة؟

- فلورنسا آمنة، في الوقت الراهن. ما زال أمامي عمل عليَّ تأديته.

10

«إزيو! أهلًا بعودتك!». ابتسم ماريو ابتسامة واسعة، وقد سفعت شمس توسكانا وجهه واخشوشنت لحيته أكثر من أي وقت مضى.

- عمي.

اكتسى وجه ماريو بالجدِّيَّة. «أرى من وجهك أنك خضت مصاعب كثيرة في الشهور التي تلت لقاءنا آخر مرَّة، عليك بإخباري كل شيء بعدما تغتسل وتستريح». أطرق، ثمَّ تابع: «سمعنا كل الأخبار القادمة من فلورنسا، وحتى *أنا* وجدت نفسي أبتهل من أجل نجاتك بمعجزةٍ ما. لكنك لم تنجُ فحسب، بل قلبت الطاولة على آل باتزي! ولذلك سيكرهك فرسان الهيكل يا إزيو».

- الكراهية متبادلة.

- استرِح أولًا، ثمَّ أخبرني بكل شيء.

في المساء جلس الاثنان معًا في مكتب ماريو، وأصغى ماريو بانتباه لإزيو وهو يروي كل ما يعرفه عن الأحداث التي وقعت في فلورنسا. ثمَّ أعاد إزيو صفحة مجلد المخطوطات التي أخذها من فييري إلى عمه، ثمَّ ناوله الصفحة التي أعطاه لورنزو إياها، واصفًا له تصميم النصل السام الذي كان في الصفحة وعرضه له. أُعجب ماريو بما رآه، لكنه ركز انتباهه على الصفحة الجديدة.

قال إزيو: «لم يستطع صديقي حل تشفير أكثر من وصف السلاح».

«لا بأس. ليس كل الصفحات تحتوي على مثل هذه الإرشادات، ووحدها التي تحتوي على إرشادات ينبغي أن تكون موضع اهتمام صديقك». تكلَّم

ماريو وفي صوته نبرة حذر مبطن. «على أي حال، لن نفهم فحوى مجلد المخطوطات فهمًا كاملًا إلَّا عندما يلتئم شمل جميع الصفحات. لكن هذه الصفحة، عندما نضعها مع صفحة فييري والصفحات الأخرى، ينبغي أن تقرِّبنا خطوة».

نهض وسار إلى خزانة الكتب التي تخفي الجدار المعلقة عليه صفحات مجلد المخطوطات، ودفعها وراح يفكر في المكان الذي يجب أن توضع فيه الصفحتان الجديدتان. إحداهما اتصلت بالَّتي وُضعت في أماكنها سلفًا، والأخرى لامست زاوية السابقة. قال: «من المثير للاهتمام أن فييري ووالده يملكان صفحتين قريبتين من بعضهما، والآن فلنرَ ما...» صمت محاولًا التركيز، وأخيرًا قال: «إمممم». وشابت صوته نبرة قلق.

«هل أحرزنا تقدُّمًا يا عمي؟».

- لست متأكدًا. ربما ما زلنا نجهل الكثير كما كنا، لكن ثمَّة إشارة إلى نبي، ليس من الإنجيل، إنما نبي على قيد الحياة، أو سيُبعث...

- مَن قد يكون؟

«فلنتمهَّل». أطال ماريو النظر إلى الصفحات مفكِّرًا، وشفتاه تتحرَّكان، متكلمًا لغة لم يفهمها إزيو. «حسبما تبيَّنتُه، النص الذي هنا يمكن ترجمته تقريبيًّا بـــ «النبي وحده يمكنه فتحها...»، وهنا ثمَّة إشارة إلى «قطعتين من عدن»، لكنني لا أدري ما يعنيه هذا. علينا التحلِّي بالصبر، حتَّى نجد مزيدًا من صفحات مجلد المخطوطات».

- أعرف أن مجلد المخطوطات مهم يا عمي، لكن لديَّ سبب أشد إلحاحًا من حل اللغز دفعني للمجيء إلى هنا، إنني أبحث عن الخائن ياكوبو دي باتزي.

«المؤكد أنه سافر جنوبًا بعد فراره من فلورنسا». تردد ماريو ثمَّ تابع: «لم أرغب في فتح هذا الموضوع معك الليلة يا إزيو، لكن المسألة ملحة بالنسبة لي، ولك أيضًا حسبما أرى، وعلينا بدء استعداداتنا قريبًا. صديقي القديم روبرتو هُزم وأُخرِج من سان جيمِنيانو وعادت البلدة معقلًا لفرسان الهيكل مرَّة أخرى، وهي قريبة من فلورنسا ومنًّا لذا يجب ألَّا تظل في قبضتهم، كما أظن أن ياكوبو وجد ملجأً فيها».

قال إزيو: «لديَّ قائمة بأسماء المتآمرين الآخرين». وأخرجها من محفظته وناولها لعمه.

- جيد. بعض هؤلاء الرجال ليسوا نافذين مثل ياكوبو، وقد يسهُل التخلُّص منهم. سأرسل جواسيسي إلى الريف عند الفجر ليروا ما يمكن معرفته عنهم، وفي هذه الأثناء علينا الاستعداد لاستعادة سان جيمِنيانو.

- لك أن تجهز رجالك، لكن لا يمكنني إهدار أي وقت إذا أردتُ القضاء على أولئك القتلة.

فكر ماريو.

- ربما تكون محقًّا. رجل واحد بمقدوره اختراق جدران تُعجِز جيشًا. وينبغي أن نقضي عليهم بينما هم لا يزالون يظنون أنهم آمنون... لذا، أذِنتُ لك، اذهب واسعَ، أعرف أنك قادر على الاعتناء بنفسك هذه الأيام.

- شكرًا لك يا عمي!

- ليس بهذه السرعة يا إزيو! أمنحك الإذن بشرط.

- وما هو؟

- أن تؤجل مغادرتك أسبوعًا.

- أسبوع!؟

- في حال خروجك إلى الميدان وحدك، دون مساندة، فستحتاج إلى أكثر من أسلحة مجلد المخطوطات لمساعدتك. صرتَ رجلًا، ومحاربًا شجاعًا ضمن الحشَّاشين، لكن سمعتك ستجعل فرسان الهيكل أشد تعطُّشًا لدمائك، وأعرف أنك ما زلت تفتقر لبعض المهارات.

هز إزيو رأسه بنفاد صبر. «لا يا عمي، آسف، لكن أسبوع...!؟».

عبس ماريو، ورفع صوته قليلًا: «سمعت عنك أخبارًا جيدة يا إزيو، وسيئة أيضًا. فقدت سيطرتك على نفسك عندما قتلت فرانسسكو، وسمحت لعاطفتك تجاه كرستينا بإبعادك عن طريقك. عليك أن تكرِّس نفسك للعقيدة تكريسًا تامًّا، لأنك إذا أهملتها، فلن يبقى لك عالم يمكنك الاستمتاع به». نهض ببطء. «أتحدَّث بصوت والدك عندما آمرك بالطاعة».

شاهد إزيو عمه يكبر مكانةً، وحتَّى حجمًا، وهو يتكلَّم. وأدرك حقيقة ما قيل له رغم صعوبة تقبُّلها، فطأطأ رأسه شاعرًا بالمرارة.

قال ماريو بنبرة ألطف: «جيد. ستشكرني لاحقًا على هذا. تدريباتك القتالية الجديدة ستبدأ في الصباح. وتذكر أن الاستعداد أساس كل نجاح!».

***

وبعد أسبوع، ركب إزيو حصانه خارجًا من سان جيمِنيانو متسلِّحًا مستعدًّا. كان ماريو قد طلب منه التواصل مع إحدى دوريات المرتزقة المتمركزة خارج البلدة لمراقبة القادمين والخارجين، وانضمَّ لأحد معسكراتهم في أول ليلة له خارج مونترجيوني.

كان الرقيب المسؤول رجلًا قويًّا غشيته ندوب المعارك، في الخامسة والعشرين من عمره، يُدعى غامبَلتو، قدَّم لإزيو شريحة خبز مع جبن البيكورينو وقدحًا من نبيذ فيراتشا الأبيض، وفي أثناء الأكل والشرب حدَّثه بما يجري.

«أرى أن من المؤسف أن أنتونيو مافيي غادر فولتيرا، صار مهووسًا بلورنزو، ويرى أن الدوق سحق بلدته الأم، في حين أنه لم يفعل شيئًا سوى إعادتها إلى كنف فلورنسا. والآن جن جنون مافيي، تموضع في قمة برج الكاتدرائية، محيطًا نفسه برُماة آل باتزي، ويقضي كل يوم في إطلاق نيران خطبه الدينية بقدر إطلاق سهامه. الرب وحده يعلم ما يخطط الرجل له، هل يريد استمالة المواطنين إلى قضيته بخطبه، أم قتلهم بسهامه. عامة الناس في سان جيمِنيانو يمقتونه، لكن ما دام يواصل حكمه القائم على إثارة الخوف، فستظل المدينة عاجزة أمامه».

- إذن تنبغي تصفيته.
- حسنًا، هذا قطعًا من شأنه إضعاف قاعدة نفوذ آل باتزي في المدينة.
- ما مدى قوة دفاعاتهم؟
- كثير من الرجال فوق أبراج المراقبة وعند البوابات، لكنهم يغيِّرون الحراس عند الفجر، لذا ربما يستطيع رجل مثلك اجتياز الجدران ودخول المدينة خفية.

استغرق إزيو في التفكير، متسائلًا عمَّا إذا كان هذا تشتيتًا لجهوده التي هدفها مطاردة ياكوبو، لكن خطر له أنه يجب أن يكون قادرًا على رؤية الصورة الكبيرة، إذ إن مافيي هذا من مناصري آل باتزي، وأن واجبه -إزيو- الأكبر بوصفه حشّاشًا هو الإطاحة بهذا المجنون.

عند شروق شمس اليوم التالي، كل مواطن دقيق الملاحظة في سان جيمِنيانو ربما يكون قد لاحظ شخصًا ذا عينين رماديتين يعتمر قلنسوة ينسلُّ خفيفًا كشبح عبر الشوارع المؤدية إلى ساحة الكاتدرائية. وكان باعة السوق يجهزون أكشاكهم، لكن الوقت كان نهاية دورة اليوم للبعض، منهم الحراس الذين أصابهم الملل واستندوا على حرابهم ليغفوا. وكان الجانب الغربي من برج الأجراس لا يزال مسربلًا بالظلال، فلم ير أحدٌ الشخص المتشح بالسواد يتسلق البرج بهدوء ورشاقة عنكبوت.

كان القس، نحيلًا غائر العينين أشعث الشعر، قد اتخذ مكانه سلفًا، كما وقف أربعة رماة من آل باتزي في مواقعهم، واحد عند كل ركن من أركان البرج، لكن أنتونيو مافيي، كأنه لا يثق بالرماة وحدهم لحمايته، ورغم أنه يقبض على إنجيل بيسراه، كان يحمل خنجرًا دائريًّا بيمناه، وقد بدأ خطبته، وعندما اقترب إزيو من قمة البرج تناهت إلى مسامعه كلمات مافيي.

«مواطنو سان جيمِنيانو، اسمعوا وعوا! عليكم بالتوبة. **التوبة!** والتماس الغفران... انضموا إليَّ بالدعاء يا أبنائي، حتَّى نقف معًا في وجه الظلام الذي استفحل في توسكانا الأثيرة لدينا! أصغي إليَّ، أيتها السماوات، وسأتكلَّم، واسمعي، أيتها الأرض، كلمات لساني. فلتتنزل تعاليمي كالمطر، وفلتقطرُ مواعظي كالندى على الأعشاب الطرية، لأنني أنادي باسم الرب! إنه الركيزة الراسخة! خلقه كامل، ونهجه العدل والاستقامة. بيد أن الذين أفسدوا أنفسهم ليسوا أبناءه، إنهم جيل منحرف معيب! مواطنو سان جيمِنيانو.. أهكذا تعاملون الرب؟ يا لكم من سُذَّج حمقى! أليس هو أباكم الذي خلقكم؟ تطهَّروا بنور رحمته!».

وثب إزيو برشاقة فوق حاجز البرج ووقف بجوار الباب الأفقي المفتوح على السلم الذي يؤدِّي إلى الأسفل. وجد الرماة صعوبة في تحضير سهامهم، إذ كانت المسافة قصيرة وفاجأهم إزيو، الذي انخفض مقرفصًا وأمسك بكاحل أحدهم، وأسقطه فوق الحاجز، فأطلق عواءً عاليًا وهو في طريقه إلى موته على حجارة الرصف على بعد مئتي قدم، وقبل أن يأتي الآخرون بردة فعل، هاجم إزيو حارسًا ثانيًا، وطعنه في ذراعه، فبدا الرجل مدهوشًا من الجرح الصغير، ثمَّ سرعان ما شحُب وسقط هامدًا فورًا. كان إزيو قد ثبَّت نصله السام الجديد على ذراعه، إذ لا وقت لديه للقتال العادل الآن. انقضَّ على الحارس الثالث، الذي ألقى قوسه النشَّاب وحاول تجاوز إزيو إلى السلم، وعندما بلغه

ركله إزيو في مؤخِّرته فتعثَّر ساقطًا برأسه على الدرجات الخشبية، وتهشَّمت عظامه قبل بلوغه نهاية السلالم. رفع الحارس الأخير يديه وتلعثم بكلمات، ورأى إزيو أن الرجل تبول في بنطاله، فانتحى جانبًا، وبانحناءة تهكمية سمح للحارس المرعوب بالهبوط خلف رفيقه المتضعضع.

وعندئذٍ ضُرب إزيو ضربة قوية على مؤخِّرة عنقه برمانة خنجر فولاذي ثقيل. كان مافيي قد تمالك نفسه بعد صدمة الهجوم وانقض على إزيو من الخلف. ترنَّح إزيو إلى الأمام.

«سأجعلك تجثو على ركبتيك، أيها الخاطئ!». صرخ القس وهو يُزبد من جانبي فمه. «توسَّل الغفران!».

تساءل إزيو عن سبب إهدار الناس وقتهم بالكلام، وقد تسنَّى له الوقت لاستعادة توازنه والاستدارة في أثناء كلام القس.

دار الرجلان حول بعضهما في المساحة الضيقة. اندفع مافيي ملوِّحًا بخنجره الثقيل، لم يكن مقاتلًا ماهرًا، لكن يأسه وتعصُّبه جعلاه خطِرًا، وأُجبر إزيو على التراجع أمام الحركات العشوائية الهائجة، وهو غير قادر على توجيه أي ضربة. لكن أخيرًا تمكَّن من الإمساك بمعصم القس وجذبه إلى الأمام، فتلامس صدراهما.

زمجر مافيي: «سأرسلك إلى الجحيم منتحبًا».

رد إزيو ساخرًا: «أظهر شيئًا من الاحترام للموت يا صديقي».

- سأريك الاحترام!

- استسلم! وسأمهلك وقتًا للدُّعاء.

بصق مافيي على عيني إزيو، فأرغمه على إفلاته، ثمَّ هوى بخنجره صائحًا على ذراع إزيو اليسرى، فانزلق النصل جانبًا بعدما وقع على واقي الذراع المعدني. زعق: «أي شيطان يحميك؟».

قال إزيو: «إنك تثرثر كثيرًا»، وغرز خنجره في عنق القس، وشد عضلات ذراعه، فسرى السم عبر النصل إلى وريد مافيي الوداجي، وتشنَّج القسيس فاغرًا فمه، لكن لم تخرج منه سوى أنفاس كريهة، ثمَّ دفع نفسه بعيدًا عن إزيو، متراجعًا إلى حاجز البرج، وحاول الحفاظ على توازنه للحظة، ثمَّ سقط إلى الأمام بين ذراعي الموت.

انحنى إزيو فوق جثة مافيي، ومن عباءته أخرج رسالة، فتحها وقرأها سريعًا.

سيدي

أكتب إليك رسالتي هذه والخوف يملأ قلبي. النبي وصل. أحسُّ بهذه الحقيقة. حتَّى الطيور تغيَّر سلوكها، إنها تحوم في السماء حائرة بلا هدف، أراها من بُرجي. لن أحضر اجتماعنا كما طلبتَ، لأنني لم يعد بوسعي الظهور في الأماكن العامة، خشية أن يعثر عليَّ ذلك الشيطان. لا بُدَّ لي من الرضوخ لصوتي الداخلي، سامحني. فليرشدك أبو الفهم، ويرشدني.

الأخ أ.

خطر لإزيو أن غامبَلتو كان محقًّا. فقد الرجل صوابه. ثمَّ تذكر متجهِّمًا توبيخ عمَّه له، فأغمض عيني القس قائلًا: «فلترقد بسلام».

نظر إزيو فوق حاجز البرج إلى البلدة بالأسفل، مدركًا أن الرامي الذي تركه يذهب بدافع الشفقة ربما يكون قد أطلق الإنذار، لكنه لم ير نشاطًا مُقلِقًا. كان حراس آل باتزي لا يزالون يتسكَّعون في مواقعهم، وأُفتتح السوق وتجري فيه معاملات بسيطة. لا بُدَّ أن الرامي بحلول هذا الوقت قد قطع نصف المسافة إلى الريف، في طريقه إلى بيته، مفضِّلًا الهروب على المحاكمة العسكرية واحتمال التعذيب. دفع إزيو نصله معيدًا إياه إلى مكانه الخفي في ذراعه، حريصًا على ألَّا يلمسه إلا مرتديًا قفازًا، وهبط سلالم البرج، إذ كانت الشمس قد أشرقت، ولجعلته ظاهرًا إذا تسلق هابطًا برج الأجراس من الخارج.

وعندما وصل إلى مرتزقة ماريو، استقبله غامبَلتو متحمِّسًا. قال: «وجودك جلب لنا الحظ السعيد. كشافتنا تعقَّبوا رئيس الأساقفة سالفياتي ووجدوا مكانه!».

- أين؟

- ليس بعيدًا من هنا. أترى ذلك القصر على التل هناك؟

- نعم.

- إنه هناك. لكن أولًا لا بُدَّ لي من سؤالك أيها القائد، كيف جرت مهمتك في المدينة؟

- لن تُلقى خطب كراهية من ذلك البرج بعد الآن.

- سيمجِّدك الناس أيها القائد.

- لست قائدًا.

- نراك قائدًا. خذ مجموعة جنود من هنا، حراسة سالفياتي مشدَّدة، والقصر مبنى قديم محصَّن.

- حسنًا. من الجيد أن البَيض كله قريب من بعضه، كأنهم في عش واحد.

- والآخرون أيضًا لا يمكن أن يكونوا بعيدين يا إزيو، سنسعى للعثور عليهم في أثناء غيابك.

اختار إزيو اثني عشرة من أفضل مقاتلي غامبَلتو، وقادهم راجلين عبر الحقول التي تفصلهم عن القصر الذي التجأ إليه سالفياتي. تفرَّق هو ورجاله ضمن مسافة تتيح لهم التواصل، وحراس نقاط المراقبة الذين نشرهم سالفياتي كان من السهل تجنبهم أو تصفيتهم، لكن إزيو فقد رجلين في طريقه إلى القصر.

كان إزيو يأمل أن يأخذ القصر على حين غرَّة، قبل أن يعرف ساكنوه بأمر هجومه، لكن عندما اقترب من البوابة الرئيسية المتينة، ظهر شخص أعلى الجدران فوقه، مرتديًا ملابس رئيس أساقفة، ممسكًا بفتحات الجدار بيدين كالمخالب، وأطل ناظرًا إلى الأسفل بوجه كوجه نسر، وانسحب سريعًا.

عرف إزيو أنه سالفياتي.

لم يكن يوجد حراس آخرين خارج البوابة. أشار إزيو لرجاله ليقتربوا من الجدران، حتَّى لا يجد الرماة زاوية تصويب مناسبة لإطلاق السهام عليهم. كان من المؤكد أن سالفياتي قد حشد بقية حراسه داخل الجدران، التي بدت عالية وسميكة بحيث يتعذر اختراقها. وتساءل إزيو عمَّا إذا ينبغي له مرَّة أخرى محاولة تسلق الجدران وفتح البوابة من الداخل لإدخال قواته، لكنه أدرك أن حراس آل باتزي بالداخل منتبهون إلى وجوده.

أشار إلى رجاله بالحرص على التخفِّي، وانخفض عائدًا بين الأعشاب الطويلة قاطعًا المسافة القصيرة التي تفصله عن جثة أحد أعدائهم، وبسرعة جرَّد الرجل من زيِّه وارتداه، وجمع ملابسه في حزمة تحت ذراعه.

عاد إلى رجاله، الذين أجفلوا إذ حسبوه أحد جنود آل باتزي، وناول ملابسه لأحدهم. ثمَّ طرق على البوابة برمانة سيفه.

صاح: «افتحوا! باسم أبي الفهم!».

انقضت دقيقة مشحونة بالتوتر. تراجع إزيو حتَّى يُرى من أعلى الجدران، ثمَّ سمع صوت المزاليج الثقيلة تُسحب.

وحالما بدأت البوابة تفتح، اندفع إزيو ورجاله ودفعوا البوابة وشتتوا الحراس بالداخل. ثمَّ وجدوا أنفسهم في فناء، وحوله القصر مقسَّمًا إلى ثلاثة أجنحة. وكان سالفياتي بنفسه يقف أعلى أحد سلالم الجناح الرئيسي، وقرابة عشرة رجال ضخام مدجَّجين بالسلاح يقفون بينه وبين إزيو، ومزيدًا منهم منتشرين في الفناء.

صاح رئيس الأساقفة: «خيانة قذرة! لكنك لن تخرج بسهولة كما دخلت». رفع صوته بهدير آمر: «اقتلوهم! اقتلوهم جميعًا!».

انقض جنود آل باتزي، وكادوا أن يحاصروا رجال إزيو، لكن جنود آل باتزي لم يتدرَّبوا على يد رجل مثل ماريو أودِتوري، واشتبك مرتزقة إزيو، رغمًا عن نقصهم العددي، بنجاح مع خصمهم في الفناء، بينما اندفع إزيو نحو السلالم، أخرج نصله السام وطاعَن الرجال المحيطين بسالفياتي، لم يكن يهم مكان وقوع الضربة، فكلما ضرب يسبب جرحًا، ولو طفيفًا، يموت الرجل على إثره فورًا.

«إنك شيطان حقًّا، من الحلقة الرابعة في الدائرة التاسعة من الجحيم!». تكلَّم سالفياتي بصوت متهدِّج وهو يواجه وحده إزيو أخيرًا.

سحب إزيو نصله السام، وأخرج الخنجر العادي، وأمسك بسالفياتي من أعلى ردائه الكهنوتي ووضع نصل الخنجر على عنق رئيس الأساقفة، وقال له بنبرة رتيبة: «فقد فرسان الهيكل مسيحيتهم عندما اكتشفوا العمل المصرفي. ألم تقرأ إنجيلك؟ *«لا تقدرون أن تخدموا الله والمال»*. لكن الآن فرصتك للتكفير، أخبرني، أين ياكوبو؟».

حدجه سالفياتي بنظرة تحد. «لن تجده أبدًا!».

مرر إزيو نصله على عنق الرجل فجرحه جرحًا طفيفًا. «لم تقنعني يا رئيس الأساقفة».

- الليل يحرسنا عندما نلتقي. والآن أنهِ عملك!.

- إذن تستخفون كالقتلة، وأنتم قتلة بالطبع، تحت غطاء الظلام، شكرًا على ذلك. سأسألك مرَّة أخرى، *أين؟*

قال سالفياتي ببرود: «أبو الفهم يعرف أن ما أفعله الآن للمصلحة العامة»، وفجأة قبض على معصم إزيو بكلتا يديه ودفع الخنجر في حلقه هو نفسه مُفضِّلًا الانتحار.

زعق إزيو: «أخبرني!». لكن رئيس الأساقفة امتلأ فمه بالدماء وتهالك على الأرض، وعباءته الأنيقة ذات اللونين الأصفر والأبيض اصطبغت بالأحمر.

***

انقضت عدَّة أشهر قبل أن يسمع إزيو خبرًا عن المتآمرين الذين يسعى خلفهم. وفي تلك الفترة عمل مع ماريو على وضع خطة لاستعادة سان جيمِنيانو وتحرير مواطنيها من نَيْر فرسان الهيكل، الذين تعلَّموا درسًا من المرَّة الماضية، وأحكموا قبضتهم على المدينة. جال إزيو في شتَّى الأنحاء بحثًا عن صفحات مجلد المخطوطات التي لا تزال مفقودة، مدركًا أن فرسان الهيكل يبحثون عنها أيضًا، لكن جهوده لم تثمر. والصفحات التي بحوزة الحشَّاشين ظلت خفية تحت حراسة ماريو المُشددة، ومن دونها لن يكشف فرسان الهيكل أسرار **العقيدة** أبدًا.

ثمَّ ذات يوم جاء رسول من فلورنسا إلى مونترِجيوني حاملًا رسالة من ليوناردو لإزيو، فبحث إزيو بسرعة عن مرآة، مدركًا عادة صديقه الأعسر بالكتابة العكسية، رغم أن كتابته العادية -الشبيهة بخيوط العنكبوت- تصعب قراءتها وحل شفرتها على أمهر القراء. فضَّ إزيو الختم وقرأ متشوِّقًا، متحمسًا مع كل سطر:

عزيزي إزيو،

طلب الدوق لورنزو منِّي أن أرسل إليك أخبارًا... عن برناردو بارونشيلي! يبدو أن الرجل تمكَّن من السفر

بحرًا إلى البندقية، ومنها سرًّا إلى بلاط السلطان العثماني في القسطنطينية، معتزمًا إيجاد ملجأ هناك. لكنه لم يقض وقتًا في البندقية، ولم يعرف أن البندقيين قد وقَّعوا معاهدة سلام مع الأتراك مؤخرًا، حتَّى إنهم أرسلوا إليهم ثاني أفضل رسام لديهم، جنتيلي بيليني، ليرسم بورتريه للسلطان محمد. لذا عندما وصل بارونشيلي إليهم، واكتُشِفَت هويته الحقيقية، اعتُقِلَ فورًا.

وبالطبع يمكنك تخيُّل الرسائل التي تدفَّقت بين الباب العالي وبين البندقية، لكن البندقيين حلفاؤنا أيضًا، على الأقل في الوقت الراهن، والدوق لورنزو دبلوماسي بارع. أُرسِل بارونشيلي إلى فلورنسًا مصفَّدًا بالأغلال، وحالما وصل أُخضع للتحقيق، لكنه كان عنيدًا، أو أحمق، أو شجاعًا، لا أدري، إذ تحمَّل المخلعة والجلد والجرذان التي نهشت قدميه، ولم يخبرنا سوى بأن المتآمرين كانوا يلتقون ليلًا في سرداب قديم أسفل سانتا ماريا نوفيلا. وبالطبع أُجري بحث لم يُسفِر عن شيء. لذا شُنق. وقد رسمت له رسمًا أوليًّا جيدًا وهو مشنوق، سأريك إياه عندما نلتقي المرَّة القادمة، أظنه، من الناحية التشريحية، دقيق جدًّا.

أخلص التحايا

صديقك

ليوناردو دا فينشي

علَّق ماريو عندما أراه إزيو الرسالة: «من الجيد أنه مات. كان من النوع الذي لا يتورَّع عن ارتكاب أشنع الأفعال. لكن للأسف هذا لا يقرِّبنا من اكتشاف خطط فرسان الهيكل، أو مكان ياكوبو.

***

أُتيح الوقت لإزيو لزيارة والدته وشقيقته، اللتان واصلتا قضاء أيامهما في أجواء دير الراهبات الهادئة، تحت رعاية لطيفة من رئيسة الدير. وحزن إزيو إثر رؤيته أن حالة والدته لن تتحسَّن أكثر ممَّا هي عليه، شاب شعرها قبل أوانه، وظهرت تجاعيد دقيقة عند زاويتي عينيها، لكنها حقَّقت السلام الداخلي، وعندما تكلَّمت عن زوجها وابنيها الراحلين تكلَّمت متذكِّرةً إياهم بشغف وفخر، لكن صندوق بتروتشو المليء بريش العقاب، الذي تحتفظ به على منضدة فراشها، ما زال يستدر دموعها. أما كلوديا، فقد صارت راهبة مبتدئة، لكن رغم أن إزيو أسِف لرؤيتها تبدَّد جمالها وشبابها، فقد أقرَّ بوجود نور في وجهها جعله يرضخ لقرارها ويسعد من أجلها. ثمَّ زارهما مرَّة أخرى في الكريسماس. وفي رأس السنة الجديدة استأنف تدريباته مجددًا، رغم أن دواخله تغلي من نفاد الصبر، ولشَغْله عيَّنه عمُّه قائدًا مشتركًا لقلعته، فبدأ إزيو يرسل بلا كلل أو ملل جواسيسه وكشافيه ليجوبوا البلاد ويبحثوا عن طرائده بحثًا دؤوبًا.

وأخيرًا بلغه خبر. ذات صباح في نهاية الربيع ظهر غامبَلتو بعينين متَّقدتين في رواق حجرة الخرائط، حيث كان إزيو وماريو مستغرقان في نقاش عميق.

«سيدي! وجدنا ستيفانو دا بانيوني! التجأ إلى دير أسمونديو، على بعد بضعة فراسخ جنوبًا. كان قريبًا منَّا طوال هذا الوقت!».

«إنهم يتسكَّعون معًا كالكلاب»، تكلم ماريو محتدًّا وأصابعه الخشنة تتعقب مسارًا على الخريطة التي أمامه، ونظر إلى إزيو. «لكنه أحد الكلاب الكبيرة، سكرتير ياكوبو! إذا لم نستطع انتزاع معلومة منه..!»

لكن إزيو شرع سلفًا في إصدار أوامره بأن يُسرَج حصانه ويُجهَّز. وبسرعة ذهب إلى مسكنه وسلَّح نفسه، ربط أسلحة مجلد المخطوطات، واختار هذه المرَّة النصل الأصلي بدلًا عن السام. كان قد استبدل سم الدجاج بمستخلص الشوكران، وفقًا لنصيحة طبيب مونترِجيوني، وكان كيس السم في المقبض

ممتلئًا. قرر توخِّي مزيد من الحذر عند استخدام النصل السام، فاحتمال حقن نفسه بجرعة قاتلة قائمٌ دومًا، ولهذا، لأن أصابعه مغطاة بندوب صغيرة، صار يرتدي قفازين جلديين ثقيلين ومرنين كلما استخدم أي نصل.

كان الدير بجوار مونتِسيانو، التي تجثم قلعتها القديمة فوق البلدة الصغيرة الواقعة على جانب تل مواجه للشمس، ومنحدر انحدارًا طفيفًا، ويعج بأشجار السَّرو. كان مبنًى جديدًا، عمره لا يتجاوز مئة عام تقريبًا، مشيد من حجارة رملية صفراء حول فناء واسع في مركزه كنيسة. وكانت البوابة مفتوحة على مصراعيها، ورهبان الدير، بأرديتهم الصفراء الصلصالية، يعملون في الحقول والبساتين المحيطة بالمبنى، وفي كروم النبيذ أعلاه، وكان نبيذ الدير مشهورًا، ويصدَّر حتَّى إلى باريس. تضمَّنت تجهيزات إزيو تزويد نفسه برداء خاص به، وبعدما ترك حصانه مع سائس في نُزُل استأجر فيه غرفة متنكِّرا بهيئة ساعي، ارتدى رداءه قبل ذهابه إلى الدير.

وما إن وصل رأى ستيفانو، مستغرقًا في نقاش مع متعهِّد الضيوف، الذي كان راهبًا بدينًا بدا كأنه اتخذ شكل أحد براميل النبيذ التي يواظب على الشرب منها على ما يبدو. تمكَّن إزيو من التحرُّك متحايلًا حتَّى يسمع نقاشهما دون أن يُلاحَظ.

قال الراهب: «فلندعو الرب أيها الأخ».

«ندعو؟». سأل ستيفانو بردائه الأسود المتنافر مع جميع الألوان الفاتحة المشمسة في ما حوله، بدا كعنكبوت على كعكة. أردف هازئًا: «ندعو من أجل ماذا؟».

بدا الراهب مدهوشًا. «من أجل نيل حماية الرب!».

- لو تظن أن الرب مهتمٌّ أدنى اهتمام بشؤوننا، أيها الأخ جيرولامو، فعليك بإعادة التفكير! لكن لا بأس، واصل إيهام نفسك إذا كان الوهم يساعدك على تزجية الوقت.

صُدم جيرولامو. «كلامك هذا يُعَدُّ تجديفًا على الرب!».

- لا. إنني أقول الحقيقة.

- لكن إنكار وجوده المقدس..!

- ... هو الرد العقلاني الوحيد، عندما يواجه المرء زعم وجود رجل خفي في السماء. وصدقني، إذا أخذنا بما ورد في إنجيلنا العزيز، فذلك الرجل فقد صوابه.
- كيف لك أن تقول كلامًا كهذا؟ أنت نفسك قس!
- أنا إداري. أستخدم هذه العباءة الدينية لتقرِّبني من آل مديتشي الملعونين، حتَّى أقضي عليهم، خدمةً لسيدي الحقيقي. لكن أولًا عليَّ تولِّي أمر ذلك الحشَّاش، إزيو، الذي ظل شوكة في خاصرتنا منذ مدَّة طويلة، وعلينا اقتلاعها.
- معك حق في هذا. يا له من عفريت!

قال ستيفانو بابتسامة ملتوية: «حسنًا، على الأقل اتفقنا على أمر واحد».

خفض جيرولامو صوته. «يُقال إن الشيطان وهبه سرعة وقوة خارقتين».

نظر ستيفانو إليه. «الشيطان؟ لا يا صديقي، هذه الهبات اكتسبها بنفسه، عبر تدريبات شاقة امتدت سنوات». صمت ومال بجسده النحيل. «أتعرف يا جيرولامو؟ يزعجني عدم استعدادك للإقرار بفضل الناس في ما ينجزونه وفقًا لظروفهم، وأظنك مستعدًا لجعل العالم بأكمله ضحية إذا أمكنك».

أجاب جيرولامو مُبديًا الورع: «أسامحك على ضعف إيمانك وطول لسانك، ما زلتَ أحد أبناء الرب».

«قلتُ لك...» بدأ ستيفانو كلامه بخشونة، ثمَّ بسط ذراعيه مستسلمًا. «آه، لا جدوى. كفانا من هذا! أشعر كأنني أتحدث مع الريح!».

- سأصلِّي من أجلك.
- كما تشاء، لكن بهدوء، عليَّ أن أكون حذرًا، ينبغي ألَّا يتخلى فرسان الهيكل عن حذرهم لحظة حتَّى نقتل ذلك الحشَّاش وندفنه.

انحنى الراهب وانصرف، تاركًا ستيفانو وحده في الفناء. رن جرس الصلاة الأول والثاني، واجتمع كل أعضاء الدير في الكنيسة. ثمَّ خرج إزيو من الظلال كطيف، ووجد الشمس ساطعة بصمت وعنفوان منتصف النهار. وكان ستيفانو كالغراب يذرِّع الجدار الشمالي جيئة وذهابًا، قلقًا نافد الصبر مهووسًا.

وعندما رأى إزيو لم يُبدِ أي دهشة.

قال: «لستُ مسلَّحًا، إنني أقاتل بعقلي».

- وحتَّى تستخدم عقلك لا بُدَّ أن تظل على قيد الحياة، أيمكنك الدفاع عن نفسك؟
- هل ستقتلني بدم بارد؟
- سأقتلك لأن موتك ضروري.
- إجابة وجيهة! لكن ألا تظن أنني ربما أعرف أسرارًا قد تكون مفيدة لك؟
- أرى أنك لن ترضخ مهما عذبتك.

نظر ستيفانو إليه بإعجاب. «سأعد كلامك إطراءً، رغم أنني غير متأكد». صمت ثمَّ تابع بصوته الحاد: «فوَّت فرصتك يا إزيو، قُضي الأمر، الحشَّاشون قضيتهم خاسرة. أعرف أنك ستقتلني مهما فعلتُ أو قلت، وأعرف أنني سأكون ميتًا قبل انتهاء قداس منتصف النهار، لكن موتي لن يفيدك بشيء، فرسان الهيكل يراقبونك، وعما قريب سيقضون عليك».

- لا يمكنك الجزم بما تقوله.
- إنني على وشك ملاقاة خالقي، إذا وُجِد. أتطلَّع إلى اكتشاف الحقيقة. والآن لماذا عساي أن أكذب؟

أخرج إزيو خنجره المنبثق.

علَّق ستيفانو: «يا لها من فكرة ذكية! ماذا سيخترعون أيضًا؟».

قال إزيو: «كفِّر عن خطاياك، أخبِرني بما تعرفه».

«ماذا تريد أن تعرف؟ مكان سيدي ياكوبو؟». ابتسم ستيفانو. «هذا سهل. سيلتقي حلفاءه عمَّا قريب، ليلًا، في ظلال آلهة الرومان». صمت، ثمَّ تابع: «آمل أن ترضى بهذه المعلومة، لأنني لن أقول لك المزيد مهما فعلت. وعلى أي حال لن يهم ما قد أخبرك به، لأنني أعرف يقينًا أنك تأخَّرت، وأسفي الوحيد هو أنني لن أشهد هلاكك، لكن مَن يدري؟ ربما توجد حياة بعد الموت، وأتمكَّن من رؤية موتك. لكن في الوقت الراهن، فلننتهي من هذا العمل البغيض».

رن جرس الدير مرَّة أخرى، وداهم الوقت إزيو، قال: «أظن أن بوسعك تعليمي الكثير».

نظر ستيفانو إليه بحزن قائلًا: «ليس في هذا العالم»، وأزاح ياقة ردائه. «أسدني معروفًا وأرسلني بسرعة إلى الظلام».

طعنه إزيو طعنة واحدة عميقة بدقة مميتة.

***

قال ماريو مستغرقًا في التفكير عندما عاد إزيو: «هناك أطلال معبد ميثرا جنوب غرب سان جيمِنيانو، وهي الأطلال الرومانية الوحيدة ذات الأهمية في محيط أميال، وتقول إنه تحدَّث عن ظلال آلهة الرومان؟».

- هذه هي كلماته.
- وفرسان الهيكل سيجتمعون هناك قريبًا؟
- نعم.
- إذن يجب ألَّا نتأخر، علينا مراقبة الوضع هناك، منذ الليلة.

بدا إزيو يائسًا. «دا بانيوني أخبرني بأن الأوان قد فات على إيقافهم».

ابتسم ماريو. «حسنًا إذن، علينا إثبات خطأه»

***

في الليلة الثالثة من بدء المراقبة، عاد ماريو إلى قاعدته ليواصل مخططاته ضد فرسان الهيكل في سان جيمِنيانو، وترك إزيو مع خمسة رجال موثوقين، ليواصلوا المراقبة مختبئين في الغابة الكثيفة المحيطة بأطلال معبد ميثرا المعزولة النائية، وهي مجموعة مباني ضخمة تراكمت على مر القرون، كان آخر ساكنيها ميثرا، الإله الذي اختاره الجيش الروماني، لكن المبنى اشتمل على معابد أقدم كُرِّست ذات يوم لِمنيرفا وفينوس وعطارد. كما كان يوجد مسرح مُلحق بالمجمع، لا تزال خشبته سليمة، لكن في مواجهته مقاعد حجرية مُدرَّجة ومهدَّمة على شكل نصف دائرة، صارت مأوًى للعقارب والفئران، وخلف المسرح جدار متداعي وعلى جانبيه أعمدة مكسَّرة اتخذ البوم فيها أعشاشه. وتسلق اللبلاب في كل مكان، وتسللت نبتة البُذْلية عبر الشقوق التي أحدثتها في الرخام الملطخ المتآكل، وألقى القمر ضوءًا شاحبًا على كل شيء. ورغم أن الرجال معتادين قتال أعدائهم بلا خوف، فقد أحس رجل أو رجلين منهم بتوتر غريزي.

كان إزيو قد قال لنفسه إنهم سيواصلون المراقبة أسبوعًا، لكنه أدرك أن من الصعب على رجاله الحفاظ على تماسك أعصابهم في هذا المكان لهذه المدَّة، إذ كان لأشباح الماضي الوثني حضورٌ قوي هنا. لكن عند اقتراب منتصف

الليل، والحشّاشون قد تخشَّبت أطرافهم من اختبائهم ساكنين، سمعوا صوتًا خافتًا كأنه عدَّة فرس، فتأهَّب إزيو ورجاله، وبعد لحظات جاء اثنا عشرة جندي راكبين خيولهم عبر مباني المجمع حاملين مشاعل، يتقدَّمهم ثلاثة رجال، متجهين إلى المسرح، وتعقبهم إزيو ومرتزقته خلسة.

ترجَّل الرجال وشكَّلوا دائرة حماية حول قادتهم الثلاثة. شاهدهم إزيو وتعرَّف مغتبطًا على وجه الرجل الذي ظل يسعى خلفه مدَّة طويلة، ياكوبو دي باتزي، رجل في الستين من عمره ذو لحية شائبة ويبدو مرهقًا، يرافقه رجل لم يعرفه إزيو وآخر عرفه، ذو الأنف المعقوف والعباءة القرمزية، رودريغو بورجيا! ثبت إزيو متجهمًا النصل السام في آلية معصمه الأيمن.

ابتدر رودريغو الكلام: «تعرفون سبب دعوتي لهذا الاجتماع. أمهلتك وقتًا كافيًا يا ياكوبو، لكنك لم تعوِّض إخفاقاتك بعد».

- آسف أيها القائد، بذلت كل ما بوسعي، وتغلَّب الحشّاشون عليَّ.

- لم تستعِد فلورنسا.

طأطأ ياكوبو رأسه.

- حتَّى إنك لم تستطع ضرب عنق إزيو أودِتوري، وهو مجرَّد جرو! ومع كل انتصار يحقِّقه علينا يزداد قوة وخطورة!

تلعثم ياكوبو. «كان خطأ فرانسسكو، نفاد صبره جعله متهوِّرًا! حاولت أن أكون صوت العقل...».

«أو بالأحرى صوت الجُبن». قاطعه الرجل الثالث بنبرة قاسية.

التفت ياكوبو إليه باحترام أقل ممَّا أبداه لرودريغو. «آه، السيد إميليو، لربما أبلينا بلاء أفضل إذا كنتَ قد أرسلت إلينا أسلحة جيدة، لكنك أرسلت إلينا الخردة التي تسمُّونها أنتم البندقيون أسلحة! لكن أنتم آل باربَريجي بخلاء كما عهدناكم!».

أرعَد رودريغو: «كفى!»، والتفت إلى ياكوبو. «وضعنا ثقتنا فيك وفي عائلتك، وكيف جازيتنا؟ بالتراخي وعدم الكفاءة! استعدتَ سان جيمِنيانو! عظيم! لكنك جلست مكتوف الأيدي، حتَّى إنك تسمح لهم بمهاجمتك هناك. الأخ مافيي كان خادمًا قيِّمًا لقضيتنا، وأنت عجزت حتَّى عن إنقاذ سكرتيرك، الرجل الذي يزِن عقله عشرة أضعاف عقلك!».

«سموك! امنحني فرصة لتسوية الأمور، وسترى...» نظر ياكوبو إلى الوجوه المتصلِّبة المحيطة به. «سأثبت لكم...».

لانت ملامح رودريغو، حتَّى إنه رسم ابتسامة. «ياكوبو، إننا نعرف أفضل إجراء ينبغي لنا اتخاذه الآن، اتركه لنا، تعالَ، دعني أعانقك».

امتثل ياكوبو مترددًا، وضمه رودريغو بذراعه اليسرى، وبيمناه أخرج مدية صغيرة من عباءته وأقحمها بقوة بين ضلوع ياكوبو. حاول ياكوبو التراجع لينتزع المدية، بينما نظر رودريغو إليه نظرة أب لابنه الضال. أمسك ياكوبو بجرحه. لم يُصِب روديغو عضوًا حيويًّا، ربما...

لكن عندئذٍ اقترب إميليو باربَريغو منه، وغريزيًّا رفع ياكوبو يديه الداميتين لحماية نفسه، إذ أشهر إميليو خنجرًا ضخمًا بشع المظهر ذا شفرة مسننة.

انتحب ياكوبو. «لا. بذلت كل ما بوسعي. لطالما خدمتُ قضيتنا بولاء، طوال حياتي. أرجوكم... أرجوكم لا...».

أطلق إميليو ضحكة وحشية. «أرجوكم ماذا أيها التافه سائل الأنف؟»، ومزق صدرية ياكوبو، وعلى الفور غرز خنجره الثقيل وسحبه على امتداد صدر ياكوبو.

صرخ ياكوبو وخر على ركبتيه أولًا ثمَّ سقط على جانبه، متلوِّيًا في الدماء. نظر إلى الأعلى فرأى روديغو بورجيا واقفًا فوقه، حاملًا سيفًا رفيعًا.

قال ياكوبو بصعوبة: «سيدي... الرحمة! لم يفُت الأوان! امنحني فرصة أخيرة لتصويب أخطائي...»، واختنق بدمائه.

قال رودريغو بلطف: «آه يا ياكوبو، لكم خيبت أملي!».

ثمَّ رفع سيفه وأقحمه في عنق ياكوبو بقوة حتَّى خرج سنُّ النصل من مؤخِّرة العنق، وبدا كأنه قطع الحبل الشوكي، ثمَّ لوى السيف في الجرح قبل أن يسحبه ببطء. ارتفع جذع ياكوبو، وفمه مليء بالدماء، لكنه كان ميتًا فتهالك، وارتعش قليلًا حتَّى همد تمامًا.

مسح رودريغو سيفه على ملابس الرجل الميت. ثمَّ أزاح عباءته جانبًا وأدخله في غمده، وغمغم: «يا لها من فوضى». ثمَّ استدار، ونظر مباشرة إلى اتجاه إزيو، مبتسمًا ابتسامة واسعة، وصاح: «لك أن تخرج الآن أيها الحشَّاش! أعتذر لأنني سلبتك طريدتك!».

وقبل أن تبدر من إزيو أي ردَّة فعل، أمسك به حارسان منقوش على رداءيهما صليب أحمر داخل درع أصفر، شعار ألدِّ أعدائه. هتف إزيو مناديًا غامبَلتو، لكن لم يجبه أيٌّ من رجاله، وسُحِب إلى خشبة المسرح القديم.

قال رودريغو: «مرحبًا يا إزيو! آسف بشأن رجالك، لكن أظننتَ حقًّا أنني لن أتوقَّع وجودك هنا؟ وأنني لم أخطط لمجيئك؟ أظننت أن ستيفانو دا بانيوني لمَّح لك بمكان هذا الاجتماع وتوقيته دون معرفتي وموافقتي؟ وبالطبع جعلنا الأمر يبدو صعبًا، حتَّى لا تستشعر وجود الفخ». ضحك ثمَّ تابع: «إنني أرثي لك يا إزيو! كما ترى، إنني أخوض هذه اللعبة قبل ظهورك بوقت طويل. أمرتُ رجالي بالاختباء في الغابة هنا قبل وصولكم، ويؤسفني إبلاغك بأن رجالك بُوغتوا مثلك. لكنني أردت رؤيتك حيًّا مرَّة أخرى قبل أن تغادر عالمنا. سمِّها نزوة. والآن حققتُ مُرادي». ابتسم رودريغو وخاطب الحارسين الممسكين بذراعي إزيو: «شكرًا، لكما أن تقتلاه الآن».

ثمَّ امتطى مع إميليو باربَريغو حصانيهما وابتعدا، ومعهما الحراس الذين رافقوهما. شاهدهم إزيو يبتعدون. وفكر بسرعة. كان معه الحارسان الضخمان اللذان يمسكان به، لكن كم عدد الذين ما زالوا متخفِّين في الغابة؟ كم عدد الرجال الذين نشرهم بورجيا في المكان لنصب كمين له ولجنوده؟

قال له أحد آسريه: «اتلُ صلواتك الأخيرة يا فتى».

قال إزيو: «اسمعا، أعرف أنكما تنفذان الأوامر، لذا، إذا أطلقتما سراحي، فسأبقي على حياتيكما. ما رأيكما؟».

وجد الحارس الذي تكلم حديث إزيو مسلِّيًا. «حسنًا! إنك مثير للإعجاب لا أظنني صادفت شخصًا قادرًا على الاحتفاظ بحس الدعابة مثلك في لحظة كـــ...».

لم يتسنَّ له إكمال كلامه. أخرج إزيو نصله الخفي، واستغل دهشتهما فطعن الرجل الواقف إلى يمينه، سرى مفعول السم فترنَّح الرجل متراجعًا، وسقط على مقربة. وقبل أن يأتي الحارس الآخر بأي حركة، غرز إزيو نصله في إبطه، الموضع الوحيد الذي لا يمكن للدرع تغطيته، فتحرَّر إزيو وقفز إلى ظلال حافة المسرح، وانتظر، لكن لم يضطر إلى الانتظار مدَّة طويلة، خرج من الغابة عشرة حراس آخرون كان رودريغو قد أخفاهم، بعضهم راح يدقِّق النظر في أطراف المسرح، وبعضهم انحنى على رفاقهم الميتين. تحرَّك إزيو بسرعة وَشَق، قاذفًا بنفسه بينهم، وأعمل نصله فيهم، مركِّزًا على أي جزء

مكشوف من أجسادهم. كان جنود بورجيا خائفين سلفًا وقد بوغتوا بهجوم إزيو، وقُتِل خمسة منهم قبل أن يطلقوا سيقانهم للريح ويتلاشوا في الغابة وهم يخورون مذعورين. شاهدهم إزيو وهم يبتعدون. لن يعودوا إلى بورجيا ويقدِّموا تقريرهم بما حدث إلَّا إذا أرادوا أن يُشنقوا عقابًا على عدم كفاءتهم، وسينقضي بعض الوقت قبل أن يُلاحَظ غيابهم ويعرف رودريغو أن خطته الشيطانية انقلبت عليه.

جثا إزيو بجانب جثة ياكوبو دي باتزي المتضعضعة، وقد سُلبت منه كل كرامة، ولم يبقَ منه سوى حطام عجوز يائس مثير للشفقة.

قال إزيو: «أيها البائس! غضبتُ عندما رأيت رودريغو يسلب منِّي فريستي، لكن الآن، الآن...».

صمت ومدَّ يده ليغمض عيني دي باتزي، وعندئذٍ أدرك أن العينين تنظران إليه، بمعجزةٍ ما كان ياكوبو لا يزال على قيد الحياة، بالكاد. فتح شفتيه ليتكلَّم، لكن لم تَنِد عنه كلمة، وبدا واضحًا أنه في الرمق الأخير ويتألم ألمًا مبرحًا. خطر لإزيو أولًا أن يتركه ليموت موتًا بطيئًا، لكن عيني الرجل استعطفتا. وتذكَّر إزيو مبدأ التعامل برحمة حتَّى مع مَن لا يستحقونها، فهذا أيضًا من مبادئ **العقيدة**.

قال وهو يقبِّل جبهة ياكوبو: «فليمُدَّك الرب بالسلام»، وغرز خنجره بقوة في قلب عدوه القديم.



11

عندما عاد إزيو إلى فلورنسا وأخبر الدوق لورنزو بموت آخر رجال آل باتزي، اغتبط لورنزو، لكنه حزن لأن أمن فلورنسا وآل مديتشي كلَّف سفك الكثير من الدماء، إذ كان يفضِّل إيجاد حلول دبلوماسية للخلافات، ونزعته للسلام هذه جعلته استثناءً بين أقرانه من حكام المدن الإيطالية الأخرى.

كافأ إزيو برداء تشريفي مقابل مساهمته في حرية مدينة فلورنسا.

قال إزيو له: «هذه هبة سخية منك يا سموك، لكن يؤسفني أنني ليس بوسعي الاستمتاع بهذا التكريم».

دُهش لورنزو. «ماذا؟ أتنوي المغادرة مجددًا بهذه السرعة؟ كنت آمل أن تبقى، وتعيد فتح قصر عائلتك، وتعمل معي بمنصب في إدارة المدينة».

انحنى إزيو وقال: «يؤسفني قول إنني أرى أن متاعبنا لم يوضع لها حد بسقوط آل باتزي، إنهم ليسوا سوى مِجَس واحد لوحش أكبر. حاليًا أعتزم الذهاب إلى البندقية».

- البندقية؟
- نعم. الرجل الذي كان مع رودريغو بورجيا في الاجتماع مع فرانسسكو أحد أفراد عائلة باربَريغو.
- إحدى أقوى العائلات نفوذا في لا سيرنِيسِما. أتقول إن هذا الرجل خطِر.
- متحالف مع رودريغو.

فكر لورنزو هنيهة، ثمَّ بسط يديه.

- أفارقك شاعرًا بأسف شديد يا إزيو، لكنني أعرف أنني سوف أظل مدينًا لك إلى الأبد، ممَّا يعني أنني لا أستطيع إصدار الأوامر لك، كما يراودني إحساس بأن العمل الذي تؤدِّيه سوف يصُبُّ في مصلحة مدينتنا على المدى الطويل، رغم أنني قد لا أعيش لأشهدها.

- لا تقل هذا يا سموك.

ابتسم لورنزو.

- آمل أن أكون مخطئًا، لكن العيش في هذه البلاد في زماننا هذا أشبه بالعيش على حافة بركان فيزوفيوس، أمر خطِر كالعيش في كف عفريت!

قبل مغادرته حمل إزيو الأخبار والهدايا لأنيتا، رغم تألُّمه من زيارة منزل عائلته السابق وعدم دخوله، كما حرص على تجنب قصر كالفوتشي، لكنه زار باولا زيارة سريعة، ووجدها بخير، لكن مشتتة الانتباه، كأن عقلها في مكان آخر. وآخر زياراته كانت لورشة صديقه ليوناردو، لكن عندما وصل لم يجد سوى أغنيولو وإنوسينتو، وبدا المكان كأنه أُغلق، ولم يجد أثرًا ليوناردو.

ابتسم أغنيولو وحيَّاه عند وصوله. «مرحبًا إزيو! انقضت مدَّة طويلة!».

- طويلة جدًّا.

نظر إزيو إليه، متسائلًا.

- إنك تتساءل عن مكان ليوناردو.

- هل غادر؟

- نعم، لكن ليس مغادرة نهائية. أخذ معه بعض أغراضه، لم يستطع أخذها كلها، لذا أنا وإنوسينتو نعتني بها في أثناء غيابه.

- إلى أين ذهب؟

- أمر غريب. كان المايسترو يتفاوض مع سفورزا في ميلانو، ثمَّ دعاه كونت بيكسارو لقضاء بعض الوقت في البندقية، وقُرِّر أن ينهي خمسة بورتريهات عائلية...

ابتسم أغنيولو ابتسامة العارف، وتابع:

- كأن هذا سيحدث! لكن يبدو أن مجلس البندقية مهتم بأعمال ليوناردو الهندسية، سيوفرون له ورشة وطاقم موظفين وكل شيء. إذن إذا احتجت إليه يا عزيزي إزيو، فعليك بالذهاب إلى البندقية.

- إنني ذاهب إلى هناك بالفعل! هذا خبر عظيم. متى غادر ليوناردو؟

- قبل يومين. لكنك لن تجد صعوبة في اللحاق به، إنه يسافر على متن عربة ضخمة محمَّلة بأغراضه، يجرها ثوران.

- هل معه أي أحد من معارفه.

- سائقا العربة، ومرافقَان يمتطيان حصانين، تحسُّبًا لأي متاعب. سلكوا طريق رافينا.

لم يأخذ إزيو معه إلا ما يمكنه وضعه في الخرج، وتحرَّك وحده، وبعد يوم ونصف، عند منعرج في الطريق، صادف عربة ثقيلة يجرها ثوران مزوَّدة بغطاء تحته عدد كبير من الآلات والنماذج مرتَّبة بعناية.

كان سائقا العربة واقفَيْن على جانب الطريق، يهرشان رأسيهما شاعران بالحرِّ ويبدوان منزعجين، والمرافقين، فتَيان مسلَّحان بقوسين نشابين ورمحين يراقبان الوضع من تل صغير على مقربة، وكان ليوناردو أيضًا قريبًا، وبدا منهمكًا في إعداد نظام رفع من نوعٍ ما عندما رفع رأسه فرأى إزيو. «مرحبًا إزيو! يا له من حظ!».

- ليوناردو! ماذا يجري؟

«أواجه مشكلة صغيرة. إحدى عجلات العربة...» أشار إلى عجلة خرجت من محورها. «المشكلة أننا نحتاج إلى رفع العربة حتَّى نعيد العجلة إلى مكانها، لكننا ليس لدينا عدد كاف من الأشخاص لرفعها. وهذه الرافعة التي جمعتها كيفما اتفق لن ترفع العربة الارتفاع الكافي. إذن أيمكنك...؟».

- بالتأكيد.

بإشارة استدعى السائقين، وكانا رجلان قويَّيْ البنية سيفيدانه أكثر من المرافقين الرشيقين، وتمكَّن ثلاثتهم من رفع العربة مدَّة كافية حتَّى يثبِّت ليوناردو العجلة في المحور. وفي هذه الأثناء نظر إزيو إلى محتويات العربة، ورأى بينها الهيكل الشبيه بالخفَّاش الذي رآه من قبل، وبدا كأنه خضع لتعديلات كثيرة.

وبعدما أُصلحت العربة، اتخذ ليوناردو مكانه في المقعد الأمامي مع أحد السائقين وسار الآخر أمام الثورين. وظل المرافقان في حركة دؤوبة أمام العربة وخلفها. سار إزيو بحصانه، بمحاذاة ليوناردو، وتحدثا. انقضت مدَّة طويلة منذ آخر لقاء جمعهما، لذا تحدَّثا عن مواضيع كثيرة. أخبر إزيو ليوناردو بكل المستجدات، وتحدَّث ليوناردو عن الأعمال الفنية الجديدة التي أوكلت له، وعن حماسته لزيارة البندقية. «إنني مسرور للغاية بمرافقتك في السفر! لكنك ستصل أسرع إذا لم تتحرَّك بإيقاعي البطيء».

- من دواعي سروري أيضًا. وأريد الحرص على وصولك بأمان.

- معي مرافقان.

- لا تسيء فهمي يا ليوناردو، لكن حتَّى قاطعي الطرق المبتدئين بمستطاعهم التخلُّص من مرافقيك بسهولة كأنهم يذبُّون البعوض.

بدا ليوناردو مدهوشًا، ثمَّ شاعرًا بالإهانة، ثمَّ وجد الكلام طريفًا. «إذن فقد تضاعف سروري برفقتك». نظر إلى إزيو نظرة ماكرة. «وأخمن أنك تحرص على وصولي سالمًا ليس بدافع الاهتمام بشخصي فحسب».

ابتسم إزيو، لكنه لم يرد على كلام ليوناردو. قال: «لاحظتُ أنك ما زلت تعمل على ذلك الشيء الغريب الشبيه بالخفَّاش».

- هه؟

- تعرف ما أقصده.

- آه، ذلك، ليس مهمًّا. مجرَّد أداة أجرِّب عليها بعض الأشياء، لكنني لم أرغب في تركها.

- ما هي؟

تردد ليوناردو. «لا أحب الحديث عن الأشياء قبل أن تصبح جاهزة...».

«ليوناردو! يمكنك أن تثق بي بلا شك». خفض إزيو صوته. «كما إنني ائتمنتك على أسراري».

حارَ ليوناردو متوترًا، ثمَّ استرخى. «حسنًا، لكن عليك ألَّا تخبر أحدًا».

- أعدك.

- سيظن أي شخص أنك مجنون إذا أخبرته.

صمت ليوناردو، ثمَّ تابع وفي صوته حماسة:

- اسمع، أظنني وجدت طريقة لجعل الإنسان يطير!

نظر إزيو إليه وضحك غير مصدق.

تكلم ليوناردو برحابة صدر: «أرى مستقبلًا كفيلًا بمحو الابتسامة الهازئة من شفتيك».

غيَّر مجرى الحديث فبدأ يتكلَّم عن البندقية ولا سيرينسما المنعزلتين عن بقية إيطاليا، ودائمًا ما تركزان على الشرق أكثر من الغرب، لدواعي التجارة أو بدافع الخوف، إذ امتد نفوذ الأتراك العثمانيين حتَّى ساحل شمال البحر الأدرياتيكي في هذه الأيام. وتحدَّث عمَّا تنطوي عليه البندقية من جمال وغدر، وعن تفاني أهلها في جني المال، وثرائها، وبنائها الغريب، حيث تكونت المدينة من قنوات مائية وشيدت على مئات الآلاف من الأوتاد الخشبية الضخمة، وعن حرصها الشديد على استقلالها، ونفوذها السياسي: قبل أقل من ثلاثمئة عام، نجح دوجُّ البندقية في تفادي حملة مجهزة تجهيزًا كاملًا من الأراضي المقدسة ليخدم مصالحه الخاصة، وقضى على كل منافسة تجارية وعسكرية وسياسية في مدينته، وأخضع الإمبراطورية البيزنطية. وتكلَّم ليوناردو عن قنوات المياه السرية ذات المياه الداكنة شبه الراكدة، وعن القصور الشاهقة المضاءة بالشموع، واللهجة الغريبة التي يتحدَّثون الإيطالية بها، والصمت الذي يخيِّم على المدينة أحيانًا، وملابس سكانها المبهرجة الباذخة، ورساميهم العظماء، وأميرهم جيوفاني بيليني الذي يتشوَّق ليوناردو إلى لقائه، وعن موسيقاهم، ومهرجاناتهم التنكرية، ومقدرتهم الباهرة على الاستعراض، وامتلاكهم ناصية فن التسميم. اختتم ليوناردو: «وكل هذا أعرفه من الكتب فحسب، تخيَّل كيف سيكون الواقع».

قال إزيو مع نفسه ببرود: *ستكون قذرة، أهلها كسائر الناس، مثل أي مكان آخر.* لكنه ابتسم لصديقه ابتسامة موافقة. إذ كان ليوناردو حالمًا، والحالمون ينبغي لهم السماح بأن يحلموا.

عندئذٍ كانوا قد دخلوا ممرًّا ضيقًا بين الجبال، وتردَّد صدى أصواتهم بين جوانبها الصخرية. جال إزيو بناظريه بين القمم البعيدة التي تحيط بهم من الجانبين، فتوتر وانتبهت حواسه فجأة، وكان المرافقان قد تقدَّما، ولم يُسمع لهما صوت، لكن كان ينبغي لإزيو، في هذا المكان المعزول، أن يسمع أصوات حصانيهما. ثمَّ ارتفع ضباب خفيف، رافقته برودة مفاجئة، فازداد

إزيو توترًا. كان ليوناردو ساهيًا عمَّا حوله، لكن إزيو رأى أن سائقي العربة أيضًا متوتران، وينظران في ما حولهما قلقين.

وفجأة سُمع صوت حصى متناثر ساقط من جانب الممر الجبلي الصخري، أجفل منه حصان إزيو، فنظر إلى الأعلى مضيِّقًا عينيه إزاء الشمس الساطعة، عاليًا، ورأى نسرًا يحلِّق.

عندئذٍ حتَّى ليوناردو انتبه، فسأل: «ما الخطب؟».

قال إزيو: «لسنا وحدنا، يُحتمَل وجود رماة معادين أعلى الجُرُف فوقنا».

وعندئذٍ سمعوا وقع حوافر خيول، عدَّة خيول، تقترب من خلفهم.

لوى إزيو عنان حصانه بسرعة، فرأى ستة من الخيَّالة يقتربون، حاملين راية منقوش عليها صليب أحمر في درع أصفر.

استلَّ إزيو سيفه وهو يتمتم: «بورجيا!». انغرز سهم على جانب العربة، وفر السائقان متقدِّمَيْن في الطريق أمامهم، وسار الثوران بتثاقل من تلقاء نفسيهما.

صاح إزيو لليوناردو: «خذ الأعنة وواصل السير. إنهم يسعون خلفي أنا، لا أنت. واصل السير فحسب، مهما يحدث!».

امتثل ليوناردو بسرعة، وعاد إزيو ليواجه الخيالة. كان سيفه، أحد سيوف ماريو، متوازنًا برمانته، وحصانه أخف وأكثر رشاقة من أحصنة خصومه، لكنهم يرتدون دروعًا جيدة، وما من مجال لاستخدام نصال مجلد المخطوطات. نكز إزيو بكاحليه خاصرتي حصانه واندفع نحو أعدائه بلا تمييز، منخفضًا في سرجه، وارتطم بالمجموعة بعنف أسقط اثنين من فوق أحصنتهم، ثمَّ بدأت مبارزة شرسة بالسيوف، وتفادى عدَّة ضربات بواقي ذراعه اليسرى، ووجه ضربة قاضية لأحد خصومه مستغلًّا دهشة أحد خصومه من عدم تأثير ضرباتهم.

لم ينقضِ وقت طويل قبل أن يسقِط إزيو أربعة من الرجال، تاركًا الاثنين الناجيين يستديران ويعودان من حيث أتوا. لكن هذه المرَّة أدرك أنه عليه ألَّا يتيح لأحد فرصة العودة إلى رودريغو، فانطلق خلفهما، ولحق بهما فأسقطهما تباعًا.

فتَّش الجثتين بسرعة، لكنه لم يجد فيهما شيئًا يُذكر، ثمَّ سحبهما إلى جانب الطريق وغطاهما بالحجارة. امتطى حصانه وعاد متجهًا إلى العربة،

ولم يتوقَّف إلَّا لإزاحة الجثث الأخرى من الطريق ودفنها على عجل، لإخفائها على الأقل، بالحجارة والأغصان المتوفرة، وما من شيء كان بوسعه فعله بشأن أحصنتهم التي نفرت.

أفلت إزيو من انتقام رودريغو مرَّة أخرى، لكنه أدرك أن الكاردينال بورجيا لن يستسلم حتَّى يتيقن من موته. نكز خاصرتي حصانه وأسرع لينضم إلى ليوناردو. وعندما وصل إليه بحثا عن سائقي العربة وناديا اسميهما بلا جدوى.

غمغم ليوناردو متذمرًا: «دفعتُ لهما مبلغ ضمان كبير على العربة والثورين، لا أظنني سأرى نقودي أبدًا».

- بِع العربة والثورين في البندقية.
- ألا يتنقَّلون بالجناديل هناك؟
- توجد مزارع كثيرة في الأراضي المحيطة.

نظر ليوناردو إليه معجبًا: «رباه يا إزيو! يعجبني الرجل العملي!».

استمرت رحلتهما الطويلة، تجاوزا بلدة فورلي، التي صارت دولة مدينية مستقلَّة، ووصلا إلى رافينا وميناءها على الساحل بعد بضعة أميال، ومن الميناء ركبا البحر، استقلَّا سفينة شراعية ذات مجاديف قادمة من أنكونا في طريقها إلى البندقية، واسترخى إزيو قليلًا بعدما تحقَّق من عدم وجود أحد يمثِّل خطرًا على متن السفينة، لكنه كان مدركًا أنه، حتَّى في سفينة صغيرة نسبيًّا كهذه، لن يصعُب شقُّ حلق شخص في الليل وإلقاء جثته في المياه الداكنة، لذا راقب بيقظة غدوَّ ورواح الناس في كل مرفأ يرسون عنده.

لكنهما وصلا بعد عدَّة أيام إلى رصيف ميناء البندقية دون وقوع أي حادثة، وهنا واجه إزيو عقبته التالية، عقبة لم يضعها في الحسبان.

كانا قد نزلا من السفينة، وينتظران وصول العبَّارة المحلية، التي ستحملهما إلى المدينة الجزيرة، وصلت في وقتها المحدد، وساعد البحَّارة ليوناردو على نقل عربته إلى القارب، الذي تأرجح تأرجحًا خطِرًا تحت وزن العربة. قال قبطان العبَّارة لليوناردو إن بعض موظفي كونت بيكسارو سيكونون في انتظاره عند الرصيف ليصطحبوه إلى مسكنه الجديد، وانحنى مبتسمًا وساعده على الصعود على متن القارب. «معك جواز المرور، أليس كذلك يا سيدي؟».

قال ليوناردو: «بالطبع»، وناول الرجل ورقة.

تساءل القبطان بتهذيب ملتفتًا إلى إزيو: «وأنت يا سيدي؟».

تفاجأ إزيو، إذ وصل دون دعوة، جاهلًا بهذا القانون المحلي. قال: «لكن... ليس لديَّ جواز مرور».

تدخَّل ليوناردو مخاطبًا القبطان: «لا بأس، إنه معي، أضمنه ومتأكد أن الكونت...».

رفع القبطان يده. «آسف يا سيدي، قوانين المجلس واضحة. لا أحد يدخل مدينة البندقية دون جواز مرور».

همَّ ليوناردو بالاحتجاج، لكن إزيو أوقفه. «لا تقلق يا ليوناردو، سأجد حلًّا».

قال القبطان: «أتمنَّى لو أمكنني مساعدتك يا سيدي، لكن لديَّ أوامري»، وبصوت أعلى مُوجَّه إلى جميع الرُّكَّاب، أعلن: «انتباه من فضلكم! انتباه من فضلكم! ستتحرَّك العبَّارة عند العاشرة تمامًا!». فأدرك إزيو أن أمامه وقت قصير.

لفت انتباهه زوجان متأنِّقان غاية الأناقة كان قد لاحظ ركوبهما السفينة في الوقت نفسه معه ومع ليوناردو، وكانا قد حجزا أفضل كابينة وانعزلا عن الناس. والآن وحدهما أسفل إحدى دعامات الرصيف البحري، حيث رُبطت عدَّة جناديل خاصة، وبدا واضحًا أنهما في خضمٍّ مشادَّة محتدمة.

كان الرجل يقول: «حبيبتي، أرجوك...»، وبدا رجلًا مهزوزًا، يكبُر رفيقته الصهباء ذات العينين المُتَّقدتين بعشرين عامًا.

- جيرولامو، لستَ سوى أبله! الرب وحده يعلم سبب زواجي بك، كما يعلم مدى معاناتي من هذا الزواج! لا يرضيك شيء، وتبقيني حبيسة كدجاجة في بلدتك الريفية الفظيعة، والآن... الآن! تعجز عن ترتيب جندول لنا يأخذنا إلى البندقية! وعندما أتذكَّر أن عمك هو البابا اللعين! أظن أن بوسعك ممارسة نفوذك، لكن انظر إلى حالك، أضعف من بزاقة!
- كاترينا...
- لا تقل لي «كاترينا»، أيها الضفدع! اطلب من الرجال تولي أمر الأمتعة، وحبًّا في الله أوصلني إلى البندقية. أحتاج إلى حمام ونبيذ!

- تراودني رغبة قوية في تركك هنا والذهاب إلى بوردِنوني وحدي!

- كان ينبغي لنا الذهاب برًّا على أي حال.

- السفر برًّا محفوف بالمخاطر.

- أجل! بالنسبة إلى مخلوق واهن مثلك!

واصل إزيو المشاهدة، وقد صمت جيرولامو عندئذٍ، ثمَّ قال بمكر: «لِمَ لا تركبين هذا الجندول»، أشار إلى واحد. «وسأجد جندوليَّيْن حالًا».

«إممم! تعقَّلتَ أخيرًا!». زمجرت وسمحت له بمساعدتها على ركوب القارب. لكن حالما استقرت في مقعدها، حلَّ جيرولامو حبل الجندول سريعًا ودفعه دفعة قوية إلى عرض البحيرة.

صاح بطريقة بغيضة: «رحلة سعيدة!».

ردت عليه: «أيها اللقيط!»، ثمَّ أدركت مأزقها، فصرخت: «النجدة! النجدة!». لكن جيرولامو سار عائدًا إلى مجموعة من الخدم يحومون حول كومة أمتعة ولا يدرون ما عليهم فعله، ووجه إليهم الأوامر، فحملوا الأمتعة فورًا وتحرك معهم إلى جزء آخر من الرصيف، حيث رتب لنفسه عبارة خاصة.

في هذه الأثناء كان إزيو يشاهد مأزق المرأة، كاترينا، متسلِّيًا وقلقًا عليها في آن واحد. حدجته بنظرة حادَّة.

«يا هذا، أنت! لا تقف مكتوف اليدين! أحتاج مساعدة!».

حل إزيو حزام سيفه، ونزع حذاءه وصدريته، وقفز في الماء.

***

عاد بها إلى الرصيف، ومدت كاترينا يدها مبتسمةً لإزيو المبتل قائلة: «أنت بطلي».

- لم أفعل شيئًا يُذكر.

«كان يمكن أن أغرق، لكن ذلك الخنزير لم يكترث!». نظرت إلى إزيو بإعجاب. «لكن أنت! رباه، لا بُدَّ أنك قوي. لم أصدق سباحتك عائدًا وأنت تسحب الجندول من حبله وأنا راكبة عليه».

- كان الحمل خفيفًا كالريشة.

- وتجيد الإطراء!

- أقصد... هذه القوارب متوازنة جيدًا...

عبست كاترينا.

«تشرَّفت بخدمتك يا سيدتي». أنهى إزيو الكلام مُحرَجًا.

«لا بُدَّ أن أرد لك الجميل ذات يوم». تكلمت وعيناها تحملان معانٍ لا يحملها ظاهر كلامها. «ما اسمك؟».

- إزيو أودِتوري.

- أنا كاترينا. إلى أين ذاهب؟

- كنت ذاهبًا إلى البندقية، لكن ليس معي جواز مرور، وقبطان الـــــ...

- كفى! إذن هذا المسؤول التافه رفض السماح لك بركوب العبارة، أهذا ما حدث؟

- نعم.

- سنرى!

اندفعت هابطة من الحاجز دون أن تنتظر إزيو حتَّى يرتدي حذاءه وصدريته، وعندما لحق بها كانت قد بلغت العبَّارة ووبَّخت الرجل توبيخًا عنيفًا، حسبما تمكَّن إزيو من سماعه من بعيد، ثمَّ سمع القبطان يتلعثم خانعًا: «نعم يا سموك، بالطبع، كما تأمرين يا سموك».

«يجدر بكَ أن تنفذ ما أقوله! وإلَّا قطعتُ رأسك! ها هو ذا! اذهب واجلب حصانه وأغراضه بنفسك، اذهب! وعامله معاملة لائقة! لن يفوت عليَّ شيء!». هرع القبطان مبتعدًا، والتفتت كاترينا إلى إزيو. «ها قد انتهينا، أرأيت؟ سُوِّي الأمر!».

- شكرًا لك يا مادونا.

«ينبغي لك مساعدة من ساعدك. لكن آمل أن نلتقي مرَّة أخرى». مدَّت يدها إليه. «أنا من فورلي، زُرني ذات يوم، وسوف يكون من دواعي سروري الترحيب بك». لوحت له وهمَّت بالمغادرة.

- ألا تريدين الذهاب إلى البندقية أيضًا؟

نظرت إليه مجددًا، وإلى العبَّارة. «على متن كومة الخردة هذه؟ لا تعبث معي!». ومضت، سارت بمحاذاة الرصيف باتجاه زوجها، الذي كان يشرف على تحميل آخر أمتعتهم.

وصل القبطان إلى إزيو ومعه الحصان. «إليك حصانك يا سيدي. تقبل اعتذاري المتواضع يا سيدي، لو كنت أعرف...».

- أريد علفًا وماءً لحصاني عندما نصل.

- من دواعي سروري يا سيدي.

ابتعدت العبَّارة عن الرصيف وانطلقت عبر البحيرة ذات المياه الرصاصية، واقترب ليوناردو، الذي شاهد كل ما جرى، من إزيو وقال له بابتسامة: «هل عرفتَ تلك المرأة؟».

ابتسم إزيو. «لن أمانع إذا أصبحت عشيقتي التالية».

- توخ الحذر إذن! إنها كاترينا سفورزا، ابنة دوق ميلانو، وزوجها دوق فورلي وابن أخ البابا.

- ما اسمه؟

- جيرولامو رياريو.

أطرق إزيو، إذ سمع اسم العائلة من قبل. ثمَّ قال: «حسنًا، لقد تزوَّج امرأة جامحة».

رد ليوناردو: «كما قلت لك، توخَّ الحذر».

12

البندقية في عام 1481، في عهد حكم الدوج جيوفاني موسينِغو، كانت، إجمالًا، مكانًا يطيب العيش فيه. ثمَّة سلام مع الأتراك، والمدينة مزدهرة، إذ صارت طرق التجارة البرية والبحرية آمنة، وارتفعت معدلات الفائدة، لكن المستثمرين كانوا متفائلين، والمدَّخرين مطمئنين. كما كانت الكنيسة ثرية، وازدهر الفنانون تحت الرعاية الثنائية من رعاتهم الدينيين والدنيويين. ونجحت المدينة، وقد حقَّقت الثراء من النهب الجماعي للقسطنطينية بعد الحملة الصليبية الرابعة، التي أبعدها الدوج داندولو من هدفها الحقيقي، نجحت في إخضاع بيزنطة، واستعرضوا الغنائم بلا خجل، أبرزها الأحصنة البرونزية الأربعة المرصوفة أعلى واجهة كنيسة سان مارك.

بيد أن ليوناردو وإزيو، إثر وصولهما إلى الرصيف صباح يوم في بدايات الصيف، لم يكن لديهما أدنى فكرة عن ماضي المدينة المليء بالخيانة والخسة واللصوصية، لم يريا سوى أبهة قصر دوكالي برخامه الزهري ومنحوتاته، والساحة الشاسعة الممتدَّة إلى الأمام وإلى اليسار، وبرج الأجراس القرميدي شاهق الارتفاع، والبندقيون أنفسهم ضئيلو البنية نسبيًّا، بملابسهم الداكنة، يسيرون بسرعة على الأراضي الجافة، أو يجوبون قنواتهم المتاهية بغيضة الرائحة على متن قوارب مختلفة الأشكال، من الجناديل الأنيقة إلى الطوافات البشعة المحملة بشتى البضائع من فواكه ومواد بناء.

تولَّى خدم كونت بيكسارو أمر مقتنيات ليوناردو، وإثر طلبه تولُّوا أمر حصان إزيو، ووعدوا بتدبير مسكن لائق بالشابِّ ابن المصرفي القادم من

فلورنسا. ثمَّ تفرق الخدم، تاركين أحدهم، شابٌ بدين شاحب جاحظ العينين، قميصه رطب بالعرق، وابتسامته واسعة.

اقترب منهما وهو يتكلف الابتسام قائلًا: «سموك، اسمح لي بتقديم نفسي، أنا نيرو، موظف الكونت الشخصي المختص بالاستقبال والترحيب. سيكون من واجبي ودواعي سروري أن أصطحبكما في جولة تعريفية قصيرة بمدينتنا العامرة قبل أن يستقبلك الكونت...» عندئذٍ نقَّل نيرو بصره متوترًا بين ليوناردو وإزيو، محاولًا تحديد أيهما الفنان، ومن حسن حظه استقرت نظراته على ليوناردو، الذي بدا مظهره أقل خشونة. «... يا سيد ليوناردو، لتناول كأس نبيذ قبل العشاء». انحنى وتململ قليلًا، ثمَّ قال: «جندولنا ينتظر...».

في خلال نصف الساعة التالية استمتع إزيو وليوناردو بجمال لا سيرينسيما من أفضل مكان يتيح الاستمتاع بها، الجندول، الذي يقوده بخبرة جناديلي في الأمام وآخر في الخلف. لكن المتعة عكَّرها حديث نيرو المتملِّق المسهب. وحاول إزيو، رغمًا عن اهتمامه بعِمارة المكان الفريدة، وما يزال مبتلًا ومرهقًا من إنقاذه لكاترينا، أن يلوذ بالنوم هربًا من حديث نيرو الممل، لكن نعاسه تبدَّد فجأة. استرعى شيءٌ انتباهه.

سمع إزيو أصواتًا عالية قادمة من ضفة القناة، على مقربة من قصر المركيز دي فيرارا، ورأى حارسين مسلحين يضايقان رجل أعمال.

قال أحد الحارسين: «قيل لك أن تمكث في منزلك يا سيدي».

- لكنني دفعت الإيجار، ولديَّ الحق في بيع بضائعي هنا.

- آسف يا سيدي، هذه قوانين السيد إميليو الجديدة. يؤسفني أنك في وضع خطِر يا سيدي.

- سألجأ إلى مجلس العشرة!

قال الحارس الثاني: «لا وقت لهذا يا سيدي»، وركل ظُلَّة كشك الرجل فأسقطها. كان الرجل يبيع منتجات جلدية، اختلس الحارسان أفضلها وألقيا ببقية البضائع في القناة.

قال أحد الحارسين: «لا نريد مزيدًا من هذا الهراء يا سيدي». وسارا مبتعدين بخطى متئدة.

سأل إزيو نيرو: «ماذا يجري؟».

- لا شيء يا سيدي، مشكلات محلية بسيطة، أرجو منك تجاهُلها. والآن نحن على وشك المرور أسفل جسر ريالتو الخشبي الشهير، الجسر الوحيد فوق القناة الكبيرة، شهير على مر التاريخ بـــ...

لم يمانع إزيو أن يترك الشاب البائس يسترسل في ثرثرته، لكن ما رآه آنفًا أزعجه، وقد سمع الاسم إميليو، وهو اسم مسيحي شائع... لكن أيمكن أن يكون إميليو *باربَريغو*؟

بعد مدَّة قصيرة أصر ليوناردو على التوقُّف حتَّى يتجوَّل في سوق به أكشاك لبيع ألعاب الأطفال، وذهب فورًا إلى الكشك الذي لفت انتباهه. وقال متحمسًا: «انظر يا إزيو».

- ماذا وجدت؟

- إنه مواطن عادي، تمثال مصغر دقيق التفاصيل نستخدمه نحن الفنانين كنماذج، أود اثنين، هلا تكرمت..؟ يبدو أنني أرسلت محفظتي مع حقائبي إلى ورشتي الجديدة.

وبينما كان إزيو يمد يده إلى محفظته، اندفعت بجواره مجموعة شبَّان، وحاول أحدهم قطع محفظته من حزامه.

صاح إزيو: «مهلًا! أيها الوغد، توقَّف!». طاردهم، ورأى الذي هاجمه يلتفت للحظة، مزيحًا ضفيرة شعر أحمر داكن كاشفًا عن وجهه. وجه امرأة! لكنها اختفت حالًا، متلاشية في الحشد مع رفاقها.

استأنفا جولتهما في صمت، لكن ليوناردو كان يمسك تمثاليه الصغيرين مغتبطًا. ولم يطِق إزيو صبرًا حتَّى يتخلَّص من دليلهما الأبله البدين، وحتى من ليوناردو، أراد وقتًا يختلي فيه بنفسه، وقتًا ليفكر.

تابع نيرو هذره: «والآن نقترب من قصر سيتا مقر سموه إميليو باربَريغو. السيد باربَريغو معروف في الوقت الراهن بجهوده في سبيل توحيد تجار المدينة تحت إشرافه، لكن للأسف، رغم أن مسعاه جدير بالثناء، فهو يواجه مقاومة من عناصر راديكالية في المدينة...».

رأوا مبنًى محصَّنًا كئيبًا منتصبًا على مبعدة من القناة، أمامه مساحة مرصوفة بألواح حجرية، مربوط عندها ثلاثة جناديل، وعند مرور جندولهم لاحظ إزيو رجل الأعمال الذي رآه يتعرَّض للمضايقة سابقًا يحاول الدخول إلى المبنى، ويعترضه حارسان، لاحظ إزيو على أكتافهم شعار نبالة أصفر

تقطعه شارة عسكرية حمراء، أسفله حصان أسود، وأعلاه دولفين ونجمة وقذيفة. رجال باربَريغو، بالطبع!

كان رجل الأعمال يتكلَّم بنبرة غاضبة: «حُطِّم كشكي، وأُفسدت بضائعي. أطالب بتعويض!».

أجاب أحد الحارسين وهو ينكز الرجل المسكين برمحه: «نأسف يا سيدي، لقد أغلقنا».

- لن يقف الأمر عند هذا الحد، سأبلغ عنكم المجلس!

رد الحارس الثاني الأكبر سنًّا ساخرًا: «حظًّا موفقًا».

وعندئذٍ ظهر ضابط وثلاثة رجال آخرين.

قال الضابط: «هل تسبِّب جلبة هنا؟».

قال الرجل: «لا، أنا...».

زمجر الضابط: «اعتقلوا هذا الرجل!».

قال رجل الأعمال خائفًا: «ماذا تفعلون».

شاهد إزيو ما جرى عاجزًا، بغضب متزايد، لكنه حفظ المكان في ذاكرته. سُحب رجل الأعمال باتجاه المبنى، حيث فُتح باب حديدي صغير لإدخالهم، وأُغلِق خلفهم فورًا.

قال إزيو لليوناردو: «لم تختر أفضل مكان، رغم أنه ربما يكون الأجمل».

أجاب ليوناردو: «بدأت أتمنَّى لو أنني اخترت الذهاب إلى ميلانو، لكن العمل عمل».

13

بعدما استأذن إزيو من ليوناردو واستقرَّ في مسكنه، لم يهدر وقتًا قبل أن يعود إلى قصر سيتا، ولم تكن مهمته سهلة في مدينة الأزقة الضيقة والقنوات المتعرجة والقناطر المنخفضة والساحات الصغيرة والطرق المسدودة، لكن الجميع يعرف القصر، وتعاون السكان المحليون معه بتوجيهه كلما ضلَّ طريقه، لكنهم بدوا حائرين إزاء السبب الذي قد يدفع شخصًا للذهاب إلى القصر بكامل إرادته. اقترح بعضهم عليه أن أبسط حل هو أن يستقلَّ جندولًا، لكن إزيو أراد التعرُّف على المدينة، علاوة على الوصول إلى وجهته دون أن يلاحظه أحد.

في وقت متأخِّر من العصر اقترب من القصر، لكنه لم يكن قصرًا بقدر ما كان حِصنًا، أو سجنًا، إذ شيد مجمع مبانيه الرئيسية داخل أسوار ذات فتحات على سطحها تُطلق منها السهام، وعلى جانبيه مبانٍ أخرى تفصله عنها شوارع ضيقة، وفي الجزء الخلفي منه حديقة كبيرة يحيط بها جدار عالٍ، وبالأمام، في مواجهة القناة، المساحة المفتوحة التي رآها إزيو سابقًا، والآن تدور فيها معركة شرسة بين مجموعة من حراس باربَريغو وبين مجموعة متنافرة من الشبَّان، يناوشون الحراس ويتراجعون مبتعدين عن حرابهم ورماحهم، ويقذفونهم بالقرميد والحجارة والبيض الفاسد والفواكه المتعفنة. ربما كانوا يخلقون إلهاءً، إذ رأى إزيو، ناظرًا خلفهم على مبعدة، شخصًا يتسلَّق جدار القصر خلف مشهد المعمعة، أعجب إزيو به، فالجدار يصعب تسلقه، حتَّى هو كان ليفكر مرَّتين قبل أن يقرِّر تسلُّقه. لكن أيًّا كان الشخص، فقد بلغ فتحات رمي السهام بسهولة دون أن يلاحظه أحد، ثمَّ قفز منها قفزة مذهلة وهبط على سقف أحد أبراج المراقبة، ورأى إزيو أن الشخص ينوي

القفز مرَّة أخرى إلى سقف القصر نفسه ويحاول الولوج إليه. عزم إزيو على تذكُّر هذا التكتيك إذا احتاج إليه واستطاع تنفيذه بنفسه. لكنَّ الحراس الواقفين في البرج سمعوا هبوط الشخص فوقهم، وهتفوا محذِّرين رفاقهم في القصر، فظهر حارس يحمل قوسًا عند نافذة قريبة من سقف القصر وأطلق سهمًا، قفز الشخص برشاقة، فأخطأه السهم منغرزًا في الألواح، لكن في المرَّة الثانية أصابت رمية الرامي، وترنَّح الشخص مطلقًا صرخة خافتة وأمسك بفخذه الجريحة.

أطلق الرامي سهمًا آخر، لكنه أخطأ، إذ عاد الشخص أدراجه، قافزًا من سقف البرج إلى سطح الجدار ذي فتحات الرمي، حيث ركض نحوه حراس آخرون، فقفز من الجدار إلى الأرض قفزة أقرب للسقوط.

على الجانب الآخر من المساحة المفتوحة أمام القصر، دفع حراس باربَريغو مهاجميهم إلى التراجع نحو الأزقة، وشرعوا في مطاردتهم. انتهز إزيو الفرصة للِّحاق بالشخص المتسلِّق، الذي كان يعرج إلى منطقة آمنة في الاتجاه المعاكس.

وعندما لحق به، صُعِق ببنية الشخص الخفيفة الشبيهة ببنية الصِّبية، لكنها رياضية. وعندما همَّ إزيو بعرض مساعدته، التفت الشخص نحوه، فتعرف إزيو على وجه الفتاة التي حاولت قطع محفظته في السوق في وقت سابق.

دُهِشَ إزيو، وارتبك، وأحسَّ بوخزة عشق في قلبه.

قالت الفتاة باستعجال: «أعطني ذراعك».

- ألا تتذكريني؟

- أينبغي أن أتذكرك؟

- أنا الذي حاولتِ سرقته في السوق اليوم.

- آسفة، هذا ليس وقتًا مناسبًا للتذكُّر. إذا لم نتوارَ عن الأنظار حالًا فسيُقضى علينا.

كأنه برهان على كلامها، مرَّ سهم بينهما وهو يصدر أزيزًا، فوضع إزيو ذراع الفتاة فوق كتفيه، وذراعها حول خصرها، ليسندها كما فعل مع لورنزو ذات يوم. «إلى أين؟».

- القناة.

قال إزيو متهكمًا: «بالطبع، توجد قناة واحدة في البندقية، صحيح؟».

- إنك قادم جديد متعجرف لعين. من هنا، سأرشدك، لكن أسرِع! انظر، ها هم خلفنا.

وبالفعل ظهرت مجموعة صغيرة من الرجال راكضة نحوهم.

أرشدت إزيو إلى زقاق، وهي تمسك بفخذها الجريحة وقد جعلها الألم عصبية، ومن الزقاق إلى زقاق آخر، ثمَّ آخر، حتَّى فقد إزيو إحساسه بالاتجاهات. وخلفهم خفتت أصوات مطارديهم تدريجيًّا حتَّى انقطعت.

تكلَّمت الفتاة بنبرة إزدراء شديد: «مأجورون من خارج المدينة. معركتهم خاسرة ضدنا نحن أبناء المدينة، يتوهون بسهولة. هيا!».

وصلا إلى رصيف عند قناة مِسريكورديا، ووجدا قاربًا عاديًّا مربوطًا عنده وعلى متنه رجلان، وإثر رؤيتهما إزيو والفتاة، شرع أحدهما فورًا في حل حبل القارب، وساعدهما الآخر على الصعود.

سأل الرجل الثاني الفتاة: «من هو؟».

- لا أدري، لكنه كان في المكان المناسب والوقت المناسب، وعلى ما يبدو ليس صديقًا لإميليو.

أوشكت الفتاة على الإغماء بحلول هذا الوقت.

قال إزيو: «إنها مصابة في فخذها».

«لا يمكنني إخراجه الآن». تكلَّم الرجل وهو ينظر إلى السهم حيث انغرز. «ليس معي دواء أو ضمادات هنا، يجب أن نعود بها بسرعة، قبل أن يلحق بنا جرذان المجاري من أتباع إميليو». نظر إلى إزيو. «من أنت على أي حال؟».

- اسمي إزيو أودِتوري، من فلورنسا.

- امم. وأنا أوغو، وهي روزا، وذلك الذي يحمل المجداف باغانينو. لا نحب الغرباء.

سأله إزيو متجاهلًا التعليق الأخير: «ماذا تفعلون؟».

قال أوغو: «محترفو تحرير ممتلكات الناس».

أوضح باغانينو ضاحكًا: «لصوص».

قال له أوغو بحزن: «إنك تجرِّد كل شيء من شاعريَّته!»، ثمَّ انتفض فجأة، وصاح: «انتبهوا!». وسقط سهمٌ على بدن القارب، وتلاه آخر، من مكانٍ ما

بالأعلى. رفعوا أبصارهم فرأوا اثنين من رماة باربَريغو فوق سقف على مقربة، يجهزان سهمين آخرين في قوسيهما. نقَّب أوغو سريعًا في صندوق القارب وأخرج قوسَ نشَّابٍ قصيرة، ولقمه بسرعة، وصوب وأطلق السهم، وفي الوقت نفسه قذف إزيو اثنين من سكاكينه الصغيرة نحو الراميين، وهوى الراميان صارخين في القناة بالأسفل.

قال أوغو لباغانينو بنبرة حديث عادي: «ذلك الوغد لديه سفاحين مأجورين في كل مكان».

كلاهما كان قصيرًا، عريض المنكبين، خشن المظهر، في العشرينيات من عمره. جدَّفا بالقارب بمهارة، وبدا واضحًا أنهما يعرفان القنوات كما يعرف المرء راحة يده، ففي أكثر من مرَّة ظن إزيو أنهم انعطفوا إلى نفق مظلم مسدود، ثمَّ اكتشف أنهم لا يتجهون إلى جدار قرميدي، إنما إلى قنطرة منخفضة يمُر القارب تحتها بالكاد، إذا انحنوا جميعهم.

سأل إزيو: «لماذا هاجمتم قصر سيتا؟».

أجابه أوغو: «فيم يهمك هذا؟».

- إميليو باربَريغو عدوِّي أيضًا. ربما يمكننا التعاون.

رد أوغو ساخرًا: «وما الذي يجعلك تظنن أننا نحتاج إلى مساعدتك؟».

قالت روزا: «بربك يا أوغو! انظر إلى ما فعله للتَّوِّ. كما إنك تتغاضى عن حقيقة أنه أنقذ حياتي. وأنا أفضل متسلق بيننا، ومن دوني لن تدخلوا جحر الأفعى أبدًا». التفتت إلى إزيو. «إميليو يحاول احتكار التجارة في المدينة. وهو ذو نفوذ قوي، ويسيطر على عدَّة أعضاء في المجلس. بلغ طغيانه مرحلة إسكات أي رجل أعمال يتحدَّاه ويحاول الحفاظ على استقلاليته».

- لكنكم لستم تجارًا، إنكم لصوص.

صحَّحته: «لصوص محترفون. الأعمال التجارية المستقلَّة، والمتاجر المستقلَّة، والأشخاص المستقلُّون، جميعهم سرقتهم أسهل من سرقة مؤسسة محتكرة. وعلى أي حال لديهم تأمين، وشركات التأمين تدفع بعد تعرض عملائها لسرقات كبيرة. لذا الجميع سعداء. إميليو سيحول البندقية إلى صحراء لمن هم مثلنا».

أضاف أوغو: «ناهيك بأنه وغد لا يريد الاستحواذ على الأعمال التجارية المحلية فحسب، بل السيطرة على المدينة نفسها. أنتونيو سيشرح لك».

- أنتونيو؟ مَن هو؟

- ستعرف عمَّا قريب يا سيدي الفلورنسي.

أخيرًا وصلوا إلى رصيف آخر وربطوا القارب، وتحرَّكوا بسرعة، إذ لا بُدَّ من تنظيف جرح روزا ومعالجته حتَّى لا تموت. ترك أوغو وإزيو باغانينو عند القارب، وسحبا روزا وهما يكادان يحملانها وهي شبه فاقدة الوعي من النزيف، سارا في شارع متعرِّج آخر على جانبيه منازل من القرميد الأحمر والخشب، حتَّى بلغا ساحة صغيرة، في منتصفها بئر وشجرة، ومحاطة بمباني قذرة تساقطت زخارفها الجصية منذ أمد بعيد.

اتجهوا إلى باب قرمزي قذر وطرق أوغو عليه طرقات معقدة مدروسة، ففُتحت كوة وأُغلقت، ثمَّ فُتح الباب بسرعة وأغلق بالسرعة نفسها، ولاحظ إزيو أن الإهمال طال كل ما حوله، ما عدا مفاصل الباب وأقفاله ومزاليجه المزيتة تزييتًا جيدًا وخالية من الصدأ.

وجد نفسه في فناء مُهمَل تحيط به جدران رمادية عالية تكسوها الخطوط، تتخلَّلها نوافذ، وعلى جانبي الفناء سُلَّمان خشبيان يلتقيان عند شرفة خشبية خارجية تمتدُّ بمحاذاة جدران الطابقين الأول والثاني، وتتفرَّع منها عدَّة أروقة.

كان بضعة أشخاص في المكان، عرف إزيو بعضهم من المعركة التي دارت خارج قصر سيتا سابقًا. وشرع أوغو في إصدار الأوامر: «أين أنتونيو؟ أحضِروه! أفسحوا مكانًا لروزا، وأجلبوا بطانية، وماء ساخن، وسكين حادَّة، وضمادات...».

هرع رجل صاعدًا السلم واختفى في رواق الطابق الأول، وبسطت امرأتان بساطًا شبه نظيف ومدَّدتا روزا عليه برفق، واختفت ثالثة ثمَّ عادت ومعها المستلزمات الطبية التي طلبها أوغو. استعادت روزا وعيها، فرأت إزيو، ومدت إليه يدها، فأمسكها وجثا بجانبها. سألته: «أين نحن؟».

- أظننا في مقر جماعتكم، إنكِ بأمان على أي حال.

ضغطت يده. «آسفة لأنني حاولت أن أسرق منك».

- لا تشغلي بالك بهذا.

- شكرًا لك على إنقاذي.

اعترى إزيو القلق، إذ بدت روزا شاحبة شحوبًا شديدًا. سيتعين عليهم العمل بسرعة إذا أرادوا إنقاذها فعلًا.

قال أوغو له عندما نهض: «لا تقلق، سيعرف أنتونيو ما ينبغي فعله».

جاء رجل هابطًا السلالم مسرعًا، بدا متأنقًا وفي أواخر الثلاثينيات من عمره، ويضع قرطًا ذهبيًّا ضخمًا في حلمة أذنه اليسرى ووشاحًا على رأسه. اتجه مباشرة إلى روزا وجثا بجانبها، وفرقع بأصابعه طالبًا المستلزمات الطبية.

قالت: «أنتونيو!».

«ماذا حدث لك يا صغيرتي؟». تكلم بلكنة المولودين في البندقية.

زمجرت روزا: «أخرج هذا الشيء منِّي فحسب!».

قال أنتونيو بنبرة أكثر جدِّيَّة: «دعيني ألقي نظرة أولًا». وتفحص الجرح بعناية. «لم يمَسَّ السهم العظام. من حسن الحظ أنه لم يكن وتد قوس نشَّاب».

كزَّت روزا أسنانها. «أخرجه فحسب».

قال أنتونيو: «أعطوها شيئًا تعضَّه». كسر ريشة السهم، ولف قطعة قماش حول رأسه، وبلل نقطتي الدخول والخروج ببلسم، وسحب.

بصقت روزا الحشوة التي وضعوها بين أسنانها وصرخت.

قال أنتونيو: «آسف يا صغيرتي». وأبقى ضغط يديه على نقطتي الجرح.

زعقت روزا والمرأة تحاول تثبيتها: «فلتذهب إلى الجحيم أنت واعتذاراتك يا أنتونيو!».

نظر أنتونيو إلى أحد أفراد حاشيته. «ميشيل، اذهب وأحضر بيانكا!»، وألقى نظرة حادَّة على إزيو. «وأنت! ساعدني! خذ هاتين الكمَّادتين وثبِّتهما على الجرحين حالما أبعد يدَي، ثمَّ سنضمِّدها كما ينبغي».

امتثل إزيو بسرعة. أحسَّ بدفء أعلى فخذ روزا تحت يديه، وأحسَّ باستجابة جسدها إليهما، وحاول ألَّا ينظر إلى عينيها. عمِل أنتونيو بسرعة، وأخيرًا أزاح بمرفقه إزيو جانبًا، ورتب ساق روزا النظيفة المضمدة. قال: «جيد. ستنقضي مدَّة طويلة قبل أن تتسلَّقي أي جدار مرَّة أخرى، لكن أظنك ستتعافين تمامًا. كوني صبورة فحسب. أعرفك!».

حدجته بنظرة نارية. «أكان لا بُدَّ أن تؤلمني إلى هذه الدرجة أيها الأحمق؟ آمل أن تصاب بالطاعون أيها اللقيط! أنت وأمك العاهرة!».

قال أنتونيو مبتسمًا: «خذوها إلى الداخل. أوغو، اذهب معها، واحرص على نيلها قسطًا من الراحة».

أمسكت أربع نساء بأطراف البساط وحملن روزا، التي ما زالت تحتجّ، عبر أحد أبواب الطابق الأرضي. شاهدهن أنتونيو يبتعدن، ثمَّ التفت إلى إزيو قائلًا: «شكرًا لك، تلك الكلبة الصغيرة عزيزة جدًّا عليَّ. إذا فقدتُها...».

هز إزيو كتفيه. «لطالما أشفقت على الآنسات اللواتي في محنة».

- يسعدني أن روزا لم تسمعك تقول هذا الكلام يا إزيو أودِتوري. لكن سمعتك تسبقك.

قال إزيو متوجسًا: «لم أسمع أوغو يخبرك باسمي».

- لم يخبرني. لكنني أعرف كل ما فعلته في فلورنسا وسان جيمِنيانو. عمل جيد، لكنه يحتاج إلى قليل من الصقل.

- مَن أنتم؟

بسط أنتونيو يديه قائلًا: «مرحبًا بك في المقر الرسمي لـ **نقابة اللصوص والقوَّادين المحترفين في البندقية**. أنا أنتونيو دي ماغيانِس، المدير». انحنى انحناءة تهكُّمية. «لكننا بالطبع لا نسرق إلَّا من الأغنياء لنعطي الفقراء، وعاهراتنا يفضِّلن تسمية أنفسهن بالمَحْظيات».

- وأتعرف سبب وجودي هنا؟

ابتسم أنتونيو. «لديَّ فكرة، لكنني لم أشاركها مع... موظفيَّ. تعالَ! ينبغي أن نتحدَّث في مكتبي».

ذكَّر المكتب إزيو بمكتب عمه ماريو إلى درجة أدهشته، لم يكن يعرف ما يتوقَّعه تحديدًا، لكنه رأى غرفة مليئة بالكتب، كتب غالية جيدة التجليد، وسجاد عثماني، وأثاث من خشب الجوز وخشب البقس، وشمعدانات مطلية بالفضة.

وكان أبرز ما في الغرفة طاولة في منتصفها، عليها نموذج كبير لقصر سيتا ومحيطه، وُزِّعت حوله وفيه أعداد لا تحصى من التماثيل الخشبية

الصغيرة. أشار أنتونيو لإزيو بالجلوس على كرسي وانشغل عند مستوقد فخم في أحد الأركان، عبقت منه رائحة جميلة غير مألوفة.

قال أنتونيو: «هل أقدم لك شيئًا؟»، فبدا لإزيو شديد الشبه بعمه ماريو. «بسكويت؟ قهوة؟».

- معذرة، ماذا؟

اعتدل أنتونيو واقفًا. «قهوة. إنها مزيج عجيب، جلبها لي تاجر تركي. خذ، جرِّبها». وناول إزيو كوبًا خزفيًّا صغيرًا أبيض مليء بسائل أسود ساخن تفوح منه رائحة حرِّيفة.

تذوقها إزيو. لسعت حرارتها شفتيه، لكنه قال إنها ليست سيئة، وأردف بتعليق طائش: «ربما ستكون أفضل بالكريمة والسكر».

شاعرًا بالإهانة رد أنتونيو بحدَّة: «هذه هي الطريقة المؤكدة لإفسادها».

شربا كوبيهما، وسرعان ما أحس إزيو بدفقة طاقة غريبة تسري في عروقه، جديدة عليه. قرر أن يخبر ليوناردو عن هذا المشروب عندما يلتقيه المرَّة التالية. أما في الوقت الراهن كان أنتونيو يشير إلى نموذج قصر سيتا.

«هذه كانت المواضع التي خططنا لها، إذا نجحت روزا في الدخول وفتح إحدى البوابات الخلفية. لكن كما تعرف، أُكتُشِف وجودها وأُطلِق عليها سهم واضطررنا إلى الانسحاب. والآن علينا ترتيب صفوفنا، وفي هذه الأثناء سيجد إميليو الوقت لتعزيز دفاعاته. والأسوأ من ذلك أن هذه العملية كانت مكلفة، كدتُ أفلس إفلاسًا تامًّا».

قال إزيو: «لا بُدَّ أن خزائن إميليو مثقلة بالمال، لِمَ لا تهاجموه الآن وتخفِّفوا عنها؟».

«ألا تسمعني؟ مواردنا استُنزِفَت، وهو متيقظ. لن نتمكَّن أبدًا من التغلُّب عليه دون عنصر المفاجأة. كما أن لديه أبناء عمومة أقوياء النفوذ يدعمونه، منهم الأخوان ماركو وأغوستينو. أما موسينِغو، حسنًا، الدوج رجل صالح، لكنه زاهد، ويترك شؤون العمل والحكم لآخرين، آخرين يسيطر إميليو عليهم سلفًا». نظر إلى إزيو نظرة طويلة. «نحتاج إلى مساعدة حتَّى نملأ خزائننا مجددًا، أظنك قادرًا على تقديم المساعدة، وإذا فعلت فستبرهن أنك حليف يستحق مساعدتنا. أيمكنك الاضطلاع بهذه المهمَّة يا مُحب الكريمة والسكر؟».

ابتسم إزيو قائلًا: «جرِّبني».

14

كانت مقابلة العمل التي أجراها أمين خزانة نقابة اللصوص -كثير الريبة بالطبع- مع إزيو صعبة، واستغرقت وقتًا طويلًا، لكن إزيو تمكَّن من استغلال المهارات التي تعلمها من باولا في النشل مع أفضل أعضاء النقابة، والسرقة بقدر مستطاعه من برجوازيي البندقية الأثرياء المتحالفين مع إميليو. وبعد بضعة أشهر، بصحبة اللصوص الآخرين -إذ صار عضوًا فخريًّا في النقابة- تمكَّن من توريد ألفي دوكاتية، المبلغ الذي كان أنتونيو يحتاج إليه لإعادة شنِّ عملياته ضد إميليو. لكنهم دفعوا ثمنًا، إذ لم يفلت جميع أعضاء النقابة من أيدي حراس باربَريغو، لذا حصلوا على التمويل اللازم لهم، لكن عددهم من الأيادي العاملة نقص كثيرًا.

لكن عجرفة إميليو باربَريغو دفعته لارتكاب خطأ. وضع اللصوص المعتقلين، ليجعل منهم عظة وعبرة، في أقفاص مكتظة بأماكن عامة في أنحاء المنطقة التي يسيطر عليها. إذا كان قد حبسهم في زنازين قصره، لما تمكَّن أحد من الوصول إليهم، لكن إميليو فضَّل التباهي بهم، وحرمهم من الماء والطعام، وأمر حراسه بنكزهم بالعصي متى ما حاولوا النوم، ناويًا قتلهم جوعًا على الملأ.

قال أوغو لإزيو: «لن يصمدوا ستة أيام دون ماء».

- وماذا يقول أنتونيو؟

- عهد إليك بالتخطيط لإنقاذهم.

تساءل إزيو عمَّا عليه فعله أكثر ممَّا فعله حتَّى يبرهن ولاءه، ثمَّ أدرك أنه نال ثقة أنتونيو سلفًا، إلى درجة أن أمير اللصوص أوكل إليه أهم مهمَّة. وأمامه وقت ضيق.

بحرص راح هو وأوغو يراقبان حركة الحراس سرًّا، وبدا أن مجموعة من الحراس تتحرَّك باستمرار من قفص إلى التالي. ورغم أن كل قفص محاط دومًا بزمرة متفرجين فضوليين، قد يكون بينهم جواسيس باربَريغو، قرر إزيو وأوغو أن يخاطرا. وفي المناوبة الليلية، عندما وجدا عدد المتفرجين قليلًا، ذهبا إلى القفص الأول عندما اقترب وقت تبديل الحراس، وحالما غادر الحارس وابتعد عن مدى السمع، كسرا الأقفال، وتشجعًا إثر سماعهما هتافات متقطعة من بضعة متفرجين عابرين لا يكترثون بمَن ينتصر ما داموا يجدون الحدث مسلِّيًا، وبعضهم تبعهما إلى القفص الثاني، وحتى إلى الثالث. كان الرجال والنساء الذين حرراهم، والبالغ عددهم سبعة وعشرين، في حالة مزرية بعد يومين ونصف في الأسر، لكن لحسن الحظ لم يكونوا مقيدين. واقتادهم إزيو إلى الآبار الموجودة في مركز كل ساحة، حيث يمكنهم إطفاء ظمأهم.

وبعد انتهاء المهمَّة، التي امتدت من الغروب حتَّى صياح الديوك، نظر أوغو ورفاقه المحررين إلى إزيو باحترام عميق. قال أوغو: «إنقاذ إخوتي وأخواتي لم يكن مجرَّد عمل خير يا إزيو، هؤلاء الـ... زملاء سيلعبون دورًا مهمًّا في الأسابيع القادمة، و-» تكلم بنبرة رزينة. «نقابتنا تدين لك بامتنانها إلى الأبد».

عادت المجموعة إلى مقر النقابة. وعانق أنتونيو إزيو متجهمًا.

سأله إزيو: «كيف حال روزا؟».

- أحسن، لكن إصابتها كانت أسوأ ممَّا ظننا، وهي تحاول أن تركض قبل أن تمشي.
- هذه طبيعتها.
- كدأبها دومًا. إنها تريد رؤيتك.
- أشعر بالإطراء.
- لماذا؟ إنك بطل الساعة!

***

بعد بضعة أيام استُدعِيَ إزيو إلى مكتب أنتونيو، ووجده يحدِّق إلى نموذجه المصغَّر من قصر سيتا، وقد أُعيد توزيع التماثيل الخشبية الصغيرة حوله، وعلى طاولة مجاورة كومة أوراق مسوَّدة بحسابات وملاحظات.

- آه! إزيو!

- سيدي.

- عدتُ للتَّوِّ من غارة صغيرة شننتها بنفسي في منطقة العدو. تمكَّنَّا من تحرير ثلاثة قوارب محمَّلة بالأسلحة كانت قادمة إلى قصر عزيزنا إميليو، ورأينا أن ننظم حفلًا تنكريًّا نرتدي فيه أزياء رُماة باربَريغو.

- رائع. هكذا ينبغي أن ندخل حصنه دون أي مشكلة. متى نبدأ؟

رفع أنتونيو يده. «ليس بهذه السرعة يا عزيزي. ثمَّة مشكلة، وأود استشارتك بشأنها».

- إنك تشرِّفني.

- لا، إنني أقدِّر رأيك فحسب. الحقيقة هي أنني أعرف يقينًا أن إميليو استمال بعض رجالي بالرشوة وصاروا عملاءه الآن. لا يمكننا تنفيذ ضربتنا قبل التخلُّص من الخونة. اسمع، أعرف أن بوسعي الاعتماد عليك، ووجهك ليس معروفًا بين كثير من أعضاء النقابة. إذا أعطيتك مؤشرات ودلائل بعينها عن أماكن أولئك الخونة، فهل ستستطيع التعامل معهم؟ لك أن تصطحب أوغو وأي مجموعة قد تحتاج إليها.

- سيد أنتونيو، سقوط إميليو مهم لي بقدر ما هو مهم لك، فلنتعاون في سبيل هذه الغاية.

ابتسم أنتونيو. «هذه هي الإجابة عينها التي توقَّعتها منك!». أشار لإزيو بالانضمام إليه عند طاولة الخرائط الموضوعة بجوار النافذة. «هذه خريطة للمدينة، رجالي المنشقُّون يلتقون، حسبما أخبرني جواسيسي الأوفياء، في حانة هنا، اسمها 'المرآة القديمة' حيث يتواصلون مع عملاء إميليو، ويتبادلون المعلومات ويأخذون الأوامر».

- كم عددهم؟

- خمسة.

- ماذا تريد منِّي أن أفعل بهم؟

نظر أنتونيو إليه مليًّا. «ماذا؟ اقتلهم يا صديقي».

***

استدعى إزيو المجموعة المنتقاة للمهمَّة عند غروب شمس اليوم التالي، وكان قد وضع خطته، ألبسهم جميعهم أزياء جنود باربَريغو التي وجدوها في القارب الذي صادره أنتونيو. وعرف إزيو من أنتونيو أن إميليو يظن أن الشحنة المسروقة ضاعت في البحر، لذا لن يشك جماعته في أي شيء. ذهب مع أوغو وأربعة آخرين إلى 'المرآة القديمة' بُعيد هبوط الظلام، كانت الحانة المكان الذي يتردَّد عليه رجال باربَريغو، لكن في ذلك الوقت من الليل لم يوجد فيها سوى قلة من الزبائن ما عدا الذين بدَّلوا جلودهم وعملاء باربَريغو، وبالكاد رفعوا رؤوسهم عندما رأوا مجموعة رجال يرتدون أزياء حراس باربَريغو تدخل الحانة، ولم ينتبهوا إلَّا عندما أحاط بهم القادمون الجدد. أزاح أوغو قلنسوته، كاشفًا عن وجهه في ضوء الحانة المعتم، فهمَّ المتآمرون بالنهوض وعلى وجوههم الدهشة والخوف، لكن إزيو وضع يده بحزم على كتف أقرب الخونة إليه، ثمَّ بأقل مجهود غرز نصله المنبثق بين عيني الرجل، حذا أوغو والآخرون حذو إزيو وأنهوا حيوات إخوتهم الخونة.

***

في تلك الأيام كانت روزا تواصل تعافيها التدريجي، نافدة الصبر، وصارت قادرة على الحركة، لكن بالاستعانة بعصا تتوكَّأ عليها، وساقها ما زالت مغطَّاة بالضمادات، وكان إزيو، رغمًا عن نفسه، يقضي أوقاتًا طويلة برفقتها، وعلى الدوام يعتذر بينه وبين نفسه لكرستينا كالفوتشي.

قال لها ذات يوم عادي: «مرحبًا يا روزا، كيف حالك؟ أرى ساقك تتعافى».

هزت روزا كتفيها. «إنها تستغرق دهورًا، لكنني سأتعافى. ماذا عنك؟ كيف وجدت بلدتنا الصغيرة؟».

- إنها مدينة عظيمة. لكن كيف تتجنبون رائحة القنوات؟

«اعتدناها. ولما استطعنا تحمُّل غبار وقذارة فلورنسا». صمتت، ثمَّ سألته: «إذن، ماذا دفعك للمجيء إليَّ هذه المرَّة؟».

ابتسم إزيو. «ما تظنينه، وأيضًا ما لا تظنينه». تردَّد وتابع: «كنت آمل أن تعلِّميني كيفية التسلُّق كما تفعلين».

نقرت على ساقها. «أحتاج إلى وقت. لكن إذ ليس بوسعك الانتظار، فبإمكان صديقي فرانكو التسلّق مثلي تقريبًا». رفعت صوتها. «فرانكو!».

فورًا ظهر شاب رشيق داكن الشعر عند الباب، فأحس إزيو، مصدومًا من نفسه، بوخزة غيرة ظهرت على وجهه، ولاحظتها روزا فقالت له مبتسمة: «لا تقلق يا عزيزي، إنه ليس مهتمًّا بي أدنى اهتمام. لكنه قوي جدًّا. فرانكو! أريد منك أن تعلِّم إزيو بعض مهاراتنا». نظرت إلى خارج النافذة، حيث يوجد على الجانب الآخر من الشارع مبنًى خالٍ على واجهته سقالات من البامبو مربوطة بأشرطة جلدية. أشارت إليه قائلة: «ابدأ معه بأخذه إلى أعلى ذلك المبنى».

أمضى إزيو بقية الصباح، ثلاث ساعات، في مطاردة فرانكو، تحت إشراف متشدِّد من روزا. وفي النهاية، صار قادرًا على التسلُّق إلى ارتفاع يسبب الدوار بنفس سرعة مرشدته وبراعتها، وتعلم كيفية القفز *إلى الأعلى* من مُتَمسَّك إلى الذي يليه، لكنه لم يظن أن بوسعه بلوغ مستوى روزا.

لم تمدحه، وقالت له: «تناول غداءً خفيفًا. تدريبات اليوم لم تنتهِ».

وفي العصر، في ساعات القيلولة، اصطحبته إلى ساحة كنيسة فراري الضخمة المشيدة من القرميد الأحمر، ومعًا نظرا إلى حجم المبنى الهائل. قالت روزا: «تسلَّق، حتَّى القمة، وأريدك هنا بالأسفل قبل أن أعد إلى ثلاثمئة».

تعرَّق إزيو باذلًا مجهودًا خارقًا.

قالت روزا عندما عاد هابطًا: «أربعمئة وتسعة وثلاثون. تسلَّق مجددًا!».

وعند نهاية المحاولة الخامسة، أحسَّ إزيو مرهقًا متعرقًا بأنه لا يرغب سوى في لطم روزا على وجهها، لكن رغبته تبخَّرت عندما ابتسمت له وقالت: «مئتان وثلاثة وتسعون. لا بأس بك».

صفَّق الحشد الصغير الذي تجمَّع.

15

في خلال الأشهر التالية أنجزت نقابة اللصوص مهام الإصلاح وإعادة التنظيم. وذات يوم ذهب أوغو إلى مسكن إزيو ليدعوه لاجتماع، فحزم إزيو أسلحته السرية في حقيبة وتبع أوغو إلى المقر الرئيسي، حيث وجدا أنتونيو شديد الحماسة، وقد حرَّك مجددًا التماثيل الخشبية الصغيرة حول نموذج قصر سيتا. تساءل إزيو عمَّا إذا كان الرجل مهووسًا قليلًا. وكانت روزا ومعها فرانكو واثنين أو ثلاثة من كبار أعضاء النقابة حاضرين أيضًا.

ابتسم أنتونيو. «آه، إزيو! بفضل نجاحاتك الأخيرة صرنا في وضع يمكِّننا من شنِّ هجمات مضادَّة. هدفنا مستودع إميليو، لا يبعد كثيرًا عن قصره. إليك الخطة. انظر!». نقر على نموذج القصر وأشار إلى صفوف جنود صغار من خشب حول محيط المستودع. «هؤلاء رُماة إميليو، وهم الأشدُّ خطرًا علينا. تحت ستار الظلام، أعتزم إرسالك مع اثنين آخرين إلى أسقف المباني المتاخمة للمستودع لتهبطوا منها وتتخلَّصوا من الرماة، وأعرف أنك قادر على المهمَّة، بفضل تدريبات روزا الأخيرة. تحركوا بهدوء، وفي هذه الأثناء، رجالنا الذين يرتدون أزياء جنود باربَريغو، سيتحرَّكون من الأزقة المحيطة ويأخذون أماكن الرماة».

أشار إزيو إلى التماثيل الحمراء الصغيرة التي داخل جدران المستودع. «ماذا عن الحراس الذين بالداخل؟».

«عندما تنتهي من أمر الرماة سنجتمع هنا...» أشار أنتونيو إلى ساحة قريبة تذكر إزيو أنها بجوار ورشة ليوناردو الجديدة، وتساءل لوهلة عن سير عمل صديقه. «... ونناقش خطواتنا التالية».

سأل إزيو: «متى سنتحرَّك؟».

- الليلة!

«ممتاز! دعني أصطحب اثنين من أفضل الرجال. أوغو، فرانكو، هل أنتما معي؟». أومأ الاثنان، مبتسمين. «سنتولَّى أمر الرماة ونلاقيكم كما قلتَ».

- مع وجود رجالنا في أماكن رماتهم، لن تساورهم أي شكوك.

- وما الخطوة التالية؟

«حالما نستولي على المستودع، سنهاجم القصر نفسه. لكن تذكَّروا! تسلَّلوا بحذر! يجب ألَّا يشعروا بأي شيء!». ابتسم أنتونيو ابتسامة واسعة، وبصق. «بالتوفيق يا أصدقائي!».

رد إزيو: «فليمُت الذئب!»، وبصق أيضًا.

***

سارت العملية في تلك الليلة بسلاسة دون عوائق. لم يعرف رماة باربَريغو ما أصابهم، وحل رجال أنتونيو محلهم بهدوء شديد، وانهزم الحراس داخل المستودع -غير مدركين أن رفاقهم حُيِّدوا- أمام اللصوص دون مقاومة تُذكر.

ثمَّ كان الهجوم على القصر خطوة أنتونيو التالية، لكن إزيو أصر على استطلاع الوضع بنفسه أولًا. وأرادت روزا -وهي في مراحل شفائها الأخيرة بفضل جهود أنتونيو وبيانكا، وقد صارت قادرة على التسلُّق والقفز تقريبًا كما كانت تفعل وهي بكامل لياقتها- أن ترافق إزيو، لكن أنتونيو رفض، فغضبت. وخطر لإزيو أن أنتونيو يرى أن من الممكن الاستغناء عنه أكثر من روزا، لكنه أبعد الفكرة عن ذهنه واستعد لمهمَّة الاستطلاع، ثبت على ذراعه اليسرى واقي الذراع بخنجره ذي النصل المزدوج، وعلى يمناه نصله المنبثق الأول، إذ سيتسلق جدران صعبة، ولم يرغب في المخاطرة بالنصل السام تحت أي ظرف تفاديًا لأي حادث قد يكون مميتًا له.

رفع قلنسوته، واندفع متسلقًا جدران القصر الخارجية، موظِّفًا مهارات القفز إلى الأعلى التي تعلمها من روزا وفرانكو، صامتًا كطيف، حتَّى بلغ السقف، ثمَّ نظر إلى الحديقة بالأسفل، فرأى رجلين منهمكين في نقاش، ويتجهان نحو بوابة جانبية تفضي إلى قناة خاصة ضيقة تمتد حول الجزء الخلفي من القصر. تابع إزيو تحركهما من السقف، ورأى جندولًا مربوطًا عند رصيف صغير هناك، والجناديليين متشحين بالسواد وفانوسيهما مطفأين.

هبط عبر الجدران والأسقف بأطراف واثقة كأنه وَزغة، واختبأ بين أغصان شجرة حيث يمكنه التنصت على نقاشهما. كان الرجلان إميليو بارباغيو، والآخر، عرفه إزيو مصدومًا، كارلو غريمالدي، أحد أفراد حاشية الدوج موسينِغو، ويرافقهما سكرتير إميليو، رجل أحمش يرتدي ملابس رمادية تنزلق نظارة قراءته على أنفه باستمرار.

كان غريمالدي يقول: «... بيتك الواهن يتداعى يا إميليو».

- إنها مجرَّد نكسة بسيطة، التجار الذين يتحدُّونني وذلك التافه أنتونيو دي ماغيانس عمَّا قريب سيكونون في عداد الموتى أو مسجونين أو يجدفون في بارجة تُركية.

- إنني أتحدَّث عن *الحشَّاش*. فلتعلم أنه هنا، وهو من جعل أنتونيو يتجرَّأ علينا هكذا. اسمع، جميعنا سُرقنا أو نُهبنا، وحراسنا استُغفِلوا، وأبذل كل ما بوسعي حتَّى لا يتدخل الدوج في ما يجري.

- الحشَّاش؟ هنا؟

- إنك مغفل يا إميليو! إذا عرف الزعيم مدى غبائك، فأنت هالك لا محالة. تعرف ما سبَّبه الحشَّاش من ضرر لقضيتنا في فلورنسا وسان جيمِنيانو.

كوَّر إميليو يده اليمنى على شكل قبضة، وزمجر:

- سأسحقه كأنه بقَّة فراش!

- حسنًا، إنه يمتص دماءك بلا شك. من يدري، ربما يكون هنا الآن، يتنصت على حديثنا.

- والآن يا كارلو ستخبرني بأنك تؤمن بوجود الأشباح.

حدجه غريمالدي بنظرة حادَّة. «الغرور جعلك غبيًّا يا إميليو، إنك لا ترى الصورة الكاملة، لستَ سوى سمكة كبيرة في بِركة صغيرة».

أمسك إميليو به من ردائه وجذبه إليه غاضبًا. «البندقية ستكون في قبضتي يا غريمالدي! أنا وفَّرت كل الأسلحة لفلورنسا! ليس خطئي أن ذلك الأبله ياكوبو لم يُحسِن استخدامها. ولا تحاول تأزيم موقفي مع الزعيم. إذا أردتُ يمكنني إخباره ببعض الأشياء عنك من شأنها أن...».

«وفِّر أنفاسك! عليَّ أن أذهب. تذكَّر! سيُعقد الاجتماع بعد عشرة أيام في سان ستيفانو، خارج فيوريلا».

قال إميليو بمرارة: «سأتذكر. وعندئذٍ سيسمع الزعيم...».

قاطعه غريمالدي بحدة: «الزعيم سيتكلَّم، وأنت ستسمع. وداعًا!».

وهبط إلى الجندول المظلم وإزيو يشاهد، ثمَّ انزلق مبتعدًا في الظلام.

«وغدا!». تمتم إميليو مع سكرتيره وهو يشاهد الجندول يختفي في اتجاه القناة الكبيرة. «ماذا لو كان محقًّا؟ ماذا لو أن ذلك الملعون إزيو أودِتوري هنا فعلًا؟». فكَّر للحظة. «اسمع، اطلب من الجناديليين أن يستعدّا، الآن، أيقظ اللقيطين إذا دعا الأمر. أريد تحميل هذه الصناديق الآن، وأريد القارب جاهزًا في خلال نصف ساعة بجوار الساعة المائية. إذا كان غريمالدي محقًّا، فلا بُدَّ لي من إيجاد مكان أختبئ فيه، حتَّى موعد الاجتماع على الأقل. سيجد الزعيم طريقة للتعامل مع الحشَّاش...».

قال السكرتير: «لا بُدَّ أنه يتعاون مع أنتونيو دي ماغيانس».

رد إميليو بصوت كالفحيح: «أعرف هذا أيها الأبله! والآن تعال وساعدني على ترتيب الوثائق التي تحدَّثنا عنها قبل مجيء غريمالدي».

تحرَّكا عائدين إلى داخل القصر، وتبعهما إزيو، دون أن يبدر عنه أدنى ما يمكن أن يدل على وجوده، امتزج بالظلال، ولم يختلف وقع أقدامه عن وقع أقدام قطة، كان يعرف أن أنتونيو سيوقف الهجوم حتَّى يرسل هو الإشارة، وأراد أولًا أن يعرف ما يخطط إميليو له، وما الوثائق التي تكلم عنها.

كان إميليو يقول لسكرتيره وإزيو ما زال يتعقَّبهما: «لماذا لا يصغي الناس لصوت العقل؟ حرية الفرص السائدة هذه ستؤدِّي إلى المزيد من الجرائم! يجب أن نضمن سيطرة الدولة على جميع نواحي حياة الناس، وفي الوقت نفسه نطلق العنان للصيارفة والمستثمرين. هكذا يزدهر المجتمع. وإذا تعيَّن علينا إسكات المعارضين، فهذا هو ثمن التقدُّم. الحشَّاشون ينتمون إلى عصر بائد، لا يدركون أن الدولة هي ما يهم، ليس الأفراد». هزَّ رأسه. «مثل جيوفاني أودِتوري، وقد كان مصرفيًّا هو نفسه! والطبيعي ألَّا يتوقَّع المرء منه سوى النزاهة!».

انقبض صدر إزيو إثر ذكر اسم والده، لكنه واصل ملاحقة فريسته، اتجه إميليو وسكرتيره إلى مكتبه، واختارا أوراقًا، وحزماها، وعادا إلى الرصيف الصغير بجوار بوابة الحديقة حيث كان جندول آخر أكبر في انتظار سيده.

أخذ إميليو حقيبة الأوراق من سكرتيره، وأصدر آخر أوامره: «أرسل إليَّ ملابس لقضاء الليلة، تعرف العنوان».

انحنى السكرتير واختفى. لم يوجد أحد آخر في المكان، واستعد الجناديليان للتحرُّك وهما يقفان عندي طرفي الجندول. وثب إزيو من مكانه العالي هابطًا على الجندول، فاهتز بعنف على نحو خطِر. وبضربتين سريعتين من مرفقه ألقى بالجناديليين في الماء، ثمَّ أمسك بإميليو من حلقه.

غرغر إميليو: «أيها الحراس!»، متحسِّسًا خنجره عند حزامه، لكن إزيو أمسك بمعصمه قبل أن يغرز الرجل خنجره.

قال إزيو: «ليس بهذه السرعة».

- الحشَّاش! أنت!

- نعم.

- قتلتُ عدوَّك!

- هذا لا يجعلك صديقي.

- قتلي لن يحل أي مشكلة لك يا إزيو.

- أظن أن قتلك سيخلص البندقية من... بقَّة فراش مزعجة.

أخرج إزيو نصله المنبثق قائلًا: «فلترقد بسلام»، وفورًا غرز الفولاذ المميت بين لوَحي كتفي إميليو، فجاءه الموت بصمت وسرعة. فعالية إزيو في القتل لم يكن يضاهيها سوى عزيمته الفولاذية التي يستجيب بها لنداء واجبه.

دفع إزيو جثة إميليو إلى جانب الجندول، وراح يفتش في الأوراق الموجودة في حقيبته، وخطر له أن في الحقيبة الكثير ممَّا سيثير اهتمام أنتونيو، ثمَّ في أثناء تصفحه الأوراق بسرعة، إذ لا وقت لتفحصها بدقة، جذبت انتباهه صفحة من الرق مطوية ومختومة، وبالطبع وجدها صفحة أخرى من مجلد المخطوطات!

وما إن همَّ بكسر الختم، أزَّ سهمٌ منغرزًا في قاع الجندول بين ساقيه، فأجفل ناظرًا إلى الاتجاه الذي جاء منه السهم، ورأى بالأعلى عند متاريس القصر عددًا كبيرًا من رماة باربَريغو.

ثمَّ لوَّح أحدهم، وبحركة بهلوانية قفز من الجدار العالي، وفي خلال ثانية كانت بين ذراعيه.

«آسفة يا إزيو، مقلب طائش! لم نستطع مقاومة الإغراء».

- روزا!

اقتربت متودِّدة. «عُدتُ جاهزة للقتال!». نظرت إليه بعينين لامعتين. «استولينا على قصر سيتا! حررنا التجار الذين عارضوا إميليو، وصرنا الآن المسيطرين على المنطقة. هيا! أنتونيو يجهِّز لاحتفال، وقبو نبيذ إميليو أسطوري!».

***

مرَّ الزمن، وبدت البندقية كأنها تنعم بالسلام. لم يحزن أحد لاختفاء إميليو، بل إن كثيرين يظنونه ما زال على قيد الحياة، وبعضهم افترض أنه سافر ليشرف على مصالحه التجارية في مملكة نابولي. حرص أنتونيو على سير شؤون قصر سيتا بسلاسة، وما دامت مصالح البندقية التجارية ككل لم تتأثر، لم يكترث أحد بمصير رجل أعمال واحد مهما كان طموحه أو نجاحه.

ازداد تقارب إزيو وروزا، لكن ما زالت بينهما منافسة شرسة. بعد شفاءها أرادت أن تبرهن على قدراتها، وذات صباح ذهبت إلى غرفته وقالت: «اسمع يا إزيو، أظنك بحاجة إلى إعادة تقييم وتحسين، أريد أن أرى إذا ما زلتَ بارعًا كما كنت عندما دربناك أنا وفرانكو أول مرَّة، إذن ما رأيك بسباق؟».

- سباق؟

- نعم!

- أين؟

- من هنا إلى قمة مبنى الجمارك، سنبدأ الآن!

فقفزت إلى خارج النافذة قبل أن تبدر من إزيو ردَّة فعل، شاهدها تتسلَّق الأسقف الحمراء وتبدو كأنها تتراقص عبر القنوات التي تفصل بين المباني. ونزع رداءه وانطلق خلفها.

أخيرًا وصلا جنبًا إلى جنب، إلى سقف المبنى الخشبي المنتصب على الشريط الأرضي عند نهاية دورسودورو، المطلة على قناة سان مارك والبحيرة. وعلى الجانب الآخر من المياه مباني دير سان جيورجيو ماجيوري، وبجانبه مبنى قصر دوكالي الفخم بحجارته الزهرية المتلألئة.

قال إزيو: «يبدو أنني فزت».

عبست روزا. «هراء. حتَّى بقولك هذا تُظهِر أنك لست رجلًا نبيلًا وقطعًا لست بندقيًّا، لكن هذا هو المتوقَّع من الفلورنسيين. على أي حال إنك كاذب، *أنا* فزت».

هزَّ إزيو كتفيه وابتسم. «كما تقولين يا عزيزتي».

قالت: «إذن المنتصر ينال الغنائم»، وجذبت رأسه وقبَّلته على شفتيه قبلة حارة، وعندئذٍ صار جسدها دافئًا مطاوِعًا.

16

ربما لم يقدر إميليو باربَريغو على حضور اجتماع سان ستيفانو بنفسه، لكن إزيو ما كان ليفوِّته قطعًا، وجد لنفسه موضعًا مناسبًا في الساحة النابضة بالحياة في صباح ذلك اليوم في نهاية عام 1485. كانت معركة فرض السطوة على فرسان الهيكل شاقة وطويلة، وبدأ إزيو يرى أنها، كما كانت لوالده وعمه، ستكون محور حياته هو أيضًا.

رفع قلنسوته، وذاب في الحشد لكنه ظل قريبًا إثر رؤيته كارلو غريمالدي يقترب مع رجل آخر، يرتدي عباءة مفتِّش حكومي حمراء، يبدو متقشفًا، وشعر رأسه ولحيته الأشعث متنافر مع بشرته الشاحبة المزرقة. عرف إزيو أنه سيلفيو باربَريغو. ابن عم إميليو، الذي يلقب بـ 'الأحمر'، ولم يبدُ في مزاج جيد.

سأل بصبر نافد: «أين إميليو؟».

هزَّ غريمالدي كتفيه. «أخبرته بأن يأتي هنا».

- أخبرته بنفسك؟ شخصيًّا؟

رد غريمالدي بحدَّة: «نعم، بنفسي! شخصيًّا! يقلقني أنك ربما لا تثق بي».

غمغم سيلفيو: «فعلًا». فكزَّ غريمالدي أسنانه، لكن سيلفيو لم يعِره بالًا ونظر في ما حوله ساهمًا. «حسنًا، ربما سوف يصل مع الآخرين، فلنتمشَّ قليلًا».

سارا بخطًى متئدة حول المنطقة المستطيلة الشاسعة، الواقعة بعد كنيسة سان فيدال والقصور التي عند نهاية القناة الكبيرة، وتمتد إلى سان ستيفانو

من الناحية الأخرى. وكانا يتوقَّفان من حين إلى آخر ليتفرجا على البضائع التي يعرضها أصحاب الأكشاك عند بداية اليوم. تعقبهما إزيو خلسة، لكنه وجد صعوبة، إذ كان غريمالدي متوترًا، وظل يتلفت في ما حوله مرتابًا، وبذل إزيو كل ما بوسعه حتَّى يُبقي طريدته ضمن مجال سمعه.

قال سيلفيو: «هلَّا أطلعتني على المستجدَّات في قصر الدوج في أثناء انتظارنا؟».

بسط غريمالدي يديه. «حسنًا، لأكون صادقًا معك، الوضع ليس سهلًا، موسينغو يُبقي دائرته مغلقة. حاولتُ التمهيد لموطئ قدم لي، كما طلبتَ منِّي، بتقديم اقتراحات تصبُّ في صالح قضيتنا، لكن بالطبع لستُ الوحيد الذي يسعى لنيل انتباه الدوج، وهو وغد ماكر رغم كبر سنِّه.

التقط سيلفيو تمثالًا زجاجيًّا مصغرًا ذا تصميم معقد من أحد الأكشاك، وتفحصه ثمَّ أعاده إلى مكانه. «إذن عليك ببذل جهد أكبر يا غريمالدي، يجب أن تصبح جزءًا من دائرة أقرب الناس إليه».

- أصبحت سلفًا أحد أقرب شركائه وأجدرهم بالثقة. استغرقت سنوات حتَّى أبلغ هذه المكانة، سنوات من التخطيط المتروِّي، والانتظار، وتلقِّي الإهانات.
- حسنًا، حسنًا، لكن ماذا أنجزت؟
- الأمر أصعب ممَّا توقَّعت.
- ولماذا؟

أتى غريمالدي بحركة تعبِّر عن إحباطه. «لا أدري، أبذل كل ما بوسعي من أجل الدولة، وأثابر في عملي... لكن الحقيقة هي أن موسينغو لا يستلطفني».

قال سيلفيو ببرود: «لماذا يا ترى؟!».

كان غريمالدي مستغرقًا في أفكاره فلم ينتبه إلى الإهانة. «لم أقصِّر! أحاول باستمرار إرضاء الوغد! أكتشف أهم رغباته وأبذلها له: أفضل مربَّى من ساردينيا، آخر صيحات الموضة من ميلانو...».

- ربما لا يحب الدوج المتملِّقين.
- أهذا ظنك بي؟
- نعم. مُتملِّق، مُداهن، ماسِح جوخ،... هل أستمِر؟

- إياك أن تهينني أيها المفتش، ليست لديك أدنى فكرة عن صعوبة المهمَّة، ولا تستوعب مدى الضغط في الـ...

- أوه، *أنا* لا أستوعب الضغط؟

- لا! ليست لديك أدنى فكرة. ربما تكون مسؤولًا في الدولة، لكنني على بعد خطوتين من الدوج طوال ساعات اليوم. إنك تتمنَّى لو كنت في مكاني، ظنًا منك أنك ستكون أفضل مني، لكن...

- هل انتهيت؟

- لا! اسمعني. إنني قريب من الرجل. كرَّستُ حياتي لأبلغ هذه المكانة، وأؤكد أنني مقتنع بقدرتي على تجنيد موسينغو لصالح قضيتنا. كل ما في الأمر أنني أحتاج إلى مزيد من الوقت.

- يبدو لي أنك نلت وقتًا كافيًا وأكثر.

شاهد إزيو سيلفيو يرفع يده ليسترعي انتباه رجل عجوز يرتدي ملابس باهظة ذي لحية بيضاء مسترسلة، يرافقه حارس كان أضخم رجل رآه إزيو في حياته.

«صباح الخير يا بن عمي، وغريمالدي». حيًّا القادم الجديد سيلفيو وغريمالدي.

ردَّ سيلفيو: «مرحبًا يا بن عمي ماركو»، ونظر في ما حوله. «أين إميليو؟ ألم يأتِ معك؟».

بدا ماركو مدهوشًا، ثمَّ مغتمًّا. «آه. إذن لم تسمع الخبر بعد».

- أي خبر.

- إميليو مات!

- ماذا؟ كيف؟

كالعادة انزعج سيلفيو من أن ابن عمه الأكبر سنًّا والأقوى نفوذًا دائمًا ما يكون أوسع معرفة منه.

قال غريمالدي بمرارة: «يمكنني أن أخمِّن. الحشَّاش».

نظر ماركو إليه نظرة حادَّة. «كان الحشَّاش فعلًا. انتُشِلَت جثة إميليو من إحدى القنوات في وقت متأخِّر من ليلة البارحة، لا بُدَّ أنها كانت في المياه لـــ... حسنًا مدَّة طويلة بما يكفي. يُقال إنه انتفخ حتَّى بلغ ضعف حجمه الطبيعي، لذا طفا إلى السطح».

قال غريمالدي: «أين يختفي الحشَّاش يا ترى؟ يجب أن نعثر عليه ونقتله قبل أن يسبب مزيدًا من الأضرار».

قال ماركو: «قد يكون في أي مكان، لذا...» أشار لحارسه الضخم. «أصطحب دانتي معي حيثما ذهبت، لن أشعر بالأمان دونه». صمت ثمَّ تابع: «قد يكون الحشَّاش هنا الآن، من يدري؟».

قال سيلفيو: «علينا أن نتصرَّف سريعًا».

قال ماركو: «إنك محق».

قال غريمالدي ملتمسًا فرصة أخرى: «لكنني اقتربت جدًّا يا ماركو، أحس بنجاحي، امنحوني بضعة أيام فحسب».

- لا يا كارلو، نلت وقتًا كافيًا، ولم نعد نملك رفاهية التستُّر. إذا لن ينضم موسينغو إلينا، فسنطيح به ونستبدل به أحد رجالنا، ولا بُدَّ من تنفيذ هذا الأمر في خلال هذا الأسبوع!

الحارس العملاق، دانتي، الذي لم ينفَك يمسح الحشد بناظريه منذ وصوله مع ماركو باربَريغو، عندئذٍ تكلَّم: «علينا أن نواصل التحرُّك يا سادتي».

وافق ماركو: «أجل، سيكون الزعيم في انتظارنا، هيا!».

تحرَّك إزيو كظل بين الحشود والأكشاك، ساعيًا لإبقاء الرجال ضمن مجال سمعه وهم يعبرون الساحة سائرين إلى الشارع الذي يفضي إلى اتجاه ساحة سان مارك.

سأل سيلفيو: «هل سيوافق الزعيم على خطتنا الجديدة؟».

- سيكون مغفَّلًا إذا رفض.

وافقه سيلفيو: «إنك محق، ليس لنا خيار آخر». ثمَّ التفت إلى غريمالدي، وأردف بجلافة: «وهذا يجعلك زائدًا عن الحاجة».

رد غريمالدي ساخرًا: «هذا القرار في يد الزعيم، كما سيقرِّر مَن الذي سيحل محل موسينغو، أنت، أم ابن عمك ماركو. وأفضل من يشير عليه في هذا الشأن هو أنا!».

قال ماركو: «لم أكن مدركًا لوجود قرار ينبغي اتخاذه، الخيار ينبغي أن يكون بديهيًّا للجميع».

قال سيلفيو متوتِّرًا: «أتفق معك. ينبغي أن يقع الاختيار على الذي نظَّم العملية بأكملها، الذي جاء بفكرة كيفية إنقاذ هذه المدينة!».

عاجله ماريو بالرد: «سأكون آخر مَن يقلِّل من قيمة المعلومات التكتيكية يا عزيزي سيلفيو، لكن في النهاية يحتاج المرء إلى الحِكمة حتَّى يحكُم، لا تظن خلاف هذا».

قال غريمالدي: «من فضلكما يا سيدَيَّ، ربما يكون بوسع الزعيم تقديم المشورة إلى لجنة الواحد وأربعين عندما يجتمعوا لانتخاب الدوج الجديد، لكنه لا يستطيع إرغامهم على اتخاذ قرار بعينه. ومَن يدري؟ ربما يفكر الزعيم في اختيار شخص آخر غيركما...».

قال سيلفيو بنبرة عدم تصديق: «أتقصد نفسك؟»، واكتفى ماركو بإطلاق ضحكة هازئة.

- لِمَ لا؟ أنا الذي ساهمت بكل العمل الشاق!

تدخَّل دانتي: «سادتي، من فضلكم واصلوا التحرُّك. ستكونون أكثر أمانًا بالداخل».

وافقه ماركو: «بالتأكيد»، وحثَّ خطاه، وسار الآخران في أعقابه.

قال سيلفيو: «إنه حارس جيد، دانتي هذا. كم دفعتَ من أجله؟».

أجاب ماركو: «أقل من قيمته، إنه وفي وجدير بالثقة، أنقذ حياتي في مناسبتين، لكنه شحيح الكلام».

- مَن يحتاج إلى نقاش مع حارسه؟

«لقد وصلنا». أعلن غريمالدي عن وصولهم إلى باب خفيٍّ في خاصرة مبنًى مقابل لمنطقة سانتا ماريا زوبينِغو. كان إزيو يحافظ على مسافة آمنة بينه وبينهم، مدركًا يقظة دانتي المفرطة، انعطف عند ركن الساحة في الوقت المناسب فرآهم يدخلون، نظر في ما حوله احترازًا، ثمَّ تسلَّق جانب المبنى وتموضع في الشرفة التي فوق الباب، وكانت نوافذ الغرفة التي خلف الشرفة مفتوحة، وبداخلها يجلس الإسباني، مرتديًا مخملًا بنفسجيًّا، على كرسي ثقيل من خشب البلوط خلف طاولة حجرة طعام مغطاة بالأوراق. تلاشى إزيو في الظلال، وانتظر، متأهبًا لسماع كل ما سيُقال.

***

كان رودريغو بورجيا معتكِر المزاج. سلفًا أحبط الحشَّاش مخططاته في عدَّة مناسبات ونجا من كل محاولة لقتله، والآن موجود في البندقية، وقد تخلَّص من أحد أهم حلفاء الكاردينال في المدينة، وكما لو أن كل هذا ليس كافيًا، اضطر رودريغو إلى إهدار أول خمس عشرة دقيقة من هذا الاجتماع في الاستماع إلى حفنة الحمقى الباقين في خدمته يتهافتون بشأن أيُّهم ينبغي أن يكون الدوج التالي، وقد غابت عنهم حقيقة أن بورجيا استمال بالرشوة جميع أعضاء لجنة الواحد وأربعين البارزين، ووقع اختياره على أكبر الثلاثة سنًّا وأكثرهم مرونة.

تكلَّم أخيرًا: «اخرسوا، جميعكم. ما أريده منكم هو الانضباط والالتزام الأعمى بقضيتنا، ليس هذا السعي التافه وراء الطموح الشخصي. القرار قراري أنا وسوف يُنفَّذ. ماركو باربَريغو سيكون الدوج التالي وسيُنتخَب الأسبوع القادم بعد موت جيوفاني موسينغو، الذي ينبغي ألَّا يثير موته استغراب أحد نظرًا إلى سنِّه البالغة ستة وسبعين عامًا، ورغم هذا ينبغي أن يبدو موته طبيعيًّا. هل ستقدر على ترتيب هذا الأمر يا غريمالدي؟».

ألقى غريمالدي نظرة سريعة على ابنَي العم باربريغو، كان ماركو يهندم نفسه مغتبطًا، وسيلفيو يحاول أن يبدو رزينًا رغم خيبة أمله. قال مع نفسه: *يا لهما من أبلهين.* دوج أو غير دوج، كلاهما لا يزال دُمية في يد الزعيم، والآن الزعيم يعهد إليه بالمسؤولية الحقيقية. راود غريمالدي حلم بتحسُّن أحواله وهو يجيب: «بالتأكيد يا سيدي».

- متى سيمكنك الاقتراب منه؟

فكَّر غريمالدي. «لديَّ حرية الحركة في قصر دوكالي. موسينغو ربما لا يستلطفني كثيرًا، لكنه يثق بي، وأنا تحت أمره في معظم الأوقات».

- جيد. سمِّمه، في أول فرصة.

- لديه متذوِّقو طعام.

- رباه يا رجل! أتظنني لا أعرف هذا؟ أنتم البندقيين يفترض أنكم بارعين في التسميم. ضع شيئًا في طعامه بعد أن يتذوقوه، أو دس شيئًا في المربى السردينية التي قيل لي إنه مولعٌ بها. فكِّر في أي حل وإلَّا فسيسوء وضعك!

- دع لي المهمَّة يا سموك.

حوَّل رودريغو نظراته الحانقة إلى ماركو. «أظنك قادرًا على الحصول على سُم مناسب لغايتنا».

ابتسم ماركو ابتسامة خنوع وقال: «ابن عمي صاحب خبرة أكبر في هذا المجال».

قال سيلفيو: «سأقدر على توفير مقدار من الكانتاريلا مناسب لغايتنا».

- وما هذا؟

- من أنواع الزرنيخ الأشد فعالية، ومن الصعب جدًّا اكتشاف آثاره.

- جيد! تولَّ الأمر!

قال ماركو: «لا بُدَّ لي من القول يا سيدي، إننا في غاية الإعجاب بانخراطك شخصيًّا من كثب في هذا المسعى، أليس هذا خطر عليك؟».

«الحشَّاش لن يتجرَّأ على مطاردتي. إنه ذكي، لكنه لن يفوقني دهاءً. على أي حال أحسست برغبة في الإشراف على الأمور بنفسي إشرافًا مباشرًا. آل باتزي خيبوا أملي في فلورنسا، وآمل بصدق ألا يخيب آل باربريغو أملي أيضًا...» حملق إليهما غاضبًا.

ضحك سيلفيو ضحكة تنم عن توتر. «آل باتزي كانوا مجرَّد هواة...».

«آل باتزي كانوا أقوياء ذوي نفوذ واسع، وعائلة عريقة، وقد قضى عليها حشَّاش شاب واحد. لا تستخفَّ بهذا العدو المشاغب، وإلا فسيقضي على آل باربريغو أيضًا». صمت حتَّى تستقر كلماته في الأذهان. «والآن اذهبوا وأنجزوا، لا يسعنا تحمُّل فشل آخر!».

- ماذا عن خططك يا سيدي؟

- سأعود إلى روما. الوقت عنصر جوهري!

نهض رودريغو بسرعة وغادر الغرفة. ومن موضعه الخفي في الشرفة شاهد إزيو رودريغو يغادر وحده، ويعبر الساحة مفرِّقًا سرب حمام وهو يسير بخطوات واسعة في اتجاه الرصيف. ثمَّ تبعه الرجال الآخرون، وغادر كل منهم الساحة في طريقه. وعندما هدأ كل شيء قفز إزيو إلى ألواح البلاط بالأسفل وهرع في اتجاه مقر أنتونيو.

وحالما وصل، قابلته روزا، وحيَّته بقبلة طويلة. وابتسمت وجسديهما متلاصقين قائلة: «أعد خنجرك إلى غمده».

- أنتِ سحبتِه، وأنتِ مَن يملك غمده.

أخذت بيده. «هيا إذن».

- لا يا روزا، إنني في غاية الأسف، لا أستطيع.

- إذن مللت منِّي بهذه السرعة!

- تعرفين أن هذا غير صحيح! عليَّ مقابلة أنتونيو، الأمر طارئ.

نظرت إليه فرأت التعابير المتوتِّرة في وجهه وفي عينيه الرماديتين المزرقتين الباردتين. «حسنًا. أسامحك هذه المرة. أنتونيو في مكتبه، أظنه يفتقد نموذج قصر سيتا الآن وقد حصل على القصر الحقيقي! هيا!».

قال أنتونيو حالما رآه. «إزيو! لا تعجبني النظرة التي على وجهك. هل كل شيء على ما يرام؟».

- أتمنَّى ذلك. اكتشفتُ للتَّوِّ أن كارلو غريمالدي وابنَيْ العم سيلفيو وكارلو باربريغو يتآمران مع... رجل أعرفه تمام المعرفة، يسميه الناس بالإسباني. يتآمرون لقتل الدوج موسينغو واستبدال أحد رجالهم به.

- هذا خبر فظيع. إذا تولَّى رجلهم منصب الدوج، فسوف يسيطرون على الأسطول وإمبراطورية البندقية التجارية... وينعتونني *أنا* بالمجرم!

- إذن ستساعدني على إيقافهم؟

مد أنتونيو يده. «أعدك يا أخي الصغير، ولك دعم كل مَن معي من رجال».

أردفت روزا: «ونساء».

ابتسم إزيو. «شكرًا يا صديقتي».

بدا أنتونيو مستغرقًا في التفكير. «لكن يا إزيو، ستتطلَّب هذه المهمَّة تخطيطًا. قصر دوكالي شديد التحصين إلى درجة أنه يجعل قصر سيتا يبدو كمتنزَّه مفتوح. وليس لديَّ وقت حتَّى أصنع نموذجًا يمكننا التخطيط بـ...».

رفع إزيو يده وقال بحزم: «لا شيء غير قابل للاختراق».

نظر الاثنان إليه، ثمَّ ضحك أنتونيو، وابتسمت روزا ابتسامة لعوب. «لا شيء غير قابل للاختراق! لا عجب أنك تروق لنا يا إزيو!».



في وقت متأخِّر من اليوم، عندما قل عدد الناس بالخارج، اتجه أنتونيو وإزيو إلى قصر الدوج، وكان أنتونيو يقول في أثناء سيرهما: «خيانة مثل هذه لم تعد تفاجئني. الدوج موسينغو رجل صالح، ويدهشني أنه استمرَّ طوال هذه المدَّة. عندما كنتُ طفلًا قيل لنا إن النبلاء عادلون ولطيفون، وصدقت ذلك. ورغم أن أبي كان إسكافيًّا وأمي خادمة غسيل، كنت أطمح لأكون أفضل بكثير، فدرستُ بجد، وثابرتُ، لكنني عجزت عن الانضمام للطبقة الحاكمة. إذا لم تولد في تلك الطبقة، فقبولك فيها مستحيل. إذن أسألك يا إزيو، من هم نبلاء البندقية الحقيقيون؟ أمثال غريمالدي أو ماركو وسيلفيو باربريغو؟ لا! نحن النبلاء! نحن اللصوص والمرتزقة والعاهرات، نحن القلب النابض لهذه المدينة، وكل واحد منَّا لديه من الشرف ما لا يتحلى به جميع المنتمين إلى الطبقة الحاكمة المزعومين! نحن نحب البندقية، والآخرين لا يرونها سوى وسيلة للثراء».

احتفظ إزيو برأيه لنفسه، إذ لم يقدر على تخيُّل أنتونيو، رغم أنه رجل صالح، معتمرًا قبعة الدوج التقليدية. في الوقت المناسب وصلا إلى ساحة سان مارك، ودارا حولها إلى القصر الزهري. كان واضحًا أن حراسته مشدَّدة، لكنهما تمكَّنا، دون أن يُلاحَظا، من تسلُّق سقالة نُصبت على جدار الكاتدرائية الجانبي الملاصق للقصر، وعندما نظرا من مكانهما العالي، رأيا أنهما رغم قدرتهما على القفز -وقد قفزا- إلى سقف القصر، فإن المسار إلى الفناء محجوب بحاجز عالٍ من قضبان متصالبة قممه الحادَّة منحنية للخارج وإلى الأسفل. وأسفلهما في الفناء رأيا الدوج نفسه، جيوفاني موسينغو، عجوز وقور، لكنه بدا كقشرة ثمرة متغضِّنة داخل عباءة باهية، وكان يعتمر قبعة حاكم المدينة ويتناقش مع قاتله المرتقب، كارلو غريمالدي.

أصاخ إزيو سمعه.

كان كارلو يقول: «ألا تفهم ما أعرضه عليك يا سموك؟ استمع إليَّ، أرجوك، فهذه هي فرصتك الأخيرة!».

رد الدوج بحدَّة: «كيف تجرؤ على تهديدي!».

اعتذر كارلو فورًا: «سامحني يا سيدي، لم أقصد شيئًا بكلامي. لكن أرجو أن تصدق أن سلامتك شاغلي الأهم...».

عندئذٍ تحرَّك الاثنان إلى داخل المبنى بعيدًا عن الأنظار.

قال أنتونيو وقد قرأ أفكار إزيو: «الوقت يداهمنا، وما من طريقة لعبور هذا الحاجز. وحتَّى إذا عبرناه، انظر إلى عدد الحراس في المكان. يا للشيطان!». طوَّح بيده في الهواء مُحبَطًا، فحلَّقت مجموعة حمائم. «انظر إليها! الطيور! تخيل حالنا إذا استطعنا أن نطير!».

ابتسم إزيو مع نفسه، وأدرك أن الوقت قد حان لزيارة صديقه ليوناردو دا فينشي.

17

«إزيو! كم انقضى من الوقت؟». حيَّاه ليوناردو كأخٍ مفقودٍ منذ أمد بعيد. اتخذت ورشته في البندقية نفس شكل ورشته في فلورنسا، لكن أبرز ما فيها نسخة بالحجم الطبيعي للآلة الشبيهة بالخفاش، التي صار إزيو يعرف الغاية منها، وهي غاية ينبغي أخذها على محمل الجد. لكن ليوناردو رأى أن يتطرَّق إلى الأهم فالمُهم.

«اسمع يا إزيو، أرسلت إليَّ عبر رجل لطيف جدًّا اسمه أوغو صفحة من مجلد المخطوطات، ثمَّ لم أسمع عنك شيئًا، هل كنت مشغولًا إلى هذه الدرجة؟».

أجاب إزيو: «نعم كنت مشغولًا بالكثير»، وتذكر الصفحة التي أخذها من أغراض إميليو باربريغو.

«حسنًا، ها هي ذا». نقب ليوناردو وسط الفوضى الظاهرية في حجرته، لكنه سرعان ما أخرج صفحة مجلد مخطوطات مطوية بعناية، وأُعيد ختمها. «ما من تصميم لسلاح جديد في هذه الصفحة، لكن يبدو لي ممَّا عليها من رموز وكتابة -أظنها الآرامية أو حتَّى البابلية- أنها ستكون صفحة مهمَّة في الأحجية التي تحلها أيًّا كانت. أظنني أميِّز فيها آثار خريطة». رفع يده. «لكن لا تخبرني بشيء! لست مهتمًّا سوى بالاختراعات التي تكشف عنها هذه الصفحات التي تجلبها إليَّ، ولستُ مهتمًّا بمعرفة أكثر من هذا. أمثالي لا يكونون منيعين من الخطر إلا بمقدار فائدتهم، لكن إذا أُكتُشِف أننا نعرف أكثر ممَّا ينبغي أن نعرف...» أتى ليوناردو بإصبعه بحركة تعبِّر عن قطع العنق، وتابع: «حسنًا، ذلك أمر معروف. صرت أعرفك يا إزيو، زياراتك لي

ليست اجتماعية فحسب. تناول كأسًا من نبيذ الفينيتو البغيض هذا، أتمنَّى لو كان لديَّ كيانتي، وهناك بعض الكعك في مكان ما، إذا كنت جائعًا».

- هل أكملت الأعمال الموكلة إليك؟

«الكونت رجل صبور. نخبك!». رفع ليوناردو كأسه.

- ليو... آلتك هذه، هل تعمل حقًّا؟

- أتعني هل تطير؟

- نعم.

فرك ليوناردو ذقنه. «حسنًا، لا تزال في مراحلها المبكرة، لم تصبح جاهزة بعد أو حتَّى تقترب من الجاهزية... لكن أظن، بكل تواضع، نعم! ستعمل بالتأكيد. الرب يعلم أنني أنفقت فيها وقتًا كافيًا! إنها فكرة أعجز عن التخلُّص منها!».

- ليو... أيمكنني تجريبها؟

بدا ليوناردو مصدومًا. «لا يمكنك بالطبع! هل جننت؟ إنها خطرة جدًّا. بادئ ذي بدء، سيتعيَّن علينا إيصالها إلى قمة برج لإطلاقك...».

***

وفي اليوم التالي، قبل الفجر، عند ظهور أول خيوط الضوء في الأفق الشرقي، كان ليوناردو ومساعدوه قد أعادوا تركيب الآلة الطائرة -بعدما اضطروا إلى تفكيكها لنقلها- على سقفٍ عالٍ في قصر بيكسارو، قصر عائلة رب عمل ليوناردو، الذي لم يكن مدركًا لما يجري فوق قصره. وكان إزيو معهم. وأسفلهم المدينة نائمة. لم يظهر أي حراس على أسقف قصر دوكالي، فهذه كانت ساعة الذئب التي يكون فيها مصّاصو الدماء والأشباح في أقوى حالاتهم، لذا لا يغامر أحد، سوى المجانين والعلماء، بالخروج في مثل هذا الوقت.

قال ليوناردو: «إنها جاهزة. وحمدًا للرب أن المكان خالٍ. إذا رأى أي أحد هذا الشيء فلن يصدق عينيه... وإذا عُرف أنه اختراعي فسينتهي أمري في هذه المدينة».

- سأكون سريعًا.

- حاول ألَّا تكسرها.

- هذا طيران تجريبي، سأكون حريصًا. أخبرني مرَّة أخرى بكيفية عمل صغيرتنا هذه.
- هل شاهدت طائرًا يطير؟ لا يطير لأنه أخف من الهواء، السر في الرشاقة والتوازن! عليك أن تستخدم وزن جسدك لتتحكَّم في الارتفاع والاتجاه، وسيحملك الجناحان.

ارتسم الجدُّ على وجه ليوناردو، وضغط على ذراع إزيو وهو يتابع: «حظًّا موفقًا يا صديقي، آمل أنك تصنع التاريخ».

ربط مساعدو ليوناردو إزيو بعناية في موضعه أسفل الآلة، وفوقه امتد الجناحان الشبيهان بالخفاش، كان مثبتًا ووجهه إلى الأسفل بأربطة جلدية محكمة، ويمكنه تحريك ذراعيه وساقيه، وأمامه عارضة أفقية من الخشب، متصلة بالهيكل الخشبي الرئيسي الذي يثبت الجناحين إلى الأعلى. أوضح ليوناردو بجدية: «تذكَّر ما قلته لك! الحركة من جانب إلى جانب تتحكَّم في الدفَّة الموجِّهة، وإلى الأمام وإلى الخلف تتحكَّم في زاوية الجناحين».

شكره إزيو لاهثًا، مدركًا أنه إذا لم تعمل الآلة كما ينبغي، ففي خلال لحظة سيقفز آخر قفزة في حياته.

قال ليوناردو: «اذهب في رعاية الرب».

«أراك لاحقًا». تكلم إزيو بثقة لم يشعر بها حقًّا. وازَن أدوات التحكُّم فوقه، واستعد، وركض قافزًا من حافة السقف.

انقبضت معدته أولًا، ثمَّ غمرته نشوة رائعة، ثمَّ دارت البندقية تحته وهو يسقط متقلبًا، واهتزت الآلة، لكنه حافظ على توازن رأسه وتذكَّر تعليمات ليوناردو عن استخدام أدوات التوجيه، فتمكَّن من استعادة توازن الآلة وإعادتها بالكاد إلى سقف قصر بيكسارو. هبط بالآلة الغريبة راكضًا ومستغلًا كل قوته ومرونته للحفاظ على توازنها.

زعق ليوناردو: «رباه! لقد نجحَت!»، متجاهلًا سرية تجربتهم للحظة، وحل قيود إزيو وعانقه بحماسة شديدة. «إنك رجل رائع! لقد طِرت!».

قال إزيو منقطع الأنفاس: «أجل، بفضل الرب، طرت. لكن لم أقطع المسافة التي أريدها». بحثت عيناه عن قصر الدوج والفناء الذي يستهدف الوصول إليه، وفكر في ضيق الوقت المتاح أمامه لتفادي قتل موسينغو.

ولاحقًا، في ورشة ليوناردو، أجرى إزيو والفنان المخترع مراجعات شاملة دقيقة، وبسط ليوناردو الرسوم الأولية للآلة على طاولة ضخمة.

«دعني أراجع تخطيطاتي هنا، ربما أجد شيئًا، أو طريقةً ما لإطالة مدَّة الطيران».

قاطعهما دخول أنتونيو مستعجلًا. «إزيو! آسف لإزعاجكما، لكن الأمر مهم! جواسيسي أخبروني بأن سيلفيو حصل على السم الذي يريده، وأعطاه لغريمالدي».

وعندئذٍ صاح ليوناردو يائسًا: «لا جدوى! راجعت التفاصيل مرارًا لكن بلا طائل! لا أعرف كيف أطيل مدَّة الطيران، آه سحقًا!». أزاح الأوراق عن الطاولة بغضب، فتطاير بعضها نحو المستوقد الضخم على مقربة، وفي أثناء احتراقها ارتفعت. شاهدها ليوناردو، وصفا وجهه تدريجيًّا، حتَّى أزاحت ابتسامةٌ عريضة الغضبَ من وجهه. صاح: «رباه! وجدتها! بالطبع!».

التقط بسرعة الأوراق التي لم تحترق كلها وأطفأها، ووجه نصيحة للشابين: «لا تستسلما لانفعالاتكما أبدًا، إنها هدَّامة للغاية».

سأله انتونيو: «وما الذي شفى انفعالاتك؟».

قال ليوناردو: «انظر! ألم تر الرماد يرتفع؟ الحرارة ترفع الأشياء! كثيرًا ما رأيت الصقور تحلِّق عاليًا في السماء، دون أن تخفق بأجنحتها، لكنها تظل مُحلِّقة! المبدأ بسيط! ما علينا سوى تطبيقه!».

تناول خريطة للبندقية وبسطها على الطاولة، ثمَّ مال فوقها حاملًا قلم رصاص، وحدَّد المسافة بين قصر بيكسارو وقصر دوكالي، ووضع علامات عند النقاط الرئيسية بين المبنيين. ثمَّ صاح: «أنتونيو! أيمكن لجماعتك جمع حطب للنار في كل الأماكن التي حددتها وإشعاله على التوالي؟».

نظر أنتونيو إلى الخريطة مدقِّقًا. «بوسعي ترتيب ذلك، لكن لماذا؟».

- ألا ترى؟ هذا هو مسار طيران إزيو! النيران ستحمل آلتي الطائرة وإزيو معها إلى هدفه! الحرارة ترفع الأشياء!

سأل إزيو: «ماذا عن الحراس؟».

نظر أنتونيو إليه. «ستطير بذلك الشيء. دع لنا الحراس هذه المرَّة على الأقل. وعلى أي حال سيكون بعضهم مشغولين في مكان آخر، أخبرني جواسيسي عن شُحنة عجيبة مكونة من بارود ملوَّن معبَّأ في أنابيب صغيرة،

وصلت للتَّوِّ من بلاد بعيدة شرقًا اسمها الصين. الرب يعلم ماهية الشحنة، لكن لا بُدَّ أنها قيِّمة، إذ يحرصون على العناية بها».

«ألعاب نارية». قالها ليوناردو كأنه يحادث نفسه.

- ماذا؟

- لا شيء.

***

بحلول الغسق كان رجال أنتونيو قد جهَّزوا الحطب الذي طلبه ليوناردو في أماكنه المحدَّدة، كما أخلوا المناطق التي حول أماكن النار من أي مراقبين أو متفرِّجين متبطِّلين قد يحذِّروا السلطات بشأن ما يجري. وفي هذه الأثناء نقل مساعدو ليوناردو الآلة الطائرة إلى سقف بيكسارو مرَّة أخرى، واتخذ إزيو موضعه في الآلة، متسلِّحًا بالنصل المنبثق وواقي الذراع. وقف أنتونيو على مقربة.

قال: «يسرني أنك تخاطر وليس أنا».

- إنها الطريقة الوحيدة للدخول إلى القصر، قلتَ هذا بنفسك.

- لكنني لم أحلم بأن هذا يمكن أن يحدث حقًّا. ما زلت أراه مستحيلًا. إذا أراد الرب لنا أن نطير...

سأله ليوناردو: «أمستعدٌّ لإعطاء الإشارة إلى رجالك يا أنتونيو؟».

- بالتأكيد.

- إذن افعل الآن، وسنرفع إزيو في الهواء.

سار أنتونيو إلى حافة السقف ونظر إلى الأسفل، ثمَّ أخرج منديلًا أحمر كبيرًا ولوَّح به، وبعيدًا بالأسفل رأوا كومة حطب تشتعل، ثمَّ كومة ثانية، ثمَّ ثالثة، ورابعة، وخامسة.

قال ليوناردو: «ممتاز يا أنتونيو»، والتفت إلى إزيو: «والآن تذكر ما قلته لك، عليك أن تطير من نار إلى نار، وحرارة كل منها وأنت تمُرُّ فوقها ستبقيك في الهواء حتَّى تصل إلى قصر دوكالي».

قال أنتونيو: «وكن حذرًا، ثمَّة رماة متمركزون على الأسقف وسيطلقون عليك سهامهم عندما يرونك. سيظنونك شيطانًا قادمًا من الجحيم».

- أتمنَّى لو وجدت طريقة لاستخدام سيفي وأنا أطير بهذا الشيء.

قال ليوناردو مفكِّرًا: «قدماك غير مقيدتين، إذا تمكَّنت من الاقتراب من الرماة وتجنَّبت سهامهم، ربما تقدر على ركلهم وإسقاطهم من الأسقف».

- سأضع هذا في الحسبان.

- والآن عليك أن تنطلق، حظًّا سعيدًا!

قفز إزيو من السقف إلى سماء الليل، وضبط اتجاهه نحو النار الأولى، وعند اقترابه منها بدأ ينخفض، لكن عندما بلغ النار أحس بالآلة ترتفع مرَّة أخرى. نظرية ليوناردو نجحت! واصل التحليق، ورأى اللصوص الذين يعتنون بالنيران يرفعون رؤوسهم ويهتفون. لكن اللصوص لم يكونوا الوحيدين الذين يعرفون أمر طيرانه في الهواء، إذ رأى إزيو رماة باربريغو متمركزين على سقف الكاتدرائية ومبانٍ أخرى قريبة من قصر الدوج. ناور بالآلة الطائرة متفاديًا معظم السهام، لكن سهمًا أو سهمين ارتطما بالهيكل الخشبي، وتمكَّن من الانزلاق منخفضًا بسرعة خاطفة وأسقط بضعة رماة من مواقعهم. لكن عند اقترابه من القصر نفسه، فتح حراس الدوج النار عليه، مستخدمين سهامًا مشتعلة، انغرز أحدها في جناح الآلة الأيمن فاشتعل فورًا، وبذل إزيو كل ما بوسعه ليحافظ على مساره، وكان ينخفض بسرعة، رأى امرأة شابة نبيلة تنظر إلى الأعلى وتصرخ قائلةً كلامًا عن مجيء الشيطان لنزع روحها، ثمَّ تجاوزها إزيو، وأفلت أدوات التحكُّم وحاول حل الأربطة والمشابك التي تثبِّته، وفي آخر لحظة تحرَّر وقفز إلى الأمام إلى جانب وهبط مقرفصًا على سقف الفناء الداخلي، وقد تجاوز الحاجز ذا القضبان المتصالبة الذي يحمي الجزء الداخلي من القصر من كل شيء عدا الطيور. ثمَّ نظر إلى الأعلى فرأى الآلة الطائرة تصطدم ببرج أجراس سان مارك ويهوي حطامها إلى الساحة بالأسفل، ناشرًا الفوضى والذعر بين الناس، حتَّى رماة قصر دوكالي تشتت انتباههم، فاستغل إزيو الفرصة ليتسلق هابطًا بسرعة متواريًا عن الأنظار، ومن مخبئه رأى الدوج موسينغو يظهر عند نافذة بالطابق الثاني.

تساءل الدوج: «ما هذا بحق الجحيم؟».

ظهر كارلو غريمالدي عند مرفقه قائلًا: «على الأرجح شبَّان يلعبون بألعاب نارية. تعالَ، أكمِل شرب نبيذك».

إثر سماعه الكلام تحرك إزيو عبر الأسقف والجدران، متجنبًا أنظار الرماة، إلى مكان خارج النافذة المفتوحة، ثمَّ نظر إلى الداخل، ورأى الدوج

يفرغ كأسًا، فألقى بنفسه فوق عتبة النافذة إلى الغرفة صائحًا: «توقَّف يا سموك! لا تشرب..!».

نظر الدوج مصعوقًا إلى إزيو، الذي أدرك أنه وصل متأخِّرًا لحظة. وابتسم غريمالدي ابتسامة باهتة. «لم تصل في التوقيت المناسب، كعادتك اللعينة، أيها الحشَّاش الشاب! السيد موسينغو سيرحل عنَّا حالًا، شرب سمًّا يكفي لمصرع ثور».

استدار موسينغو إليه. «ماذا؟ ماذا فعلت؟».

أتى غريمالدي بحركة أسف. «كان يجدر بك العمل بنصيحتي».

ترنَّح الدوج، ولسقط إذا لم يسرع إزيو ويسنده ويجلسه على كرسي.

قال الدوج: «أحسُّ بأنني مرهق... المكان يظلم...».

قال إزيو عاجزًا: «آسف يا سموك!».

ابتسم غريمالدي لإزيو هازئًا. «حان وقت تذوُّقك طعم الفشل». وفتح باب الغرفة وصاح: «أيها الحراس! سُمِّم الدوج! والقاتل لا يزال هنا!».

ركض إزيو وأمسك بغريمالدي من ياقته، وسحبه إلى داخل الغرفة، وأغلق الباب بعنف وأوصده، وبعد ثوان سمع الحراس يصعدون السلالم وينهالون على الباب ضربًا. التفت إلى غريمالدي. «الفشل، هه؟ إذن يجدر بي تعويضه». أطلق نصله المنبثق.

ابتسم غريمالدي. «بإمكانك قتلي، لكنك لن تهزم فرسان الهيكل أبدًا».

غرز إزيو الخنجر في قلب غريمالدي، وقال ببرود: «فلترحل بسلام».

«أحسنت». سمع إزيو صوتًا واهنًا خلفه، فالتفت فرأى الدوج ما زال حيًّا، لكنه شديد الشحوب.

قال: «سأجلب مساعدة... طبيبًا».

كان موسينغو يجاهد لالتقاط أنفاسه. «لا، فات الأوان. لكنني سأموت سعيدًا برؤية الذي اغتالني يرحل إلى الظلام قبلي. شكرًا لك. كنت أشك منذ مدَّة طويلة في أنه من فرسان الهيكل، لكنني كنت ضعيفًا، وأثق بالناس بسهولة... لكن انظر في محفظته، وخذ أوراقه، بلا شك ستجد بينها ما يعينك في قضيتك والانتقام لموتي».

كان موسينغو يبتسم وهو يتكلَّم، شاهد إزيو تجمُّد الابتسامة على شفتيه، وشخوص بصره، وتهدُّل رأسه جانبًا. ثمَّ وضع يده على جانب عنق الدوج ليتحقَّق من موته، وسحب أصابعه على وجهه ليغمض عينيه، متمتمًا ببضع كلمات عزاء. ثمَّ أخذ محفظة غريمالدي وفتحها بسرعة، ووجد فيها، بين حزمة أوراق، صفحة أخرى من مجلد المخطوطات.

استمر الحراس في ضرب الباب، الذي بدأ يتداعى الآن. ركض إزيو إلى النافذة ونظر إلى الأسفل، فرأى الفناء يعج بالحراس. لم ير مخرجًا سوى المخاطرة فوق السقف، فخرج من النافذة، وتسلق الجدار والسهام تصدر أزيزها حول رأسه وترتطم بحجارة الجدار. وعندما بلغ السقف اضطر إلى مواجهة مزيد من الرماة، لكنهم كانوا غافلين واستغل إزيو عنصر المفاجأة فتخلَّص منهم. لكن واجهته معضلة أخرى، الحاجز ذو القضبان المتصالبة الذي حال دون دخوله سابقًا صار يحتجزه بالداخل الآن! ركض إليه، وأدرك أنه صُمِّمَ ليمنع الناس من الدخول، إذ كانت أطرافه الحادَّة منحنية إلى الخارج وإلى الأسفل. إذا تمكَّن من التسلُّق إلى أعلاه، فسيقدر على القفز بسلاسة. سمع وقع أقدام عدَّة حراس يصعدون السلالم إلى السقف، واستجمع كل قوته المستمدَّة من موقفه الحرِج، وقفز راكضًا وتسلَّق بسرعة إلى قمة الحاجز، وفي اللحظة التالية صار بأمان على الجانب الآخر منه، واحتجز الحاجز الحراس خلفه، الذين كانوا مدجَّجين بأسلحة ثقيلة بحيث لا يمكنهم التسلُّق، وعرف إزيو أنهم يفتقرون إلى القوة والمرونة على أي حال. ركض إلى حافَّة السقف، ونظر إلى الأسفل وقفز إلى السقالة المثبَّتة بمحاذاة جدار الكاتدرائية، وتسلقها هبوطًا. ثمَّ أسرع إلى ساحة سان مارك وتلاشى في الحشد.

18

موت الدوج في نفس يوم ظهور الطائر/الشيطان الغريب تسبَّب في قلاقل شديدة في البندقية استمرت عدَّة أسابيع، وكانت آلة ليوناردو الطائرة قد تحطمت في ساحة كاتردائية سان مارك، مشتعلةً سلفًا قبل سقوطها، واستحالت رمادًا، إذ ما كان أحد ليجرؤ على الاقتراب من الشيء الغريب. وحينها كان الدوج الجديد، ماركو باربريغو، قد انتُخِبَ وفقًا للخطة وتولَّى منصبه، وتعهَّد بصرامة أمام العامَّة بمطاردة الحشَّاش الشاب الذي بالكاد أفلت من الاعتقال بعدما قتل كارلو غريمالدي، رجل الدولة النبيل، وعلى الأرجح قتل الدوج العجوز أيضًا. أصبح حراس باربريغو منتشرين في كل ركن شارع ويجوبون القنوات ليلًا ونهارًا.

اختبأ إزيو، عملًا بنصيحة أنتونيو، في مقر النقابة، لكنه كان يغلي من إحباطٍ فاقمته مغادرة ليوناردو للمدينة ضمن حاشية راعيه، كونت بيكسارو. وحتَّى روزا عجزت عن الترويح عنه.

لكن بعدها بوقت قصير، ذات يوم ليس بعيدًا من بداية السنة الجديدة، استدعاه أنتونيو إلى مكتبه، وحيَّاه بابتسامة عريضة. «إزيو! لديَّ خبران لك، أولهما أن صديقك ليوناردو قد عاد، وثانيهما الكرنفال! جميع الناس تقريبًا سيضعون أقنعة، وأنت كذلك». لكن إزيو كان قد سار مقتربًا من الباب يريد الخروج. «مهلًا! إلى أين ذاهب؟».

- إلى ليوناردو!

- حسنًا، عُد سريعًا، ثمَّة شخص أريد منك مقابلته.

- مَن؟

- الأخت تيودورا.

- راهبة؟

- سترى!

سار إزيو في الشوارع وقلنسوته فوق رأسه، متسلِّلًا بين حشود رجال ونساء يرتدون ملابس باهظة ويضعون أقنعة منتشرين في كل الشوارع والقنوات. كما أولى انتباهه لمجموعات الحراس المناوبين. لم يكن ماركو باربريغو مهتمًّا بموت غريمالدي بقدر اهتمامه بموت سلفه في المنصب، الذي خطط له، والآن بعدما تظاهر أمام الجميع بالسعي للقبض على الجاني، صار بوسعه التغاضي عن الأمر وإلهاء الناس. لكن إزيو كان يعرف أيضًا أن الدوج إذا وجد فرصة للقبض عليه وقتْله، فسيفعل. وما دام حيًّا وظل شوكة في خاصرة فرسان الهيكل، فسيعدُّونه ألدَّ أعدائهم. لذا سيتعيَّن عليه توخِّي الحذر دومًا.

نجح في الوصول إلى ورشة ليوناردو ودخولها دون أن يلاحظه أحد.

حيَّاه ليوناردو. «سررت برؤيتك. هذه المرَّة خطر لي أنك مت بلا شك. لم أسمع خبرًا عنك، ثمَّ ظهرت قضية موسينغو وغريمالدي، ثمَّ رغب رب عملي في السفر وأصر عليَّ حتَّى أرافقه، إلى ميلانو، ولم يتسنَّ لي وقت لإعادة بناء آلتي الطائرة لأن مسؤولي الأسطول الحربي في البندقية أرادوا منِّي أخيرًا أن أبدأ تصميم أشياء لهم... إنه أمر مزعج!». ابتسم ليوناردو وتابع: «لكن المهم أنك حيٌّ ومُعافًى!».

- وأخطر مجرم مطلوب للعدالة في البندقية!

- أجل. جريمتي قتل، والضحيتان اثنان من أبرز رجال الدولة.

- لا أظنك تصدق هذا.

- لما كنتَ هنا إذا صدقتُ. ولا تنسَ أننا الذين حلَّقنا بك إلى قصر دوكالي.

صفق ليوناردو، وعلى الفور ظهر مساعد حاملًا النبيذ. «لوكا، أيمكنك أن تجد قناعًا لصديقنا هذا؟ أظنه سيحتاج إليه».

«شكرًا يا عزيزي، لديَّ شيء لك». ناوله إزيو صفحة مجلد المخطوطات الجديدة.

عرفها ليوناردو على الفور قائلًا: «ممتاز». أخلى مساحة على الطاولة بجواره، وبسط صفحة الرق ونظر إليها مدققًا.

قطب حاجبيه مركِّزًا «إممم. هذه تشتمل على تصميم لسلاح جديد، شديد التعقيد، يبدو كأنه سيتصل بمعصمك أيضًا، لكنه ليس خنجرًا». دقَّق النظر في المخطوطة مرَّة أخرى. «أعرفه! إنه سلاح ناري، لكنه صغير جدًّا، بحجم طائر طنَّان».

- هذا يبدو مستحيلًا.
- ثمَّة وسيلة واحدة للتأكُّد، وهي صُنعه. من حسن الحظ أن مساعديَّ البندقيين مهندسان خبيرين، سنشرع في العمل فورًا.
- ماذا عن أعمالك الأخرى؟

قال ليوناردو بنبرة مرحة: «أوه، ستنتظر. جميعهم يظنونني عبقريًّا، ولا ضير من تركهم يظنون هذا، بل ويعني أنهم يدعونني وشأني!».

في غضون أيام صار المسدس جاهزًا للتجربة على يد إزيو. واتضح أن مداه وقوته مذهلان بالنسبة إلى حجمه. ومثل النصال، صُمم ليُركَّب في آلية الزنبرك التي تُثبت على ذراع إزيو، بحيث ينبثق فورًا عن الحاجة إليه، ويمكن ضغطه إلى الداخل لإخفائه.

قال ليوناردو: «كيف لم تخطر لي مثل هذه الفكرة؟».

أجاب إزيو متسائلًا: «السؤال الأهم هو كيف خطرت الفكرة لرجل عاش قبل مئات الأعوام».

- كيفما ظهرت الفكرة، فهذا السلاح ذو تصميم رائع، آمل أن تجد فيه عونًا.

قال إزيو بجدية: «أظن أن هذه اللعبة الجديدة جاءت في الوقت المناسب».

قال ليوناردو: «حسنًا، من الأفضل لي ألَّا أعرف الكثير عمَّا تخطط له، لكنني أتجاسر على تخمين أن الأمر له علاقة بالدوج الجديد. لا أفهم السياسة كثيرًا، لكن أحيانًا حتَّى أنا يمكنني شم رائحة المؤامرة».

أومأ إزيو إيماءة ذات مغزى.

تابع ليوناردو: «حسنًا، يجدر بك الحديث مع أنتونيو عمَّا يجول في رأسك. ويستحسن ألَّا تفرِّط في قناعك، ستكون بأمان في الشوارع ما دام الكرنفال قائمًا، وتذكَّر ألَّا تُظهِر أسلحتك بالخارج! دعها خفية».

- سأذهب الآن لمقابلة أنتونيو، يريد منِّي مقابلة شخص، راهبة اسمها الأخت تيودورا، في دورسودورو».

ابتسم ليوناردو. «آه! الأخت تيودورا!».

- أتعرفها؟

- إنها صديقة مشتركة بيني وبين أنتونيو، ستروقك.

- من هي تحديدًا؟

ابتسم ليوناردو ابتسامة واسعة. «ستكتشف بنفسك».

اتجه إزيو إلى العنوان الذي أعطاه أنتونيو له. لم يبد المبنى له مثل دَير راهبات، وحالما طرق الباب وأُدخِل، أدرك يقينًا أنه جاء إلى المكان الخطأ، لأن الصالة التي وجد نفسه فيها ذكَّرته بصالون باولا في فلورنسا، والشابات الأنيقات اللاتي يغدون ويرُحن لم يكن راهبات قطعًا. أراد أن يرتدي قناعه ويغادر، لكنه سمع صوت أنتونيو، وبعد لحظات ظهر الرجل نفسه، على ذراعه يد امرأة أنيقة جميلة ذات شفتين ممتلئتين وعينين تنضحان شبقًا، وفعلًا ترتدي زي راهبة.

قال أنتونيو وهو ثمل قليلًا: «إزيو! ها أنت ذا، اسمح لي بتعريفك بـــ... الأخت تيودورا. تيودورا، هذا... كيف أعبِّر؟ الرجل الأكثر موهبة في البندقية كلها!».

قال إزيو: «أختاه»، وانحنى، ثمَّ نظر إلى أنتونيو: «هل يفوتني شيء هنا؟ لم يخطر لي أنك رجل متديِّن».

ضحك أنتونيو، لكن الأخت تيودورا، عندما تكلمت، تكلمت بجدية مفاجئة: «يتوقَّف الأمر على رؤيتك للدين يا إزيو، ليست أرواح الرجال وحدها تتطلب السلوان».

قال أنتونيو: «تناول شرابًا يا إزيو! علينا أن نتحدَّث، لكن استرخِ أولًا! إنك في أمان تام هنا. ألم تقابل الفتيات بعد؟ هل أعجبتك إحداهن؟ لا تقلق، لن أخبر روزا. وعليك أن تخبرني...».

قوطع أنتونيو بصرخة من إحدى الحجرات المحيطة بالصالون، فُتح الباب وظهر رجل ذو عينين وحشيتين يحمل سكينًا، وخلفه فتاة تتلوَّى من الألم على فراش ملطخ بالدماء، صرخت: «أوقفوه، لقد أصابني وسرق نقودي!».

أطلق المعتوه صيحة عارمة وأمسك بفتاة أخرى وقربها منه، ووضع سكينه على حلقها زاعقًا: «دعوني أخرج من هنا، وإلَّا فسأذبح هذه أيضًا»، وضغط طرف السكين حتَّى سالت قطرات دماء بسيطة على عنق الفتاة. «إنني لا أمزح!».

حدَّق أنتونيو، وقد أفاق من سُكره فورًا، منقِّلًا بصره بين تيودورا وبين إزيو، وتيودورا نفسها كانت تنظر إلى إزيو. «حسنًا يا إزيو»، تكلمت ببرود فاجأ إزيو. «الآن حان الوقت لإثارة إعجابي».

كان المعتوه يسير عبر الصالون إلى الباب، حيث تقف مجموعة صغيرة من الفتيات، وحالما وصل إلى الباب زمجر بهن: «افتحنه!»، لكنهن تسمَّرن في أماكنهن من الخوف. «افتحن الباب اللعين وإلَّا طعنتها!». ضغط السكين مرَّة أخرى على حلق الفتاة ضغطة أشد، فتدفق مزيد من الدماء.

أمره إزيو: «اتركها!».

استدار الرجل بسرعة وواجهه بعبوس قبيح. «ومَن أنت؟ أحد زبائن الدار؟ لا تجعلني أُجهِز عليها!».

نقل إزيو بصره بين الرجل والباب، وكانت الفتاة التي بين ذراعي الرجل قد أغمي عليها، ورأى إزيو الرجل يتردَّد، وفي أي لحظة سيضطر إلى إفلاتها. تأهب إزيو، مدركًا أن مهمته ستكون صعبة، فالفتيات الأخريات قريبات، وعليه اختيار اللحظة المناسبة والتصرُّف بسرعة، وكان يدرك أيضًا أنه قليل الخبرة في استخدام السلاح. قال بحزم: «افتحي الباب»، موجِّهًا كلامه إلى إحدى المومسات المرعوبات في المجموعة.

وعندما استدارت لتفتح الباب، ترك المعتوه الفتاة النازفة تسقط على الأرض، وهمَّ بالاندفاع إلى الشارع، محوِّلًا انتباهه للحظة عن إزيو، وفي هذه اللحظة أخرج إزيو مسدسه الصغير وأطلق النار.

تطاير شرر وسُمع دوي ثاقب أعقبه دخان بدا كأنه يخرج من بين أصابع يد إزيو اليمنى، وارتسمت تعابير الدهشة على وجه المعتوه، وخر على ركبتيه، على منتصف جبهته ثقب صغير، وعلى إطار الباب خلفه تناثرت مُزَع من

دماغه. صرخت الفتيات وهرولن مبتعدات عنه وهو يتهالك ببطء إلى الأمام. صاحت تيودورا بأوامرها، وهرع خادمان لإسعاف الفتاتين الجريحتين، لكن كان الأوان قد فات على إنقاذ الفتاة التي في الغرفة، إذ نزفت حتَّى الموت.

أُستُعيد النظام، وقالت تيودورا: «إننا ممتنُّون لك يا إزيو».

- تأخَّرت على إنقاذها.

- أنقذتَ الأخريات. لربما قتل عددًا أكبر إذا لم تكن هنا وتوقفه.

سأله أنتونيو مذهولًا: «أي شعوذة استخدمتها لتصرع الرجل؟».

- ليست شعوذة. مجرَّد سر. إنه ابن عم أكبر للسكاكين التي تُلقى من بعيد.

- حسنًا، أرى أنه سيكون مفيدًا لك. الدوج الجديد خائف للغاية، يحيط نفسه بالحراس ولا يغادر القصر أبدًا. أتخيَّل أن ماركو باربريغو هو التالي في قائمتك، صحيح؟

- إنه عدو لدود كما كان ابن عمه إميليو.

قالت تيودورا: «سوف نساعدك، وستحين فرصتنا عمَّا قريب. سيقيم الدوج حفلًا ضخمًا بمناسبة الكرنفال، ولحضوره سيضطر إلى مغادرة القصر. سيُنفق على الحفل ببذخ، إذ يريد شراء حظوة الناس بعدما عجز عن نيلها بجدارة. ويقول جواسيسي إنه طلب ألعابًا نارية من الصين!».

أوضح أنتونيو لإزيو: «لهذا طلبت منك المجيء إلى هنا اليوم. الأخت تيودورا واحدة منا، وأعيُنها مبثوثة في جميع أنحاء البندقية».

سألها إزيو: «كيف أتلقَّى دعوة إلى هذا الحفل؟».

أجابت: «ليس أمرًا سهلًا، ستحتاج إلى قناع ذهبي حتَّى تدخل».

- حسنًا، لا أظن أن الحصول عليه أمر صعب.

«ليس بهذه البساطة، كل قناع يمثِّل دعوة، وجميع الأقنعة مُرقَّمة». ابتسمت تيودورا وتابعت: «لا عليك، لديَّ فكرة. أظن أن من الممكن أن تفوز بقناع. تعال، سِر معي». اقتادته بعيدًا عن الآخرين إلى فناء صغير هادئ في الجزء الخلفي من المبنى، به نافورة في بركة مزخرفة.

وقالت: «ستقام مسابقات خاصة بالكرنفال، المشاركة فيها مفتوحة للجميع غدًا، ثمَّة أربع فاعليات، والفائز سيكافأ بقناع ذهبي وسيكون ضيفًا

فخريًّا في الحفل. عليك أن تفوز به يا إزيو، لأن دخول الحفل سيتيح لك الاقتراب من ماركو باربريغو». نظرت إليه. «عندما تذهب، أنصحك بأخذ نافث النار الصغير معك، لأنك لن تستطيع الاقتراب من ماركو بحيث يمكنك طعنه بخنجر».

- هل لي أن أطرح عليك سؤالًا؟

- لك أن تحاول، لا أضمن لك إجابة.

- يساورني الفضول. ترتدين رداء راهبة، لكن من الواضح أنك لست راهبة.

- كيف تعرف هذا؟ أؤكد لك يا بُني، إنني نذرتُ نفسي للرب.

- لكنني لا أفهم. إنك محظية أيضًا، بل وتديرين ماخورًا.

ابتسمت تيودورا. «لا أرى تناقضًا. إنني حرَّة في اختيار ممارساتي المتعلِّقة بعقيدتي واختيار ما أفعله بجسدي». أطرقت مفكِّرة هنيهة، وتابعت: «اسمع، مثل كثير من الفتيات، كنت منجذبة إلى الكنيسة، لكن تدريجيًّا تحررتُ من أوهام مَن يُسمُّون بالمؤمنين في هذه المدينة. الرجال لا يؤمنون بالرب إلَّا بوصفه فكرة في رؤوسهم، وليس له وجود في أعماق قلوبهم وأجسادهم. أتفهم ما أرمي إليه يا إزيو؟ يجب أن يعرف الرجال كيفية الحب حتَّى ينالوا الخلاص، وأنا وفتياتي نقدِّم هذه المعرفة لرعيتنا. وبالطبع لا أتخيَّل أن تتفق معي أي طائفة منتمية إلى الكنيسة، لذا لم أجد بُدًّا من تأسيس طائفة خاصة بي. أعرف أن ممارساتي ليست تقليدية، لكنها ناجحة، وقلوب الرجال يشتد عودها تحت رعايتي».

«من بين أشياء أخرى تشتد، كما أتخيل».

«إنك متشائم لا يعجبك شيء يا إزيو». مدَّت إليه يدها. «عد غدًا لنناقش أمر المسابقات. اعتنِ بنفسك حتذاك، ولا تنسَ قناعك. أعرف أنك قادر على حماية نفسك، لكنَّ أعداءنا ما زالوا يتربَّصون بك».

***

أراد إزيو إدخال تعديلات بسيطة على مسدسه الجديد، لذا عاد إلى ورشة ليوناردو وهو في طريقه إلى مقر نقابة اللصوص.

«سررت برؤيتك مجددًا يا إزيو».

- كنتَ محقًّا بشأن الأخت تيودورا يا ليوناردو، إنها ذات فِكر متحرِّر.

- لوقعتْ في ورطة مع الكنيسة إذا لم تكن تجد حماية جيدة، لديها بعض المعجبين من ذوي النفوذ.

- لا أستغرب هذا.

لاحظ إزيو أن ليوناردو شارد الذهن قليلًا، وينظر إليه نظرات غريبة. «ما الخطب يا ليو؟».

- ربما يستحسن ألا أخبرك، لكن معرفتك بالأمر مصادفة سيكون أسوأ. اسمع، يا إزيو، كرستينا كالفوتشي جاءت إلى البندقية مع زوجها لحضور الكرنفال، وقد صارت كرستينا دي أرزينتا الآن بالطبع.

- أين تقيم؟

- هي ومانفريدو نزلا ضيفين على رب عملي. هكذا عرفتُ.

- لا بُدَّ أن أراها!

- إزيو... أمتأكد أن هذه فكرة جيدة.

- سآتي لأخذ المسدس في الصباح، أخشى أنني سأحتاج إليه عندئذٍ، عليَّ تولِّي أمر مهم.

- إزيو... يجدر بك ألَّا تخرج أعزل.

- ما زالت نصال مجلد المخطوطات معي.

بقلب خافق سار إزيو إلى قصر بيكسارو، ومر بمكتب كاتب عام وطلب منه كتابة رسالة قصيرة:

عزيزتي كرستينا

لا بُدَّ أن أقابلك وحدك وبعيدًا عن مضيفك مساء اليوم عند الساعة 19، سأنتظرك بجوار الساعة المائية في ريو تيرا ديغلي أونيسانتي.

ووقَّع الرسالة باسم ‘مانفريدو’، ثمَّ أوصلها إلى قصر الكونت، وانتظر.

كانت محاولة يعلم أن احتمال نجاحها ضئيل، لكنها نجحت. خرجت كرستينا مع خادمة واحدة ترافقها، وهرعت باتجاه دورسودورو. تبعها إزيو، وعندما وصلت إلى المكان المحدد وانسحبت خادمتها مسافة تتيح الخصوصية، تقدم إليها، كلاهما كان يرتدي قناعًا للكرنفال، لكن إزيو أمكنه الجزم بأنها ما زالت جميلة كعهده بها. عجز عن تمالك نفسه، فأخذها بين ذراعيه وقبلها قبلة طويلة حارَّة.

تحرَّرت منه أخيرًا، نازعةً قناعها، ونظرت إلى مستغربة، ومدَّت يدها بسرعة ونزعت قناعه.

«إزيو!».

«سامحيني يا كرستينا، أنا...» لاحظ أنها لم تعد تضع القلادة التي أعطاها إياها، بالطبع.

- ماذا تفعل هنا بحق الجحيم؟ كيف تجرؤ على تقبيلي هكذا؟

- كرستينا، لا بأس...

- لا بأس؟ لم أرك أو أسمع منك منذ ثماني سنوات!

- كنت أخشى ألا تأتي إذا لم ألجأ لحيلة.

- لما أتيت بالتأكيد! أتذكر أننا عندما التقينا آخر مرَّة قبَّلتني في الشارع على هذا النحو، ثمَّ أنقذت حياة خطيبي ببساطة، وتركتني لأتزوجه.

- كان القرار الصائب. خطيبك كان يحبك، وأنا...

- من يكترث بما كان يريده؟ أحببتك *أنت*!

لم يُحر إزيو ردًّا، وأحس بأن العالم يتداعى حوله.

- كرستينا...

«في وقتٍ ما لم يكن عليك سوى تحريك إصبعك، وأنا...» قاطعت نفسها. «وداعًا يا إزيو».

شاهدها عاجزًا وهي تبتعد وتنضم إلى مرافقتها وتختفي عند زاوية الشارع، دون أن تلتفت.

عاد إزيو أدراجه إلى مقر اللصوص، لاعنًا نفسه وقدَره.

***

في اليوم التالي خرج إزيو متجهِّمًا عازمًا أشد العزم، أخذ مسدسه من ليوناردو، وشكره، واستعاد صفحة مجلد المخطوطات، آملًا أن يتمكَّن من إعادتها مع الصفحة الأخرى، التي أخذها من إميليو، إلى عمه ماريو. ثمَّ اتجه إلى بيت تيودورا، ومنه رافقته إلى معسكر دي سان بوبو، حيث تقام المنافسات. رأيا منصة مربعة مشيدة في منتصف الساحة، وفوقها مسؤولان أو ثلاثة يجلسون إلى طاولة، ويسجلون أسماء المتنافسين. ومن بين الحضور لاحظ إزيو سيلفيو باربريغو بهيئته الهزيلة، ومعه تفاجأ برؤية الحارس الشخصي العملاق، دانتي.

قالت تيودورا له: «ستنافسه، أتظنك قادر على مواجهته؟».

- إذا اضطررت.

وأخيرًا، بعد انتهاء تسجيل أسماء جميع المتنافسين (وقد سجل إزيو نفسه باسم مزيف)، اتخذ رجل طويل يرتدي عباءة حمراء براقة مكانه فوق المنصة، كان مدير المراسم.

كان إجمالي عدد المنافسات أربعًا، وعلى المتسابقين التباري مع بعضهم في كل منافسة، وفي النهاية ستقرر لجنة حكام الفائز. ومن حسن حظ إزيو سمح لمعظم المتسابقين بارتداء أقنعتهم، تماشيًا مع روح الكرنفال.

المنافسة الأولى كانت سباق عَدْوٍ، فاز به إزيو بسهولة، مثيرًا حنق سيلفيو ودانتي. وكانت الثانية أكثر تعقيدًا، معركة تكتيكية تمثَّلت في تنافس المتسابقين على أن ينتزع بعضهم من بعض أعلام منحت لهم. وفي هذه اللعبة أيضًا أُعلن إزيو فائزًا، لكنه أحسَّ بالقلق إثر رؤيته تعابير وجهَي دانتي وسيلفيو.

أعلن مدير المراسم: «المسابقة الثالثة تجمع بين عناصر المسابقتين المنصرمتين وتضيف إليها عناصر جديدة. هذه المرَّة على المتسابقين استخدام السرعة والمهارة، علاوة على الأناقة والجاذبية!». بسط ذراعيه مشيرًا إلى عدد من النساء المتأنقات في أنحاء الساحة، فضحكن بعذوبة. ثمَّ تابع مدير المراسم: «تطوَّعت عدَّة آنسات لمساعدتنا، بعضهن هنا في الساحة، وأخريات يسرن في الشوارع القريبة، وربما تجدون بعضهن في جناديل. ستتعرَّفون على أولئك الآنسات بأشرطة مربوطة في شعر كل واحدة منهن. ومهمتكم، يا حضرات المتسابقين، هي جمع أكبر عدد ممكن من الأشرطة قبل نهاية الوقت الذي سأقيسه بساعتي الرملية، سوف نرن جرس

الكنيسة عندما ينتهي الوقت. وأظن أن هذه المسابقة، أيًّا يكن الحظ حليفه، ستكون أكثر فعالية ممتعة اليوم! الرجل الذي سيعود بأكبر عدد من الأشرطة سيكون الفائز، ويقترب خطوة من نيل القناع الذهبي. لكن تذكروا، إذا لم يحقِّق أحدكم فوزًا حاسمًا، فسيقرِّر الحكام المحظوظ منكم ليحضر حفل الدوج! والآن، ابدؤوا!».

مرَّ الوقت سريعًا ممتعًا، كما وعد مدير المراسم، وعند إشارته رن جرس كنيسة سان بولو حالما انسابت آخر حبيبات الساعة الرملية. عاد المتسابقون إلى الساحة، وناولوا أشرطتهم للحكام، بعضهم مبتسم، وبعضهم محمر خجلًا. دانتي وحده ظل متحجر الوجه، لكنه احمرَّ غضبًا عندما انتهى الحساب ورفع مدير المراسم، مرَّة أخرى، ذراع إزيو عاليًا معلنًا فوزه.

قال مدير المراسم: «حسنًا أيها الشاب الغامض، يحالفك الحظ اليوم، فلنأمل ألَّا يتخلَّى عنك عند العقبة الأخيرة». استدار ليخاطب الحشد، في أثناء إخلاء المنصة ونصب فيها حبالًا لتحويلها إلى حلبة ملاكمة. «سيداتي سادتي، المنافسة الأخيرة مختلفة كليًّا عن سابقاتها، منافسة في القوة المحضة، سيتقاتل المتنافسون حتَّى يُقْصُوا جميعًا ويبقى اثنان، ويتقاتل الاثنان الأخيران حتَّى يهزم أحدهما الآخر هزيمة ساحقة. ثمَّ تأتي اللحظة التي ننتظرها جميعًا! لحظة إعلان الفائز النهائي بالقناع الذهبي! لكن توخُّوا الحذر في رهاناتكم، لا يزال اليوم حافلًا بالمفاجآت!

وفي هذه المنافسة الأخيرة تفوق دانتي. وإزيو أيضًا، مستخدمًا مهاراته العديدة وخفَّة قدميه، تمكَّن من بلوغ المواجهة النهائية مع الحارس الشخصي العملاق. انهال الرجل على إزيو بقبضتين كمطرقتين ضخمتين، لكن إزيو كان رشيقًا فلم تقع عليه ضربة قوية، وتمكَّن من توجيه بضع لكمات سفلية بيسراه ولكمات خاطفة بيمناه.

لم تُستقطع استراحات بين جولات هذا النزال الأخير، وبعد مدَّة لاحظ إزيو أن دانتي بدأ يتعب، كما لاحظ بطرف عينه أن سيلفيو باربريغو يتحدَّث بإلحاح مع مدير المراسم ولجنة الحكام المجتمعين تحت مظلة قريبة من الحلبة، وبدا له أنه رأى محفظة جلدية منتفخة تنتقل من يد إلى أخرى، أقحمها مدير المراسم سريعًا في جيبه، لكنه لم يكن متأكدًا ممَّا رآه، إذ تعيَّن عليه إعادة تركيزه على خصمه، الذي استشاط غضبًا وراح يهاجمه باهتياج. انحنى إزيو ووجه لكمتين سريعتين إلى فك دانتي وبطنه، وأخيرًا سقط الرجل العملاق،

ووقف إزيو فوقه، وحملق دانتي إليه غاضبًا، وزمجر: «لم ننتهِ بعد!»، لكنه وجد صعوبة في النهوض.

نظر إزيو إلى مدير المراسم، ورفع يده مناشدًا، لكنَّ الرجل تجاهله ببرود، وقال: «هل نحن متأكدون أن كل المتنافسين أُقصُوا؟ *كلهم*؟ لا يمكننا إعلان فائز إذا لم *نتأكد*!».

سرت همهمَّة بين الحشد إثر خروج رجلين من بينهم وصعودهما على الحلبة. نظر إزيو نحو الحكَّام لكنهم أشاحوا بوجوههم. اقترب الرجلان من إزيو، فرأى أن كليهما يحمل مدية صغيرة يحاول إخفاءها.

قال لهما: «هكذا سيجري الأمر، هه؟ كل شيء مسموح إذن».

راوغ مبتعدًا إثر محاولة دانتي الساقط إفقاده توازنه بالإمساك بكاحليه، ثمَّ وثب في الهواء راكلًا أحد خصميه الجديدين في وجهه، فبصق الرجل أسنانه وترنَّح مبتعدًا، هبط إزيو وداس قدم الرجل الثاني اليسرى، ساحقًا مشط قدمه، ولكمه بوحشية على بطنه، فانحنى وعاجله بركبته على ذقنه، فتهالك الرجل وهو يعوي من الألم، وكان قد عضَّ لسانه، وتدفَّق الدم عبر شفتيه.

ودون تلفُّت انطلق إزيو مغادرًا الحلبة ووقف مواجهًا مدير المراسم والحكَّام الخانعين، وهتف الحشد من خلفه مشجِّعًا.

قال إزيو لمدير المراسم: «أظننا لدينا فائز». فتبادل الرجل نظرة سريعة مع الحكام وسيلفيو باربريغو، الواقف على مقربة. صعد مدير المراسم إلى الحلبة، متفاديًا الدماء بقدر مستطاعه، وخاطب الجمهور.

تنحنح متوترًا. «سيداتي سادتي! أظنكم ستتفقون جميعًا أننا استمتعنا بمعركة شرسة ونزيهة اليوم».

صاح الجمهور مغتبطًا.

«وفي مثل هذه المناسبات يصعب اختيار فائز حقيقي...».

بدا الجمهور مشوَّشًا، وتبادل إزيو نظرة سريعة مع تيودورا الواقفة عند طرف الجمهور.

تابع مدير المراسم وهو يتعرَّق ويمسح حاجبه: «كانت مهمَّة صعبة عليَّ وعلى الحكَّام، لكن لا بُدَّ من إعلان فائز، وبحسب المجموع قد اخترنا فائزًا».

عندئذٍ انحنى وبصعوبة رفع دانتي إلى وضعية الجلوس. «سيداتي سادتي، أقدم لكم الفائز بالقناع الذهبي، السيد دانتي مورو!».

دمدم الجمهور وأطلق صيحات الاستهجان، فاضطرَّ مدير المراسم، ومعه الحكَّام، إلى الانسحاب بسرعة عندما بدأ المتفرِّجون يقذفونهم بأي قمامة تقع في أيديهم. هرع إزيو إلى تيودورا، وشاهد الاثنان سيلفيو، بابتسامة ملتوية على وجهه الشاحب، وهو يساعد دانتي على النزول من المنصة ويقتاده عبر زقاق جانبي.

19

بعدما عادوا إلى ‘دير’ تيودورا، عجز إزيو عن تمالك نفسه من الغضب وأنتونيو وتيودورا يشاهدانه بقلق.

قالت تيودورا: «رأيت سيلفيو يرشو مدير المراسم، ولا شك أنه دسَّ مبلغًا من المال في جيوب الحكام أيضًا. ما من شيء كان بوسعي فعله».

ضحك أنتونيو هازئًا، وحدجه إزيو بنظرة امتعاض.

تابعت تيودورا: «تسهل معرفة سبب إصرار سيلفيو على فوز رجلهم بالقناع الذهبي، إنهم ما زالوا حذرين ولا يريدون تعريض الدوج ماركو لاحتمال أي خطر». نظرت إلى إزيو. «لن يهدأ لهم بال حتَّى تموت».

- إذن لن يذوقوا للنوم طعمًا لليالٍ طوالٍ.
- علينا أن نفكر في حل، الحفل غدًا.
- سأجد طريقة لتعقُّب دانتي خلسة في الحفل، وآخذ القناع منه بطريقةٍ ما و...

أراد أنتونيو أن يعرف. «كيف؟ بقتل الوغد؟».

التفت إزيو إليه غاضبًا. «ألديك فكرة أفضل؟ أنت تعرف ما يوجد على المحك!».

رفع أنتويو يديه مستسلمًا. «اسمع يا إزيو، إذا قتلته فسيُلغى الحفل، وينسحب ماركو عائدًا إلى القصر. وسنكون قد أهدرنا وقتنا، مجددًا! لا، علينا سرقة القناع بهدوء».

قالت تيودورا: «فتياتي يمكنهن المساعدة، كثير منهن سيذهبن إلى الحفل، بوصفهن فتيات... ترفيه! يمكنهن تشتيت انتباه دانتي وأنت تختلس منه القناع. ولا تقلق، سأكون هناك أيضًا».

أومأ إزيو على مضض. لم يرُقه أن تُملى عليه أفعاله، لكنه أدرك أن أنتونيو وتيودورا محقَّان في هذا الوضع. قال: «حسنًا».

وعند غروب شمس اليوم التالي، حرص إزيو على وجوده قريبًا من طريق دانتي إلى الحفل، وكان عددًا من فتيات تيودورا يتسكَّعن على مقربة. وأخيرًا ظهر الرجل الضخم، مرتديًا ملابس باهظة مبهرجة، وقناعه الذهبي معلق عند حزامه. وحالما رأته الفتيات لوَّحن له وغازلنه، وسرن على جانبيه واثنتان منهن أخذن بذراعيه، وحرصن على أن يتدلَّى القناع خلفه، ثمَّ رافقنه إلى المنطقة الشاسعة المطوَّقة بجوار الرصيف حيث يقام الحفل، وقد بدأ سلفًا. اختار إزيو، مؤقِّتًا تحركاته بدقَّة، آخر لحظة ممكنة ليقطع القناع من حزام دانتي، التقطه بسرعة وسار متقدمًا أمام دانتي، ليظهر حاملًا القناع أمام الحراس الواقفين عند مدخل الحفل، وعندما رأوا القناع مع إزيو سمحوا له بالدخول، لكن بعد بضع دقائق، عندما وصل دانتي ومد يده خلف ظهره ليرتدي قناعه، لم يجده، والفتيات اللاتي رافقنه تلاشين في الحشد وارتدين أقنعتهن فلم يتعرَّف عليهن.

وفي أثناء جدال دانتي عند البوابة مع الحراس، الذين صدرت لهم سلفًا أوامر صارمة، شق إزيو طريقه بين المحتفلين لملاقاة تيودورا. حيَّته بحرارة. «نجحتَ! أهنئك! والآن اسمع، ماركو اتخذ كل إجراءات الحيطة والحذر، يمكث في بارجته، بوسِنتورو، في المياه المُطلَّة على الرصيف لذا لن تتمكَّن من الاقتراب منه، لكن ينبغي لك أن تجد أنسب مكان للهجوم». استدارت لتستدعي ثلاثًا أو أربعًا من محظياتها. «هؤلاء الفتيات سيساعدنك على تغطية تحركاتك في أنحاء الحفل».

تحرك إزيو، لكن والفتيات يتحرَّكن وسط بحر الضيوف متألقات بالفضة وفساتين الساتان والحرير، استرعى انتباهه رجل طويل مهيب في منتصف الستينيات من عمره، ذو عينين صافيتين ذكيتين ولحية بيضاء مدبَّبة، كان يتحدَّث مع نبيل بندقي في مثل سنه، وكلاهما يرتدي قناعًا صغيرًا لا يغطي الوجه كله، فعرف إزيو أن الرجل الأول هو أغوستينو باربريغو، شقيق ماركو الأصغر. أوغستينو ربما يؤدِّي دورًا مهمًّا لمصير البندقية إذا أصاب مكروهٌ

شقيقه، لذا رأى إزيو أن من الضروري التحرُّك خلسة إلى موضع يمكِّنه من استراق السمع إلى كلام الرجل.

اقترب إزيو بحذر، وسمع الرجل يضحك بصوت منخفض قائلًا: «بصراحة، شقيقي يحرج نفسه بهذا العرض».

رد النبيل: «لا يحق لك الكلام عنه بهذه الطريقة، إنه الدوج!».

قال أوغستينو وهو يداعب لحيته: «أجل، أجل، إنه الدوج».

- هذا هو حفله، وكرنفاله، ومن حقه إنفاق أمواله كما يشاء.

رد أغوستينو بحدَّة: «إنه الدوج اسميًّا فحسب، كما إنه لا ينفق أمواله، إنما أموال البندقية». خفض صوته. «ثمة شؤون أهم على المحك، وأنت تعرف هذا».

- ماركو هو من وقع الاختيار عليه لقيادتنا. صحيح أن والدك ربما ظن أن شقيقك عديم الفائدة، لذا نقل طموحاته السياسية إليك، لكن هذا لا يهم الآن، أليس كذلك؟ نظرًا إلى مآلات الأمور.

- لم أرغب قط في منصب الدوج...

قال النبيل ببرود: «إذن أهنئك على نجاحك».

لم ينفعل أغوستينو. «اسمع، الثروة وحدها لا تعني السلطة. أيظن شقيقي حقًّا أن الاختيار وقع عليه لسبب آخر غير ثروته؟».

- وقع الاختيار عليه من أجل حكمته وقدراته القيادية!

قوطعا ببدء عرض الألعاب النارية. شاهده أغوستينو هنيهة، ثمَّ قال: «وهذه هي مخرجات حكمته؟ تقديم عرض أضواء؟ يختبئ في قصر دوكالي والمدينة تتداعى، ثمَّ يظن أن بعض المتفجرات الغالية ستُنسي الناس جميع مشكلاتهم».

أتى النبيل بحركة انصرافية. «الناس يحبون العروض البراقة، هذه هي الطبيعة البشرية، سترى...».

عندئذٍ لمح إزيو هيئة دانتي الضخمة، برفقة جمهرة من الحراس، مندفعين بين الحشد، باحثين عنه بلا شك. فتحرَّك إلى مكانٍ خفيٍّ يمكنه من الوصول إلى الدوج إذا غادر بارجته بوسينفورو الراسية على بعد بضع ياردات من الرصيف.

أُطلِق بوقٌ عالٍ بعد توقُّف الألعاب النارية مؤقَّتًا، فخيَّم الصمت على الناس، ثمَّ ضجُّوا بالتصفيق إثر خروج ماركو إلى سطح بارجته ليخاطبهم، وقدَّمه وصيفه: «سيداتي سادتي! أقدِّم لكم محبوبنا دوج البندقية!».

بدأ ماركو خطابه: «مرحبًا بكم يا أصدقائي في أضخم فعالية اجتماعية في الموسم! في السِّلم أو الحرب، وفي أوقات الازدهار أو الندرة، ستقيم البندقية كرنفالها دومًا!...».

انضمت تيودورا إلى إزيو في أثناء كلام الدوج.

قال إزيو لها: «إنه بعيد جدًّا، ولن يغادر البارجة. سأضطر إلى السباحة لأقترب منه. سحقًا!».

قالت تيودورا هامسة: «لا أظنها فكرة جيدة، سيرونك على الفور».

- إذن عليَّ أن أقاتل حتـ...

- مهلًا!

كان الدوج يواصل كلامه: «الليلة نحتفي بما يجعلنا عظماء، انظروا كيف تشعُّ أضواؤنا على العالم بإبهار!». بسط ذراعيه، فبدأ عرض ألعاب نارية قصير، وهتف الجمهور مغتبطًا.

قالت تيودورا: «وجدتها! استخدم مسدسك! الذي أوقفت به القاتل في ماخوري. استغل صوت الألعاب النارية لتغطية صوت طلقتك. أطلق النار في التوقيت المناسب، وستخرج من هنا دون أن يلاحظك أحد».

نظر إزيو إليها قائلًا: «تعجبني طريقة تفكيرك يا أختاه».

«ما عليك سوى التصويب بدقة، لن تسنح لك سوى فرصة واحدة». ضغطت على ذراعه. «حظًّا موفقًا يا بُني، سأكون في انتظارك في الماخور».

تلاشت بين المحتفلين، وبينهم أيضًا رأى إزيو دانتي وجلاوزته ما زالوا يبحثون عنه. صامتًا كشبح شقَّ إزيو طريقه إلى مكان بجوار الرصيف في أقرب نقطة يجرؤ على الاقتراب منها تتيح له استهداف ماركو الواقف على البارجة، ومن حسن الحظ أن عباءته الزاهية التي تلتمع تحت أضواء الحفل جعلته هدفًا ممتازًا.

استمر خطاب الدوج، واستغل إزيو الوقت للاستعداد، مترقبًا استئناف الألعاب النارية، مدركًا أن توقيته يجب أن يكون دقيقًا حتَّى لا تُرصَد طلقته.

كان ماركو يقول: «جميعنا نعلم أننا مررنا بأوقات مضطربة، لكننا اجتزناها معًا، وستغدو البندقية مدينة أقوى... عمليات انتقال السلطة صعبة على الجميع، لكننا حقَّقنا الانتقال بهدوء وسلاسة. ليس من السهل فقدان دوج في ريعان شبابه، ومن المحبط رؤية قاتل شقيقنا العزيز موسينغو لا يزال يجول حرًّا دون عقاب، بيد أننا بوسعنا التماس العزاء بفكرة أن كثيرين منَّا بدؤوا يتضايقون من سياسات سلفي في المنصب، ويشعرون بعدم الأمان، ويشككون في الطريق الذي يقودنا عبره». ارتفعت بضعة أصوات في الحشد مؤيِّدة، فابتسم ماركو رافعًا يده طالبًا الصمت. «حسنًا يا أصدقائي، أبشِّركم بأنني وجدت الطريق المناسب لنا! أرى نهايته، وأعرف إلى أين يقودنا! إنه مكان جميل، وسوف نذهب إليه معًا! مستقبل البندقية الذي أراه مستقبل قوة، مستقبل ثروة. سوف نبني أسطولًا قويًّا يجعل أعداءنا يخشوننا أيَّما خشية! وسوف نوسع مسارات تجارتنا عبر البحار ونجلب إلى الديار توابل وكنوز لم يحلم بها أحد منذ أيام ماركو بولو!». التمعت عينا ماركو واكتسى صوته بنبرة وعيد. «وللذين يقفون ضدنا أقول لهم: توخُّوا الحذر في اختيار حلفائكم، لأنكم إما أن تكونوا معنا، وإما أن تكونوا إلى جانب الشر. لن نؤوي أي عدو هنا! سوف نطاردكم، سوف نستأصلكم، سوف ندمركم!». رفع يديه مرَّة أخرى وتكلم بنبرة خطابية مبالغ فيها. «والبندقية سوف تبقى دومًا الدُّرة الألمع في كل الحضارات!».

وحالما أنزل يديه بحركة انتصار وانتشاء، انطلق عرض ألعاب نارية هائل، ختام عظيم حوَّل الليل إلى نهار، بدوي يصمُّ الآذان، ذابت فيه طلقة إزيو الصغيرة المميتة، وكان إزيو نفسه في طريقه إلى الخارج عبر الحشد قبل أن تبدر منهم ردَّة فعل إزاء رؤيتهم ماركو باربريغو، صاحب أقصر مدَّة حكم في تاريخ البندقية، يترنَّح، ممسكًا بصدره في موضع قلبه، ويسقط ميتًا على سطح بارجته. تمتم إزيو مع نفسه وهو يبتعد: «فلترقد بسلام».

انتشر الخبر بسرعة، وبلغ الماخور قبل إزيو، فاستقبلته تيودورا ومحظياتها بهتافات الإعجاب.

قالت تيودورا: «لا بُدَّ أنك مرهق، تعالَ، استرخِ!». وأخذت بذراعه واقتادته بعيدًا عن الآخرين نحو حجرة داخلية.

لكن أولًا قدم أنتونيو تهانيه. «منقذ البندقية! ماذا عساي أن أقول؟ ربما أخطأتُ بالتشكيك فيك. والآن على الأقل لدينا فرصة لمراقبة التداعيات...

قاطعته تيودورا: «دعنا من هذا الكلام الآن. تعال يا إزيو، عمِلت جاهدًا يا بُني، أحس بجسدك يحتاج إلى مواساة وترويح».

فهم إزيو ما ترمي إليه، وسايرها. «صحيح يا أختاه، أعاني آلامًا مضنية قد تتطلب قدرًا كبيرًا من المواساة والترويح، آمل أن تكوني قادرة».

ابتسمت تيودورا ابتسامة واسعة. «أوه، لا أنوي تخفيف آلامك وحدي! يا فتيات!».

تسلَّلت مجموعة محظيات بجوار إزيو مبتسمات ودخلن الحجرة الداخلية، فرأى في وسطها فراشًا ضخمًا، وإلى جانبه شيء أشبه بأريكة لكنه مزود ببكرات وأحزمة وسلاسل، ذكَّره بشيء رآه في ورشة ليوناردو، لكنه عجز عن تخيُّل الغرض الذي يُستخدم من أجله.

تبادل نظرة طويلة مع تيودورا وتبعها إلى الحجرة، وأغلق الباب خلفه بإحكام.



بعد يومين كان إزيو يقف على جسر ريالتو، مسترخيًا وقد استعاد عافيته، يشاهد الحشود تغدو وتروح، ثمَّ فكر في المغادرة وشراب كأسي فينيتو قبل وقت الغداء، لكنه رأى رجلًا يهرول نحوه، عرف إزيو أنه أحد رسل أنتونيو.

قال الرجل: «إزيو، إزيو، السيد أنتونيو يريد رؤيتك، الأمر مهم».

قال إزيو: «فلنذهب إليه فورًا»، وتبعه مبتعدًا عن الجسر.

وجدا أنتونيو في مكتبه بصحبة أغوستينو باربريغو، الذي تفاجأ إزيو بوجوده. وقدَّمهما أنتونو لبعضهما.

«تشرَّفت بلقائك يا سيدي، يؤسفني فقد شقيقك».

لوح أغوستينو بيده. «أشكرك على تعاطفك، لكن بصراحة شقيقي كان مغفلًا ودُمية في يد جماعة بورجيا في روما، وهذا ما لا أريده للبندقية أبدًا. ولحسن الحظ، جنَّبنا شخص مفعم بروح الواجب ذلك الخطر باغتيال شقيقي، بطريقة مستحدثة مثيرة للفضول... ستجرى تحقيقات بالطبع، لكنني لا أدري إليَّ أين ستقود...».

قال أنتونيو: «السيد أغوستينو سيُنتخب الدوج الجديد عمَّا قريب، هذا خبر جيد للبندقية».

قال إزيو ببرود: «مجلس الواحد وأربعين أنجز عمله بسرعة هذه المرَّة».

رد أغوستينو بابتسامة ماكرة: «أظنهم أدركوا خطأ نهجهم. لكنني لا أريد أن أصبح الدوج اسميًّا فحسب، كما كان شقيقي. وهذا هو الشأن الذي جئت من أجله الآن. ابن عمنا الشنيع احتل الحامية، المقر العسكري للمدينة، ويحرسها بمئتي جندي مرتزق!».

سأله إزيو: «لكن عندما تصبح الدوج، ألا يمكنك أن تأمره بالتراجع؟».

قال أغوستينو: «من اللطيف أن نظن هذا. لكن إنفاق شقيقي البذخ استنزف موارد المدينة، وسنجد صعوبة في مواجهة قوة مدربة تسيطر على الحامية. ودون الحامية لن تكون لي سلطة على البندقية، سواء كنت دوج أم غير دوج!».

قال إزيو: «إذن عليك جمع قوات رادعة خاصة بك».

ابتسم أنتونيو. «أحسنت قولًا! وأظن أنني أعرف الرجل المناسب للمهمَّة. هل سمعت ببارتولوميو دي ألفيانو؟».

أجاب إزيو: «بالطبع، المرتزق الذي كان يعمل في خدمة الدولة البابوية! انقلب عليهم، أعرف».

قال أغوستينو: «وهو هنا الآن، لا يكِن ودًّا لسيلفيو، الذي، كما تعرف، دمية في يد الكاردينال بورجيا أيضًا. بارتولوميو متمركز في سان بييترو، شرق الحامية».

- سأذهب لمقابلته.

قال أنتونيو: «قبل ذهابك يا إزيو، السيد أغوستينو يريد إعطاءك شيئًا».

أخرج أغوستينو من عباءته لفافة جلدية مطوية عليها ختم أسود ثقيل مكسور. «هذه كانت ضمن أوراق شقيقي، ورأى أنتونيو أنها قد تثير اهتمامك. اعتبرها مكافأة مقابل... الخدمات التي قدَّمتَها».

أخذها إزيو، وعرف ماهيتها على الفور. «شكرًا لك يا سيدي. بلا شك سأجد فيها عونًا في المعارك القادمة».

***

لم يتوقَّف إزيو إلَّا ليسلِّح نفسه، ولم يهدر وقتًا قبل وصوله إلى ورشة ليوناردو، حيث تفاجأ برؤية صديقه يحزم أغراضه. سأله إزيو: «إلى أين أنت ذاهب؟».

- سأعود إلى ميلانو. لأرسلت إليك رسالة قبل مغادرتي بالطبع، مع صندوق رصاصات لمسدسك الصغير.
- حسنًا، يسعدني أنني لحقت بك. انظر، لديَّ صفحة أخرى من مجلد المخطوطات!
- ممتاز، تهمُّني رؤيتها. ادخل، خادمي لوكا والآخرون بإمكانهم مواصلة هذا العمل، تسنَّى لي الوقت لتدريبهم تدريبًا جيدًا، ويؤسفني أنني لن أستطيع اصطحابهم كلهم معي.
- ماذا ستفعل في ميلانو؟
- لودوفيكو سفورزا قدَّم لي عرضًا لم أستطع رفضه.
- لكن ماذا عن مشاريعك هنا؟
- مسؤولو البحرية اضطروا إلى إلغائها، إذ ما من نقود لمشاريع جديدة، يبدو أن الدوج الأخير بدَّد معظمها. كان بوسعي أن أصنع له الألعاب النارية، دون الحاجة إلى تكاليف جلبها من الصين. لكن لا يهم، البندقية ما زالت في سلام مع الأتراك، وقد قالوا لي إنهم سوف يرحِّبون بعودتي. في أثناء غيابي سأترك لوكا هنا، أظنه سيكون سمكة خارج المياه إذا ابتعد عن البندقية، وسأترك معه بضع تصميمات بسيطة ليبدأ العمل عليها. أما الكونت، فهو سعيد ببورتريهاته العائلية، لكنني شخصيًّا أرى أنها كان يمكن أن تتحسَّن بمزيد من العمل.

بسط ليوناردو الصفحة الجلدية، وتابع:

- الآن فلنلقِ نظرة على هذه.
- عِدني بأنك ستخبرني بعودتك إلى هنا.
- أعدك يا صديقي، وأنت، أخطِرني بتحرُّكاتك بقدر مستطاعك.
- سأفعل.

«والآن...» بسط ليوناردو صفحة مجلد المخطوطات وقرأها بعناية. «ثمة شيء هنا يبدو كرسم أوَّلي للخنجر مزدوج النصل الذي يرافق واقي ذراعك

المعدني، لكنه غير مكتمل وربما يكون مسودة مبكرة للتصميم. وبقية ما في الصفحة لن يكون ذا أهمية إلا إذا رُبِط بالصفحات الأخرى، انظر، ثمَّة مزيد من العلامات التي تشبه الخرائط، وصورةٌ ما تذكِّرني بالأشكال المتشابكة المعقدة التي كنت أشخبطها عندما أجد وقتًا للتفكير!». طوى ليوناردو الصفحة ونظر إلى إزيو. «يجدر بك حفظها في مكان آمن مع الصفحتين الأخريين اللتين أريتهما لي هنا في البندقية، من الواضح أنها جميعا ذات أهمية عظيمة».

- حسنًا يا ليو، لكن في حال ذهابك إلى ميلانو، هل لي أن أطلب منك معروفًا؟

- اطلب على الفور.

- عندما تصل إلى بادوا، أرجو منك إيجاد ساعٍ جدير بالثقة لترسل معه هذه الصفحات الثلاث إلى عمي ماريو في مونتريجيوني، إنه... جامِع أثريات... أعرف أنه سيجدها مهمَّة. لكنني أحتاج إلى شخص يمكنني الاعتماد عليه لأداء هذه المهمَّة من أجلي.

ابتسم ليوناردو له شبح ابتسامة، ولأدرك إزيو أنها ابتسامة *العارف*، إذا لم يكن مشغول البال. «سأرسل أغراضي إلى ميلانو مباشرة، وأنا سأمُرُّ بفلورنسا سريعًا لأطمئن على أغنيولو وإنوسينتو، إذن سأكون ساعيك حتَّى هناك، وسأرسل الصفحات مع أغنيولو إلى مونتريجيوني، لذا لا تقلق».

أمسك إزيو بيد ليوناردو قائلاً: «هذا أفضل ممَّا كنت آمله، إنك صديق مخلص ورائع يا ليو».

«آمل أن أكون كذلك يا إزيو. أحيانًا يخطر لي أنك تحتاج إلى شخص يعتني بك». صمت، ثمَّ أردف: «وأتمنَّى لك أن تُوفَّق في عملك، وتصل إلى نهايته، وتجد راحتك».

نظر إزيو بعينيه الرماديتين إلى الأفق ساهمًا لوهلة، لكنه لم يرد سوى بقوله: «ذكَّرتني... لديَّ مهمَّة في مكان قريب. سأرسل صفحتَيْ المجلد الأخريين مع أحد رجال مضيفي. وداعًا!».

20

كانت أسرع طريقة لبلوغ سان بييترو من ورشة ليوناردو هي بركوب العبَّارة أو استئجار قارب من فونداميننتا نوفا والإبحار شرقًا من شاطئ المدينة الشمالي. تفاجأ إزيو عندما وجد أن من الصعب العثور على مَن يوصله إلى هناك، العبَّارات المنتظمة عُلِّق عملها، ولم يتمكَّن من إقناع جناديليين شابَّين بإيصاله إلا بعدما دفع لهما مبلغًا كبيرًا.

سألهما: «ما المشكلة؟».

أجابه المُجدِّف الخلفي وهو يجاهد المياه المتلاطمة: «يقال إن قتالًا عنيفًا نشب هناك، يبدو أن الأوضاع هدأت الآن، كان مجرَّد صراع محلِّي. لكن العبَّارات لا تريد المخاطرة باستئناف رحلاتها بعد. سوف ننزلك قريبًا من الشاطئ الشمالي، اعتنِ بنفسك».

فَعَلا كما قالا. وسرعان ما وجد إزيو نفسه وحده، يمشي بتثاقل في الوحل إلى حاجز المياه، ومنه رأى برج كنيسة سان بييترو دي كاستيلو على مبعدة، ورأى أيضًا عدَّة أعمدة دخان متصاعدة من مجموعة مباني قرميدية منخفضة على مبعدة ناحية الجنوب الشرقي من الكنيسة، كانت ثكنات جنود بارتولوميو، أسرع إزيو نحوهم وقلبه يخفق بعنف.

كان الصمت أول ما لفت انتباهه. ومن ثمَّ، بعدما اقترب، بدأ يرى جثثًا متفرِّقة في أنحاء المكان، بعض الرجال كانوا يرتدون شعار سيلفيو باربريغو، وآخرون تحمل أزياؤهم شعارًا لم يعرفه. وأخيرًا وصل إلى رقيب مصاب إصابة بالغة لكنه ما زال حيًّا، كان قد تمكَّن من سحب نفسه واتكأ على جدار منخفض.

قال الرقيب عندما اقترب إزيو: «أرجوك... ساعدني».

نظر إزيو في ما حوله سريعًا ووجد البئر، فسحب منها الماء، مبتهلًا ألَّا يكون المهاجمون قد سمَّموه، لكنه بدا نظيفًا بما يكفي. صبَّ قليلًا من الماء في كوب عثر عليه ورفعه إلى شفتي الرجل، ثمَّ رطَّب قطعة قماش ومسح بها الدماء عن وجهه.

قال الرقيب: «شكرًا لك يا صديقي». ولاحظ إزيو أنه يضع شارة غير مألوفة، وخمَّن أنها شارة بارتولوميو. بدا واضحًا أن جنود سيلفيو هزموا جنود بارتولوميو.

أكَّد الرقيب التخمين: «كان هجومًا مباغتًا، خانتنا إحدى عاهرات بارتولوميو».

- إلى أين ذهبوا الآن؟

- رجال المفتش؟ عادوا إلى الحامية. أسسوا قاعدتهم هناك، قبل وقت قصير من تولِّي الدوج الجديد منصبه. سليفيو يمقت ابن عمه أغوستينو لأنه ليس مشتركًا في المؤامرة التي تورَّط فيها المفتِّش.

سعل الرجل دمًا، لكنه جاهد ليتابع:

- أسروا قائدنا، أخذوه معهم. الغريب أننا كُنَّا نخطط لمهاجمتهم. كان بارتولوميو ينتظر... رسولًا من المدينة.

- أين بقية رجالكم الآن؟

حاول الرقيب أن ينظر في ما حوله.

- الذين لم يُقتلوا أو يقعوا في الأسر تشتَّتوا محاولين إنقاذ أنفسهم، قد يكونون مختبئين في البندقية وفي جزر البحيرة، لكنهم سوف يحتاجون إلى رجل يتوحَّدوا خلفه، وسينتظرون خبرًا من القائد.

- والقائد مسجون عند سيلفيو؟

- نعم، إنه...

لكن الرقيب التعِس تحشرجت أنفاسه، وانتهت معاناته إثر تدفُّق كمية كبيرة من الدماء بلَّلت ثلاث ياردات من العشب أمامه، ثمَّ شخصت عيناه خاويتين تجاه البحيرة.

أغمض إزيو عيني الرجل وصالب ذراعيه على صدره، وقال بوقار: «فلترقد بسلام».

ثمَّ شدَّ حزام سيفه، وثبت واقي الذراع على يسراه، لكنه ترك خنجره ذا النصل المزدوج، وعلى ذراعه اليمنى ثبَّت النصل السام، الذي دائمًا ما يكون مفيدًا في الأوقات الحرجة. أما المسدس -الذي يكون مفيدًا عندما يكون أمامه هدف واحد إذ يحتاج إلى إعادة تلقيم- فقد أبقاه في جرابه مع البارود والرصاصات والنصل المنبثق الأول. رفع قلنسوته، واتجه نحو الجسر الخشبي الذي يصل بين سان بييترو وكاستيلو، ومنه سار مسرعًا خلسة قاصدًا الحامية. لاحظ أن الناس من حوله خاضعون منكسرون، لكنهم يمارسون أعمالهم اليومية كالمعتاد، فالأعمال التجارية في البندقية لا تتوقَّف إثر حرب محلية محدودة كهذه، لكن بالطبع يعرف عددٌ من مواطني كاستيلو مدى أهمية نتيجة هذا الصراع لمدينتهم.

لم يكن إزيو يعرف عندئذٍ أنه سيكون صراعًا سوف يمتد عدَّة أشهر، بل وإلى العام التالي. فكَّر في كرستينا، وفي والدته ماريا وشقيقته كلوديا، وأحس بأنه متشرِّد، ويشيخ. لكنه تذكَّر العقيدة التي يجب صونها والدفاع عنها، وهذا أهم من كل شيء. ربما لن يعرف أحد أن جماعة الحشَّاشين أنقذت عالمهم من هيمنة فرسان الهيكل، وتعتزم مواصلة مقاومة هيمنتهم.

مهمته الأولى كانت تحديد مكان بارتولوميو، وتحريره إذا أمكن، لكن بدا أن من الصعب الدخول إلى الحامية، التي تقع عند طرف المدينة الشرقي، ومحاطة بجدران محصَّنة عالية وتضمُّ منطقة مبانٍ وأحواض سفن، وعليها حراسة مشدَّدة من قِبل جيش سيلفيو الخاص، الذي بدا أن عدده يفوق مئتي مرتزق حسبما ذكر أغوستينو باربريغو. تجاوز إزيو البوابة التي شيدها مؤخرًا المعماري غامبالو، وطاف حول محيط المباني الخارجي المحاذي للبرِّ، إلى أن وصل إلى بوابة ضخمة تحتوي على باب صغير، ومن مسافة لاحظ أن هذا المدخل الخفي يستخدمه الحراس من الخارج عند تغيير مناوبتهم. تعيَّن عليه الانتظار مستخفيًا أربع ساعات، وعندما حان موعد تغيير المناوبة كان مستعدًا. كان الجو حارًّا حارقًا في العصر، ومشبعًا بالرطوبة، وبدا جميع الناس عدا إزيو خَدِرين متبلِّدين. شاهد الجنود الجدد يخرجون عبر البوابة، التي يحرسها حارس واحد، ثمَّ تبِع المرتزقة الذين انتهت مناوبتهم وانضم خلسة إلى مؤخِّرة صفوفهم. وحالما عبر آخر جندي، شق إزيو حلق الحارس

الواقف عند البوابة وانسل داخلًا قبل أن يلاحظ أحد ما يجري. وكما حدث قبل سنوات في سان جيمِنيانو، لم تكن قوات سيلفيو هنا كافية لتغطية المنطقة بأكملها، رغم عددهم الكبير. تمثِّل الحامية مركز المدينة العسكري الرئيسي، ودون السيطرة عليها لا عجب أن أغوستينو ليست لديه أي سلطة حقيقية.

وحالما صار بالداخل، كان من السهل نسبيًّا التحرُّك في المساحات المفتوحة الواسعة بين المباني الضخمة، المدفعية، ومجمعات صناعة الأسلحة، وحوض السفن. رأى إزيو أنه سيكون على ما يرام إذا التزم بالتحرُّك في ظلال العصر المتأخر الداكنة وحرص على تفادي الدوريات المتجولة داخل مجمع المباني الضخم، ومع ذلك ظل شديد اليقظة.

مهتديًا أخيرًا بأصوات مرح وضحكات ساخرة، وجد طريقه إلى أحد الأرصفة الجافة الرئيسية، وإليها كانت تُسحَب بارجة ضخمة، ثمَّ رأى إزيو في جانب أحد جدران الرصيف الضخمة قفصًا حديدًا معلَّقًا، وداخل القفص بارتولوميو، رجل عاتٍ كدُبٍّ، في أوائل الثلاثينيات من عمره، أي يكبُر إزيو بأربعة أو خمسة أعوام، وحوله حشد من مرتزقة سيلفيو، وخطر لإزيو أنه كان يجدر بهم الاهتمام بحراسة الحامية بدلًا من مضايقة أسير عاجز، لكن خطر له أيضًا أن سيلفيو باربريغو، رغم أنه من كبار المفتِّشين، ليس خبيرًا في شؤون قيادة الجنود.

لم يعرف إزيو منذ متى ظل بارتولوميو مقيدًا في قفصه، منذ عدَّة ساعات بالتأكيد، لكن بدا أن غضبه وطاقته لم تتأثَّرا بالحبس، وهذا كان لافتًا إذ من المرجح أنه لم يُقدَّم له أي طعام أو شراب.

«أيها الجبناء الأنجاس!». كان بارتولوميو يصيح بمعذِّبيه، الذين لاحظ إزيو أن أحدهم قد غمس قطعة إسفنج في الخل ودفعها إلى شفتي بارتولوميو في طرف عصا ليظن أنه ماء، بصق بارتولوميو. «إنني مستعدٌّ لقتالكم جميعًا! في وقت واحد! بذراع واحدة مقيدة خلف ظهري، لا، بذراعَيَّ الاثنتين مقيدتَيْن خلف ظهري! سألتهمكم أحياء!». ضحك. «لا بُدَّ أنكم تتساءلون كيف يُعقل أن يكون هذا ممكنًا، لكن أخرجوني من هنا وسأبرهن لكم بكل سرور! أيها البائسون الأوغاد!».

ضحك جنود المفتِّش هازئين، ونكزوا بارتولوميو بالعصي، جاعلين القفص يتأرجح. لم تكن للقفص أرضية مغلقة، فتعيَّن على بارتولوميو التشبُّث بالقضبان بقدميه جيدًا ليحافظ على توازنه.

«لا شرف لكم! ولا شجاعة! ولا فضيلة!». استجمع ما يكفي من اللعاب في فمه وبصق عليهم. «ويتساءل الناس عن سبب أفول نجم البندقية». ثمَّ اتخذ صوته نبرة مناشدة. «سأسامح مَن لديه الشجاعة ليطلق سراحي، والبقية سوف يموتون بيدي! أقسم لكم!».

صاح أحد الحراس: «وفِّر أنفاسك اللعينة، لن يموت أحدٌ اليوم سواك أيها القذر».

طوال هذا الوقت كان إزيو متواريًا في ظل صفٍّ أعمدة قرميدية حول حوض رُبطت فيه بوارج حربية أصغر نسبيًّا، وكان يفكر في خطة لإنقاذ المرتزق. الحراس المحيطون بالقفص عشرة، جميعهم يولون إزيو ظهورهم، وما من أحد آخر ظاهر. كما كان الحراس غير مناوبين ولا يرتدون دروعهم. تحقَّق إزيو من خنجره السام. ورأى أن التخلُّص من الحراس لن يكون صعبًا. راقب أوقات مرور دوريات الجنود المناوبين، ووجد أنهم يأتون كلما استطال ظل حائط الرصيف بمقدار ثلاث بوصات. لكنَّ إطلاق سراح بارتولوميو سيكون مشكلة، إضافة إلى إبقائه هادئًا وإنهاء المهمَّة بسرعة. استغرق في التفكير، وكان يعرف أن وقته ضيق.

كان بارتولوميو يخور قائلًا: «أي رجل يبيع شرفه مقابل بضع قطع من الفضة؟». لكن حلقه بدأ يجف وتسلَّل الإرهاق إليه رغمًا عن إرادته الحديدية.

رد عليه أحد الجنود: «أليس هذا ما تفعله أيها الأبله؟ ألستَ مرتزقًا مثلنا؟».

«لم أكن يومًا في خدمة خائن وجبان كما تفعلون!». لمعت عينا بارتولوميو، فانكمش الرجل الواقف تحته. «أتظنوني لا أعرف لماذا قيدتموني؟ أتظنوني لا أعرف من يحرِّك سيدكم سيلفيو؟ إنني أقاتل المراوغ الذي يتحكَّم بسيدكم منذ أن كان معظمكم جِراءً ترضعون من أثداء أمهاتكم!».

عندئذٍ كان إزيو يصغي باهتمام. أحد الجنود التقط نصف قطعة قرميد وقذفها غاضبًا، فارتدَّت عن قضبان القفص دون أن تسبِّب أذًى.

زعق بارتولوميو بصوت مبحوح: «صحيح أيها الداعرون! اختبروني! أقسم لكم إنني حالما أتحرَّر من هذا القفص سأقطع رؤوسكم وأقحمها في مؤخِّراتكم!».

استشاط الرجال غضبًا، وكان واضحًا أن الأوامر وحدها تمنعهم من طعن الرجل بحِرابهم حتَّى الموت، أو إطلاق السهام عليه وهو معلَّق فوقهم عاجزًا

في قفصه. بحلول هذا الوقت كان إزيو قد رأى أن القفل الذي يوصد باب القفص صغيرٌ نسبيًّا، إذ اعتمد آسرو بارتولوميو على تعليق القفص في مكان عالٍ، ولا ريب في أنهم أرادوا القضاء عليه بتعريضه لحرارة الشمس اللاهبة وبرودة الليل مع الجوع والعطش، إلَّا إذا انهارت عزيمته فوافق على التعاون معهم، لكن بدا واضحًا أن بارتولوميو لن يرضخ لهم أبدًا.

عرف إزيو أنه عليه التصرُّف سريعًا. ستمر إحدى الدوريات المناوِبة بعد قليل. أخرج نصله السام، وتحرك إلى الأمام بسرعة ذئب ورشاقته، قاطعًا المسافة في غضون ثوانٍ. أعمل نصله في مجموعة الجنود وقتل خمسة منهم قبل أن يستوعب الآخرون ما يحدث، ثمَّ استلَّ سيفه وقتل البقية بوحشية، وضرباتهم العقيمة ترتد من الواقي المعدني المثبت على ذراعه اليسرى، في حين كان بارتولوميو يشاهد فاغرًا فمه. وأخيرًا استدار إزيو صامتًا ونظر إلى الأعلى.

سأله: «أيمكنك القفز؟».

- إذا فتحتَ القفص فسأقفز كبرغوث لعين.

حمل إزيو رمحًا من أحد الجنود الميتين، رمح طرفه من الحديد، لا الفولاذ، ورديء الصناعة، لكنه سيفي بالغرض. وازَن الرمحَ في يده اليسرى، وتأهَّب مقرفصًا، ووثب في الهواء، وتشبث أخيرًا بقضبان القفص الخارجية.

نظر بارتولوميو إليه بعينين جاحظتين، وسأل: «كيف فعلت هذا بحق الجحيم؟».

أجابه إزيو مبتسمًا ابتسامة باهتة: «التدريب». ثمَّ أقحم طرف الرمح في مشبك القفل وثناه، قاوم في البداية، ثمَّ انكسر. فتح إزيو الباب ثمَّ قفز وهبط برشاقة قط. وأمر بارتولوميو: «والآن اقفز، بسرعة!».

- مَن أنت؟

- هيَّا اقفز!

متوترًا أمسك بارتولوميو بباب القفص المفتوح، وقذف بنفسه إلى الأمام، وسقط سقوطًا عنيفًا انقطعت له أنفاسه، لكن عندما حاول إزيو مساعدته على النهوض، صدَّ مُنقِذه بأَنَفة، وقال لاهثًا: «أنا بخير، كل ما في الأمر أنني غير معتاد ألاعيب السيرك هذه».

- لم تكسر عظامك إذن؟

«سحقًا لك، أيًّا تكن». تكلم بارتولوميو مبتسمًا ابتسامة واسعة. «لكنني مدين لك بالشكر!». ثمَّ تفاجأ إزيو عندما عانقه الرجل عناقًا جامحًا. «مَن أنت على أي حال؟ الملاك جبريل أم ماذا؟».

- اسمي إزيو أودِتوري.

- بارتولوميو دي ألفياني. سررت بمعرفتك.

قال إزيو بحدَّة: «ليس لدينا وقت لهذا، كما تعرف».

«لا تحاول تعليمي كيفية أداء عملي أيها البهلوان». تكلم بارتولوميو بنبرة لطيفة مرحة. «على أي حال، إنني مدين لك!».

لكنهما أهدرًا وقتًا بالفعل، إذ لا بُدَّ أن أحدًا لاحظ ما يجري من سطح السور، لأن أجراس الإنذار بدأت ترن، وخرجت دوريات المراقبة من المباني المجاورة لتحاصرهما.

صاح بارتولوميو بصوت كالخوار: «هلُمَّ إليَّ أيها الأوغاد!»، ملوِّحًا بقبضتين تجعلان قبضتَي دانتي مورو تبدوان كملعقتين. حان دور إزيو ليشاهد مبهورًا، بينما اندفع بارتولوميو نحو الجنود المهاجمين. ومعًا نجحا في شقِّ طريقهما إلى الباب الصغير، وصارا بمأمن أخيرًا.

صاح إزيو: «فلنبتعد عن هنا!».

- ألا ينبغي أن نهشم بضعة رؤوس إضافية؟

- ينبغي لنا أن نتجنَّب المواجهات الآن.

- هل أنت خائف؟

- إنني عمليٌّ فحسب. أعرف أن دماءك تغلي، لكنهم يتفوَّقون علينا عدديًّا بمقدار مئة إلى واحد.

فكَّر بارتولوميو. «معك حق. ثمَّ إنني قائد، وعليَّ أن أفكِّر كقائد، ولا أنتظر مُدَّعيًا مثلك ليجعلني أتعقَّل». خفض صوته وتكلم بنبرة قلق. «آمل أن تكون صغيرتي بيانكا بأمان».

لم يكن لدى إزيو وقت للتساؤل بشأن استطراد بارتولوميو. تعيَّن عليهما الانسحاب بسرعة، واتجها إلى مقر بارتولوميو في سان بييترو. لكن ليس قبل أن يعرِّج بارتولوميو أولًا على ريفا سان باسيو وكورتي نوفا ليُخطر عملاءه

بأنه ما زال حيًّا ونال حريته، وليستجمع جنوده الذين تفرَّقوا ممَّن لم يقعوا في الأسر.

وصلا إلى سان بييترو عند الغسق، ووجدا أن عددًا قليلًا من مرتزقة بارتولوميو نجوا من الهجوم والآن خرجوا من مخابئهم ويتحرَّكون بين الموتى الذين انتفخت جثثهم، محاولين دفنهم وإعادة تنظيم أنفسهم. اغتبطوا برؤية قائدهم، لكنه كان مشتَّت الانتباه، يتراكض هنا وهناك في معسكره، مناديًا بحزن: «بيانكا! بيانكا! أين أنت؟».

سأل إزيو أحد ضباط النظام: «من هذه التي يبحث عنها؟ لا بُدَّ أنها قيِّمة لديه».

ابتسم الضابط. «بالطبع يا سيدي، وموثوقة أكثر من بني جنسها».

ركض إزيو ليلحق بحليفه الجديد، وسأله: «هل كل شيء على ما يرام؟».

- ما رأيك؟ انظر إلى حالة هذا المكان! وبيانكا المسكينة! إذا مسها سوء...

دفع الرجل الضخم بكتفه بابًا متهالكًا، فأسقطه، ودخل إلى حجرة محصَّنة تحت الأرض، بدت أنها كانت حجرة خرائط قبل الهجوم، وقد خُرِّبت الخرائط القيِّمة أو سُرقت، لكن بارتولوميو راح ينقِّب في الحطام، ثمَّ أطلق صيحة نصر...

«بيانكا! حمدًا للرب أنك بخير!».

أخرج سيفًا ضخمًا من بين الحطام ولوَّح به هادرًا: «أها! إنك بأمان! لم يساورني أدنى شك! بيانكا! أود أن أعرِّفك بـ... أخبِرني باسمك مرَّة أخرى».

- إزيو أودِتوري

بدت أمارات التفكير على بارتولوميو.

- بالطبع. سمعتك تسبقك يا إزيو.

- يسرُّني ذلك.

- ماذا جاء بك إلى هنا؟

- أنا أيضًا لديَّ شأن مع سيلفيو باربريغو، أظنه مكث في البندقية مدَّة أطول ممَّا ينبغي له.

- سيلفيو! يا له من وضيع! علينا كنسه كما تُكنَس القذارة!

- رأيتُ أن أطلب مساعدتك.

- بعدما أنقذتني إنني مدين لك بحياتي، ناهيك بمساعدتي.
- كم عدد رجالك؟
- كم عدد الناجين هنا يا ضابط النظام؟

ضابط النظام الذي تحدَّث إزيو معه سابقًا جاء راكضًا وأدَّى التحية العسكرية قائلًا: «اثنا عشر أيها القائد، وفيهم أنت وأنا وهذا السيد».

صاح بارتولوميو ملوِّحًا ببيانكا: «ثلاثة عشر!».

قال إزيو: «مقابل مئتين». التفت إلى ضابط النظام. «وكم عدد الذين وقعوا في الأسر من رجالكم؟».

أجاب الرجل: «معظمهم. كان الهجوم مفاجئًا لنا تمامًا. بعض رجالنا هربوا، لكن جنود سيلفيو اقتادوا كثيرين مقيدين بالأغلال».

قال بارتولوميو: «اسمع يا إزيو، سأشرِف على جمع بقية رجالي الذين لا يزالون أحرارًا، وسأرتِّب هذا المكان وأدفن موتاي ثمَّ سنتجمع هنا. في هذه الأثناء أتظن أن بمقدورك تولِّي تحرير الرجال الذين أسرهم سيلفيو؟ لأنك تبدو بارعًا في ذلك».

- بالتأكيد.
- عُد بهم إلى هنا في أقرب وقت ممكن. حظًّا موفقًا!

ثبَّت إزيو أسلحة مجلد المخطوطات، واتجه غربًا مرَّة أخرى نحو الحامية، وتساءل عمَّا إذا كان سيلفيو قد أبقى جميع رجال بارتولوميو مسجونين في الحامية، ولم يكن قد رأى أيًّا منهم عندما ذهب لإنقاذ بارتولوميو. عندما بلغ الحامية تحرَّك بين ظلال الليل وحاول الاستماع إلى نقاشات الحراس المتمركزين على امتداد الجدران الخارجية.

قال أحدهم: «هل رأيت أقفاصًا كبيرة كتلك؟».

أجاب رفيقه: «لا. وأولئك الأوغاد التعساء مكتظين فيها كأسماك السردين. لا أظن أن القائد بارتو كان ليعاملنا بهذه الطريقة إذا انتصر».

- لَعاملنا بهذه الطريقة بلا شك. واحتفظ بأفكارك النبيلة لنفسك إذا أردت أن تبقي رأسك فوق كتفيك. أرى أن نتخلَّص منهم، لِم لا ننزل الأقفاص في الأحواض ونغرقهم جميعًا؟

توتَّر إزيو إثر سماعه الكلام الأخير. كانت توجد ثلاثة أحواض مستطيلة ضخمة داخل الحامية، وكل منها مصمَّمٌ ليتسع لثلاثين بارجة، وكانت الأحواض في الجانب الشمالي من الحامية، محاطة بجدران سميكة ومغطَّاة بأسقف خشبية ثقيلة. وبلا شك كانت الأقفاص -وهي نسخ أكبر من القفص الذي حُبس فيه بارتولوميو- معلَّقة بسلاسل فوق المياه في حوض أو أكثر.

قال الحارس الثاني: «مئة وخمسون رجلًا مدرَّبًا! يا للخسارة. مقابل المال يأمل سيلفيو أن يحوِّل ولاءهم إلى قضيتنا».

- حسنًا، إنهم مرتزقة مثلنا، فلِمَ لا إذن؟

- صحيح! ما علينا سوى تليين عزيمتهم قليلًا أولًا، ليعلموا أننا السادة.

- آمل هذا.

- حمدًا للرب أنهم لا يعلمون أن قائدهم هرب.

بصق الحارس الأول. «لن يهرب لمدَّة طويلة».

تركهما إزيو واتجه إلى الباب الصغير الذي اكتشفه في وقت سابق، ولم يكن أمامه وقت لينتظر تغيير الحراس، لكنه خمن من المسافة التي تفصل القمر عن الأفق أن أمامه قرابة ساعتين. أخرج نصله المنبثق -سلاح مجلد المخطوطات الأول الذي ما زال المفضل لديه- وشقَّ حلق الحارس البدين العجوز الذي رآه سيلفيو قادرًا على الحراسة وحده. ودفعه بعيدًا عنه قبل أن يتلطَّخ بدمائه، ومسح النصل بالعشب سريعًا، ثمَّ استبدل به النصل السام. ورسم شارة الصليب فوق الجثة.

بدا مجمع المباني داخل أسوار الحامية مختلفًا تحت ضوء الهلال وبضعة نجوم، لكن إزيو عرف موقع الأحواض واتجه إلى الحوض الأول متسلقًا الجدران محاذرًا الاصطدام برجال سيلفيو. حدَّق من خلال الأقواس المفتوحة إلى عتمة المياه خلفها، لكنه لم ير شيئًا سوى بوارج تهتز برفق، والحوض الثاني لم يختلف الوضع فيه عن الأول، لكن عندما اقترب من الثالث سمع أصواتًا.

كان أحد رقباء المفتِّش، يهتف بنبرة هازئة: «لم يفُت أوان التعهُّد بولائكم لقضيتنا، ما عليكم سوى نطق الكلمة حتَّى نعفو عنكم».

ملتصقًا بالجدار رأى إزيو قرابة عشرة جنود، أسلحتهم على الأرض وقنانيهم في أيديهم، يحدِّقون إلى عتمة السقف، حيث تتدلَّى ثلاثة أقفاص

حديدية عملاقة. ورأى أن آليةً خفيةً ما تنزل الأقفاص نحو المياه بالأسفل، ولم تكن توجد بوارج في هذا الحوض، لا شيء فيه سوى مياه سوداء ملوَّثة بالزيت يجوس فيها شيء لا يُرى لكنه مخيف.

كان بين حراس المفتِّش حارس واحد لا يشرب الخمر، رجل بدا يقظًا دومًا، رجل عملاق بشع. تعرَّف إزيو فورًا على دانتي مورو! إذن بعد موت سيده ماركو، حوَّل الرجل الجبل ولاءه إلى ابن العم سيلفيو، المفتش، الذي أعرب في وقت سابق عن إعجابه بالحارس الشخصي العملاق.

تحرَّك إزيو بحذر بمحاذاة الجدران حتَّى وصل إلى صندوق مفتوح ذي إطار يحتوي على نظام من تروس وبكرات وحبال يُمكن أن يكون مُصمِّمه ليوناردو. هذه كانت الآلية التي تتحكَّم في إنزال الأقفاص، تحرِّكها ساعة مائية. سحب إزيو خنجره العادي من غمده وأقحمه بين تِرسَين، فتوقَّفت الآلية، وقد تأخَّر إزيو قليلًا، لأن الأقفاص صارت على بعد بوصات من سطح المياه. لكن الحراس لاحظوا فورًا أن نزول الأقفاص توقَّف، وبعضهم ركضوا إلى الآلية التي تتحكَّم في الأقفاص. أخرج إزيو نصله السام وانهال به على الحراس تباعًا، سقط اثنان في المياه وصرخا لوهلة وجيزة قبل أن يغرقا في المياه الزيتية السوداء، في حين اندفع إزيو بمحاذاة محيط الحوض نحو الحراس الآخرين، لكن جميعهم فرُّوا مرتاعين ما عدا دانتي، الذي وقف في مكانه شامخًا كبُرج فوق إزيو.

سأله إزيو: «هل صرت كلب سيلفيو الآن؟».

قال دانتي: «الكلب الحي أفضل من الأسد الميت»، وحاول ضرب إزيو وإسقاطه في المياه.

قال إزيو متفاديًا الضربة: «توقَّف! لا أضمر عداوة لك!».

«أوه، اصمت»، تكلَّم دانتي وهو يرفع إزيو من مؤخِّرة عنقه ويهوي به على جدار الحوض. «لا أضمر لك عداوة أيضًا». ورأى أن إزيو دُهِش من كلامه. «ابقَ هنا فحسب، عليَّ الذهاب لتحذير سيدي، لكنني سأعود وأقدِّمك طعامًا للأسماك إذا سبَّبتَ لي أي متاعب!».

وذهب. هز إزيو رأسه ليستعيد صفاءه، ثمَّ نهض مشوشًا. كان الرجال في الأقفاص يصيحون، ورأى إزيو أن أحد حراس سيلفيو زحف عائدًا إلى الآلية التي تنزل الأقفاص وعلى وشك نزع الخنجر الذي أقحمه فيها. حمد الرب لأنه

لم ينسَ مهارة قذف السكاكين التي تعلَّمها قديمًا في مونترِجيوني، وأخرج سكينًا من حزامه وقذفه بدقة مميتة، فسقط الحارس متأوِّهًا ممسكًا بالنصل المغروز بين عينيه.

أخذ إزيو خُطافًا من رف على الجدار خلفه، ثمَّ مال فوق المياه على نحو خطر وجذب أقرب قفص نحوه، كان بابه مغلقًا بمزلاج بسيط، ففتحه أزيو وأخرج الرجال الذين بالداخل، وبمساعدتهم تمكَّن من سحب القفصين الآخرين وإطلاق سراح السجناء تباعًا.

هتفوا لإزيو رغمًا عن إرهاقهم ومحنتهم.

صاح: «هيا! عليَّ إعادتكم إلى قائدكم!».

تغلَّبوا على الجنود الذين يحرسون الأحواض، وعادوا دون أن يجدوا مقاومة إلى سان بييترو، حيث حَظِيَ بارتولوميو ورجاله بلم شمل مفعم بالمشاعر. وفي غياب إزيو عاد جميع المرتزقة الذين أفلتوا من مجزرة سيلفيو الأولى، وأصبح المعسكر في حالة مثالية.

قال بارتولوميو: «عودًا حميدًا يا إزيو، أهنِّئك! أحسنت صنعًا، رباه! كنت أعرف أن بوسعي الاعتماد عليك!». أخذ بيدَي إزيو. «إنك أعظم حليف، يكاد المرء أن يظن...». لم يكمل عبارته، وقال: «بفضلك استعاد جيشي مجده السابق. والآن سيعرف صديقنا سيلفيو مدى فداحة الخطأ الذي اقترفه!».

- ماذا سنفعل إذن؟ هل نشنُّ هجومًا مباشرًا على الحامية؟

- لا. بالهجوم المباشر سنعرِّض أنفسنا لمجزرة عند البوابات. أرى أن نزرع رجالي في أنحاء المقاطعة ونطلب منهم أن يثيروا الشغب حتَّى يشغلوا معظم رجال سيلفيو.

- إذن... إذا صارت الحامية شبه فارغة...

- فسيمكنك الاستيلاء عليها بفريق مُنتقى بعناية.

- فلنأمل أن يبتلع سيلفيو الطُّعم.

- إنه مفتِّش، يعرف التنمُّر على الذين تحت رحمته فحسب، ليس جنديًّا، سحقًا، ليس لديه حتَّى الفطنة الكافية ليكون لاعب شطرنج متوسِّط المهارة!

استغرق نشر مرتزقة بارتولوميو في أنحاء كاستيلو ومنطقة الحامية بضعة أيام. وعندما اكتملت الاستعدادات، جمع بارتولوميو وإزيو مجموعة صغيرة من المرتزقة المختارين كانا قد احتفظا بهم من أجل الهجوم على معقل سيلفيو، واختار إزيو بنفسه الرجال الذين يتمتَّعون بالرشاقة ومهارة استخدام الأسلحة.

خططوا للهجوم على الحامية بعناية، وفي ليلة الجمعة التالية صاروا على أهبة الاستعداد. أُرسِل مرتزق إلى قمة برج سان مارتينو، وعندما بزغ القمر كاملًا، أشعل شمعة رومانية ضخمة من تصميم ورشة ليوناردو. وهذه كانت إشارة الهجوم. بملابسهم ومعداتهم الجلدية الداكنة شرع فريق المرتزقة في تسلُّق جدران الحامية من جهاتها الأربع، وحالما اجتاز الرجال الجدران، تحرَّكوا كالأشباح مخترقين الحصن الهادئ، وبسرعة تخلَّصوا من الحراس القليلين بالداخل. ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يجد إزيو وبارتولوميو نفسيهما في مواجهة ألد أعدائهما، سليفيو ودانتي.

كان دانتي، وبين أصابعه قطعة معدنية للملاكمة، يلوح بسلسة ضخمة في طرفها كرة شائكة مدافعًا عن سيده، فصعُب على إزيو أو بارتولوميو الاقتراب، ورجالهما مشتبكين مع جنود سيلفيو الآخرين.

زعق سيلفيو من مأمنه في الفتحات التي أعلى جدار: «إنه رائع، أليس كذلك؟ ينبغي أن تتشرَّفوا بالموت على يديه!».

رد بارتولوميو عليه صائحًا: «سحقًا لك أيها اللعين!». ومستخدمًا فأسه الحربي تمكَّن من الإمساك بسلسلة دانتي وانتزاعها، فانسحب دانتي بعدما جُرِّد من سلاحه. «هيا يا إزيو! علينا اللحاق بالسافل البدين!».

استدار دانتي بعدما وجد سلاحًا، هراوة في طرفها مسامير ملتوية، وواجههما مرَّة أخرى. هوى بالهراوة على بارتولوميو فأحدث مسمارٌ جرحًا غائرًا على كتفه.

صاح بارتولوميو بصوت كالخوار: «سأقضي عليك أيها الخنزير القذر!».

لقَّم إزيو مسدسه وأطلق النار نحو سيلفيو، وارتدت رصاصته من الجدار القرميدي ناثرةً الغبار والشظايا.

زمجر سيلفيو: «أتظنني لا أعرف السبب الحقيقي لوجودك هنا يا أودِتوري؟». لكن بدا واضحًا أنه ارتاع من طلقة المسدس. «لكنك تأخَّرت! ما من شيء يمكنك فعله لإيقافنا الآن!».

أعاد إزيو التلقيم وأطلق النار مرَّة أخرى، لكنه كان غاضبًا، ومشوشًا بكلمات سيلفيو، فطاشت طلقته مرَّة أخرى.

«ها!». بصق سيلفيو من أعلى الجدار بينما دانتي وبارتولوميو مشتبكان بعنف. «تتظاهر بأنك لا تعرف! لكن حالما يتخلَّص دانتي منك ومن صديقك ذي العضلات المتخشِّبة، فلن يهم أي شيء. لن تجد سوى مصير والدك المغفَّل! أتعرف أشد ما يؤسفني؟ أنني لم أشنق جيوفاني بنفسي، لأحببت جذب ذراع المشنقة ومشاهدة والدك التعس يركل ويشهق ويتلوَّى! وعندئذٍ لتفرَّغت لعمِّك السِّكِّير، ماريو البدين، ووالدتك التي ما زالت مكتئبة ماريا، وأختك المغوية كلوديا. لا أتذكَّر آخر مرَّة حظيت بامرأة دون سنِّ الخامسة والعشرين! لذا سأحتفظ بالأخيرة للرحلة، يشعر المرء بالوحدة في البحر!».

من خلال غلالة الغضب الحمراء التي ارتسمت أمام إزيو، ركَّز على المعلومات المتدفِّقة من شفتي المفتِّش مع إهاناته.

بحلول هذا الوقت بدأت كفَّة حراس سيلفيو المتفوقين عدديًّا ترجح على مغاوير بارتولوميو. سدَّد دانتي لكمة هائلة أخرى بقبضته الحديدية نحو بارتولوميو، هوت على قفصه الصدري وجعلته يترنَّح. أطلق إزيو النار على سيلفيو مجددًا، وهذه المرَّة اخترقت الرصاصة عباءة المفتِّش بجوار عنقه، ورغم أن الرجل ترنَّح وسال منه خيط دماء رفيع، لم يسقط، وصاح بأمر لدانتي، فتراجع مندفعًا إلى أعلى الجدار لينضمَّ إلى سيده، واختفيا معًا على الجانب الآخر من الجدار. عرف إزيو أنه يوجد سُلَّم على الجانب الآخر يوصلهما إلى الرصيف، فصاح لبارتولوميو بأن يتبعه، وترك ميدان المعركة ليقطع الطريق على عدُوَّيه.

رآهما يصعدان على متن قارب ضخم، لكنه لاحظ الغضب واليأس على وجهيهما، فتابع نظراتهما ورأى بارجة سوداء عملاقة تختفي على الجانب الآخر من البحيرة نحو الجنوب.

سمع إزيو سيلفيو يقول لدانتي: «تعرَّضنا للخيانة! أبحرت البارجة دوننا! عليهم اللعنة! كنتُ وفيًّا لهم طوال الوقت، وها هو جزائي!».

قال دانتي: «فلنستخدم هذا القارب للّحاق بهم».

- فات الأوان، ولن نبلغ الجزيرة أبدًا على متن هذا القارب، لكن على الأقل يمكننا الابتعاد به عن هذه الكارثة.

- فلنتحرَّك إذن يا سموك.

- أجل.

التفت دانتي إلى البحَّارة المضطربين. «انطلقوا! ارفعوا الأشرعة! هيا!».

عندئذٍ ظهر إزيو فجأة من الظلال وعبر الرصيف قافزًا على القارب، فلاذ البحَّارة المذعورون بالفرار وغاصوا في البحيرة المعتكرة.

صرخ سيلفيو: «ابتعد عنِّي أيها القاتل!».

قال إزيو: «هذه آخر إهانة توجهها». وطعنه في أحشائه ساحبًا خنجره ذا النصل المزدوج على بطنه. «وعقابًا لك على ما قلته عن أقربائي لقطعت خصيتيك لكنك لا تستحق العناء».

وقف دانتي متسمِّرًا في مكانه، وحدجه إزيو بنظرة صارمة. بدا الرجل العملاق منهكًا.

قال إزيو له: «انتهى الأمر. راهنتَ على الحصان الخاسر».

- ربما. لكنني سأقتلك على أي حال، أيها الحشَّاش القذر، أتعبتني.

أخرج إزيو مسدسه وأطلق النار، فأصابت الرصاصة دانتي في وجهه، وسقط.

جثا إزيو بجوار سيلفيو ليمنحه الغفران. كان حي الضمير ويتذكر دومًا أنه ينبغي ألَّا يلجأ إلى القتل إلا إذا لم يجد خيارًا آخر، وأن المحتضر الذي لا حول له ولا قوة ينبغي أن يمنح طقوسه الأخيرة على الأقل.

- إلى أين كنت ذاهب يا سيلفيو؟ ما أمر تلك البارجة؟ ألم تكن تسعى إلى منصب الدوج؟

ابتسم سيلفيو ابتسامة واهنة. «إنها مجرَّد إلهاء... كُنَّا نعتزم الإبحار إلى...».

- إلى أين؟

«فات الأوان». ابتسم سيلفيو، ومات.

استدار إزيو إلى دانتي ورفع بذراعه رأسه الضخم كرأس أسد. قال دانتي بصوت كالنقيق: «اتجهوا إلى قبرص يا أودِتوري، ربما يمكنني إيجاد الخلاص لروحي أخيرًا بإخبارك الحقيقة. ذهبوا... ذهبوا إ...» لكن الرجل الضخم اختنق بدمائه ولفظ أنفاسه الأخيرة.

فتَّش إزيو محفظتي الرجلين، لكنه لم يجد سوى رسالة إلى دانتي من زوجته، وقرأها خجِلًا:

حُبِّي..

أتساءل عمَّا إذا سيأتي يومٌ تعِي فيه معنى هذه الكلمة. آسفة على ما فعلتُه، آسفة على السماح لماركو بأن يسلبني منك، وإرغامه لي على تطليقك، والزواج به. لكن الآن وقد مات، ربما أجد طريقة للمِّ شملنا. لكن هل ستتذكَّرني؟ أم أن الجراح التي عانيتها لم تلتئم بعد؟ إذا لم تستثِر كلماتي ذاكرتك، فهل تلامس قلبك؟ لكن ربما لا يهم هذا، لأنك ما زلت في قلبي، في مكان ما. سوف أجد طريقة يا حبي، لتذكيرك، واستعادتك...

حبيبتك إلى الأبد

غلوريا

لم يُكتب عنوان على الرسالة. طواها إزيو بعناية ووضعها في محفظته، قرَّر أن يسأل تيودورا عمَّا إذا كانت تعرف شيئًا عن هذه القصة الغريبة، وعما إذا بإمكانها إعادة الرسالة إلى مرسلتها، مع خبر موت زوج هذه المخلوقة عديمة الوفاء.

نظر إلى الجثتين، ورسم فوقهما علامة الصليب، وقال بحزن: «فلترقدا بسلام».

وبينما كان إزيو لا يزال واقفًا فوق الرجلين الميتين، جاءه بارتولوميو لاهثًا، وقال: «أرى أنك لم تكن في حاجة إلى مساعدتي، كالمعتاد».

- هل استعدت الحامية؟

- أتظنني سأكون هنا إذا لم أستعدها؟

- أهنئك!

- مرحى!

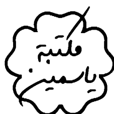
أرسل إزيو بصره إلى عرض البحر، ثمَّ قال: «استعدنا البندقية يا صديقي، وبمقدور أغوستينو حكمها دون خوف من فرسان الهيكل. بيد أنني لا أظنني سأخلد إلى الراحة. أترى تلك البارجة في الأفق؟».

- نعم.

- أخبرني دانتي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة بأنها متجهة إلى قبرص.

- من أجل ماذا؟

- هذا ما عليَّ معرفته يا صديقي.



21

لم يصدِّق إزيو أنه في أحد أيام صيف عام 1487، يوم عيد ميلاده الثامن والعشرين. كان وحده على جسر *المُلاكِمين*، متكئًا على الحاجز، مُغتمًّا، ناظرًا إلى مياه القناة أسفله. وفي أثناء مشاهدته رأى جرذًا يسبح دافعًا أمامه حمولة من أوراق الكُرُنب، سرقها من قارب بائع خضراوات، نحو فجوة في القرميد الأسود عند ضفَّة القناة.

جاءه صوت مبتهج: «إزيو! ها أنت ذا». شمَّ إزيو رائحة مِسك روزا قبل أن يلتفت ليحيِّيها. «انقضى وقت طويل! أكاد أظن أنك تتجنَّبني عمدًا!».

- كنتُ... مشغولًا.

- بالطبع. لعجزت البندقية عن فعل أي شيء دونك!

هزَّ إزيو رأسه حزينًا، واتكأت روزا بجواره مسترخية على الحاجز.

سألتْه: «لِمَ هذا التجهُّم أيها الوسيم؟».

رمقها إزيو بنظرة خالية من التعابير، وهزَّ كتفيه. «عيد ميلاد سعيد لي».

- عيد ميلادك اليوم؟ هل أنت جادٌّ؟ مرحى! تهانينا! هذا أمر عظيم!

قال إزيو: «لا أراه عظيمًا». ثمَّ أردف متنهِّدًا: «انقضت أكثر من عشر سنوات منذ أن شاهدتُ موت أبي وشقيقي، وقد أمضيت عشر سنوات في مطاردة الجُناة، والمُدرجين في قائمة أبي، والذين أضِفتُهم منذ موته. وأعرف أنني قريب من النهاية الآن. لكنني لم أقترب من فهم *الغاية* من كل هذا».

- كرَّستَ حياتك لقضيَّة سامية يا إزيو، جعلتْك وحيدًا معزولًا، ومن ناحيةٍ ما كانت غايتك. لم تظلم أحدًا قط، رغم أن الوسيلة التي استعنتَ بها

لتحقيق غايتك هي الموت. البندقية مكانٌ أفضل كثيرًا ممَّا كانت في أي وقت مضى، بفضلك، لذا ابتهج. وعلى أي حال، بما أن اليوم عيد ميلادك، إليك هدية. توقيتها ممتاز!

أخرجتْ دفترًا يبدو رسميًّا.

- شكرًا لك يا روزا. هذا ليس ما تخيلتُ أن تمنحينه لي في عيد ميلادي. ما هو؟

- مجرَّد شيء صادف أن... التقطتُه. إنه بيان بأسماء ركاب سفينة، أخذته من الحامية. مكتوب فيه تاريخ إبحار السفينة إلى قبرص العام الماضي.

- حقًّا؟

مدَّ إزيو يده ليتناول الدفتر، لكن روزا أبعدته عنه لتغيظه. «أعطيني إياه روزا. هذه ليست مزحة».

همست له: «لكل شيء ثمن...».

«كما تشائين». احتضنها بين ذراعيه مدَّة طويلة حتَّى ذابت على صدره، فاختطف الدفتر منها.

ضحكت. «هذا ليس عدلًا! على أي حال، لأوفِّر عليك شدَّ الأعصاب، تلك السفينة من المُقرر عودتها إلى البندقية غدًا!».

- أتساءل عمَّا سيجلبونه معهم.

- لماذا لست متفاجئة من أن شخصًا لا يبعد عن هنا مليون ميلٍ سيعرف الإجابة؟

ابتسم إزيو ابتسامة واسعة. «فلنذهب ونحتفل أولًا!».

لكن عندئذٍ ظهرت هيئة مألوفة مسرعة.

قال إزيو مدهوشًا: «ليوناردو! ظننتك في ميلانو!».

أجاب ليوناردو: «عُدت للتَّوِّ. أُخبِرت بالمكان الذي قد أجدك فيه. مرحبًا يا روزا. معذرة يا إزيو، أريد التحدُّث معك».

- الآن؟ في هذه اللحظة؟

- آسف.

ضحكت روزا. «اذهبا يا فتيان، استمتعا. سأنتظر!».

اقتاد ليوناردو إزيو الممانع بعيدًا.

تمتم إزيو: «يجدر بحديثك أن يحمل لي خبرًا جيدًا».

قال ليوناردو مطَمْئنًا: «بالطبع، بالطبع». واقتاد إزيو عبر عدَّة أزقة ضيقة حتَّى وصلا إلى ورشته، وبحث في أنحاء المكان وجاء بنبيذ دافئ وكعك، وحزمة وثائق ألقاها على طاولة ضخمة في وسط مكتبه.

قال ليوناردو: «أوصلتُ صفحات المخطوطات إلى مونترجيوني كما وعدتك، لكنني لم أستطع مقاومة إغراء دراستها بتدقيق أشد، ودوَّنتُ ما توصلتُ إليه. لا أدري لماذا لم ألحظ هذه الصلة من قبل، لكن عندما وضعت الصفحات معًا، أدركت أن العلامات والرموز والحروف الهجائية القديمة يمكن حل شفرتها، ويبدو أننا وجدنا الكنز! جميع الصفحات مُتماسَّة ومتصلة!». قاطع نفسه. «هذا النبيذ دافئ جدًّا! يبدو أنني اعتدت سان كولومبانو، فمقارنة به هذا الفينيتو مثل بول البعوض».

قال إزيو بصبر: «تابع».

«اسمع هذا». أخرج ليوناردو نظارة ووضعها على أنفه، ثمَّ قلَّب أوراقه وقرأ: «النبي... سوف يظهر... عندما تُجلب القطعة الثانية إلى المدينة العائمة...».

أخذ إزيو نفسًا عميقًا إثر سماعه الكلمات. «النبي؟ «النبي وحده يمكنه فتحها...» «قطعتَي عدن...»».

ارتسم التساؤل على وجه ليوناردو، ونزع نظارته. «إزيو؟ ما الأمر؟ هل تذكرك هذه الكلمات بشيء؟».

نظر إزيو إليه، وبدا أنه توصَّل إلى قرار. «إننا نعرف بعضنا منذ زمن طويل يا ليوناردو، وإذا لم أستطع أن أثق بك، فما من شخص... اسمع! عمي ماريو تحدَّث عن هذا، قبل مدَّة طويلة. وهو قد حل سلفًا شفرة صفحات مجلد المخطوطات الأخرى، كما فعل أبي جيوفاني. ثمَّة نبوءة مخفية في الصفحات، نبوءة عن خزانة سرية قديمة تحتوي على شيء، شيء ينطوي على قوة هائلة!».

«حقًّا؟ هذا مذهل!». وعندئذٍ خطرت فكرة لليوناردو. «اسمع يا إزيو، إذا اكتشفنا كل هذا من مجلد المخطوطات، فما مقدار ما يعرفه باربريغو

والآخرون الذي تخوض معاركك معهم؟ ربما هم أيضًا يعرفون وجود الخزانة التي ذكرتها، وإذا عرفوا فعلًا، فهذا ليس أمرًا جيدًا».

«مهلًا!» تكلم إزيو مستغرقًا في التفكير. «ماذا لو أن معرفتهم هي سبب إرسالهم البارجة إلى قبرص؟ حتّى يجدوا «قطعة عدن»! ويجلبوها إلى البندقية!».

- «عندما تُجلب القطعة الثانية إلى المدينة العائمة»، بالطبع!

- أتذكَّر الآن! «النبي سوف يظهر...» «النبي وحده يمكنه فتح الخزانة!»... رباه يا ليو، عندما أخبرني عمي عن مجلد المخطوطات، كنت يافعًا طائشًا، فظننت كلامه خيالات رجل عجوز. لكن الآن أرى كل شيء بوضوح! مقتل جيوفاني موسينغو، ومقتل أقاربي، ومحاولة قتل الدوق لورنزو والميتة الفظيعة التي لقيها شقيقه... كل ذلك كان جزءًا من خطة *الإسباني* ليعثر على الخزانة! وهو الأول في قائمتي ولم يقع في قبضتي بعد.

اضطربت أنفاس ليوناردو، إذ عرف الرجل الذي تحدَّث عنه إزيو، قال هامسًا: «رودريغو بورجيا».

- هو عينه! بارجة قبرص ستصل غدًا، أعتزم الذهاب لاستقبالها.

عانق ليوناردو إزيو وقال: «حظًّا موفقًا يا صديقي العزيز».

***

وفي فجر اليوم التالي، كان إزيو، متسلِّحًا بأسلحة مجلد المخطوطات وحزام سكاكين، واقفًا في ظلال صف أعمدة بجوار الأرصفة، يشاهد من كثب مجموعة رجال، يرتدون أزياء عادية لتجنُّب لفت الانتباه لكنها تُظهِر من طرف خفي شعار الكاردينال رودريغو بورجيا، وهم ينزلون صندوقًا صغيرًا عادي المظهر من بارجة سوداء وصلت من قبرص قبل وقت ليس بالطويل. حملوا الصندوق وهم يرتدون قفازات جلدية، ثمَّ رفعه أحدهم على كتفه، واستعد للانطلاق به تحت حراسة. لكن عندئذٍ لاحظ إزيو عدَّة حراس آخرين يرفعون صناديق مشابهة على أكتافهم، بلغ عددهم الإجمالي خمسة. هل يحتوي كل صندوق على قطعة أثرية ثمينة، القطعة الثانية، أم جميعها تمويهات عدا واحد؟ كما بدا جميع الحراس متشابهين من حيث يراقبهم إزيو.

وما إن استعد إزيو للخروج من مخبئه وتعقُّبهم، لاحظ رجلًا آخر يراقب ما يجري من نقطة مراقبة مشابهة، وكبح شهقة لا إرادية عندما بدا له أن الرجل الثاني هو عمُّه، ماريو أودِتوري، لكن ما من وقت لتحيته أو التأكد من هويته، إذ تحرَّك جندي بورجيا الذي يحمل الصندوق مع حراسه، وتبعهم إزيو من مسافة آمنة. لكن سؤالًا ألح عليه، هل كان الرجل الآخر عمه حقًّا؟ وإذا كان عمه، فكيف وصل إلى البندقية؟ ولماذا في هذه اللحظة بعينها؟

لكن تعيَّن عليه استبعاد هذه التساؤلات وهو يتعقَّب حراس بورجيا، والتركيز على إبقاء حامل الصندوق الأول ضمن مجال بصره، رغم أنه غير متأكد من أنه الذي يحتوي إحدى 'قطعتي عدن'.

وصل الحراس إلى ساحة تتفرَّع منها خمسة شوارع، وتحرَّك كل حارس يحمل صندوقًا في اتجاه مختلف ومعه مرافقيه. تسلَّق إزيو جانب مبنًى مجاور حتَّى يتمكَّن من متابعة مسار كل حارس من أسطح المباني، شاهدهم بانتباه، فرأى أحدهم يترك مرافقيه وينعطف داخلًا إلى فناء مبنًى مشيَّد من القرميد، ويضع الصندوق على الأرض، ويفتحه، وسرعان ما انضم إليه أحد رقباء بورجيا. تحرَّك إزيو فوق الأسقف ليسمع ما يقولانه.

كان الرقيب يقول: «الزعيم ينتظر. أعِد تغليفه وحزمه بعناية، الآن!».

شاهد إزيو الحارس ينقل شيئًا مغلَّفًا بالقشِّ بعناية من الصندوق إلى صندوق صغير آخر من خشب الساج جلبه خادم من المبنى. فكَّر إزيو بسرعة. الزعيم! حسب خبرته، عندما يذكر تابعو فرسان الهيكل اللقب فهُم يقصدون رجلًا واحدًا، رودريغو بورجيا! بدا واضحًا أنهم يعيدون تغليف القطعة الأثرية الحقيقية لمضاعفة إجراءاتهم الأمنية. لكن عندئذٍ عرف مَن عليه استهدافه من الحراس.

انزلق هابطًا إلى مستوى الشارع وحاصر الجندي حامل صندوق خشب الساج في ركن. كان الرقيب قد غادر لينضمَّ إلى الحراس المرافقين التابعين للكاردينال، وانتظر خارج الفناء. وفي خلال دقيقة شقَّ إزيو حلق الجندي وسحب الجثة بعيدًا عن الأنظار وارتدى زيه وخوذته.

وما إن همَّ برفع الصندوق على كتفه، تغلَّب عليه إغراء إلقاء نظرة بداخله، فرفع الغطاء، لكن عندئذٍ ظهر الرقيب عند مدخل الفناء.

«هيا، تحرَّك!».

قال إزيو: «نعم سيدي!».

- كُف عن التلكُّؤ، على الأرجح هذه أهم مهمَّة تؤدِّيها في حياتك، أتفهمني؟
- نعم سيدي.

اتخذ إزيو مكانه وسط الحراس المرافقين، وتحرَّكت المجموعة.

ساروا شمالًا عبر المدينة من الرصيف إلى كنيسة القديسين جيوفاني وباولو، حيث ينتصب تمثال فروسي ضخم للمرتزق كوليوني نحته فيروكيو. ثمَّ تابعوا السير شمالًا بمحاذاة فوندامينتا دي ميندكانتي، ووصلوا أخيرًا إلى منزل باهت المظهر مُطِل على القناة. طرق الرقيب على الباب برمانة سيفه، ففُتح على الفور، أدخلت مجموعة الحراس إزيو بسرعة أولًا، وتبعوه، وأُغلق الباب خلفهم بمزاليج ثقيلة.

وقفوا أمام رواق مسقوف في مقدمة المبنى مزين باللبلاب، وفيه يجلس رجل معقوف الأنف في أواخر الخمسينيات من عمره، يرتدي عباءة مخملية بنفسجية شاحبة. حيَّاه الرجال، وفعل إزيو أيضًا، متحاشيًا النظر إلى العينين الزرقاوين المخضرتين الباردتين اللتين يعرفهما جيدًا. الإسباني!

تحدَّث رودريغو بورجيا مع الرقيب: «هل وصلتْ حقًّا؟ ألم يتبعكم أحد؟».

- لا يا سموك، كل شيء جرى على نحو مثالي...
- أخبرني!

تنحنح الرقيب. «اتبعنا أوامرك كما أمليتها علينا تحديدًا. الرحلة إلى قبرص كانت أصعب ممَّا توقَّعنا، حدثت... تعقيدات عند انطلاقنا، وبعض مناصري قضيتنا... اضطررنا إلى التخلِّي عنهم في سبيل نجاحنا، لكننا عدنا بالقطعة الأثرية، ونقلناها إليك بالعناية المطلوبة، وفقًا لتوجيهات سموكم. ووفقًا لاتفاقنا مع سموكم، نتطلع الآن إلى التعويض السخي».

كان إزيو يعرف أن عليه ألَّا يسمح بوقوع صندوق خشب الساج ومحتوياته في يد الكاردينال. وفي تلك اللحظة، عندما طُرح موضوع أتعاب الخدمات، المزعج لكن لا بُدَّ منه، وكالعادة تعيَّن على مقدِّم الخدمة نكز العميل حتَّى يدفع أجر المهام الخاصة –رأى إزيو أن ينتهز الفرصة. ومثل كثير من الأثرياء، أبدى الكاردينال بخلًا عندما حان موعد دفع النقود. أخرج إزيو نصله السام من ذراعه اليمنى والنصل المزدوج من ذراعه اليسرى، وانقضَّ على الرقيب بطعنة واحدة على عنقه المكشوف كانت كافية لإفراز السم المميت في

عروقه. واستدار إزيو سريعًا ليواجه الحراس الخمسة بنصله المزدوج في يد ونصله السام في اليد الأخرى، دائرًا حول نفسه كدرويش، مستخدمًا حركات سريعة دقيقة لتوجيه ضربات مميتة. وبعد لحظات، صار جميع الحراس مجندلين عند قدميه.

نظر رودريغو بورجيا إليه من مكانه العالي، وأطلق تنهيدة ثقيلة. «إزيو أودِتوري. حسنًا، حسنًا، لم نلتقِ منذ مدَّة طويلة». لم يبدُ على الكاردينال أقل قدر من الانزعاج أو الدهشة.

انحنى إزيو انحناءة تهكمية. «سيدي الكاردينال».

قال رودريغو مشيرًا إلى الصندوق: «أعطِني إياه».

- أخبرني أولًا، أين هو؟

- مَن؟

«نبيُّك!». نظر إزيو في ما حوله. «لا يبدو لي أن أحدًا أتى». صمت ثمَّ تابع بجدية: «كم عدد الذين ماتوا من أجل هذا، من أجل ما في هذا الصندوق؟ وانظر! ما من أحد هنا!».

أطلق رودريغو قهقهة كصوت قرقعة عظام، وقال: «تزعم أنك غير مؤمن، لكن ها أنت ذا. ألا ترى النبي؟ إنه حاضر هنا فعلًا! *أنا النبي*!».

اتسعت عينا إزيو. الرجل فاقد صوابه. لكن جنونه بدا مثيرًا للفضول، كأنه يتجاوز المسارات العقلانية والطبيعية للحياة نفسها. تأملات إزيو جعلته يفقد تركيزه للحظة. سحب الإسباني من طيات عباءته سيفًا خفيفًا لكنه بشع المظهر ذا رمانة على شكل رأس قِطٍّ، وقفز من مكانه مصوِّبًا السيف الصغير إلى عنق إزيو، وزمجر: «أعطِني التفَّاحة».

«أهذا ما في الصندوق؟ *تفَّاحة*؟ لا بُدَّ أنها تفَّاحة مميزة». تكلَّم إزيو وفي عقله يتردَّد صوت عمه: *قطعة* عدن. «تعالَ وخذها منِّي!».

وجَّه رودريغو ضربة إلى إزيو، فمزق رداءه وأصابه بجرح طفيف. «هل جئت وحدك يا إزيو؟ أين أصدقاءك الحشَّاشين الآن؟».

«لا أحتاج إلى مساعدتهم للتعامل معك!».

استخدم إزيو خنجريه ليهاجم، وواقي ذراعه اليسرى ليصُدَّ ضربات رودريغو. لم ينجح في تسديد طعنة بالنصل السام، لكن نصله المزدوج اخترق عباءة الكاردينال المخملية، ثمَّ رأى النصل ملطَّخًا بدماء الرجل.

زعق رودريغو متألِّمًا: «أيها الحقير! أرى أنني سأحتاج إلى مساعدة للتغلُّب عليك! أيها الحراس! أيها الحراس».

فورًا ظهر قرابة عشرة رجال مسلحين على أرديتهم شعار بورجيا، اندفعوا في الفناء حيث يتواجه إزيو والكاردينال. كان إزيو يعرف أن كمية قليلة ثمينة من السم متبقِّية في مقبض خنجر يده اليمنى. قفز متراجعًا، حتَّى يتمكَّن من الدفاع عن نفسه ضد تعزيزات رودريغو، وعندئذٍ انحنى أحد الحراس مختطفًا الصندوق من الأرض، وناوله لسيده.

«شكرًا لك أيها الباسِل!».

في هذه الأثناء كان إزيو في موقف حَرِج، لكنه قاتَل ببرود محسوب نابع من رغبة خالصة في استعادة الصندوق وما يحويه. سحب نصلَيْ مجلد المخطوطات، وتناول حزام السكاكين الصغيرة وقذفها بدقَّة مميتة، فتخلَّص من الباسِل أولًا، ثمَّ أسقط السكين الثاني الصندوق من يدي رودريغو المعروقتين.

انحنى الإسباني ليحمل الصندوق وينسحب، لكن قُذف سكين آخر وانغرز في عمود حجري على بُعد بوصات من وجه الكاردينال، لكن هذا السكين لم يقذفه إزيو.

استدار إزيو بسرعة فرأى خلفه وجهًا بشوشًا ملتحيًا مألوفًا، أكبر سنًّا ربما، وأضخم حجمًا لكنه رشيق. «عمي ماريو! كنتُ متأكدًا أنني رأيتك سابقًا!».

قال ماريو: «لن أدعك تحظى بالمتعة وحدك. ولا تقلق يا ابن أخي، لستَ وحدك!».

هاجم أحد حراس بورجيا إزيو شاهرًا رمحه، وقبل لحظة من تسديد ضربته المميتة لإزيو، انبثق سهم قوس نشَّاب من العدم وانغرز في جبهة الدارس، فأسقط سلاحه وتهالك إلى الأمام وقد ارتسمت على وجهه نظرة عدم تصديق. التفت إزيو مرَّة أخري ورأى الثعلب!

«ماذا تفعل هنا يا ثعلب؟».

«سمعنا أنك قد تحتاج إلى دعم». أجاب الثعلب وهو يعيد تلقيم قوسه بسرعة إثر خروج مزيد من الحراس من المبنى. ثمَّ وجد إزيو مزيدًا من الدعم متمثلًا في أنتونيو وبارتولوميو.

زعق أنتونيو: «لا تتركوا بورجيا يهرب بالصندوق!».

وكان بارتولوميو يلوِّح بسيفه العظيم، بيانكا، كأنه منجل، مبعثرًا صفوف الحراس الذين يحاولون التغلُّب عليه بكثرتهم. وتدريجيًّا رجحت كفة الحشَّاشين وحلفائهم.

هتف ماريو: «سنتولَّى أمرهم الآن يا ابن أخي، ابحث عن الإسباني!».

التفت إزيو فرأى رودريغو يتجه إلى ممر في نهاية الرواق، وأسرع ليقطع عليه الطريق، لكن الكاردينال كان مستعدًا له بسيفه. زمجر: «إنك تخوض معركة خاسرة يا غُلام، لا يمكنك إيقاف ما قُدِّر وقوعه! ستموت على يدي مثل والدك وأخويك، فالموت مصير كل مَن يحاول تحدِّي فرسان الهيكل».

لكن صوت رودريغو بدا مهتزًّا، ونظر إزيو في ما حوله فرأى آخر حراس الكاردينال يسقط. اعترض طريق انسحاب رودريغو عند عتبة الممر، ورفع سيفه متأهِّبًا للضرب قائلًا: «هذه من أجل أبي!». لكن الكاردينال انحنى متفاديًا الضربة، ودفع إزيو فأسقطه، لكن الصندوق الثمين سقط منه وهو ينطلق عبر الممر لينفد بجلده.

وقال متوعِّدًا وهو يغادر: «أؤكد لك، سأعيش لأقاتل في يوم آخر! وعندئذٍ سأحرص على أن يكون موتك مؤلمًا وبطيئًا».

واختفى.

كان إزيو منهكًا يحاول التقاط أنفاسه والنهوض، وامتدَّت إليه يد، فرفع رأسه ورأى أنها يد باولا!

قالت مبتسمة: «لقد ذهب، لكن لا يهم، لدينا ما جئنا من أجله».

- لا! أسمعتِ ما قاله؟ لا بُدَّ أن أطارده وأنهي الأمر!

«هدِّئ نفسك». تكلَّمت امرأة أخرى مقتربة، كانت تيودورا. ونظر إزيو إلى الرفاق المجتمعين، فرأى ماريو، والثعلب، وأنتونيو، وبارتولوميو، وباولا، وتيودورا، وشخصًا آخر، شابًّا شاحبًا داكنَ الشعر ذا وجه مرِح ذكي.

سألهم إزيو مستشعرًا توتُّرًا بينهم: «ماذا تفعلون كلكم هنا؟».

قال الشاب الغريب: «ربما نفعل مثلما تفعل يا إزيو، نأمل أن نشهد ظهور النبي».

تشوَّش إزيو وانزعج. «لا! جئتُ لأقتل الإسباني! لا أكترث البتَّة بشأن نبيكم، إذا كان موجودًا أصلًا. وهو قطعًا ليس هنا».

قال الشاب: «حقًّا؟». ونظر إلى إزيو بثبات، وأردف: «*أنت النبي*».

- ماذا؟

- ثمَّة نبوءة عن ظهور نبي. وها أنت ذا بيننا منذ مدَّة طويلة دون أن نعرف الحقيقة. طوال الوقت كنت أنت مَن نبحث عنه.

- لا أفهم. مَن أنت على أي حال؟

انحنى الشاب. «اسمي نيكولو دي برناردو دي ماكيافيلي، عضو في جماعة الحشَّاشين، تدرَّبت على الأساليب القديمة لأحمي مستقبل الجنس البشري، مثلك، ومثل كل رجل وامرأة هنا».

صُعق إزيو، ونظر إلى الوجوه المحيطة به، وقال أخيرًا: «أهذا صحيح يا عمي ماريو؟».

قال ماريو متقدِّمًا خطوة: «نعم يا بُني، جميعنا كُنَّا نرشدك، منذ سنوات، ونعلمك كل المهارات اللازمة للانضمام إلى صفوفنا».

ضجَّ عقل إزيو بالأسئلة، ولم يعرف من أين يبدأ. قال لماريو: «لا بُدَّ أن أسأل عن أسرتي، أمي، وأختي...».

ابتسم ماريو. «يحقُّ لك. إنهما بخير وبأمان، غادرتا دير الراهبات وتقيمان في البيت معي في مونترِجيوني. ماريا ستظل دومًا تعاني مسحة حزن فقْدها، لكنها تجد عزاءً كبيرًا بتكريس حياتها للأعمال الخيرية مع رئيسة الدير. أما كلوديا، فقد أدركت رئيسة الدير، قبل أن تدرك هي نفسها، أن حياة الرهبنة لا تناسبها، وأن ثمَّة طرائق أخرى لخدمة الرب. أُعفيت من نذورها، وتزوَّجت أكبر قادتي، وعمَّا قريب، يا إزيو، ستقدِّم لك ابن أو ابنة أخت».

- خبر عظيم يا عمي، لم تعجبني فكرة قضاء كلوديا حياتها في دير راهبات. لكن أود طرح المزيد من الأسئلة عليك.

قال ماكيافيلي: «سيُتاح الوقت للأسئلة قريبًا».

قال ماريو: «أمامنا مهام كثيرة قبل أن نرى أحبابنا ونحتفل، وربما لن نفعل أبدًا. أرغمنا رودريغو على التخلِّي عن صندوقه، لكنه لن يهدأ له بال حتَّى يستعيده، لذا علينا أن نحرسه بحيواتنا».

نظر إزيو إلى دائرة الحشَّاشين المحيطة به، ولاحظ لأول مرَّة أن كل واحد منهم لديه وَسْم حول خنصره الأيسر، لكن كان من الواضح أن الوقت غير مناسب للأسئلة. قال ماريو لرفاقه: «أرى أن الوقت قد حان...» فأومأوا موافقين بجدية، وأخرج أنتونيو خريطة وبسطها، وأشار لإزيو إلى نقطة محدَّدة عليها، وقال له بنبرة أمر رصينة: «قابلنا هنا عند الغروب».

ثمَّ قال ماريو للآخرين: «هيا».

تولَّى ماكيافيلي أمر الصندوق بمحتوياته الثمينة الغامضة، وخرج الحشَّاشون بصمت تباعًا إلى الشارع وغادروا، تاركين إزيو وحده.

***

بدت شوارع البندقية مقفرة إلى درجة تبعث الرهبة في ذلك المساء، وخيَّم الصمت على الساحة الكبيرة أمام المبنى الروماني المستطيل، ولم يوجد فيها سوى الحمام الذي اتخذ منها سكنًا دائمًا. ولاح برج الأجراس بارتفاع شاهق فوق رأس إزيو وهو يبدأ تسلُّقه، لكنه لم يتردَّد. في الاجتماع الذي أستُدعي إليه سيجد بلا شك أجوبة بعض أسئلته، رغم أنه يعرف في أعماق قلبه أن بعض الأجوبة ستخيفه، وعرف أيضًا أنه ليس لديه مجال للتراجع.

وعند اقترابه من القمة سمع أصواتًا مكتومة، ثمَّ بلغ الزينة الحجرية عند قمة البرج وتأرجح هابطًا في علية الجرس، حيث أخليت مساحة دائرية واصطفَّ الحشَّاشون السبعة حول محيطها وجميعهم يرتدون قلانِس، وفي منتصف الدائرة نار مشتعلة في مجمرة صغيرة.

أخذت باولا بيد إزيو واقتادته إلى المركز، بينما بدأ ماريو يتلو عبارة أشبه بالترنيمة:

«*لا شيء واقعيٌّ مُطلق بل كلٌّ ممكن*... هذه كلمات أسلافنا، التي تمثِّل جوهر عقيدتنا...».

تقدَّم ماكيافيلي ونظر إلى إزيو نظرة صارمة. «بينما يتبع الناس الآخرون الحقيقة اتباعًا أعمى، تذكَّر أنَّ...».

«... ما من حقيقة مطلقة». أكمل إزيو العبارة كأنه يعرفها طوال حياته.

تابع ماكيافيلي: «وفي حين أن الناس مقيدون بالأخلاق أو القانون، تذكَّر أنَّ...».

«... كل شيء مباح».

قال مكيافيلي: «نعمل في الظلام، من أجل خدمة النور. نحن الحشَّاشون».

وانضمَّ الآخرون في ترنُّم جماعي: «ما من حقيقة مُطلقة، كل شيء مباح. ما من حقيقة مطلقة، كل شيء مباح. ما من حقيقة مطلقة، كل شيء مباح...».

وعندما انتهوا أخذ ماريو يد إزيو اليسرى وقال له: «في هذا العصر الحديث لا نأخذ كل كلام حرفيًّا، لذا لا نطالب بالتضحية بإصبع، لكن الختم الذي نميِّز به أنفسنا دائم». أخذ نفسًا، وتابع: «أمستعد للانضمام إلينا؟».

أحسَّ إزيو كأنه في حلم، لكنه بطريقة ما يعرف ما عليه فعله وما سيحدث، ومدَّ يده دون تردُّد قائلًا: «مستعد».

تحرَّك أنتونيو مقتربًا من المجمرة وسحب منها أداة وسم حديدية حمراء من شدَّة الحرارة تنتهي بنصفَيْ دائرة يمكن ضمهما من المقبض، ثمَّ أخذ يد إزيو وعزل الخنصر، وقال: «ستتألَّم لوهلة وجيزة يا أخي، مثل أشياء كثيرة».

أدخل أداة الوسم حول الإصبع وضغط الدائرتين المعدنيتين المحمرَّتين معًا حول قاعدة الإصبع، فاكتوى اللحم وانتشرت رائحته، لكن إزيو لم يجفل. أزال أنتونيو أداة الوسم بسرعة ووضعها جانبًا، ثمَّ نزع الحشَّاشون قلانِسهم وتجمَّعوا حول إزيو، ربت العم ماريو على ظهره بفخر، وأخرجت تيودورا قنينة زجاجية صغيرة تحتوي على سائل شفاف ثخين مسحته برفق على الخاتم الموسوم على إصبع إزيو إلى الأبد. قالت: «سيخفف هذا الألم. إننا فخورون بك».

ثمَّ وقف ماكيافيلي أمامه وأومأ له إيماءة ذات معنى. «مرحبًا بك يا إزيو. الآن صرت واحدًا منا، لم يبق سوى ختام طقوس انضمامك، وبعدها يا صديقي، أمامنا عملٌ شاقٌّ!».

ثمَّ ألقى نظرة سريعة فوق حافة برج الجرس، بعيدًا بالأسفل كان يوجد عدد من بالات القشِّ مكوَّمة على مقربة من البرج في عدَّة أماكن حول برج الجرس، علف خيول في طريقه إلى قصر الدوج. بدا لإزيو أن من المستحيل أن يوجِّه شخص سقوطه بدقَّة بحيث يهبط على هذه الأهداف الصغيرة، لكن هذا ما فعله ماكيافيلي، إذ قفز وعباءته ترفرف خلفه، وحذا رفاقه حذوه،

فشاهدهم إزيو بمزيج من الرعب والإعجاب وكل واحد منهم يهبط هبوطًا مثاليًّا، ثمَّ تجمَّعوا ورفعوا أبصارهم إليه بنظرات مشجعة.

رغمًا عن اعتياده الركض فوق أسقف المنازل، لم يحدث أن قفز قفزة إيمان أعمى من مثل هذا الارتفاع، بدت بالات القشِّ بجحم طبق طعام، لكن إزيو أدرك أن ما من طريقة لبلوغ الأرض سوى هذه، وأنه كلما طال تردُّده، ازدادت مهمته صعوبة. تنفَّس بعمق، ثمَّ قذف بنفسه إلى الأمام وإلى الأسفل في ظلام الليل فاردًا ذراعيه.

بدا له أن سقوطه يستغرق ساعات، عصفت الريح القوية بملابسه وشعره، ثمَّ بدت له كومة قشٍّ كأنها ترتفع لملاقاته، وفي آخر لحظة أغمض عينيه...

... وارتطم بالقش! فانقطعت أنفاسه، لكن بعدما نهض واقفًا مترنِّحًا وجد نفسه سليمًا، بل ومنتشيًا.

اقترب ماريو منه، وتيودورا إلى جانبه. سأل ماريو تيودورا: «أظن أنه لا بأس به، ما رأيك؟».



في وقت لاحق من مساء ذلك اليوم، كان ماريو وماكيافيلي وإزيو جالسين حول الطاولة الكبيرة في ورشة ليوناردو، وأمامهم القطعة الأثرية الغريبة التي كان رودريغو بورجيا يعوِّل عليها كثيرًا، ينظرون إليها بفضول ورهبة.

كان ليوناردو يقول: «إنها عجيبة، مذهلة».

سأله إزيو: «ما هي يا ليوناردو؟ ماذا تفعل؟».

قال ليوناردو: «حسنًا، حتَّى الآن ما زلتُ في حيرة من أمري. هذا الشيء يحتوي على أسرار قاتمة، وتصميمه فريد من نوعه، أخمِّن أنه لم يُرَ له مثيلٌ في الأرض. أنا عن نفسي لم أرَ تصميمًا معقَّدًا كهذا... وأعجز عن تفسير هذا كما أعجز عن تفسير سبب دوران الأرض حول الشمس».

قال ماريو: «لا بُدَّ أنك تقصد «دوران الشمس حول الأرض»، أليس كذلك؟»، ورمق ليوناردو بنظرة استغراب. لكن ليوناردو واصل فحص الآلة، وتقليبها بحرص بين يديه، وعندئذٍ بدأت تتوهَّج، بضوء شبحي داخلي متولِّد ذاتيًّا.

تابع ليوناردو متعجِّبًا: «إنها مصنوعة من مواد ينبغي ألَّا تكون موجودة منطقيًّا، ورغمًا عن هذا من الواضح أنها قديمة جدًّا».

قال ماريو: «أشير إليها في صفحات مجلد المخطوطات التي بحوزتنا، أميزها من وصف لها هناك. مجلد المخطوطات يسميها «قطعة عدن»».

أضاف إزيو: «ورودريغو سماها «التفَّاحة»».

نظر ليوناردو إليه بحدَّة. «يقصد تفَّاحة شجرة المعرفة؟ التفَّاحة التي أعطتها حواء لآدم؟».

التفتوا جميعًا إلى الشيء مرَّة أخرى، وقد ازداد توهُّجه، بتأثير منوِّم. وأحسَّ إزيو بأنه مدفوع، لأسباب لم يستوعبها، لمدِّ يده ولمسه، لم يشعر بحرارة صادرة منه، لكن إلى جانب الانبهار داهمه إحساس غريزي بالخطر، كما لو أن لمسها سيطلق في جسده صاعقة برق. غاب الآخرون عن وعيه، وبدا له أن العالم من حوله صار مظلمًا وباردًا، ولا يوجد شيء سواه وهذا... الشيء.

شاهد يده تتحرَّك إلى الأمام، كأنها لم تعد جزءًا منه، كأنه لا يتحكَّم فيها، وأخيرًا حطَّت اليد بثبات على جانب القطعة الأثرية الأملس.

ردَّة فعله الأولى كانت الصدمة. بدت التفَّاحة معدنية، لكن ملمسها دافئ وناعم مثل جلد امرأة، كأنها حية! لكن لم يكن ثمَّة وقت لإطالة التفكير، إذ قُذِفت يده بعيدًا، والضوء الصادر من التفَّاحة، بعدما كان يزداد توهُّجًا تدريجيًّا، سطع سطوعًا باهرًا راسمًا مشاهد متغيِّرة مختلفة الألوان، تبيَّن إزيو في خضمِّ دوَّامتها أشكالًا. ولوهلة انتزع عينيه منها لينظر إلى رفاقه، فرأى ماريو وماكيافيلي أشاحا بوجهيهما ويغطِّيان رأسيهما بأيديهما من الخوف أو الألم، وليوناردو متسمِّرٌ في مكانه، متسع العينين، فاغرًا فمه من الذهول. ثمَّ أعاد إزيو بصره إلى التفَّاحة ورأى الأشكال قد بدأت تلتحم، ظهرت حديقة عظيمة، مليئة بمخلوقات وحشية، وظهرت مدينة مظلمة مشتعلة، وسُحُب عملاقة على هيئة فطر عش الغراب أكبر من الكاتدرائيات والقصور، وظهر جيش زاحف، لكنه لم يكن كأي جيش رآه إزيو أو حتَّى تخيَّل وجوده، وظهر أناس يتضوَّرون جوعًا يرتدون أزياء مخططة يقتادهم إلى مبانٍ قرميدية رجالٌ معهم سياط وكلاب، ومداخن شاهقة تنفث الدخان، ونجومٌ وكواكب تدور، ورجال يرتدون دروعًا غريبة يسبحون في ظلام الفضاء، وظهر أيضًا إزيو آخر، وليوناردو آخر، وماريو وماكيافيلي، ومزيد ومزيد منهم، نسخ طبق الأصل من الزمان نفسه، يتقلَّبون مرارًا في الهواء، كأنما تعصف بهم ريحٌ عاتية، بدت الآن كأنها فعلًا تعوي في أنحاء الغرفة التي هم فيها.

زعق أحدهم: «أوقفها!».

كزَّ إزيو على أسنانه، ودون أن يعرف الدافع تحديدًا، أمسك معصمه الأيمن بيده اليسرى وأعادها بالقوة حتَّى تلامس الشيء.

توقَّفت فورًا، واستعادت الغرفة ملامحها وأبعادها الطبيعية. تبادل الرجال النظرات، بدا كل شيء مرتبًا، ونظارة ليوناردو لا تزال على أنفه. التفَّاحة قابعة ساكنة على الطاولة، شيئًا عاديًّا صغيرًا لا يؤبه له.

ابتدر ليوناردو الكلام: «هذا الشيء يجب ألَّا يقع أبدًا في الأيدي الخطأ، سيتسبَّب في جنون العقول الضعيفة...».

قال ماكيافيلي: «اتفق. أكاد لا أتحمَّله، ولا أصدِّق مدى قوته». ارتدى قفازيه والتقط التفَّاحة بعناية ووضعها في صندوقها، وأغلق غطاءها بإحكام.

«أتظن أن الإسباني يعرف ما يفعله هذا الشيء؟ أتظنه قادرًا على التحكُّم به؟».

قال مكيافيلي بصوت قاس كالصخر: «يجب ألَّا يقع في يده أبدًا»، وناول الصندوق لإزيو. «عليك أن تحرسه بكل المهارات التي تعلَّمتها منا».

أخذ إزيو الصندوق منه بعناية وأومأ.

قال ماريو: «خذه إلى فورلي، القلعة هناك مسورة ومحمية بالمدافع، وهي تحت سيطرة أحد أقوى حلفائنا».

سأله إزيو: «مَن؟».

- اسمها كاترينا سفورزا.

ابتسم إزيو. «أتذكَّر الآن... إنها من معارفي القدامى، سيسعدني لقاؤها مرَّة أخرى».

- استعد للمغادرة إذن.

قال ماكيافيلي: «سأرافقك».

«سأكون ممتنًّا لك». ابتسم إزيو والتفت إلى ليوناردو. «ماذا عنك يا صديقي؟».

- أنا؟ عندما ينتهي عملي سوف أعود إلى ميلانو، الدوق هناك يحسن معاملتي.

قال ماريو: «يجب أن تأتي إلى مونترِجيوني أيضًا، عندما تذهب إلى فلورنسا المرَّة القادمة وتجد وقتًا».

نظر إزيو إلى صديقه. «وداعًا يا ليوناردو، آمل أن نلتقي مرَّة أخرى ذات يوم».

قال ليوناردو: «سوف نلتقي بالتأكيد. وإذا احتجت إليَّ، فأغنيولو في فلورنسا وسيعرف مكاني دومًا».

عانقه إزيو. «وداعًا».

قال ليوناردو وهو يناوله كيسًا: «هدية وداع. رصاصات وبارود لمسدسك الصغير، وقنينة سم كبيرة لخنجرك الفتَّاك. آمل ألَّا تضطر إلى استخدامهم، لكن تهمُّني معرفة أنك محمي إلى أقصى درجة ممكنة».

نظر إزيو إليه متأثرًا. «شكرًا لك، شكرًا لك على كل شيء يا أعز أصدقائي».

22

بعد رحلة طويلة رتيبة بسفينة من البندقية، وصل إزيو وماكيافيلي إلى ميناء الأراضي الرطبة بجوار رافينا، حيث استقبلتهما كاترينا بنفسها ومعها بعض أفراد حاشيتها.

قالت: «أرسلوا إليَّ خبرًا أنكما قادمان، ورأيت أن آتي لمرافقتكما إلى فورلي بنفسي. وأظنكما كنتما حكيمين بالسفر عبر أحد سفن الدوج أغوستينو، فالطرق غالبًا ما تكون غير آمنة وقُطَّاع الطرق يسبِّبون لنا المتاعب، لكن...» ألقت على إزيو نظرة إعجاب وتابعت: «لا أظنهم قادرين على إزعاجك».

- يشرفني أنك تتذكَّريني يا سيدتي.

«انقضى وقت طويل، لكنك لا تُنسى بسهولة». التفتت إلى ماكيافيلي. «سررت برؤيتك مجددًا يا نيكولو».

سأل إزيو: «أتعرفان بعضكما؟».

«نيكولو كان يشير عليَّ في شؤون خاصة بالدولة». غيَّرت الموضوع. «سمعتُ أنك صرت حشَّاشًا كاملًا، أهنِّئك».

كانوا قد وصلوا إلى عربة كاترينا، لكنها قالت لخدمها إنها تفضِّل ركوب الحصان، فالطقس جميل والمسافة ليست بعيدة. أُسرِجت الأحصنة بسرعة، وبعدما ركبوا طلبت كاترينا من أزيو أن يسير بحصانه بجوارها. «ستحب فورلي، وستكون بأمان. مَدافعي تحمي المدينة منذ أكثر من قرن، والقلعة منيعة».

- معذرة يا سيدتي، ثمَّة أمر واحد يثير فضولي...

- أرجوك أخبرني.

- لم أسمع قط عن امرأة تحكم دولة مدينية. إنني منبهر.

ابتسمت كاترينا. «حسنًا، كانت المدينة تحت حكم زوجي بالطبع، أتتذكَّره؟ ولو قليلًا؟ جيرولامو». صمتت ثمَّ أردفت: «حسنًا لقد مات».

- يؤسفني سماع هذا.

قالت ببساطة: «لا تتأسَّف. أنا دبَّرتُ اغتياله».

حاول إزيو إخفاء دهشته.

قال ماكيافيلي: «إليك ما حدث، اكتشفنا أن جيرولامو رياريو كان يعمل لصالح فرسان الهيكل، كان يوشك أن يكمل خريطة توضِّح مواقع صفحات مجلد المخطوطات التي لم يُعثَر عليها».

قالت كاترينا ببرود: «ابن العاهرة اللعين لم يرُقني قط، كان والدًا سيئًا، ومُملًّا في الفراش، وعمومًا مزعج لا يطاق». صمتت مفكِّرة وأردفت: «لكنني حظيت بزوجين آخرَين بعده، لا بأس بهما».

قطع حديثهم حصان بلا راكب يعدو نحوهم خببًا. أرسلت كاترينا أحد مرافقيها ليعرف أمر الحصان، وواصل البقية سيرهم نحو فورلي. وأشهر أتباع سفورزا سيوفهم، ثمَّ مروا بعربة مقلوبة، عجلاتها ما زالت تدور في الهواء، والجثث متناثرة حولها.

قطَّبت كاترينا حاجبيها، وحثَّت حصانها على متابعة السير، وفي أعقابها إزيو وماكيافيلي.

وعلى مبعدة في الطريق رأوا مجموعة من الفلاحين المحليين، بعضهم مصابين، يتجهون نحوهم.

سألت كاترينا امرأة في مقدمة المجموعة: «ماذا يجري؟».

تكلَّمت المرأة والدموع تسيل على وجهها: «سموك، جاؤوا حالما غادرتِ. إنهم يستعدُّون لحصار المدينة!».

- مَن هم؟

- الإخوة أورسي يا سيدتي!

- رباه، سحقًا!

سألها إزيو: «من هم الإخوة أورسي؟».

بصقت كاترينا. «نفس الأوغاد الذين استأجرتُهم لقتل جيرولامو».

قال ماكيافيلي: «آل أورسي يخدمون كل مَن يدفع لهم. ليسوا أذكياء جدًّا، لكن للأسف معروفون بكفاءتهم». صمت مفكِّرًا ثمَّ أردف: «لا بُدَّ أن الإسباني هو مدبِّر ما يحدث».

- لكن كيف له أن يعرف المكان الذي نأخذ إليه التفَّاحة؟

- إنهم لا يسعون خلف التفَّاحة يا إزيو، بل خريطة رياريو. الخريطة ما زالت في فورلي، ورودريغو يحتاج إليها ليعرف مكان صفحات مجلد المخطوطات الأخرى، لذا يجب ألا نسمح له بالحصول على الخريطة بأي ثمن!

صاحت كاترينا: «دعونا من الخريطة، أطفالي في المدينة! يا للشياطين!».

أسرعوا بأحصنتهم حتَّى ظهرت المدينة أمامهم، فرأوا بوابات المدينة مغلقة، والدخان يتصاعد من داخل الأسوار، ورجال واقفين على امتداد فتحات الجدران الخارجية حاملين راية الدب والأجمة التي تمثل شعار عائلة أورسي. لكن بداخل المدينة ما زالت راية آل سفورزا ترفرف فوق القلعة.

قال ماكيافيلي: «يبدو أنهم سيطروا على جزء من فورلي على الأقل، لكن لم يقتربوا من القلعة».

بصقت كاترينا. «الخونة الأوغاد!».

أخرج إزيو أسلحة مجلد المخطوطات وثبَّتها على ذراعيه متأهبًا، وأبقى المسدس والنصل المنبثق في حقيبته، وسأل كاترينا: «هل توجد طريقة لدخولي المدينة دون أن يلاحظوني؟».

- ثمَّة طريقة محتملة يا عزيزي، لكنها صعبة. هناك نفق قديم ممتدٌّ أسفل الجدار الغربي من القناة.

- سأجرِّبه، كونوا مستعدِّين. إذا نجحتُ في فتح بوابات المدينة من الداخل، فكونوا متأهِّبين للدخول بسرعة. وإذا تمكَّنتُ من الوصول إلى القلعة وسمح أتباعك لكم بالدخول بعد رؤيتهم شعارك، فسنكون بأمان حتَّى نخطط لخطوتنا التالية.

- التي ستكون ربط أولئك القميئين ومشاهدتهم يتأرجحون في الرياح. لكن اذهب يا إزيو، بالتوفيق! سأفكِّر في حيلة لتشتيت انتباه جنود أورسي.

ترجَّل إزيو وركض منحنيًا راسمًا دائرة نحو الجدران الغربية، مختبئًا خلف الأجمات والتلال الصغيرة. وفي هذه الأثناء وقفت كاترينا على رِكاب سرج حصانها وزعقت بأعدائها الذين داخل جدران المدينة: «ها، أنتم! إنني أتكلَّم معكم أيها الكلاب الجبناء. تحتلُّون مدينتي؟ دياري؟ وتظنُّون أنني سأقف مكتوفة الأيدي؟ سآتيكم وأقتلع خصاكم، إذا كنتم تملكون أيًّا منها!».

ظهرت مجموعات من الجنود عند فتحات الجدار التي يطلق منها السهام، ونظروا إلى كاترينا، شاعرين بمزيج من التسلية والخوف وهي تواصل كلامها: «أي نوع من الرجال أنتم؟ تأتمرون بأمر أسيادكم مقابل حفنة ملاليم! أتساءل عمَّا إذا ستظنون أن الأمر كان يستحق العناء بعد ما أصل إليكم وأجزُّ رؤوسكم وأتبوَّل في أعناقكم! سأشوي أعضاءكم على نار مطبخي! ما رأيكم بهذا؟».

بحلول هذا الوقت لم يبق رجل في مكانه ممَّن كانوا يتولُّون حراسة الجدار الغربي. وجد إزيو القناة دون حراسة، فسبح عبرها، ووجد موضع مدخل النفق، وخرج من المياه واندفع في ظلام النفق.

وجده متماسك البناء وجافًّا، وسار عبره حتَّى رأى ضوءًا عند نهايته، واقترب منها بحذر، وعند وصوله سمع صوت كاترينا مجددًا. انتهى النفق بسلالم قصيرة تقود إلى الأعلى إلى حجرة خلفية على الطابق الأرضي في إحدى أبراج فورلي الغربية، ووجد المكان مهجورًا، إذ اجتذبت كاترينا جمهورًا كبيرًا. وعبر نافذة رأى معظم جنود أورسي يشاهدون عرض كاترينا وهُم يولونه ظهورهم، ويصفقون من حين إلى آخر.

«...إذا كنتُ رجلًا لمحوتُ ابتساماتكم من وجوهكم! لكن لا تظنوا أنني لن أبذل قصارى جهدي على أي حال، لا تخدعنكم حقيقة أنني أملك نهدين...» خطرت لها فكرة. «أراهن أنكم تودُّون رؤيتهما، أليس كذلك؟ أراهن أنكم تتمنُّون ذلك حسنًا، لِم لا تأتون وتحاولون؟ لركلت خصاكم بقوة حتَّى تنبثق من أنوفكم! أيها القذرون أبناء العاهرات! يجدر بكم حزم أمتعتكم والمغادرة قبل فوات الأوان، إذا لم ترغبوا في وضعكم في خوازيق على امتداد جدران قلعتي! أه! ربما أكون مخطئة! ربما تستمتعون بالأوتاد الطويلة في مؤخِّراتكم! إنكم تثيرون اشمئزازي. بدأت أشك في أنكم تستحقون العناء. لم أر كومة خراء مثلكم قط. يا لكم من مثيرين للشفقة! لا أظنني سأحدث فرقًا في رجولتكم إذا أخصيتكم».

عندئذٍ كان إزيو في الشارع، ورأى البوابة الأقرب إلى مكان كاترينا وماكيافيلي، وفوق قوسها أحد الرماة يقف بجوار الذراع الثقيلة التي تحرِّك البوابة. تحرَّك إزيو بصمت وسرعة متسلِّقًا الجدار إلى قمة القوس، وطعن الجندي في عنقه طعنة واحدة فقتله فورًا. ثمَّ ألقى كل وزنه على الذراع، فانفتحت البوابة بصرير عالٍ.

كان ماكيافيلي يراقب بانتباه طوال الوقت، وحالما رأى البوابة تُفتح، مال وتحدَّث بصوت خافت إلى كاترينا، فنكزت حصانها فورًا فانطلقت وخلفها ماكيافيلي وبقية حاشيتها. وما إن رأى جنود أورسي الذين على الجدران ما يجري، صاحوا غاضبين وهرعوا هابطين ليقطعوا الطريق، لكن جماعة سفورزا كانت أسرع. أخذ إزيو القوس والسهام من الحارس الميت وأسقط ثلاثة من رجال أورسي ثمَّ تسلَّق بسرعة جدارًا مجاورًا وركض فوق أسقف المدينة، بمحاذاة كاترينا ومجموعتها وهم يقودون أحصنتهم عبر الشوارع الضيقة نحو القلعة.

كلما تعمَّقوا في المدينة، ازداد ما يرونه من فوضى واضطراب، كان واضحًا أن معركة السيطرة على فورلي بعيدة عن نهايتها، إذ ما زالت مجموعات جنود تحت راية عليها نقش أفاعٍ زرقاء ونسور سوداء، شعار آل سفورزا، تقاتل مرتزقة أورسي، وما زال المواطنون يهرولون للاحتماء بمنازلهم أو الركض دون هدى في شتَّى الاتجاهات. قُلبت أكشاك السوق، وتراكض الدجاج صائحًا بين الأقدام، وثمَّة طفل يجلس في الطين وينوح طالبًا أمه، فخرجت راكضة وحملته بسرعة إلى مكان آمن. وسُمِعت جلبة المعركة من شتَّى الاتجاهات. وكان إزيو يقفز من سقف إلى سقف، فأمكنه رؤية جزء من الأرض من موقعه العالي، واستخدم سهامه بدقة مميتة ليحمي كاترينا وماكيافيلي متى ما اقترب جنود أورسي منهما.

وأخيرًا وصلوا إلى ساحة شاسعة أمام القلعة، وجدوها خالية، والشوارع المتفرعة منها بدت مقفرة. هبط إزيو وانضم إلى رفاقه. لم يظهر أحد على جدران القلعة، وكانت البوابة الضخمة مغلقة بإحكام، وبدت منيعة كما قالت كاترينا.

نظرت إلى الأعلى وصاحت: «افتحوا أيها الحمقى! أنا الدوقة! تحرَّكوا!».

عندئذٍ ظهر بعض رجالها في القلعة فوقهم، من بينهم ضابط قال: «حالًا يا سموك!». وأصدر أوامره لثلاثة رجال اختفوا فورًا ليفتحوا البوابة، لكن في

اللحظة نفسها تدفَّق عشرات من جنود أورسي من الشوارع المحيطة بالساحة وهم يعوون متعطِّشين للدماء، وقطعوا طريق الانسحاب على كاترينا ورفاقها وحاصروهم بينهم وبين جدران القلعة العاتية.

صاح ماكيافيلي: «كمين لعين!». وحاول إزيو تنظيم الرجال القليلين الذين معهم، ووقف بين كاترينا وبين أعدائها.

زعقت كاترينا: «افتحوا البوابة! افتحوا!». وأخيرًا فتحت البوابة الضخمة، واندفع حراس سفورزا خارجين لمساعدة رفاقهم، واشتبكوا مع جنود أورسي في قتال يدوي شرس، ثمَّ انسحبوا عائدين عبر البوابة، التي أغلقت سريعًا خلفهم. اتكأ إزيو وماكيافيلي، الذي ترجَّل سريعًا، على الجدار لاهثَين. لم يصدِّقوا أنهم نجوا. وترجَّلت كاترينا أيضًا، لكنها لم تسترح لحظة، إنما ركضت عبر الفناء الداخلي إلى رواق حيث ينتظرها بخوف صبيَّان صغيران ومرضعة تحمل رضيعًا.

ركض الطفلان إليها وعانقتهما وهي تقول لهما متشوِّقة: «سيزاري، جيوفاني، لا تقلقا». ومسحت على رأس الرضيع وهي تناغيه: «مرحبًا يا غاليازو». ثمَّ نظرت في ما حولها، وإلى المرضعة. «نيزيتا! أين بيانكا وأوتافيانو؟».

- سامحيني يا سيدتي، كانا يلعبان بالخارج عندما وقع الهجوم، ولم نتمكَّن من العثور عليهما منذئذٍ.

بدا الارتياع على كاترينا، وهمَّت بالرد، لكن فجأة ارتفع هدير مُدوٍّ من جنود أورسي خارج القلعة، وجاء قائد قوات سفورزا مسرعًا ووقف أمام إزيو وماكيافيلي قائلًا: «إنهم يجلبون تعزيزات من الجبال، لا أدري إلى متى يمكننا صدَّهم». والتفت إلى ملازم. «إلى فتحات الجدران! جهِّزوا المدفع!».

هرع الملازم لينظم طاقم المدفعية، الذين كانوا يهرولون إلى مواقعهم عندما انهمر وابل من السهام التي أطلقها رماة أورسي على الفناء الداخلي وأسطح الجدران بالأعلى. هرعت كاترينا بأطفالها الصغار إلى الداخل وهي تصيح بإزيو: «تولَّ أمر المدافع! إنها أملنا الوحيد! لا تدع أولئك اللقطاء يقتحمون القلعة!».

صاح ماكيافيلي: «تعالَ!»، وتبعه إزيو إلى المكان الذي رُصفت فيه المدافع.

مات عدَّة مدفعية، إلى جانب القائد والملازم، وجُرح آخرون، وجاهد الناجون ليضبطوا زاوية المدفع الثقيل بحيث يواجه رجال أورسي في الساحة بالأسفل، الذين وصلت إليهم تعزيزات ضخمة، ورأي إزيو أنهم يسحبون معدَّات حصار ومجانيق عبر الشوارع، وفي الوقت نفسه بالأسفل مباشرة رأى جنود أورسي يقرِّبون أداة دك البوابات. إذا لم يفكر هو وماكيافيلي في حل بسرعة فلن تسنح له فرصة لإنقاذ القلعة، لكن من أجل صد هذا الهجوم، رأى أنه سيضطر إلى إطلاق القذائف على أهداف داخل جدران فورلي نفسها، ويخاطر بإصابة مواطنين بريئين أو حتَّى قتلهم. ترك تنظيم المدفعية لماكيافيلي وهبط سريعًا إلى الفناء باحثًا عن كاترينا.

قال لها: «إنهم يقتحمون المدينة بأعداد كبيرة، لصدِّهم لا بُدَّ لي من إطلاق المدافع على أهداف داخل الجدران».

نظرت إليه بهدوء فولاذي. «إذن افعل ما عليك فعله».

رفع بصره إلى أعلى الجدران حيث يقف ماكيافيلي، في انتظار الإشارة. رفع إزيو ذراعه وأنزلها بحزم.

دوَّت المدافع، ورغمًا عن هذا اندفع إزيو عائدًا إلى مواضع المدافع على سطح الجدار، وجَّه المدفعية بإطلاق القذائف متى ما استعدوا، وشاهد آلة الحصار الأولى ثمَّ الثانية تتشظَّيان، وتلتها المجانيق. لم يجد جنود أورسي مجالًا للمناورة في الشوارع الضيقة، وبعدما أنزلت المدافع بهم الدمار، بدأ رماة سفورزا يطلقون سهامهم على الغزاة الناجين منهم داخل المدينة. وأخيرًا دُحِرَ بقية جنود أورسي إلى خارج فورلي تمامًا، وجنود سفورزا الذين نجوا خارج القلعة تمكَّنوا من تأمين الأسوار الخارجية. لكن النصر كان مكلِّفًا، إذ استحالت عدَّة منازل داخل المدينة أنقاضًا يتصاعد منها الدخان، ومن أجل استعادة المدينة لم يتمكَّن مدفعية كاترينا من تجنُّب قتل بعض مواطنيهم. وثمَّة أمر آخر، أشار إليه ماكيافيلي بسرعة، وهو أنهم أخرجوا العدو من المدينة، لكن جنود أورسي لم يرفعوا الحصار، إذن ما زالت فورلي محاطة بكتائب أورسي، دون إمدادات طعام ومياه. وطفلا كاترينا الكبيران ما زالا في مكانٍ ما، عُرضة للخطر.

وبعد وقت قصير وقف ماكيافيلي وإزيو وكاترينا على سطح الجدار الخارجي، ونظروا إلى المعسكر المحيط بهم، ومن خلفهم مواطنو فورلي يبذلون ما بوسعهم لإعادة الاستقرار إلى المدينة، لكن مخزون الماء والطعام

لن يدوم إلى الأبد، والجميع عرف هذا. أضنى كاترينا القلق على طفليها المفقودين، بيانكا، الكبرى ذات الأعوام التسعة، وأوتافيانو الذي يصغر شقيقته بعام.

لم يقابلوا الأخوين أورسي من قبل، لكن في هذا اليوم نفسه ظهر منادٍ في منتصف جيش الأعداء ونفخ بوقه، فانفرجت صفوف الجنود كالأمواج مفسحين الطريق لرجلين يمتطيان حصانين كستنائيين ويرتديان درعين من السلاسل الفولاذية، يرافقهما مساعدان يرفعان راية الدب والأجمة، وتوقَّفا بعيدًا عن مرمى السهام.

وقف أحد الراكبين على ركاب سرجه ورفع صوته. «كاترينا! كاترينا سفورزا! نعرف أنك ما زلت رابضة في مدينتك الصغيرة الأثيرة لديك يا كاترينا... أجيبيني!».

مالت كاترينا فوق فتحة إطلاق السهام، وعلى وجهها تعابير وحشية. «ماذا تريد؟».

ابتسم الرجل ابتسامة واسعة. «أوه، لا شيء. كنت أتساءل عمَّا إذا فقدتِ... أي أطفال!».

كان إزيو قد وقف بجوار كاترينا. وعندئذٍ نظر الرجل الذي تكلَّم إليه مدهوشًا، وقال: «مرحى، إزيو أودِتوري؟ تسرني رؤيتك. سمعتُ الكثير عنك».

قال إزيو: «وأنتما الأخوين أورسي، أليس كذلك؟».

رفع الرجل الذي لم يتكلَّم بعد يده، وقال: «بلى، أنا لودوفيكو...».

وقال الآخر: «... وأنا تشيكو، في خدمتك!». وأطلق ضحكة جافة.

صرخت كاترينا: «كفى! أين طفلاي؟ أطلق سراحهما!».

انحنى لودوفيكو انحناءة ساخرة على سرجه. «بالطبع يا سيدتي. سيسرُّنا إعادتهما إليك، مقابل شيء تملكينه، أو بالأحرى شيء كان يملكه زوجك الراحل المسكين، كان يعمل عليه نيابة عن... صديق لنا». صمت ثمَّ تابع بنبرة صارمة: «أقصد خريطة بعينها!».

وأردف تشيكو: «وتفَّاحة بعينها. أجل، نعرف بأمرها. أتظنيننا مغفَّلان؟ أتظنين أن رب عملنا ليس لديه جواسيس؟».

قال لودوفيكو: «أجل، سنأخذ التفَّاحة أيضًا، أم أذبح صغيريك من الوريد إلى الوريد لينضمَّا إلى أبيهما؟».

لبثت كاترينا واقفة تسمع، ثمَّ تحوَّل مزاجها إلى هدوء بارد. وعندما حان دورها في الكلام، صرخت: «أيها الوغدان! أتظنان أن بوسعكما إرهابي بتهديداتكما الهمجية؟ حثالة! لن أعطيكما شيئًا! أتريدان طفلَي؟ خذاهما! لديَّ وسائل إنجاب المزيد!». ورفعت لهما تنورتها.

«لست مهتمًّا بأحاديثك المسرحية المصطنعة يا كاترينا». تكلَّم تشيكو وهو يجذب عنان حصانه ليستدير. «ولستُ مهتمًّا بالتحديق إلى عورتك أيضًا. ستغيِّرين رأيك، لكننا لن نمهلك أكثر من ساعة، سيكون طفلاك الشقيَّان بأمان حتذاك في قريتك الحقيرة التي على الطريق. ولا تنسي، سوف نقتلهما وسوف نعود وندمِّر مدينتك وننتزع ما نريده عنوة، لذا استغلِّي تسامحنا حتَّى نوفِّر على أنفسنا جميعًا العناء».

ابتعد الأخوان بحصانيهما. وتهالكت كاترينا مستندة إلى الجدار الخشن، لاهثة، مصدومة ممَّا قالته وفعلته للتَّوِّ.

كان إزيو إلى جانبها. «لن تضحِّي بطفليك يا كاترينا، ما من قضية تستحق مثل هذه التضحية».

«إنقاذ العالم؟». نظرت إليه، وافترَّت شفتاها، واتسعت عيناها الزرقاوان الشاحبتان تحت شعرها الأحمر.

قال إزيو ببساطة: «لن نصبح مثلهم، ثمَّة تنازلات يجب ألَّا تُقدَّم».

«أوه، إزيو! هذا ما توقَّعت منك قوله!». أحاطت عنقه بذراعيها. «بالطبع لن نضحِّي بهما يا عزيزي!». ابتعدت عنه. «لكن لا يمكنني أن أطلب منك المخاطرة في سبيل إعادتهما إليَّ».

قال إزيو: «جرِّبيني»، والتفت إلى ماكيافيلي. «لن أغيب مدَّة طويلة، أو هذا ما آمله. لكن مهما حدث لي، أعرف أنك سوف تحرس التفَّاحة بحياتك. ويا كاترينا...».

- نعم؟

- أتعرفين المكان الذي خبأ فيه جيرولامو الخريطة؟

- سأجدها.

- افعلي، واحرسيها.

سأله ماكيافيلي: «ماذا ستفعل بشأن الأخوين أورسي؟».

أجاب إزيو: «أضفتهما إلى قائمتي سلفًا، إنهما يتبعان لرجال قتلوا أقاربي ودمَّروا عائلتي، لكن الآن أرى أن قضيتنا أهم من مجرَّد انتقام». تصافح الرجلان وتبادلا النظرات.

قال ماكيافيلي بحزم: «أتمنَّى لك التوفيق يا صديقي».

«ولك أيضًا».

***

لم يكن من الصعب الوصول إلى القرية التي كشف تشيكو عنها بلا مبالاة، رغم أن وصفه لها بأنها قذرة متخلفة كان فظًا. كانت قرية صغيرة وفقيرة مثل معظم قرى مزارعي أراضي السادة الإقطاعيين في روماغنا، وبدت فيها معالم تعرُّضها لفيضان مؤخَّرًا من النهر المجاور لها، لكنها عمومًا نظيفة ومرتبة، ومنازلها مطلية بالأبيض وأسقفها جديدة. ورغم أن الشارع الذي يفصل بين المنازل العشرة أو نحوها ما زال موحلًا من الفيضان، فكل شيء في القرية كان يوحي بالنظام، وبمثابرة أهل القرية، حتَّى إذا لم يكونوا سعداء. الأمر الوحيد الذي ميَّز سانتا سالفازا عن أي قرية في وقت سلم هو تجوُّل رجال أورسي المسلَّحين. وخطر لإزيو أن لا عجب في ألَّا يرى تشيكو غضاضة في ذِكر المكان الذي يحتجز فيه بيانكا وأوتافيانو. والسؤال التالي هو، أين في القرية تحديدًا يمكن أن يوجد طفلا كاترينا؟

جاء إزيو متسلِّحًا بالنصل المزدوج على ذراعه اليسرى مع واقي الذراع المعدني، وبمسدسه على ذراعه اليمنى، علاوة على سيف خفيف متدلٍّ من حزامه، وارتدى رداء فلاح بسيط صوفي يبلغ أسفل ركبتيه. رفع قلنسوته ليتجنَّب التعرُّف عليه، وبعدما ترجَّل عن حصانه على مبعدة من القرية، محاذرًا كشَّافي أورسي، ألقى على ظهره حزمة حطب استعارها من منزل، وسار منحنيًا إلى سانتا سالفازا.

كان سكان القرية يحاولون قضاء شؤونهم كالمعتاد، رغمًا عن الوجود العسكري الذي فُرض عليهم. وكان من الطبيعي ألَّا يُكِنُّ أحدٌ ودًّا لمرتزقة أورسي، وتمكَّن إزيو من نيل دعم سكان القرية في مهمَّته، إذ عرفوا فورًا أنه غريب، في حين لم يلحظه مرتزقة أورسي. ذهب إلى منزل عند طرف القرية،

أكبر من بقية المنازل وبعيد عنها قليلًا، قالت له امرأة عجوز تحمل الماء من النهر إن أحد الطفلين محتجز في المنزل. وامتنَّ إزيو لأن جنود أورسي متفرِّقون، معظمهم مشغولون بحصار فورلي.

لكنه أدرك أن أمامه وقت قصير لإنقاذ الطفلين.

كان باب المنزل ونوافذه مغلقة بإحكام، لكن في أثناء سير إزيو بالخلف، حيث يشكِّل جناحان من المبنى فناءً، سمع صوت طفل حازم يلقي محاضرة تأنيبية صارمة، فتسلَّق إلى السقف وألقى نظرة على الفناء، فرأى بيانكا سفورزا، وهي صورة مصغَّرة من والدتها، توبِّخ اثنين من رجال أورسي توبيخًا قاسيًا.

«ألم يجدوا سواكما، أيها المثيران للشفقة، لحراستي؟». كانت تتكلَّم بصلفٍ وهي تشدُّ قامتها لتقف بأقصى طول لها، دون أن تبدي أي خوف كوالدتها. «مغفَّلان! هذا ليس كافيًا! أمي شرسة ولن تسمح لكما بأذيتي. نحن نساء آل سفورزا لسنا زهورًا رقيقة، أتعرفان؟! ربما نبدو جميلات في عين الرائي، لكن الأعين خداعة، وهذا ما اكتشفه أبي!». أطلقت تنهيدة ثقيلة، وتبادل الحارسان النظرات وهما في حيرة من أمرهما. «آمل ألَّا تتخيَّلا أنني أخشاكما، لأنكما ستكونان مخطئين. وإذا لمستما شعرة من رأس أخي الصغير فستتعقَّبكما أمي وتأكلكما على الإفطار! فهمتما؟».

زمجر الحارس الأكبر سنًّا: «أغلقي فمك أيتها الحمقاء، حتَّى لا نكمِّمه لك!».

- إياك أن تجرؤ على الكلام معي بهذه الطريقة! على أي حال، لن تنجوا بفعلتكما، وسأكون بأمان في البيت في غضون ساعة. في الحقيقة بدأت أشعر بالملل، يدهشني أنكما تقفان مكتوفي الأيدي بينما أنا أنتظر موتكما!

قال الحارس الأكبر سنًّا: «حسنًا، هذا يكفي»، ومدَّ يده ليمسك بالفتاة، لكن في تلك اللحظة أطلق إزيو النار من السقف، فأصاب الجندي في صدره، فقُذِفَ إلى الوراء وارتسمت وردة قرمزية على ردائه قبل ارتطامه بالأرض. فكَّر إزيو للحظة في أن مزيج بارود ليوناردو يتحسَّن. وفي خضمِّ التشوُّش الذي أعقب موت الحارس المفاجئ، قفز إزيو من السقف، هابطًا برشاقة نمر وقوته، وهاجم بنصله المزدوج الحارس الأصغر، الذي سحب خنجرًا بشع المظهر، لكن إزيو طعن ذراع الرجل، ممزِّقًا أوتاره كأنها أشرطة حريرية،

فسقط خنجر الرجل على الأرض منغرزًا بسنِّ نصله في الطين. وقبل أن يفكِّر الحارس في أي حركة للدفاع عن نفسه، عاجله إزيو بطعنة أسفل فكِّه اخترقت لسانه واستقرَّت في جمجمته، ثمَّ سحب النصل بهدوء، تاركًا الجثة تتهالك على الأرض.

وسأل بيانكا التي لم يطرف لها جفن وهو يعيد تلقيم مسدسه: «هل الحارسان وحدهما؟».

- نعم! وشكرًا لك، أيًّا تكن. سوف تحرص أمي على مكافأتك بسخاء. لكن أخي أوتافيانو مُحتجز أيضًا.

- أتعرفين مكانه؟

- في برج المراقبة، بجوار الجسر المهدَّم! علينا أن نسرع!

- أريني الطريق، وابقي قريبة منِّي!

تبعها إلى خارج المنزل وبمحاذاة الطريق حتَّى بلغا البرج، وقد وصلا في الوقت المناسب، إذ وجدا لودوفيكو نفسه، يجُرُّ أوتافيانو الباكي من مؤخِّرة عنقه. رأى إزيو أن الصبي الصغير يعرج، وخمَّن أنه لوى كاحله.

«أنت!». صاح لودوفيكو عندما رأى إزيو. «يجدر بك أن تسلِّمني الفتاة وتعود إلى سيدتك، أخبرها بأننا سننتهي من كليهما إذا لم نحصل على ما نريد!».

انتحب أوتافيانو: «أريد أمي! اتركني أيها المجرم!».

زمجر لودوفيكو به: «اخرس أيها العفريت! إزيو! اذهب واجلب التفَّاحة والخريطة، وإلا فسيموت الصبي».

ناح أوتافيانو: «أريد أن أتبوَّل!».

- رباه! أغلِق فمك.

قال إزيو بصرامة: «اتركه».

- هيَّا أرغمني! لن تقدر على الاقتراب منِّي أيها الأبله! إذا خطوت خطوة واحدة فسأنحره في لمح البصر!

كان لودوفيكو قد سحب الصبي الصغير أمامه ممسكًا به بكلتا يديه، لكن الآن مد يدًا ليسحب سيفه، وفي اللحظة عينها حاول أوتافيانو أن يتحرَّر،

لكن لودوفيكو أمسك به بقوة من معصمه، ومع هذا، لم يعد أوتافيانو بين لودوفيكو وبين إزيو، ورأى الأخير فرصته فأخرج مسدسه وأطلق النار.

تحوَّلت تعابير لودوفيكو الغاضبة إلى تعابير عدم التصديق. أصابته الرصاصة في عنقه، قاطعةً وريده الوداجي، فجحظت عيناه، وأفلت أوتافيانو وخرَّ على ركبتيه، ممسكًا بحلقه والدم يتسرَّب من خلال أصابعه. ركض الصبي وعانق شقيقته.

قالت: «أوتافيانو! لا بأس!»، واحتضنته بشدَّة.

تحرَّك إزيو إلى الأمام ليقف فوق لودوفيكو، لكنه لم يقترب كثيرًا، فالرجل لم يسقط بعد وما زال سيفه بيده، وقد سالت الدماء إلى سترته، وازداد نزيفه غزارة.

تكلَّم لاهثًا: «لا أدري أي شيطان منحك الوسيلة للتغلُّب عليَّ يا إزيو، لكن يؤسفني إخبارك بأنك سوف تخسر هذه اللعبة مهما فعلت، نحن آل أورسي لسنا مغفَّلين كما تظنوننا. بل المغفَّلون أنتم، أنت وكاترينا».

قال إزيو بنبرة باردة هازئة: «أنت المغفَّل، بموتك من أجل كيس مليء بالفضة، أترى حقًّا أن المال يستحقُّ أن تبذل من أجله حياتك؟».

«أكثر ممَّا تظن يا صديقي. تغلَّبنا عليك بالدهاء، ومهما تفعل الآن، فسينال الزعيم مبتغاه!». تقلَّص وجه لودوفيكو من ألم جرحه، واتسعت بقعة الدماء. «يجدر بك أن تُجهِز عليَّ يا إزيو، إذا لديك أي رحمة».

«إذن فلتمُت بكرامتك يا أورسي، إنها لا تعني شيئًا». تقدَّم إزيو وأوسع جرح عنق لودوفيكو، ففارق الحياة بعد هنيهة. وانحنى إزيو فوقه وأغمض عينيه قائلًا: «فلترقد بسلام».

لكن لم يسع إزيو إهدار مزيد من الوقت، فعاد إلى الطفلين اللذين كانا يشاهدان بأعين متسعة، وسأل أوتافيانو: «أيمكنك المشي؟».

- سأحاول، لكنني أتألَّم بشدَّة.

جثا إزيو ونظر إلى كاحل الصبي، فلم يجده ملتويًا، إنما أصابته رضوض. رفع أوتافيانو فوق كتفيه، وقال: «تشجعَّ أيها الدوق الصغير، سأوصلكما إلى البيت بأمان».

- أيمكنني التبوُّل أولًا؟ لا يمكنني الانتظار.

- أسرِع.

كان إزيو يعرف أن إعادة الطفلين عبر القرية لن تكون مهمَّة سهلة، إذ يستحيل إخفاء هويتهما وهما يرتديان ملابس بالغة الأناقة، وعلى أي حال لا بُدَّ أن هروب بيانكا قد اكتُشِفَ بحلول هذا الوقت. نزع المسدس من ذراعه وثبَّت مكانه النصل السام، وأعاد آلية المعصم إلى حقيبته. ثمَّ أخذ بيد بيانكا اليمنى، واتجه إلى الغابة المتاخمة للجانب الغربي من القريبة. تسلَّق تلًّا منخفضًا، ونظر إلى سانتا سالفازا، رأى جنود أورسي يركضون نحو برج المراقبة. امتنَّ لخلاصه، وبعد مدَّة بدت له دهرًا، وصل مع الطفلين إلى المكان الذي ربط فيه حصانه، وأركبهما على ظهره وركب خلفهما.

ثمَّ انطلق شمالًا عائدًا إلى فورلي. وجد المدينة هادئة، هادئة جدًّا. وأين قوَّات الأخوين أورسي؟ هل رفعوا الحصار؟ لم يبدُ هذا ممكنًا. حثَّ حصانه على الإسراع.

كانت بيانكا جالسة في المقدِّمة ممسكة برمانة السرج، قالت له: «اسلك طريق الجسر الجنوبي يا سيدي، إنه أقصر طريق إلى المنزل من هنا».

استكنَّ أوتافيانو على صدر إزيو.

وعند اقترابهم من أسوار المدينة، رأى إزيو البوابة الجنوبية مفتوحة، وخرجت منها مجموعة من حراس سفورزا، يرافقون كاترينا، وخلفها مباشرة ماكيافيلي، ورأى إزيو فورًا أن رفيقه الحشَّاش مصاب، فحثَّ حصانه، وعندما وصل إليهم ترجَّل برشاقة وأنزل الطفلين إلى ذراعي كاترينا المتشوِّقتين.

«ماذا يجري بحق العذراء المباركة؟». سألهم إزيو وهو ينقِّل بصره بين كاترينا وماكيافيلي. «ماذا تفعلون هنا بالخارج؟».

قالت كاترينا: «أوه يا إزيو، إنني آسفة، آسفة جدًّا!».

- ماذا حدث؟

قالت كاترينا بقنوط: «كل شيء كان خدعة، حتَّى نتخلَّى عن حذرنا. اختطاف الطفلين كان إلهاءً!».

أعاد إزيو نظراته إلى ماكيافيلي. «لكن المدينة آمنة، أليس كذلك؟».

تنهَّد ماكيافيلي. «بلى، المدينة آمنة، الأخوان أورسي لم يعودا مهتمَّيْن بها».

- ماذا تعني؟

- بعدما دحرناهم، استرخينا، لوقت وجيز فحسب، حتَّى نعيد تنظيم صفوفنا ونعتني بجرحانا، وعندئذٍ شنَّ تشيكو هجومًا مضادًّا، لا بُدَّ أنه خطط لكل شيء! اقتحم المدينة، وقاتلتُه بقوة رجلًا لرجل، لكن جنوده هاجموني من الخلف وتغلَّبوا عليَّ. إزيو، عليك أن تتمالك نفسك الآن، لأن تشيكو أخذ التفَّاحة!

لبث إزيو صامتًا مصعوقًا للحظة طويلة، ثمَّ تكلم ببطء: «ماذا؟ هذا مُحال»، ونظر في ما حوله مهتاجًا. «إلى أين ذهب؟».

- حالما نال ما أراده انسحب مع رجاله، وتفرَّق الجيش، فلم نستطع تبيُّن المجموعة التي أخذت التفَّاحة معها، وعلى أي حال كُنَّا مرهقين من المعركة وما تمكَّنا من مطاردتهم. لكن تشيكو نفسه قاد سرية إلى الجبال ناحية الغرب...

صاح إزيو: «ضاع كل شيء إذن؟!». وخطر له أن لودوفيكو كان محقًّا، لقد استخفَّ بآل أورسي.

قالت كاترينا: «ما زالت الخريطة معنا، حمدًا للرب. لم يجرؤ على المكوث وقتًا طويلًا ليبحث عنها».

- لكن الآن وقد حصل على التفَّاحة، ماذا لو لم يعُد في حاجة إلى الخريطة؟

قال ماكيافيلي متجهِّمًا: «لن نسمح لفرسان الهيكل بالانتصار، تحت أي ظرف! هيا بنا!».

لكن إزيو رأى أن صديقه شحُب متأثِّرًا بجراحه، فقال: «لا، أنت ابقَ هنا. اعتني به يا كاترينا! عليَّ أن أغادر الآن! ربما لم يفت الأوان بعد!».

23

استغرق إزيو وقتًا طويلًا، ظل يتحرَّك نهارًا وينال قسطًا من الراحة بقدر مستطاعه عندما يغيِّر حصانه، ثمَّ وصل إلى جبال أبينيني، وأدرك أن البحث عن تشيكو أورسي سيستغرق وقتًا أطول، لكنه عرف أيضًا أن تشيكو إذا عاد إلى معقل أسرته في نوبيلاريا، فربما يتمكَّن -إزيو- من اعتراضه في الطريق المؤدِّي من هناك جنوبًا إلى روما. ما من ضمان على أن تشيكو لن يذهب مباشرة إلى الفاتيكان، لكن إزيو رأى أن خصمه، إذ يحمل التفَّاحة الثمينة، سوف يسعى إلى مكان آمن لديه معارف فيه، ومنه يرسل رسلًا ليتأكد من عودة الإسباني إلى الفاتيكان قبل أن يذهب إليه هناك.

لذا قرر إزيو أن يسلك طريق نوبيلاريا بنفسه، وبعدما دخل البلدة سرًّا، شرع في البحث عن أي معلومات متعلِّقة بمكان تشيكو، لكن جواسيس تشيكو كانوا في كل مكان، ولم يمض وقت طويل قبل أن يعرف إزيو أن تشيكو يدرك أنه مُطارَد، ويخطط للمغادرة على متن عربتين ومعه التفَّاحة.

صباح اليوم الذي قرر تشيكو أن يغادر فيه، كان إزيو مستعدًّا، راقب بوابة نوبيلاريا الجنوبية من كثب، وسرعان ما خرجت العربتان اللتان يتوقَّعهما، فامتطى حصانه وشرع في المطاردة، لكن في اللحظة الأخيرة ظهرت عربة ثالثة أخف، يقودها أتباع أورسي، مسرعة من شارع جانبي واعترضت طريق إزيو عمدًا، فجعلت حصانه يقف على قائمتيه الخلفيتين ويُسقِطه. ودون أن يهدر وقتًا تخلَّى إزيو عن حصانه وقفز متسلقًا عربة رجال أورسي ثمَّ صرع الحوذي بضربة واحدة وألقاه على الأرض، واتخذ مقعده وانطلق بالحصانين.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن تظهر عربتا خصومه أمامه، لكنهم رأوه أيضًا وزادوا سرعتهم. وفي أثناء هبوطهم الطريق الجبلي الغدار بسرعة، بدأ رجال أورسي الذين يملؤون العربة المرافقة لعربة تشيكو يستعدون لإطلاق سهامهم من أقواسهم النشابة على إزيو، لكن عربتهم دخلت في منعطف بسرعة كبيرة، فانقطعت أربطة الأحصنة وواصلت ركضها متجاوزة المنعطف، لكن العربة فقدت آلية توجيهها وانطلقت فوق حافة الطريقة وتحطَّمت في الوادي بالأسفل على بعد مئات الأقدام. شكر إزيو قدَره، وحث حصانيه على الإسراع، قلِقًا من أن ضغطه عليهما ربما يوقف قلبيهما، لكنهما كانا يسحبان وزنًا أقل من وزن عربة تشيكو، وبثبات قطعا المسافة التي تفصل إزيو عن طريدته.

تقدَّم إزيو بمحاذاة عربة تشيكو، فانهال الحوذي عليه بسوطه، لكن إزيو أمسك به واقتلعه منه، ومن ثمَّ، عندما حانت اللحظة المناسبة، ترك أعنَّة حصانيه وقفز من عربته إلى سقف عربة تشيكو. فتحرَّر الحصانان من وزن سائقهما وسيطرته وانطلقا واختفيا على الأنظار في الطريق أمامهما.

زعق حوذي تشيكو مرتاعًا: «ابتعد بحق الجحيم! باسم الرب ماذا تظن نفسك فاعلًا؟ هل جننت؟». لكن دون سوطه وجد صعوبة في السيطرة على أحصنته، ولم يكن قادرًا على القتال.

ومن داخل العربة صاح تشيكو: «لا تكن أحمق يا إزيو! لن تفلح محاولتك!». ومال بنصف جسده خارج النافذة، وهاجم بسيفه إزيو والحوذي يحاول مذعورًا السيطرة على الأحصنة. «ابتعد عن عربتي!».

حاول الحوذي أن يؤرجح العربة متعمِّدًا حتَّى يُسقِط إزيو، لكن إزيو تشبَّث بقوة، وانحرفت العربة انحرافًا خطِرًا، ومن ثمَّ، عند مرورهم بمقْلع رخام مهجور، خرجت العربة عن السيطرة تمامًا، وسقطت على جانبها قاذفةً الحوذي على كومة ألواح رخام متباينة الأحجام تخلَّى الحجَّارون عنها لعيوب فيها، وأُرغِمت الأحصنة على التوقُّف مذعورةً مهتاجة. قفز إزيو مبتعدًا عن العربة وهبط مقرفصًا، واستل سيفه متأهبًا لتشيكو، الذي خرج من العربة وَجِلًا لكن لم يمسَّه أذًى، والغضب بادٍ على وجهه.

«أعطني التفَّاحة يا تشيكو، انتهى كل شيء».

«أحمق! سينتهي كل شيء عندما تموت!». وهاجم بسيفه خصمه، وعلى الفور احتدمت المبارزة بينهما على نحو خطِر بجوار حافة الطريق.

- أعطني التفَّاحة يا تشيكو، وسأدعك تذهب. ليست لديك أدنى فكرة عن مدى قوة التفَّاحة!

- لن تنالها أبدًا. وعندما تصل إلى الزعيم، فسيمتلك سلطة لم يحلم بها أحد، وأنا ولودوفيكو سنكون معه، ونستمتع معًا بحصَّتنا من السلطة!

- لودوفيكو مات! أتتوقَّع حقًّا أن زعيمكم سيدعك تعيش حالما تؤدِّي مهمتك؟ سيقتلك لأنك تعرف أسراره!

- أقتلتَ أخي؟ سأنتقم له!

اشتبكا وتطاير الشرر من نصليهما، وجَّه تشيكو ضربة نحو إزيو، لكن سيفه ارتدَّ من واقي الذراع المعدني، وعدم تأثير ضربته القوية الدقيقة أربكه لوهلة، لكنه استعاد تركيزه سريعًا ونجح في توجيه ضربة إلى ذراع إزيو اليمنى، أصابه بجرح غائر في عضلته ذات الرأسين فجعله يُسقِط سلاحه.

أطلق تشيكو صيحة نصر مبحوحة، وثبَّت طرف سيفه بجوار عنق إزيو، وقال: «لا تتوسَّل الرحمة، فليس لي رحمة لك». ورفع ذراعه ليسدِّد الضربة القاتلة، وعندئذٍ أخرج إزيو خنجره ذا النصل المزدوج من آلية ذراعه اليسرى، وبسرعة البرق هوى بها على صدر تشيكو.

وقف تشيكو ساكنًا مصعوقًا للحظة طويلة، ناظرًا إلى الأسفل إلى الدم المتقاطر على الطريق الأبيض، ثمَّ أسقط سيفه وتهالك نحو إزيو، متشبِّثًا به محاولًا الوقوف ووجهاهما قريبان من بعضهما. ابتسم تشيكو وقال هامسًا: «ها قد نِلتَ مبتغاك مرَّة أخرى». وازداد نزيف الدماء من صدره.

سأله إزيو: «أيستحقُّ الأمر كل هذا القتل؟».

أطلق الرجل ما بدا كقهقهة، أو ربما سعال، وامتلأ فمه بمزيد من الدماء. «اسمع يا إزيو، تعرف مدى صعوبة الاحتفاظ لمدَّة طويلة بشيء ثمين كهذا». تنفَّس بصعوبة. «سأموت اليوم، لكن أنت ستموت غدًا». وارتخت قسمات وجهه وشخصت عيناه، وتهالك جسده على الأرض عند قدمي إزيو.

قال إزيو له: «سوف نرى يا صديقي. فلترقد بسلام».

أحسَّ بدوار، إذ كان الدم يتدفَّق من جرح ذراعه، لكنه أرغم نفسه على المشي نحو العربة وهدَّأ الأحصنة، وحرَّرها من أربطتها، ثمَّ بحث بداخل العربة وسرعان ما وجد الصندوق، وفتحه بسرعة ليتأكد من سلامة محتوياته، وأغلقه ووضعه تحت ذراعه السليمة. نظر إلى مقلع الرخام، حيث كان

الحوذي ممدَّدًا ساكنًا، ولم يكن من الضروري التحقُّق من موته، فوضعية جسده المحطَّم كانت كافية.

لم تتحرَّك الأحصنة بعيدًا، واقترب إزيو منها، متسائلًا عمَّا إذا لديه القوة لامتطاء أحدها ليعود إلى فورلي أو يقترب منها على الأقل. وتمنَّى أن يجد الأوضاع فيها كما تركها، إذ إن تعقُّبه لتشيكو استغرق مدَّة أطول بكثير ممَّا توقَّع، لكنه لم يتخيَّل أن مهمَّته ستكون سهلة، والآن عادت التفَّاحة إلى حوزة الحشَّاشين، والوقت الذي أنفقه لم يضِع سُدًى.

نظر إلى الأحصنة مرَّة أخرى، ورأى أن الحصان الرئيسي الضخم سيكون خياره الأفضل من بين الأربعة. اقترب من الحصان ليضع يده على عُرفه، وليرفع نفسه بصعوبة، إذ لم يكن الحصان مجهَّزًا للركوب، لكنه ترنح وهو يحاول.

كان قد فقد دماء أكثر ممَّا ظن. ورأى أن عليه ربط جرحه بطريقة ما قبل أن يُقدم على أي خطوة أخرى. قيَّد الحصان إلى شجرة، ومزَّق شريطًا من قميص تشيكو ليستخدمه ضمادة. ثمَّ سحب الجثة بعيدًا عن الأنظار، حتَّى يفترض كل مار بالطريق، إذ لم يدقق النظر، أن إزيو والحوذي راحا ضحية حادث مأساوي. لكن الوقت بدأ يتأخَّر، ولن يسلك الطريق سوى قلة من المسافرين في هذه الساعة.

لكن المجهود استنزف كل طاقته. قال مع نفسه، حتَّى *أنا عليَّ أن أستريح*. وبدت له الفكرة جميلة. فجلس في ظل شجرة واستمع إلى صوت الحصان وهو يأكل العشب بهدوء، ثمَّ وضع الصندوق بجواره على الأرض، وألقى نظرة حذر أخيرة على ما حوله، فهذا آخر مكان ينبغي أن يمكث فيه مدَّة طويلة، لكنه أحسَّ بجفنيه ثقيلين، ولم ير مراقِبه الصامت المختبئ خلف شجرة على هضبة صغيرة تطل على الطريق خلفه.

***

عندما استيقظ إزيو وجد الظلام قد هبط، لكن ثمَّة ضوء قمر باهت مكَّنه من رؤية هيئة شخص يتحرَّك بصمت بجواره.

أحسَّ إزيو بألم خفيف في ذراعه اليمنى، فحاول أن يرفع نفسه مستعينًا بذراعه اليسرى، لكنه وجد أنه غير قادر على تحريكها، إذ جلب شخصٌ لوح

رخام من المقلع وثبَّت به ذراعه على الأرض. جاهد مستخدمًا ساقيه لينهض، لكنه عجز، ونظر إلى حيث ترك الصندوق الذي يحتوي على التفَّاحة.

لم يجده.

ثمَّ رأى إزيو أن الشخص، الذي كان يرتدي زي الرهبان الدومينيكانيين المكون من عباءة سوداء ورداء أبيض، قد لاحظ أنه استيقظ، والتفت إليه، وأحكم تثبيت لوح الرخام الذي يثبِّت ذراعه. ولاحظ إزيو أن إحدى يدي الراهب ينقصها إصبع.

قال: «مهلا! مَن أنت؟ ماذا تفعل؟».

لم يرُد الراهب. ورأى إزيو الصندوق عندما انحنى الراهب ليحمله مرَّة أخرى. «لا تلمس الصندوق! مهما فعلت، لا...»

لكن الراهب فتح الصندوق، فسطع منه ضوءٌ باهر كالشمس.

خُيِّل لإزيو قبل أن يغيب عن الوعي أنه سمع الراهب يطلق تنهيدة رضا.

***

وعندما استيقظ مجددًا وجد الوقت صباحًا، وجميع الأحصنة اختفت، لكنه استعاد شيئًا من قوّته. نظر إلى لوح الرخام، وأحسَّ به ثقيلًا، لكنه تزحزح قليلًا عندما حرَّك ذراعه تحته. نظر في ما حوله، فرأى على مبعدة في متناول يده اليمنى غصنًا قويًّا لا بُدَّ أنه سقط من الشجرة في وقت ما لكنه ما زال أخضر قويًّا، كزَّ بأسنانه وحمل الغصن وحركه تحت اللوح، آلمته ذراعه اليمنى ألمًا مبرحًا وبدأت تنزف مجددًا وهو يقحم طرف الغصن ويرفع. ثمَّ برق في ذهنه سطر تذكَّره بالكاد: *أعطني رافعة طويلة بما يكفي، وسأرفع لك الأرض*... ضغط بقوة، فبدأ اللوح يتحرَّك، لكن قوته خذلته وتهالك متكئًا في مكانه، استراح قليلًا، ثمَّ حاول مرَّة أخرى.

وفي المحاولة الثالثة، صارخًا بداخله من الألم، ومتخيِّلًا أن عضلات ذراعه المصابة ستتمزَّق خارجةً من جلده، ضغط مجددًا، بكل ما يملك من قوة، وأخيرًا انقلب اللوح على الأرض.

اعتدل جالسًا بحذر شديد، وأحس برضوض في ذراعه اليسرى، لكن لم يُكسَر فيها شيء.

لم تكن لديه فكرة عن سبب عدم قتل الراهب له في أثناء نومه. ربما لا يكون القتل جزءًا من خطط رجال الرب. لكن ثمَّة أمرًا واحدًا مؤكد، وهو أن الدومينيكاني والتفَّاحة اختفيا.

نهض بصعوبة، وسار إلى جدول ماء قريب وشرب بنهم، وغسل جرحه وأعاد تضميده، ثمَّ اتجه شرقًا عائدًا عبر الجبال إلى فورلي.

وأخيرًا، بعد رحلة امتدَّت عدَّة أيام، رأى أبراج المدينة في الأفق، لكنه كان مرهقًا، مستنزَفًا من مهامه المتواصلة، ومن فشله، ووحدته. وفي أثناء رحلة العودة أتيح له متسع من الوقت ليفكر بكاترينا واحتمال مآل علاقتهما إذا لم يكن يحمل عبء مسؤوليته، لكن بما أن مسؤوليته ما زالت قائمة، فلن يستطيع تغيير حياته، كما أدرك أنه لن يغيِّرها حتَّى إذا استطاع.

وصل إلى طرف الجسر القريب من البوابة الجنوبية، وأمكنه رؤية الناس الواقفين فوق الأسوار، لكن بلغ منه الإرهاق كل مبلغ، وأغمي عليه.

وعندما أفاق، وجد نفسه مضجعًا على فراش، مغطًّى بأغطية كتانية نظيفة، بالخارج في فناء مشمس مظلَّل باللبلاب. وأحسَّ بيد باردة على جبهته، وكوب ماء على شفتيه.

«إزيو! حمدًا للرب على عودتك إلينا. هل أنت بخير؟ ماذا جرى لك؟». تدفَّقت الأسئلة من شفتَيْ كاترينا باندفاعها المعتاد.

- أنا... لا أدري...

- رأوكَ من أعلى الأسوار، وخرجتُ إليك بنفسي. ظللت تسير لمدَّة لا أدري مدى طولها، وجُرحتَ جرحًا فظيعًا.

جاهد إزيو ليتذكَّر.

- بدأت أتذكَّر الآن... كنت قد استعدتُ التفَّاحة من تشيكو... لكن رجلًا آخر جاء بعدها بوقت قصير... لقد أخذ التفَّاحة!

- مَن؟

- كان يرتدي قلنسوة سوداء، كأنه راهب. وأظن أن إحدى أصابعه مقطوعة!

اعتدل إزيو جالسًا بصعوبة، وتابع: «منذ متى أضجع هنا؟ عليَّ الذهاب حالًا!». حاول أن ينهض، لكنه أحسَّ بأطرافه ثقيلة كالرصاص، وداهمه دوار فظيع، فاضطر إلى الاضطجاع. «يا للهول! ماذا فعل ذلك الراهب بي؟».

مالت كاترينا فوقه. «لا يمكنك الذهاب إلى أي مكان الآن يا إزيو، حتَّى أنت تحتاج إلى وقت لتتعافى إذا أردت خوض المعارك التي تنتظرك، وأرى أمامك رحلة طويلة شاقة. لكن ابتهج! نيكولو عاد إلى فلورنسا، سيتولَّى الأمور هناك، ورفاقك الحشَّاشين الآخرين ما زالوا يقظين، لذا امكث هنا قليلًا...» قبَّلته على جبهته، ثمَّ على شفتيه بعدما ترددت قليلا. «وإذا بإمكاني فعل أي شيء لـ... تسريع شفائك، فما عليك سوى الطلب». وانزلقت يدها برفق شديد إلى الأسفل تحت الأغطية حتَّى عثرت على هدفها. ابتسمت. «عجبًا، أظنني بدأت أنجح، قليلًا».

- يا لكِ من امرأة يا كاترينا سفورزا!

ضحكت. «يا عزيزي، إذا كتبتُ قصة حياتي يومًا، فسوف أصدم العالم».

***

كان إزيو لا يزال قويًّا، في ريعان شبابه، إذ بلغ من العمر ثلاثين عامًا، علاوة على أنه خضع لأعنف التدريبات التي عرفها البشر، لذا لم يكن من المستغرب أن يستعيد عافيته في وقت أقصر ممَّا قد يستغرقه آخرون. لكن ذراعه اليمنى ضعُفت بشدَّة من ضربة تشيكو، وأدرك أنه عليه بذل مجهود شاقٍّ حتَّى يستعيد كامل قواه التي يتطلَّبها استئناف مسعاه. أرغم نفسه على التحلِّي بالصبر، وتحت إرشادات كاترينا الصارمة والمتفهِّمة أمضى وقته في فورلي في التأمل بهدوء، وكان كثيرًا ما يُرى جالسًا في ظل اللبلاب مستغرقًا في قراءة أحد كتب بوليزيانو، أو منهمكًا في تدريبات شاقة متنوعة.

ثمَّ ذات صباح جاءته كاترينا في حجرته ووجدته يرتدي ملابسه متأهِّبًا للسفر، وخادم يساعده على انتعال حذائه، فجلست على السرير بجواره.

سألته: «إذن فقد حان الوقت».

- أجل. لم يعد بإمكاني التأجيل.

بدت حزينة وغادرت الحجرة، ثمَّ عادت بعد وقت قصير ومعها لفافة، وقالت له: «حسنًا، كان لا بُدَّ من مجيء هذه اللحظة، والرب يعلم أن مهمتك

أهم من متعتنا، التي آمل أن يحين وقتها مرَّة أخرى قريبًا!». ناولته اللفافة. «خذ. جلبتُ لك هدية وداع».

- ما هي؟

- شيء ستحتاج إليه.

بسطت اللفافة، ورأى إزيو أنها خريطة لشبه الجزيرة بأكملها، من لومبارديا إلى كالابريا، وكل ما بينهما، علاوة على الطرق والمدن، ومرسوم عليها عدد من الصلبان بحبر أحمر.

رفع إزيو بصره إليها. «هذه هي الخريطة التي تحدث ماكيافيلي عنها، خريطة زوجك...».

- زوجي الراحل يا عزيزي. أنا ونيكولو توصَّلنا إلى اكتشافين مهمَّيْن في أثناء أسفارك، أولهما أننا وقَّتنا... التخلُّص من عزيزنا جيرولامو توقيتًا جيدًا، إذ أوشك أن يكمل عمله على الخريطة، وثانيهما أن الخريطة قيمتها لا تُقدَّر بثمن، فحتى إذا نال فرسان الهيكل التفَّاحة، فلن يستطيعوا أن يجدوا الخزانة دون الخريطة.

- أتعرفين بأمر الخزانة؟

- يا عزيزي، أحيانًا أجدك ساذجًا قليلًا. أعرف بأمرها بالطبع.

استعادت جديتها وتابعت: «لكن من أجل تجريد أعدائنا من أي سلاح تجريدًا تامًّا، عليك أن تستعيد التفَّاحة، وهذه الخريطة ستساعدك على إكمال أهم مهامك».

وعندما ناولته الخريطة، تلامست أصابعهما، وتشابكت، كما تشابكت أعينهما.

ثمَّ قالت كاترينا أخيرًا: «ثمَّة دير في الأراضي الرطبة على مقربة من هنا، رهبان دومينيكانيون، جماعتهم ترتدي قلانِس سوداء، يجدر بك أن تبدأ من ذلك الدير». التمعت عيناها فأشاحت بوجهها. «والآن اذهب! وجِد لنا ذلك الراهب المزعج!».

ابتسم إزيو. «أظنني سوف أفتقدك يا كاترينا».

ابتسمت له ابتسامة مشرقة، ولأول مرَّة في حياتها وجدت صعوبة في تمالك نفسها. «أوه، أعرف أنك ستفتقدني».

24

الراهب الذي استقبل إزيو في الدير كان كما ينبغي للرهبان أن يكونوا، ممتلئ الجسم ومتورد الوجه، أصهب، وذا عينين ماكرتين. وتكلَّم بلكنة عرفها إزيو من بعض المرتزقة الذين صادفهم في خدمة ماريو. كان الرجل من أيرلندا.

«بوركت أيها الأخ».

- شكرًا لك يا أبتاه.

- أنا الأخ أوكالاهان.

- إنني أنشد مساعدتك.

- هذا هو سبب وجودنا هنا يا أخي. وبالطبع إننا نعيش أوقاتًا عصيبة، يصعُب التفكير بوضوح وبطوننا خاوية.

- تعني ومحفظة نقودكم خاوية.

«أسأتَ فهمي، إنني لا أطلب منك شيئًا». بسط الراهب يديه. «لكن الرب يساعد الأسخياء».

أخرج إزيو بضعة فلورينات وناولها للراهب. «إذا لم تَكْفِ هذه...».

بدا الراهب متأمِّلًا. «آه، حسنًا، النية موجودة، لكن الحقيقة هي أن الرب يساعد الأكثر سخاء قليلًا».

استمر إزيو في إخراج النقود حتَّى صَفَت تعابير وجه الأخ أوكالاهان وقال: «نشكر لكم أياديكم المعطاءة يا أخي». عقد كفيه فوق كرشه. «ماذا تريد؟».

- أبحث عن راهب يرتدي قلنسوة سوداء، يفتقد إحدى أصابعه العشرة.

- إمم. الأخ غيدو لديه تسعة أصابع في قدميه، أمتأكد أن النقص ليس في قدميه؟

- متأكد تمامًا.

- الأخ دومينيكو، لكن ذراعه اليسرى بأكملها مبتورة.

- لا، آسف، إنني متأكد تمامًا أنه كان ينقصه إصبع يد.

«إممم». استغرق الراهب في التفكير. «مهلًا لحظة! أتذكَّر راهبًا يرتدي قلنسوة سوداء ولديه تسعة أصابع... أجل! بالطبع! رأيته عندما أقمنا آخر وليمة للقدِّيس فيسينزو في ديرنا في توسكانا».

ابتسم إزيو. «أجل، أعرف المكان، سأبحث هناك. شكرًا».

- اذهب بسلام يا أخي.

- دائمًا ما أذهب بسلام.

***

عبر إزيو الجبال غربًا إلى توسكانا، ورغم أن الرحلة كانت طويلة وشاقة، إذ اقترب الخريف وصار طقس النهار قاسيًا، أحسَّ بتوجُّسٍ أشد عندما اقترب من الدير، لأنه المكان الذي لقي فيه أحد المتورِّطين في مؤامرة اغتيال لورنزو دي مديتشي -ستيفانو دي بانيوني سكرتير ياكوبو دي باتزي- مصرعه على يديه منذ وقت طويل.

ومن سوء الحظ أن رئيس الدير الذي استقبله هنا كان أحد الذين شهدوا عملية القتل تلك.

قال إزيو له في بادئ الأمر: «معذرة، هلَّا أ...».

لكن رئيس الدير، وقد تعرف على إزيو، تقهقر مرعوبًا وصاح: «فلتحمينا جميع الملائكة، أوريل، ورافئيل، وميخائيل، وسوريال، وجبريل، وراميل، وراكيل، فلتحمينا بجبروتها!». خفض نظراته الملتهبة من السماء إلى إزيو. «ابتعد أيها الشيطان الملعون!».

سأله إزيو مشوشًا: «ما الخطب؟».

«أتسألني ما الخطب؟ *ما الخطب؟* أنت قاتل الأخ ستيفانو، قتلته في هذا المكان المقدَّس!». تجمَّع عدَّة رهبان متوتِّرون وراحوا يشاهدون من مسافة آمنة، وعندئذٍ التفت رئيس الدير إليهم، وصاح بهم بصوت كالرعد: «لقد عاد!

قاتل الرهبان والقساوسة قد عاد!»، وأطلق ساقيه للريح، وانطلق رهبانه في أعقابه.

بدا واضحًا أن الرجل في حالة ذعر شديد، لم يجد إزيو خيارًا سوى مطاردته، وبالطبع لم يكن الدير مألوفًا له كما كان لرئيس الدير وأتباعه، وأخيرًا سئم إزيو من الاندفاع دون هدى بين المباني والدهاليز المعقدة، وقفز إلى الأسقف ليحظى بنظرة أفضل على المكان الذي يتوجه الرهبان إليه، لكن صعوده أعلى المباني فاقم ذعرهم، وبدؤوا يصيحون: «لقد جاء! لقد جاء! بعلزبوب جاء!». فهبط إزيو واكتفى بالمطاردة التقليدية.

وأخيرًا لحق بهم، فاستدار رئيس الدير إليه لاهثًا، وصاح بصوت كالنقيق: «ابتعد أيها الشيطان! دعني وشأني! لم نقترف خطيئة كبيرة كخطيئتك!».

«لا، مهلًا، اسمعني». كان إزيو يلهث منقطع الأنفاس مثل الراهب. «أريد أن أسألك سؤالًا فحسب».

- لم نستدع أي شيطان! لا نسعى إلى رحلة في الحياة الآخرة الآن!

خفض إزيو كفيه. «اهدأ أرجوك! لا أريد أن أؤذيك!».

لكن رئيس الدير لم يكن يستمع. قلَّب عينيه في محجريهما. «يا ربي، يا ربي، لماذا تخلَّيت عنِّي؟ لست مستعدًّا بعد للانضمام إلى ملائكتك!».

وأطلق ساقيه للريح مجددًا.

اضطر إزيو إلى عرقلته وإسقاطه، ثمَّ نهضا، ونفضا عن ملابسهما الغبار وسط دائرة من الرهبان المشدوهين.

توسَّل إزيو إليه: «كُفَّ عن الجري، أرجوك!».

انكمش رئيس الدير وتلعثم: «لا! الرحمة! لا أريد أن أموت!».

قال إزيو متكلِّفًا الجدية: «اسمع أيها الأب، لا أقتل إلَّا الذين يقتلون الآخرين، وأخوكم ستيفانو كان قاتلًا، حاول قتل الدوق لورنزو عام 1478». صمت ليلتقط أنفاسه الثقيلة، وتابع: «اطمئن أيها الأب، أنا متأكد أنك لست قاتلًا».

بدا رئيس الدير أهدأ قليلًا، لكن الشك ما زال في عينيه.

سأل: «ماذا تريد إذن؟».

«حسنًا، اسمعني جيدًا، إنني أبحث عن راهب رأيته يرتدي ملابس كالَّتي ترتديها، دومينيكاني، إحدى أصابعه مقطوعة».

بدا رئيس الدير مرتابًا. «إحدى أصابعه مقطوعة؟ أتقصد الأخ سافونارولا؟».

تشبث إزيو بالاسم. «*سافونارولا*؟ مِن هو؟ أتعرفه؟».

- كنت أعرفه. كان واحدًا منا... لمدَّة من الوقت.

- ثمَّ ماذا حدث؟

هزَّ رئيس الدير كتفيه.

- اقترحنا عليه أن يأخذ استراحة طويلة في صومعة بين الجبال، فهو لم يكن... منسجمًا معنا هنا...

- يبدو لي أن أيام عزلته انتهت. أتعرف مكانًا يحتمل أنه ذهب إليه؟

«إممم...» نقب رئيس الدير في عقله. «إذا ترك صومعته، فربما عاد إلى سانتا ماريا ديل كارميني، في فلورنسا، فهو درس هناك. ربما عاد إلى هناك».

أطلق إزيو تنهيدة ارتياح. «شكرًا لك أيها الأب، اذهب في رعاية الرب».

***

اعترى إزيو إحساسٌ غريب إثر عودته بعد مدَّة طويلة إلى مدينته التي نشأ فيها، فالذكريات كثيرة، لكن الظروف حتَّمت عليه أن يعمل منفردًا، ولم يكن بوسعه التواصل مع أصدقائه أو حلفائه القدامى، لئلا ينتبه أعداؤه.

كما بدا واضحًا له أن المدينة ظلت مستقرَّة، لكن الكنيسة، على الأقل التي في طريقه إليها، كانت مضطربة. خرج راهبٌ منها راكضًا خائفًا.

اقترب إزيو من الراهب قائلًا: «مهلًا، اهدأ أيها الأخ، لا بأس!».

التفت الراهب إليه بعينين جامحتين. «ابتعد يا صديقي، إذا كنت تقدِّر حياتك!».

- ماذا جرى هنا؟

- جاء جنود من روما واستولوا على كنيستنا! اعتقلوا إخوتنا، وسألونا أسئلة غير معقولة، ظلوا يطالبوننا بأن نعطيهم فاكهة!

- أي نوع من الفاكهة؟

- التفَّاح!

قال إزيو مع نفسه: *التَّفاح! يا للشيطان! رودريغو وصل إلى هنا قبلي!*

تابع الراهب: «جرُّوا أحد رفاقنا الكرمليين إلى خلف الكنيسة! أنا متأكد أنهم سيقتلونه!».

- كرمليون؟ ألستم دومينيكانيون؟

ترك إزيو الرجل، وسار بحذر حول سور كنيسة سانتا ماريا، ملتصقًا به، وتحرَّك برشاقة نمس يواجه أفعى كوبرا. وعندما وصل إلى سور حديقة الكنيسة، تسلَّق إلى السقف، وما رآه بالأسفل صدمه رغم تجاربه مع العنف، رأى مجموعة من حراس بورجيا ينهالون بالضرب المبرِّح على راهب شاب طويل، بدا في الخامسة والثلاثين من عمره.

صاح قائد الحراس: «أخبرنا! أخبرنا وإلّا فسأعذبك حتَّى تتمنَّى لو أنك لم تولد. أين التفَّاحة؟».

- أرجوك! لا أدري! لا أعرف ما تتكلَّم عنه!

مال قائد الحراس مقتربًا. «اعترف! اعترف بأن اسمك سافونارولا!».

- أجل! أخبرتك! ضربتني حتَّى أخبرتك!

- إذن أخبرنا بمكان التفَّاحة حتَّى تنتهي معاناتك».

ركل المستجوِب الراهب في منفرجه بوحشيه، فعوى من الألم.

شاهد إزيو ما يجري بقلق متزايد. إذا كان هذا الراهب هو سافونارولا فعلًا، فربما يقتله سفاحو بورجيا قبل أن يتمكَّن هو من استخلاص الحقيقة منه.

زمجر الحارس: «لماذا تواصل الكذب عليَّ؟ زعيمنا لن يُسَرَّ بسماع أنني عذبتك حتَّى الموت! أتريد أن تسبِّب لي المتاعب؟».

تكلَّم الراهب وهو ينشج: «لا أملك أي تفَّاحة، لستُ سوى راهب بسيط. أرجوك دعني!».

- مُحال!

قال الراهب باكيًا على نحو مثير للشَّفقة: «لا أعرف شيئًا!».

صرخ الحارس: «إذا أردتني أن أتوقَّف»، وركله في الموضع نفسه، «فأخبرني بالحقيقة أيها الأخ جيرولامو سافونارولا!».

عضَّ الراهب شفته، لكنه رد بعناد: «أخبرتك بكل ما أعرفه!».

ركله الحارس مجددًا، وأمر أتباعه بالإمساك بكاحليه وسحبه بلا رحمة على الأرض المرصوفة، فارتطم رأس مرارًا على الحجارة الصلبة. صرخ الراهب وجاهد ليفلت بلا جدوى.

قرَّب قائد الحراس وجهه من الراهب. «هل نلت كفايتك؟ أمستعد لملاقاة خالقك؟ أتكذب مرارًا حتَّى تلاقيه؟».

انتحب الراهب الكرملي، الذي كانت عباءته شبيهة إلى درجة خطِرة بعباءات الرهبان الدومينيكانيين. «إنني راهب بسيط، ليست لديَّ فاكهة من أي نوع! أرجوك...».

ركله الحارس، في الموضع نفسه، مجددًا. فتلوَّى جسد الراهب بألم لا تكفي الدموع للتعبير عنه.

شاهد إزيو ما فيه الكفاية. قفز هابطًا، وتحول إلى شبح انتقام، وأعمل نصليه، السامَّ والمزدوج، وفي غضون دقيقة صار جلاوزة بورجيا على أرضية الفناء إما ميتين وإما يئنُّون من ألم كالذي أنزلوه بالراهب.

تعلَّق الراهب بركبتي إزيو منتحبًا. «شكرًا، شكرًا لك يا مُخَلِّصي».

مسح إزيو على رأسه. «اهدأ، اهدأ. لا بأس يا أخي». ونظر إلى أصابع الراهب.

وجد أصابعه العشر سليمة.

تمتم شاعرًا بالإحباط رغمًا عن نفسه: «لديك عشر أصابع».

صاح الراهب: «أجل! لديَّ عشر أصابع، وليس لديَّ أي تفَّاح سوى الذي يُجلب إلى الدير من السوق كل يوم خميس!». نهض وعدَّل هندامه، وتابع: «باسم الرب! هل فقد كل الناس صوابهم؟».

سأله إزيو: «من أنت؟ لماذا اعتقلوك؟».

- لأنهم اكتشفوا أن اسم عائلتي سافونارولا حقًّا! لكن لماذا عساي أن أكشف أمر ابن عمي لأولئك الأوباش؟

- أتعرف ما فعله ابن عمك؟

- لا أعرف شيئًا! إنه راهب، مثلي. صحيح أنه اختار جماعة الدومينيكانيين الأكثر تشدُّدًا، لكن...

- هل ينقصه إصبع؟

«نعم، لكن كيف يمكن لأي أحد أن...» بدا على الراهب أنه أدرك أمرًا.

ألح إزيو: «من هو جيرولامو سافونارولا؟».

- ابن عمي، ورجل كرَّس نفسه لخدمة الرب. إنني أشكرك بتواضع على إنقاذي ومدين لك بأي خدمة قد تطلبها منِّي، لكن اسمح لي بسؤالك، من أنت؟

قال إزيو: «أنا... بلا اسم. لكن أسدني معروفًا بإخباري باسمك».

أجاب الراهب خانعًا: «الأخ مارسيلو سافونارولا».

ضجَّ عقل إزيو بالأفكار. «أين ابن عمك جيرولامو؟».

استغرق الأخ مارسيلو في التفكير، وضميره يؤنِّبه، ثمَّ قال: «صحيح أن ابن عمي لديه... نظرة أحادية لكيفية خدمة الرب... إنه ينشر مذهبًا خاصًّا به... قد تجده الآن في البندقية».

- ماذا يفعل هناك؟

سوَّى مارسيلو كتفيه. «أظنه ضلَّ سبيله. جميع خُطبه مُنذرة متوعِّدة، ويزعم أنه يرى المستقبل». نظر إلى إزيو بعينين محتقنتين بالدماء تطفحان ألمًا. «إذا أردت رأيي حقًّا، سأقول لك إنه يهذي بالجنون!».

25

أحسَّ إزيو بأنه أمضى وقتًا طويلًا في مسعى بدا له عقيمًا. بدا له أن مطاردة سافونارولا كمطاردة السراب. لكن لم يكن له بُدٌّ من مواصلة البحث، دون كلل أو ملل، لأن رجل الدين ذا الأصابع التسع بحوزته التفَّاحة، التي تمثِّل مفتاحًا لأشياء يعجز العقل عن تخيلها، والرجل خطِر مصاب بهوس ديني، والتعامل معه أصعب من التعامل مع الزعيم رودريغو بورجيا نفسه.

استقبلته تيودورا عند هبوطه من بارجة رافينا في ميناء البندقية.

البندقية في عام 1492 كانت لا تزال تحت حكم الدوج أغوستينو باربريغو العادل نسبيًّا، وكانت المدينة تضج بأحاديث عن بحار من جنوا يُدعى كريستوفر كولومبوس، رفضت البندقية خططه للإبحار غربًا عبر المحيط، ووجد التمويل من إسبانيا، وعلى وشك الإبحار. هل جُنَّ مسؤولو البندقية حتَّى لا يموِّلوا الرحلة؟ إذا نجح كولومبوس، فسوف يمكن تأسيس مسار بحري آمن إلى الهند، وبالتالي التخلي عن الطريق البري الذي يسيطر عليه الأتراك العثمانيون. لكن إزيو كان مشغول البال بشؤون أخرى، فلم يحفل كثيرًا بأحاديث السياسة والتجارة.

قالت تيودورا: «بلَغَنا خبرك، لكن هل أنت متأكد؟».

- إنه الخيط الوحيد الذي أملكه، ويبدو واعِدًا. أنا متأكد أن التفَّاحة عادت إلى هنا، بين يدي الراهب سافونارولا. سمعت أنه يخطب في الحشود متحدِّثًا عمَّا سيأتي من جحيم وعذاب.

- سمعتُ بهذا الرجل.

- أتعرفين أين يمكن أن نجده يا تيودورا؟

- لا. لكنني رأيت مُبشِّرًا يجتذب الحشود في المنطقة الصناعية، معظم حديثه كان وعيدًا وترَّهات كما ذكرتَ. ربما يكون أحد أتباع الراهب الذي تقصده. تعالَ معي، ستكون ضيفي بلا شك في أثناء وجودك هنا، وحالما نرتِّب مسكنك سنذهب مباشرة إلى المكان الذي يلقي فيه ذلك الرجل خطبه.

كان إزيو وتيودورا، بل كل شخص ذكي عقلاني، يعرفون سبب انجذاب الناس للأحاديث الهستيرية المنذرة بالسوء. عام 1500 الذي يمثل نصف الألفية لم يكن بعيدًا، واعتقد كثيرون أن ذلك العام سيشهد المجيء الثاني للمسيح، عندما «*يعود ابن الإنسان في مجده معه جميع ملائكته، فإنه يجلس على عرش مجده، وتجتمع أمامه الشعوب كلها، فيفصل بعضهم عن بعض كما يفصل الراعي الغنم عن الماعز، فيوقف الغنم عن يمينه والماعز عن يساره*».

كان وصف متَّى للحساب الأخير يتردَّد في أذهان الكثيرين.

قالت تيودورا: «هذا المبشِّر ورئيسه يسعيان لاستغلال هوس *مطلع القرن*، ويبدو لي أنهما نفسهما يؤمنان به».

قال إزيو: «لا بُدَّ أنهما يؤمنان. الخطر هو، بما أن التفَّاحة بحوزتهما، أنهم ربما يتسبَّبا في كارثة عالمية لا علاقة لها بالرب، إنما من عمل الشيطان». صمت، ثمَّ تابع: «لكن في الوقت الراهن لم يطلقا العنان للقوة التي لديهم، وحمدًا للرب على ذلك، لا أظنهما قادرَيْن على السيطرة عليها. في الوقت الراهن على الأقل يبدو أنهما راضيان بالتنبُّؤ بنهاية العالم، التي...» ضحك بمرارة. «يسهل دومًا تصديق الأكاذيب التي تُنسج حولها».

قالت تيودورا: «وتصبح أسوأ دومًا، يكاد المرء أن يصدِّق أن نهاية العالم قريبة حقًّا. هل سمعتَ الخبر السيئ؟».

- لم أسمع خبرًا منذ مغادرتي فورلي.

- لورنزو دي مديتشي مات بقصره في كاريجي.

تجهَّم إزيو. «هذه مأساة حقًّا! لورنزو كان صديقًا وفيًّا لعائلتي، ولولا حمايته ما أظنني كنت لأقدر على استعادة قصر أودِتوري أبدًا. لكن هذا لا شيء مقارنة بما قد يعنيه موته للسلام السائد بين الدول المدينية، إذ ظل دومًا هشًا في أحسن الأحوال».

قالت تيودورا: «ثمة مزيد، وهو خبر أسوأ من موت لورنزو». صمتت، ثمَّ تابعت: «عليك أن تتجلَّد لسماع هذا الخبر يا إزيو. الإسباني، رودريغو بورجيا، انتُخِب البابا. ويحكم الفاتيكان وروما بوصفه الحبر الأعظم، أَلِكساندر السادس!».

- ماذا؟! بأي وسيلة شيطانية...؟

- خلوة روما انفضَّت قبل وقت قصير، في الشهر الحالي. يُشاع أن رودريغو اشترى معظم الأصوات ببساطة. حتَّى أسكانيو سفورزا، الذي كان المرشَّح الأوفر حظًّا ضد رودريغو، صوَّت لصالحه! يقال إن رشوته كانت حمل أربعة بغال من الفضَّة.

- كيف سيستفيد من منصب البابا؟ ما الذي يسعى إليه؟

- أليس النفوذ كافيًا؟ صرنا تحت سلطة ذئب يا إزيو، أشد الذئاب ضراوة في العالم.

- ما تقولينه صحيح يا تيودورا، لكن السلطة التي يسعى إليها أكبر من التي تمنحها له البابوية. إذا سيطر على الفاتيكان فقد اقترب كثيرًا من إمكانية وصوله إلى الخزانة. وهو ما زال يتعقَّب التفَّاحة، 'قطعة عدن' التي يحتاج إليها حتَّى ينال كل قوى الرب!

- فلنبتهل أن تعيد التفَّاحة إلى أيدي الحشَّاشين. رودريغو بوصفه البابا وزعيم فرسان الهيكل شخص خطِر بما يكفي، وحالما ينال التفَّاحة أيضًا... كما قلتَ، فلن يُقهر.

- هذا غريب.

- ما الغريب؟

- ثمَّة رجلان يتعقَّبان صديقنا سافونارولا ويتربَّصان به، وهو غافل عنهما.

***

اصطحبت تيودورا إزيو إلى ساحة مفتوحة شاسعة في المنطقة الصناعية بالبندقية، حيث اعتاد المبشِّر إلقاء مواعظه، وتركته هناك. رفع إزيو قلنسوته وخفض وجهه ودخل وسط الحشد الذي بدأ يتجمَّع، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن تضيق الساحة بمَن فيها، وتجمهر الناس حول منصَّة خشبية صغيرة صعد عليها رجل عندئذٍ، رجل عليه أمارات الزهد ذو عينين زرقاوين وخدين

غائرين وشعر رمادي ويدين معروقتين، ويرتدي عباءة صوفية رمادية. بدأ يتكلَّم، دون أن يتوقَّف إلا عندما ترغمه هتافات الحشد. رأى إزيو كيف يمكن لرجل واحد أن يتلاعب بالمئات ويقودهم إلى حالة هيستريا عمياء.

«اقتربوا يا أبنائي، واسمعوا صيحتي! صرنا قاب قوسين أو أدنى من نهاية أيامنا، فهل أنتم مستعدُّون لما هو آت؟ هل أنتم مستعدُّون لرؤية النور الذي باركنا به أخي سافونارولا؟». رفع يديه، وأصغى إزيو بانتباه شديد إذ يعرف الضوء الذي يشير المبشِّر إليه. تابع المبشِّر: «إننا نقترب من أيام قاتمة، لكن أخي هداني إلى طريق الخلاص، إلى الضوء السماوي الذي ينتظرنا، لكن شريطة أن نكون مستعدين، وشريطة أن نتقبَّله ونؤمن به، فليكن سافونارولا هادينا، فهو وحده مَن يعلم ما سيأتي، ولن يضلَّنا السبيل». مال المبشِّر إلى الأمام متحمِّسًا فوق المِقْرأ الذي أمامه. «هل أنتم مستعدُّون للحساب الأخير يا إخوتي وأخواتي؟ من ستتبعون عندما يحين الوقت؟». صمت مرَّة أخرى من أجل التأثير الدرامي. «كثيرون في الكنائس يزعمون أنهم يمنحون الخلاص، المبشِّرون، والغافرون، وأسرى الخرافات من ضعاف العقول... لكن كلَّا يا أبنائي! جميعهم دُمى بين يدي البابا بورجيا، جميعهم دمى بين يدي البابا ألكساندر السادس، أسوأ من اتخذ هذا الاسم!».

صاح الحشد، وأجفل إزيو في دواخله، إذ تذكَّر النبوءات الواضحة التي رسمتها التفَّاحة في ورشة ليوناردو. في مكان ما في المستقبل البعيد، سيأتي وقت تُفتح فيه أبواب الجحيم على الأرض حقًّا، إلَّا إذا تمكَّن هو من إيقافها.

«البابا الجديد ألكساندر ليس رجلًا متدينًا، ليس رجلًا روحانيًّا. أمثاله يشترون صلواتكم ويبيعون تبرعاتكم متربِّحين منها، جميع قساوسة كنائسنا تجار كَنَسيون! واحدُ منَّا فقط رجلٌ روحاني حقًّا، واحدٌ منَّا فقط رأى المستقبل، وتكلم مع الرب! إنه أخي سافونارولا! هو الذي سيهدينا!».

تساءل إزيو مع نفسه: هل أقدم ذلك الراهب المجنون على فتح التفَّاحة؟ هل رأى المشاهد نفسها؟ ماذا قال ليوناردو عن التفَّاحة؟ «غير آمنة للعقول الضعيفة»؟

كان المبشِّر يختتم كلامه: «سافونارولا سوف يقودنا إلى النور، سافونارولا سوف يخبرنا بما هو آت! سافونارولا سيأخذ بأيدينا إلى أبواب الجنان! لن يعوزنا شيء في العالم الذي شهده سافونارولا. الأخ سافونارولا يسير في طريق الرب الذي نسعى للاهتداء إليه!».

رفع يديه مجددًا وراح الحشد يزعق ويهتف.

عرف إزيو أن المبشِّر هو وسيلته الوحيدة للعثور على الراهب، لكن تعيَّن عليه إيجاد طريقة للوصول إلى الرجل دون إثارة شكوك حشود المؤمنين المتحمِّسين. شقَّ طريقه إلى الأمام بحذر، متظاهرًا بأنه رجل مسكين يسعى لنيل مكان بين رعية المبشِّر.

لم تكن مهمَّته سهلة، إذ رآه الناس غريبًا، قادمًا جديدًا، ينبغي النظر إليه بعين الريبة، وراحوا يدفعونه بعيدًا بعنف، لكنه ابتسم، وانحنى، حتَّى إنه لجأ إلى إلقاء الأموال على الأرض قائلًا: «أريد أن أتبرع لقضية سافونارولا والذين يدعمونه ويؤمنون به». وكان للمال مفعوله الساحر المعتاد. وخطر لإزيو أن المال أعظم مُغيِّر آراء على الإطلاق.

كان المبشِّر يراقب تقدم إزيو ويشاهده بمزيج من التسلِّي والازدراء، وأخيرًا أمر رجاله بالتنحِّي جانبًا واستدعى إزيو بإشارة، واقتاده إلى مكان هادئ، ساحة صغيرة قريبة من الساحة الرئيسية، حيث يمكنهما أن يحظيا بالخصوصية. وسر إزيو برؤية أن المبشِّر ظنَّ أنه كسِب شخصًا مهمًّا وثريًّا ضمن رعيته.

سأله إزيو: «أين سافونارولا نفسه؟».

أجاب المبشِّر: «إنه في كل مكان يا أخي، إنه مُتَّحد معنا جميعًا، وجميعنا متحدون معه».

قال إزيو نافد الصبر: «اسمع يا صديقي، إنني أبحث عن الرجل، لا الخرافة، فأرجوك أخبرني بمكانه».

نظر المبشِّر إليه شزرًا، ورأى إزيو الجنون واضحًا في عينيه. «أخبرتك بمكانه. اسمع، سافونارولا يحبك كما أنت، سوف يريك النور، سوف يريك المستقبل!».

- لكن يجب أن أراه بنفسي، يجب أن أرى الزعيم العظيم! ولديَّ ثروة طائلة سأسخِّرها لحملته الصليبية العظيمة!

بدا المكر على المبشِّر إثر سماعه الكلمات الأخيرة، وقال: «فهمت. كن صبورًا، لم يحن الوقت بعد. لكنك سوف تنضمَّ إلينا في رحلة الحج يا أخي».

***

صبر إزيو. صبر مدَّة طويلة. ثمَّ ذات يوم تلقَّى استدعاء من المبشِّر حتَّى يقابله في ميناء البندقية عند الغسق. وصل مبكرًا وانتظر متوتِّرًا نافد الصبر، حتَّى رأى أخيرًا هيئة ظلِّيَّة تقترب من بين ضباب المساء.

حيَّا المبشِّر. «لم أكن متأكدًا أنك ستأتي».

بدا المبشِّر مسرورًا. «إنك شغوف في سعيك إلى الحقيقة يا أخي، وأرى أن شغفك لم يخمد رغم مرور الوقت. لكننا مستعدُّون الآن، وقائدنا العظيم استهلَّ مهمَّته التي وُلِدَ من أجلها. تعالَ!».

أشار إلى الأمام واقتاد إزيو إلى الرصيف حيث تنتظر سفينة ضخمة، وبجوارها حشد من المؤمنين ينتظرون، خاطبهم المبشِّر: «أبنائي! أخيرًا حان وقت رحيلنا. أخي وقائدنا الروحي جيرولامو سافونارولا ينتظرنا في المدينة التي اتخذها دياره أخيرًا!».

«أجل، اتخذها دياره! اللقيط ابن العاهرة أخضع مدينتي التي ولدتُ فيها، ودفعها إلى حافة الجنون!».

التفَّت الحشد وإزيو لينظروا إلى المتكلِّم، فرأوا شابًّا طويل الشعر يرتدي عباءة سوداء، ذا شفتين ممتلئتين ووجه ضعيف الملامح مشوَّه من الغضب. تابع كلامه: «هربتُ من هناك للتَّوِّ، وقد خلعني من منصب الدوق ملكُ فرنسا تشارلز الوغد، الذي تسبَّب تدخُّله في استبدالي بكلب الرب سافونارولا!».

اعتكر مزاج الحشد، وأرادوا بالطبع القبض على الرجل وقذفه في البحيرة، لكن المبشِّر منعهم قائلًا: «دعوا الرجل يعبر عن رأيه»، والتفت إلى الغريب سائلًا: «لماذا تسيئ لاسم سافونارولا يا أخي؟».

«لماذا؟ لماذا؟ بسبب ما فعله بفلورنسا! إنه يسيطر على المدينة! أعضاء السنيوريا إما يدعمونه وإما عاجزين أمامه. إنه يتلاعب بعامة الناس، حتَّى الذين يفترض أنهم عقلاء، أمثال المايسترو بوتيشيلي، يتبعونه خانعين. أتباعه يحرقون الكتب والأعمال الفنية وكل ما يعده ذلك المجنون غير أخلاقي!».

سأله إزيو باهتمام: «سافونارولا في فلورنسا الآن؟ هل أنت متأكد؟».

- بالطبع! أتمنَّى لو كان في القمر أو في الجحيم! بالكاد نجوت بحياتي!

سأله المبشِّر: «ومن أنت بالضبط يا أخي؟». ولم يحاول إخفاء نفاد صبره.

اعتدل الشاب في وقفته وقال: «أنا بييرو دي مديتشي، ابن لورنزو، العظيم، وحاكم فلورنسا الشرعي!».

أمسك إزيو بيده. «سررت بلقائك يا بييرو. والدك كان صديقًا مخلصًا لي».

نظر بييرو إليه. «شكرًا لك، رغم أنني لا أعرفك. أبي كان محظوظًا بموته قبل اندلاع كل هذا الجنون في مدينتنا». التفت حانقًا إلى الحشد الغاضب. «لا تتبعوا ذلك الراهب الوغد! إنه أحمق خطِر متعجرف! ينبغي التخلُّص منه كما نتخلَّص من الكلاب المسعورة!».

وعندئذٍ زمجر الحشد بصوت واحد غاضبين لراهبهم المقدَّس، والتفت المبشِّر إلى بييرو وزعق: «هذا هو الرجل الذي يجب التخلُّص منه! وإسكاته! يجب حرقه!».

استلَّ بييرو وإزيو سيفيهما وواجها جمهرة الرعاع الغاضبين.

سأل بييرو: «مَن أنت؟».

- إزيو أودِتوري.

«آه! إنني ممتنٌّ لمساعدتك. كان أبي يتحدَّث عنك كثيرًا». نظر إلى أعدائهما. «هل سنخرج من هذه الورطة؟».

- آمل هذا. لكنك لم تتوخَّ الحذر.

- كيف كان لي أن أعرف؟

- أفسدتَ للتَّوِّ خططي ومجهوداتي، لكن لا عليك، عليك بسيفك الآن!

كان القتال عنيفًا لكن قصيرًا. انسحب الرجلان أمام الحشد إلى مخزن مهجور، ورأيا أن يقاتلا فيه. ومن حسن حظهما أن مجموعة الحجاج، رغم غضبهم، لم يكونوا مقاتلين متمرِّسين، وحالما انسحب الجريؤون منهم بجروح من سيفَيْ إزيو وبييرو، تراجعت بقيتهم، وهربوا. المبشِّر وحده ثبت في مكانه شاحبًا متجهِّمًا.

قال لإزيو: «أيها المحتال! سوف تتجمَّد إلى الأبد في جليد الحلقة الرابعة من الدائرة التاسعة في الجحيم، وأنا سأرسلك إلى هناك». ومن عباءته أخرج خنجرًا كبيرًا حادًّا، وهاجم إزيو شاهرًا الخنجر فوق رأسه، فتراجع إزيو متعثِّرًا وكاد أن يسقط، وصار تحت رحمة المبشِّر، لكن بييرو وجه ضربة خاطفة إلى ساقي الرجل، وبعدما استعاد إزيو توازنه أخرج نصله المزدوج وغرزه في بطن الرجل، فارتجَّ جسده بأكمله من الضربة، وشهق، ثمَّ سقط متلوِّيًا مرتعشًا، حتَّى همد أخيرًا.

قال بييرو بابتسامة كئيبة: «آمل أن أكون قد عوَّضتُ إفسادي لخططك. هيا! فلنذهب إلى قصر الدوج ونطلب من أغوستينو نشر حرس المدينة لنحرص على تفرُّق أولئك المعاتيه وعودتهم إلى وجارهم».

قال إزيو: «شكرًا. سأسلك الاتجاه الآخر، إلى فلورنسا».

نظر بييرو إليه مستغربًا. «ماذا؟ إلى مصدر الشرور؟».

- لديَّ أسباب خاصَّة بي للبحث عن سافونارولا. لكن ربما لم يَفُت الأوان على إصلاح الضرر الذي أحدثه في مدينتنا.

- إذن أتمنَّى لك التوفيق في مسعاك، أيًّا تكن غايتك.

26

تولَّى الأخ جيرولامو سافوناورلا الحكم الفعلي بفلورنسا عام 1494، في الثانية والأربعين من عمره. كان رجلًا مضطربًا مُعذَّبًا، عبقريًّا مُختلًّا، أشد المتدينين تعصُّبًا ومغالاة، لكن الأشد إثارة للخوف منه لم يكن سماح الناس له بقيادتهم فحسب، بل وبتحريضهم على ارتكاب أشنع الحماقات وأشدها تدميرًا. وكل أحاديثه قائمة على إرهاب الناس من نار الجحيم وعقيدة مفادها أن جميع الماديات الدنيوية وأعمال البشر دنيئة، وأن المرء لا يمكنه الاهتداء إلى نور الإيمان الحقيقي إلَّا بمحو ذاته محوًا تامًّا.

تأمَّل إزيو ما يجري وهو في طريقه إلى فلورنسا، وخطر له أن ليوناردو كان معه الحق في البقاء بميلانو، نائيًا بنفسه عن كل شيء، ولا عجب أيضًا أن المفكرين والشعراء الإنسانيين والماديين الذي التفُّوا حول روح لورنزو المستنيرة قد تفرَّقوا باحثين عن أرض أخصب من فلورنسا التي تتحوَّل بسرعة إلى بيئة قاحلة للمفكِّرين.

وعندما اقترب إزيو من المدينة، لاحظ مجموعات كبيرة من الرهبان المتشحين بعباءات سوداء والناس العاديين الذي يرتدون ملابس ذات ألوان كئيبة يسيرون في اتجاه واحد، جميعهم يبدو عليهم الورع والخنوع، ويسيرون وهم يطأطئون رؤوسهم.

سأل إزيو جماعة من السائرين: «إلى أين ذاهبون؟».

أجابه تاجر شاحب الوجه: «إلى فلورنسا، لنجلس عند قدمي القائد العظيم»، ومضى في طريقه.

كان الطريق واسعًا، ورأى إزيو جماعة أخرى من الناس تقترب منه، بدا أنهم يغادرون المدينة، وهم أيضًا يسيرون مطأطئي الرؤوس، وتعابير وجوههم متجهِّمة كئيبة. وعند مرورهم بجوار إزيو سمع أجزاء من أحاديثهم، أدرك منها أن أولئك الناس ذاهبون إلى منفى اختياري. كانوا يدفعون عربات محمَّلة بكل شيء، أو يحملون أكياسًا أو صُرر فيها ممتلكاتهم، كانوا لاجئين، منفيين من ديارهم إما بأمر الراهب، أو باختيارهم إذ لم يعودوا يطيقون العيش تحت حُكمه.

قال أحدهم: «إذا كان بييرو يتحلَّى بعُشر موهبة أبيه، لكان لدينا مكان نسميه ديارنا...».

غمغم آخر: «ما كان ينبغي لنا السماح لذلك المجنون بإحكام قبضته على مدينتنا، انظروا إلى كل البؤس الذي أنزَله...».

قالت امرأة: «ما لا أفهمه هو سبب قبول كثيرين منَّا باضطهاده لنا».

قالت امرأة أخرى: «حسنًا، أي مكان آخر أفضل من فلورنسا الآن. طُردنا عندما رفضنا تسليم كل ما نملكه لكنيسة سان ماركو الأثيرة لديه!».

«لا يمكنني تفسير ما يحدث إلا بأنه شعوذة. حتَّى المايسترو بوتيشيلي وقع تحت تأثير سافونارولا، لكن الرجل يشيخ، لا بُدَّ أنه يناهز الخمسين من عمره، ربما يريد تسوية حساباته مع السماء».

«حرق الكتب، اعتقالات، مواعظ لا نهاية لها! وعندما نتذكر حال فلورنسا قبل عامين فحسب... كانت منارة العلم والنور! والآن عدنا إلى وحل العصور المظلمة».

ثمَّ قالت امرأةٌ كلامًا انتصبت له أُذنا إزيو. «أحيانًا أتمنَّى عودة الحشَّاش إلى فلورنسا، حتَّى نتحرَّر من هذا الطغيان».

ردَّت صديقتها: «في أحلامك! الحشَّاش خرافة! ليس سوى بعبع يحدث الآباء أطفالهم عنه».

تنهَّدت المرأة الأولى. «إنكِ مخطئة، أبي رآه في سان جيمِنيانو. لكن ذلك كان قبل سنوات عديدة».

«أجل، أجل، كما تقولين».

تجاوزهم إزيو بحصانه، منقبض الصدر، لكن معنوياته ارتفعت عندما رأى شخصًا مألوفًا قادمًا نحوه.

قال ماكيافيلي: «مرحبًا يا إزيو». وقد ارتسمت على وجهه معالم التقدم في السن.

- مرحبًا يا نيكولو.
- اخترت وقتًا مناسبًا للعودة إلى الديار.
- تعرفني، حيثما وجد مرض أود أن أحاول علاجه.

«نحتاج إلى مساعدتك الآن بالطبع». تنهَّد ماكيافيلي. «لا شك في أن سافونارولا لما بلغ مكانته الآن دون استخدام قوى التفَّاحة». رفع يده. «أعرف كل ما حدث لك منذ لقائنا آخر مرَّة، كاترينا أرسلت إليَّ ساعيًا من فورلي قبل عامين، ومؤخَّرًا وصل ساع آخر برسالة من بييرو في البندقية».

- جئت من أجل التفَّاحة، لقد ظلت بعيدة عن أيدينا مدَّة أطول من اللازم.
- من ناحية أظننا ينبغي أن نكون ممتنِّين لجيرولامو البغيض، فعلى الأقل أبعد التفَّاحة عن يدي البابا الجديد.
- هل حاول البابا استعادتها؟
- يحاول باستمرار. يُشاع أن ألكساندر يخطط لمعاقبة عزيزنا الدومينيكاني بالحرمان الكنسي، لكن هذا لن يغير الواقع هنا تغييرًا يُذكَر.
- ينبغي لنا أن نشرع في استعادتها دون إبطاء.
- التفَّاحة؟ بالطبع. لكن المهمَّة ستكون أعقد ممَّا تظن.

نظر إزيو إليه. «هه! متى كانت مهامنا سهلة؟ أخبرني بالمستجدَّات هنا».

- تعالَ، فلنعُد إلى المدينة، سأخبرك بكل ما أعرفه، وهو ليس بالكثير. الخلاصة هي أن الملك شارل الثامن، ملك فرنسا، تمكَّن أخيرًا من إخضاع فلورنسا. هرب بييرو. وشارل، المتعطِّش لمزيد من الأراضي دومًا، الذي لا أدري لماذا يلقَّب بدمث الأخلاق، زحف نحو نابولي. فرأى سافونارولا، الذي استخفَّ به الجميع، فرصته وملأ فراغ السلطة. وهو مثل أي دكتاتور في أي مكان، التافهين منهم والكبار، ساخط، لا يداخله شك في آرائه أو أهمية نفسه. أسوأ أمير يمكن أن يتخيَّله المرء... ذات يوم سوف أؤلف كتابًا عن هذا الموضوع.
- والتفَّاحة كانت وسيلته لهذه الغاية؟

بسط ماكيافيلي يديه. «جزئيًّا فحسب. يعتمد أكثر على أناقته. إنه لم يستعبد المدينة نفسها، إنما قادتها، رجالها المهوسين بالسلطة والنفوذ. وبالطبع عارضه بعض أعضاء السنيوريا في البداية، لكن الآن...» بدا ماكيافيلي قلقًا. «الآن صاروا في جيبه. الرجل الذي كانوا يذمُّونه ويشتمونه صاروا يبجِّلونه. كل مَن لا يمتثل لسلطته يُرغَم على الرحيل، وما زال هذا يحدث، كما رأيتَ اليوم. والآن المجلس الفلورنسي يقمع المواطنين ويحرص على تنفيذ مشيئة الراهب المجنون».

- لكن ماذا عن المواطنين العاديين النزيهين؟ هل يتصرَّفون حقًّا كأنما ليس لهم رأي في ما يجري؟

ابتسم ماكيافيلي ابتسامة حزينة. «تعرف إجابة هذا السؤال كما أعرفها يا إزيو. نادرًا ما يرغب المرء في معارضة الوضع السائد. لذا تقع على عاتقنا مهمَّة مساعدتهم على تجاوز هذه المحنة».

عندئذٍ وصل الحشَّاشان إلى بوابة المدينة. وكان الحراس المسلَّحون، مثل كل رجال الشرطة الذين يخدمون مصالح الدولة دون مرجع أخلاقي، يفحصون أوراق القادمين ويشيرون لهم بالدخول. لكن إزيو لاحظ مجموعة أخرى من الحراس مشغولة بجمع جثث جنود آخرين تحمل ملابسهم شعار بورجيا. وذكر ملاحظته لماكيافيلي.

قال ماكيافيلي: «آه، أجل. كما قلت لك، صديقنا رودريغو -الذي لن أعتاد أبدًا تسميته بألكساندر- يحاول باستمرار، يرسل جنوده إلى فلورنسا، وفلورنسا تعيدهم إليه، أشلاء في معظم الأحيان».

- إذن فهو يعرف أن التفَّاحة هنا، صحيح؟

- بالطبع يعرف! ولا بُدَّ لي من الاعتراف أن معرفته تعقِّد الوضع.

- وأين سافونارولا؟

- إنه يحكم المدينة من دير سان ماركو، يكاد لا يغادره أبدًا. حمدًا للرب لأن الأخ أنجيلكو لم يَعِش فيشهد اليوم الذي انتقل فيه جيرولامو إلى الدير!

ترجَّلا، ووجدا إسطبلًا لحصانيهما، ثمَّ رتب ماكيافيلي مسكنًا لإزيو. وأوضح ماكيافيلي له أن بيت المتعة الذي كانت تملكه باولا أُغلِق، مع جميع

البيوت الأخرى، فالجنس والقمار والرقص والمهرجانات كلها كانت في أعلى قائمة ممنوعات سافونارولا، أما الاضطهاد وقتل الخطاة فلا بأس بهما.

وبعدما استقر إزيو في مسكنه، سار ماكيافيلي معه نحو مجمع سانت مارك الديني، فطافت عينا إزيو بين المباني بإعجاب. قال: «الهجوم المباشر على سافونارولا سيكون خطرًا، لا سيما وأن التفَّاحة بحوزته».

وافقه ماكيافيلي: «صحيح، لكن ماذا لدينا من خيارات أخرى؟».

- ما عدا قادة المدينة، الذين لديهم مصالح في دعم الراهب، هل أنت مقتنع أن الناس أحرار جوهريًّا في آرائهم؟

- المتفائل قد يظن هذا.

- مقصدي هو أنهم لا يتبعون الراهب بمحض اختيارهم، إنما بشيء من القوة والخوف، أليس كذلك؟

- لن يجادل أحدٌ في هذا ما عدا دومينيكاني أو سياسي.

- إذن أقترح أن نستغل هذا لمصلحتنا. إذا أسكتنا أتباعه المتعصِّبين وأثرنا التذمُّر بين الناس، فسوف نشتِّت انتباه سافونارولا، وعندئذٍ ستسنح لنا فرصة الهجوم.

ابتسم ماكيافيلي. «خطة ذكية، لا بُدَّ من وجود صفة لوصف مَن يفكِّرون مثلك. سأتحدَّث مع الثعلب وباولا، أجل، ما زالا هنا، لكنهما اضطرَّا إلى التخفِّي. يمكنهما مساعدتنا على تنظيم انتفاضة بينما تقوم بمهمَّتك».

«اتفقنا إذن». كان إزيو مشغول البال، ولاحظ ماكيافيلي قلقه، فاقتاده إلى دير هادئ ملحق بكنيسة صغيرة على مقربة، وأجلسه. «ماذا يشغلك؟».

- أمران، لكنهما شخصيان.

- أخبرني.

- قصر عائلتي القديم، ماذا حل به؟ لن أجرؤ على الذهاب ورؤيته.

اكفهر وجه ماكيافيلي.

- تجلَّد يا عزيزي إزيو، قصركم ما زال قائمًا، لكن قدرة لورنزو على حمايته لم تدُم إلا بدَّوام سلطته، وحياته. حاول بييرو أن يحذو حذو أبيه، لكن بعدما طرده الفرنسيون، صادروا قصر آل أودِتوري وجعلوه ثكنة للمرتزقة السويسريين التابعين لشارل، وبعدما تحرَّكوا جنوبًا،

دخل رجال سافونارولا القصر وجردوه من كل ما بقي فيه، وأغلقوه. تماسك، ذات يوم سوف تستعيده وتعيده كما كان.

- وأنيتا؟

- هربت، حمدًا للرب، وانضمت إلى والدتك في مونترِجيوني.

- هذه حسنة.

بعد مدَّة من الصمت، سأل ماكيافيلي: «وما الأمر الثاني؟».

همس إزيو: «كرستينا...».

عبس ماكيافيلي. «إنك تطلب منِّي إخبارك بوقائع قاسية يا صديقي، لكن لا بُدَّ أن تعرف الحقيقة». صمت ثمَّ تابع: «لقد ماتت يا صديقي. رفض مانفريدو المغادرة، وقد غادر كثيرٌ من أصدقائهما بعدما حلَّت مصيبتا الفرنسيين وسافونارولا، كان مقتنعًا أن بييرو سيقدر على تنظيم هجوم مضاد واستعادة المدينة، لكن ذات ليلة مروعة إثر تولِّي الراهب السلطة، جميع الذين رفضوا إلقاء ممتلكاتهم طوعًا في النيران التي نظمها الراهب لحرق وتدمير جميع الأشياء المترفة والدنيوية -فُتِّشَتْ منازلهم ونُهبت وأحرقت».

استمع إزيو مرغمًا نفسه على الهدوء، رغم أن قلبه ينفطر.

تابع ماكيافيلي: «اقتحم متعصِّبو سافونارولا قصر أرزينتا، وحاول مانفريدو الدفاع عن نفسه، لكنهم كانوا كثيريين فتغلبوا عليه وعلى رجاله... ورفضت كرستينا تركه». صمت ماكيافيلي مدَّة طويلة مغالبًا دموعه. «أولئك المهووسون الدينيون قتلوها في خضم هياجهم».

حدَّق إزيو إلى الجدار المطلي بالأبيض أمامه، كل تفصيل فيه، كل شقٍّ، وكل نملة متحرِّكة عليه، كل شيء بدا له جليًّا جلاءً تامًّا.



27

كم تضيع كل آمالنا سُدى،
وكم تفشل خططنا التي وضعناها بإحكام وروية،
وكم يسود الجهل كل أركان الأرض،
الموت، سيِّدُنا جميعًا، وحده مَن يملك القول الفصل.
يقضي الناس أيامهم في الغناء والرقص والمبارزة،
وبعضهم يكرِّس مواهبه للفنون الجميلة،
وبعضهم يزدري العالم بكل ما فيه،
وبعضهم يخفي النزوات التي تحرك قلبه.
شتى ضروب الأفكار والأماني والشواغل العبثية،
متفشِّية في هذه الأرض الجانحة.
ثمَّة مصائر عديدة متقلبة للتنوُّع الذي تهبه الطبيعة.
كل شيء زائل،
الموت وحده يظل الحقيقة الراسخة إلى الأبد.

ترك إزيو كتاب سوناتات لورنزو يسقط من يده. موت كرستينا جعله أشدَّ عزمًا على إكمال مهمَّته. عانت المدينة مدَّة طويلة تحت حكم سافونارولا، وكثير من المواطنين، من شتى مجالات الحياة، وقعوا تحت تأثيره، والذين

عارضوه اضطِهدُوا فاضطرُّوا إلى التخفِّي، أو أُرغموا على مغادرة المدينة. حان وقت التحرُّك.

أوضح ماكيافيلي له: «لساعدنا كثيرٌ من الذين خرجوا للمنفى. لكن حتَّى أكبر أعداء سافونارولا خارج المدينة -أعني دوق ميلانو وصديقنا القديم رودريغو، البابا ألكساندر السادس- لم يتمكَّنا من الإطاحة به».

- وماذا عن تجمُّعات الحرق؟

- إنها الأشد جنونًا. سافونارولا وشركاؤه المقرَّبون ينظِّمون مجموعات من أتباعهم ويرسلونهم إلى كل بيت ليطالبوا بتسليم أي شيء يشكون في أخلاقيته، حتَّى مستحضرات التجميل والمرايا، ناهيك باللوحات، حتَّى الكتب يعدونها غير أخلاقية، وكل الألعاب من بينها الشطرنج، رباه، والآلات الموسيقية... كل شيء يرى الراهب وأتباعه أن من شأنه إلهاء الناس عن الدين، حسب معتقداتهم، يجلبونه إلى ساحة السنيوريا ويلقون به في نار ضخمة.

هزَّ ماكيافيلي رأسه ثمَّ تابع:

- وهكذا خسرت فلورنسا كثيرًا من الأشياء القيِّمة والجميلة.

- لكن لا بُدَّ أن أهل المدينة بدؤوا يضيقون ذرعًا بهذا السلوك، أليس كذلك؟

أشرق وجه ماكيافيلي.

- صحيح، وتذمرهم حليفنا. أرى أن سافونارولا يؤمن حقًّا أن يوم الحساب قد اقترب، والمشكلة الوحيدة أن ما من علامة تدلُّ على اقترابها، لذا بدأ الشك يتسلَّل إلى بعض المؤمنين الذين كانوا متحمسين في البداية. وللأسف ما زال كثيرون من أصحاب السلطة والنفوذ يؤيدون سافونارولا تأييدًا أعمى، إذا أمكن التخلُّص منهم...

***

وهكذا بدأ إزيو حملة صيد مسعورة، تعقَّب أشدَّ مؤيِّدي سافونارولا ولاءً وتخلَّص منهم، وبالفعل كانوا من شتَّى مجالات الحياة، منهم فنان مشهور، وجندي قديم، وتاجر، وعدة قساوسة، وطبيب، ومزارع، وبضعة أرستقراطيين، جميعهم تشبَّثوا بتعصُّب بالأفكار التي غرسها الراهب فيهم، بعضهم أدركوا حماقتهم قبل موتهم، وآخرين لم تهتز قناعاتهم. وكثيرًا ما واجه إزيو، وهو

ينفِّذ مهمَّته البغيضة، خطر الموت هو نفسه. ثمَّ سرعان ما بدأت الشائعات تفشو في المدينة، أحاديث تُسمع في ساعات متأخِّرة، وتمتمات في الحانات المحظورة والأزقة الخلفية. لقد عاد الحشَّاش. جاء الحشَّاش لإنقاذ فلورنسا...

حزن إزيو أشدَّ الحزن من رؤية مدينته، مدينة عائلته وإرثها، موبوءة بالكراهية والجنون والهوس الديني. بقلب منقبض اضطلع بحرفة الموت التي يتقنها، كأنه ريح باردة تطهِّر المدينة من دنس الذين مرَّغوها في الوحل، وكدأبه دومًا ظل يقتل بتعاطف، مدركًا أن ما من وسيلة أخرى ممكنة للتعامل مع الذين ابتعدوا عن سبيل الرب، وفي خلال هذه الأوقات القاتمة لم ينحرف مرَّة عن واجبه تجاه عقيدة الحشَّاشين.

بدأ المزاج العام في المدينة يتغيَّر تدريجيًّا، ورأى سافونارولا أن مؤيِّديه ينحسرون، بينما كان ماكيافيلي والثعلب وباولا يعملون بتنسيق لتنظيم انتفاضة، انتفاضة تحرِّكها عملية تنوير الناس ببطء لكن بثبات.

آخر 'أهداف' إزيو كان واعظًا ضالًّا، عندما تعقَّبه إزيو وجده يعظ حشدًا أمام كنيسة سانتو سبيريتو.

«يا أهل فلورنسا! تعالوا إليَّ! اجتمعوا حولي. اسمعوا وعوا! لقد اقتربت النهاية! وحان وقت التوبة وتوسُّل غفران الرب! اسمعوني، إذا عجزتم عن رؤية ما يحدث لكم. العلامات في كل مكان حولنا: قلاقل! ومجاعات! وأمراض! وفساد! هذه هي عوامل جلب الظلام! وحتَّى لا يبتلعنا جميعًا علينا أن نتمسَّك بإيماننا!». جال بين الحشد بعينيه المشتعلتين، ثمَّ تابع: «أراكم متشكِّكين، وتظنوني مجنونًا، آه... لكن ألم يكن هذا هو موقف الرومان من يسوع؟ اعلموا أنني أيضًا كانت تراودني شكوككم ومخاوفكم، لكن ذلك كان قبل أن يأتيني سافونارولا، لقد أراني الحقيقة! وأخيرًا فُتحت عيناي. وهأنذا أقف أمامكم اليوم أملًا في فتح أعينكم أيضًا!». صمت الواعظ حتَّى يلتقط أنفاسه. «افهموا أننا نقف على شفا هاوية، في جانب منها مملكة الرب ببهائها ومجدها، وعلى الجانب الآخر هاوية اليأس التي لا قرار لها! إنكم تترنَّحون على الحافة. الرجال من أمثال مديتشي والعائلات الأخرى كانوا يسعون لمتع الحياة الدنيا، تخلُّوا عن معتقداتهم في سبيل المباهج المادية، واحرصوا على أن تكونوا جميكم مثلهم». صمت مجددًا، هذه المرَّة من أجل التأثير الدرامي، ثمَّ تابع: «ذات يوم قال نبينا الحكيم: «الخير الوحيد الذي ندين به لأفلاطون وأرسطو هو أنهما أتيا بحجج يمكننا استخدامها ضد المهرطقين،

ورغمًا عن هذا فهما الآن مع بقية الفلاسفة في الجحيم». إذا كنتم تقدِّرون أرواحكم الفانية فعليكم بالعدول عن رغباتكم الدنيوية واعتناق تعاليم نبيّنا سافونارولا، وعندئذٍ ستطهِّرون أجسادكم وأرواحكم، وتكتشفون عظمة الرب! على الأقل ستصبحون كما أرادكم خالقنا، عبادًا شاكرين مطيعين!».

لكن الحشد الذي قل عدده بدأ يفقد اهتمامه، وآخر بضعة أشخاص ساروا مبتعدين عندئذٍ. تقدَّم إزيو وخاطب الواعظ الضلالي: «يبدو لي أنك تفكر بعقلك».

ضحك الواعظ. «ليس جميعنا يتطلب الإقناع أو الإرغام حتَّى نقتنع، إنني مؤمن سلفًا، وكل ما قلتُه حقيقي».

ردَّ إزيو: «ما من حقيقة مطلقة. وما سأفعله الآن ليس أمرًا سهلًا». أخرج نصل معصمه وغرزه في الواعظ قائلًا: «فلترقد بسلام». واستدار مبتعدًا عن ضحيته، ورفع قلنسوته فوق رأسه.

***

كانت المهمَّة شاقَّة طويلة، لكن عند النهاية أصبح سافونارولا نفسه، دون أن يدري، حليفًا للحشَّاشين، لأن قوة فلورنسا المالية اضمحلت، إذ كان الراهب يمقت التجارة وكسب المال، وهُما ما جعلا المدينة عظيمة. ويوم الحساب لم يأتِ بعد. إنما ظهر راهب فرانسيسي متحرِّر ليتحدَّى سافونارولا في محاكمة بالتعذيب. ورفض سافونارولا قبول التحدِّي، فاهتزَّت سلطته مرَّة أخرى. بحلول بداية مايو من عام 1497، خرج كثير من شباب المدينة متظاهرين، وتحوَّلت التظاهرات إلى أعمال شغب. بعدها بدأت الحانات تعيد فتح أبوابها، وعاد الناس إلى الغناء والرقص والمقامرة والدعارة، عادوا إلى إمتاع أنفسهم. وبدأت الأعمال التجارية والمصارف تعود إلى العمل إثر عودة المنفيين، ببطء في البداية، إلى مؤسسات المدينة التي تحرَّرت من قبضة الراهب. لم يحدث التغيير بين ليلة وضحاها، لكن أخيرًا، بعد قرابة عام من نشوب أحداث الشغب، إذ تشبَّث الرجل بسلطته بقوة، بدت لحظة سقوط سافونارولا وشيكة.

قالت باولا: «أحسنت صنعًا يا إزيو». وهما ينتظران مع الثعلب وماكيافيلي أمام بوابة مجمع سان ماركو، ومعهم حشد جامح تجمَّع من المقاطعات المحرَّرة.

- شكرًا لك، لكن ماذا سيحدث الآن؟

قال ماكيافيلي: «شاهد».

بضجيج عالٍ فُتح باب فوق رؤوسهم وظهر شخص نحيل متشح بالسواد فوق شرفة. زمجر الراهب بالحشد المجتمع: «صمتًا! آمركم بالصمت!».

هدأ الناس قليلًا شاعرين بالرهبة رغمًا عن أنفسهم.

سألهم سافونارولا: «ماذا تفعلون هنا؟ لماذا تزعجونني؟ يجدر بكم الانشغال بتطهير بيوتكم!».

لكن الحشد أطلق هديرًا مستهجنًا، وزعق رجل: «نطهِّرها من ماذا؟ لقد أخذتَ منها كل شيء سلفًا!».

صاح سافونارولا: «لم أفعل بكم كل ما أردتُ فعله! والآن عليكم بتنفيذ ما آمركم به! عليكم بالطاعة!».

ومن عباءته أخرج التفَّاحة ورفعها عاليًا، فرأى إزيو أن اليد التي تحملها ينقصها إصبع. وعلى الفور بدأت التفَّاحة تتوهَّج، وشهق الحشد متراجعًا. لكن ماكيافيلي ظل هادئًا ودون تردُّدٍ قذف سكينًا اخترق ذراع الراهب، فصرخ غاضبًا وأفلت التفَّاحة، فسقطت من الشرفة بين الحشد بالأسفل.

صرخ: «لا!». لكنه بدا منهارًا فجأة، ومُحرجًا مثيرًا للشفقة. فتشجَّع الناس وتجمَّعوا واقتحموا بوابة سان ماركو.

قال الثعلب: «أسرِع يا إزيو، اعثر على التفَّاحة، لا بُدَّ أنها قريبة».

رآها إزيو تتدحرج بين أقدام الحشد، فاندفع بينهم، متعرضًا لضربات عشوائية، لكنه أمسك بها أخيرًا، وبسرعة وضعها في جراب حزامه. وعندئذٍ كانت بوابة سان ماركو مفتوحة، على الأرجح رأى بعض الذين بالداخل أن الحكمة أجدى من الشجاعة وأرادوا إنقاذ كنيستهم والدير وأنفسهم بالانحناء للمحتوم، وبينهم كان كثيرون قد ضاقوا ذرعًا باستبداد الراهب المُضجر. تدفق الحشد عبر البوابة، وبعد بضع دقائق خرجوا حاملين سافونارولا على أكتافهم وهو يركل ويصرخ.

قال ماكيافيلي لهم: «خذوه إلى قصر السنيوريا، فليُحاكَم هناك!».

زعق سافونارولا: «حمقى! مجدِّفون! الرب شاهد على هذا الانتهاك! كيف تجرؤون على التعامل مع نبيه هكذا؟!». تلاشى صوته جزئيًّا بين صرخات

الحشد الغاضب، لكن الراهب كان مهتاجًا وخائفًا في الوقت نفسه، وواصل كلامه، إذ كان يعرف أن كلماته هي أمله الأخير. «أيها المهرطقون! سوف تحترقون جميعكم في الجحيم بسبب فعلتكم! أتسمعونني؟ سوف تحترقون!».

تبع إزيو ورفاقه الحشَّاشون الحشد وهم يسيرون حاملين الراهب، الذي ما زال يصيح بمناشداته وتهديداته: «سوف يسقط سيف الرب على الأرض سقوطًا سريعًا مفاجئًا. أطلقوا سراحي، لأنني وحدي أستطيع إنقاذكم من غضب الرب! يا أبنائي! اسمعوا نصحي قبل فوات الأوان! ثمَّة خلاص واحد أمامكم، وقد هجرتم طريقه من أجل مكاسب مادية تافهة! إذا لم تنحنوا أمامي مرَّة أخرى، فستعرف فلورنسا بأسرها غضب الرب، ستسقط هذه المدينة مثل سدوم وعمورة، لأن الرب يعلم مدى فداحة خيانتكم. أعِنِّي يا رب! إنني محاصر بعشرة آلاف يهوذا خائن!».

كان إزيو قريبًا من أحد المواطنين الذين يحملون الراهب، وسمعه يقول: «أوه، كُف عنَّا أكاذيبك، لم تجلب لنا سوى البؤس والكراهية منذ مجيئك!».

وقال آخر: «ربما يكون الرب في رأسك أيها الراهب، لكنه بعيد عن قلبك كل البُعد».

عندئذٍ اقتربوا من ساحة السنيوريا، وأطلق آخرون في الحشد صيحة النصر.

«عانينا بما يكفي! وسنعود أحرارًا!».

«سيعود نور الحياة إلى مدينتنا عمَّا قريب!».

صاحت امرأة: «يجب أن نعاقب الخائن! هو المهرطق الحقيقي! لقد حرف كلمات الرب من أجل مصلحته!».

هتف آخر: «أخيرًا تخلَّصنا من نير التسلط الديني، أخيرًا سيلقى سافونارولا عقابه!».

زعق ثالث: «تبدَّد الخوف، والحقيقة تنير طريقنا! لم يعد لكلماتك تأثير أيها الراهب!».

«تزعم أنك نبي، لكن كلماتك قاتمة فظَّة. سمَّيتنا بدُمى الشيطان، لكن أظن أن الدمية في الحقيقة أنت!».

لم يكن إزيو وأصدقاؤه يحتاجون إلى التدخُّل أكثر من هذا الحدِّ، فكُرة الثلج التي دحرجوها ستواصل عملها من تلقاء نفسها. خرج قادة المدينة،

حريصين على إنقاذ أنفسهم بقدر حرصهم على التشبُّث بالسلطة، من مبنى السنيوريا ليعلنوا تأييدهم للجماهير. شُيِّدَتْ منصة وعليها كومة خشب ضخمة وحولها ثلاثة أوتاد، واقتيد سافونارولا واثنان من أشدِّ أتباعه تعصُّبًا إلى مبنى السنيوريا من أجل محاكمة قصيرة قاسية، فمثلما لم يُبدِ رحمة للناس، لن يعامل بأي رحمة. وسرعان ما ظهر الثلاثة مصفَّدين واقتيدوا إلى الأوتاد وقُيِّدوا.

سُمع سافونارولا يقول مسترحمًا: «يا رب ارحمني، خلِّصني من قبضة الشر. إنني غارق في الخطايا، وأناشدك الخلاص!».

قال رجل هازئًا: «أردتَ أن تحرقني، والآن انقلبت الطاولة!».

قرَّب الجلادون المشاعل من الخشب حول الأوتاد. شاهد إزيو ما يجري متذكِّرًا أباه وشقيقاه الذين لقوا حتفهم في هذا المكان نفسه قبل سنوات عديدة.

ابتهل سافونارولا باللاتينية بصوت عالٍ مليء بالألم إثر تصاعد ألسنة اللهب: «وا أسفًا على نفسي! صرت عاجزًا وحيدًا! اقترفتُ محظورات السماء والأرض. أين السبيل؟ إلى مَن ألجأ؟ مَن سيشفق عليَّ؟ لا أجرؤ على النظر إلى السماء التي أذنبتُ بحقها، ولا ملجأ لي على الأرض التي أفسدتُ فيها أيضًا...».

تقدَّم إزيو إلى أقرب نقطة ممكنة من النار. قال مع نفسه: *لا أحد، حتَّى هذا الرجل، يستحقُّ أن يموت متألِّمًا هكذا، رغمًا عمَّا سبَّبه لي من آلام.* ثمَّ أخرج مسدسه المحشوَّ من حقيبته وثبَّته في آلية ذراعه اليمنى. وعندئذٍ لاحظ سافونارولا إزيو وحدَّق إليه، بمزيج من الخوف والأمل.

«أنت!». تكلَّم رافعًا صوته فوق هدير النار، لكن في الواقع تواصل الاثنان ذهنيًّا. «كنتُ أعرف أن هذا اليوم سيأتي، أرجوك عاملني بالرحمة التي لم أعاملك بها يا أخي. تركتك تحت رحمة الذئاب والكلاب».

رفع إزيو ذراعه، وقال: «وداعًا أيها الأب»، وأطلق النار. وفي خضمِّ الجلبة المحيطة لم يلاحظ أحد حركته ولا دوي المسدس. وتدلى رأس سافونارولا على صدره. قال إزيو بصوت خافت: «فلتذهب بسلام، حتَّى يحكم عليك ربك. فلترقد بسلام». ثمَّ نظر إلى تابعَيْ سافونارولا المخلصين، دومنيكو وسيلفيسترو، لكنهما ماتا سلفًا، واندلقت أحشاؤهما على النار المتأجِّجة،

ونتانة اللحم المحروق زكمت أنوف جميع الحاضرين. بدأ الحشد يهدأ. ثمَّ هدأت الأصوات ما عدا هسيس بقايا النار.

ابتعد إزيو عن المحرقة، ووقف على مبعدة فرأى ماكيافيلي وباولا والثعلب يشاهدونه. والتقت عيناه بعيني ماكيافيلي فأومأ له إيماءة تشجيع. عرف إزيو ما عليه فعله. صعد على طرف المنصة بعيدًا عن النار، فاستدارت إليه جميع الرؤوس.

قال بصوت جهير: «يا مواطني فلورنسا! قبل اثنين وعشرين عامًا وقفت حيث أقف الآن، وشهدت موت أحبائي، إثر خيانة من الذين كنت أعدُّهم أصدقائي. الرغبة في الانتقام أعمت بصيرتي، ولأهلكتني لولا حكمة بعض الغرباء الذين علموني تجاهل رغباتي الغريزية والاحتكام لصوت العقل، ولم يفرضوا عليَّ الحلول إنما أرشدوني لأتعلم بنفسي». رأى إزيو أن رفاقه الحشَّاشين قد انضمَّ إليهم عمُّه ماريو، الذي ابتسم ورفع يده محيِّيًا. تابع: «يا أصدقائي، لا نحتاج إلى أحد يملي علينا ما يجب أن نفعله، لا سافوناورلا ولا آل باتزي، ولا حتَّى آل مديتشي، نحن أحرار في اختيار طريقنا». صمت ثمَّ تابع: «لكن يوجد مَن يريدون حرماننا من حريتنا، وكثيرون منكم، كثيرون منَّا، للأسف، يتخلُّون عنها بسهولة. لكن بوسعنا أن *نختار*، أن نختار ما نراه صحيحًا، أيًّا يكُن، وممارستنا لحقنا في الاختيار هي ما تجعلنا بشرًا. ما من كتاب أو معلِّم يمدُّنا بالإجابات أو يدلُّنا على الطريق. لذا اختاروا طريقكم *بأنفسكم*! لا تتبعوني، ولا تتبعوا أحدًا آخر!».

ابتسم إزيو في سريرته إثر رؤيته تعابير بعض أعضاء السنيوريا. ربما لا تتغيَّر الطبيعة البشرية أبدًا، لكن محاولة زحزحتها لن تضير أحدًا. قفز هابطًا من المنصة، وجذب قلنسوته فوق رأسه، وسار خارجًا من الساحة، وسلك الشارع الممتدَّ بمحاذاة جدار السنيوريا الشمالي، الذي يتذكر سيره عبره مرَّتين من قبل تذكُّرا جليًّا، ثمَّ توارى عن الأنظار.

***

ومن ثمَّ بدأ إزيو المسعى الشاق والأطول في حياته قبل المواجهة النهائية التي يعرف أنها حتمية. بالتعاون مع ماكيافيلي نظم جماعة الحشَّاشين في فلورنسا والبندقية ليجوبوا جميع أنحاء شبه الجزيرة الإيطالية، متسلِّحين بنسخ من خريطة جيرولامو، وبشق الأنفس جمعوا باقي صفحات مجلد المخطوطات المفقودة، طافوا وبحثوا في مقاطعات بيدمونت، وترنتو،

وليغوريا، وأومبريا، وفينيتو، وفريولي، ولومبارديا، وإميليا رومانيا، وماركي، وتوسكانا، ولاتسيو، وأبروتسو، ومُليزه، وبوليه، وكامبانيا، وبَزِلِكاته، وقلوريا الخطرة. وأمضوا وقتًا أطول من اللازم في كابري، وعبروا البحر التيراني إلى أرض الخاطفين، سردينيا. زاروا ملوگا، وتودَّدوا إلى دوقات، وقاتلوا فرسان الهيكل الذين صادفوهم وهم في المسعى نفسه، لكن في النهاية انتصروا.

تجمَّعوا في مونترجيوني، وقد استغرقوا خمس سنوات طويلة، وكان ألكساندر السادس، رودريغو بورجيا، الذي صار عجوزًا لكنه ما زال قويًّا، قد ظل البابا في روما. كما ظل نفوذ فرسان الهيكل، رغمًا عن اضمحلاله، يمثِّل تهديدًا كبيرًا.

ما زال أمامهم الكثير.

28

ذات صباح في بداية أغسطس 1503، تلقَّى إزيو -وقد صار رجلًا في الرابعة والأربعين وَخَط الشيب فوديه لكن لحيته ما زالت كستنائية داكنة- دعوة من عمِّه ماريو ليحضر مع رفاقه الحشَّاشين إلى مكتبه بقصره في مونترجيوني، فجاء ماكيافيلي والثعلب وتيودورا وأنتونيو وبارتولوميو.

قال ماريو برصانة: «حان الوقت يا إزيو، بحوزتنا التفَّاحة وجميع الصفحات المفقودة من مجلد المخطوطات جُمعت هنا. فلنكمل ما بدأته أنت وأخي، والدك، منذ زمن طويل... ربما يمكننا أخيرًا أن نفهم النبوءة المضمَّنة في مجلد المخطوطات، وأن نكسر شوكة فرسان الهيكل إلى الأبد».

«إذن يا عمي ينبغي أن نبدأ العمل على تحديد مكان الخزانة، التي ينبغي أن تقودنا إليها صفحات مجلد المخطوطات».

دفع ماريو خزانة الكتف كاشفًا عن جدار معلَّق عليه مجلد المخطوطات مكتملًا، وجواره التفَّاحة على عمود قصير.

نظروا جميعهم إلى التصميم المعقَّد، وقال ماريو: «الصفحات متصلة ببعضها على هذا النحو، يبدو أنها تُظهر خريطة للعالم، لكنه عالم أكبر ممَّا نعرفه، فيه قارات غربًا وجنوبًا لا نعرف عنها شيئًا، لكنني موقن أنها موجودة».

قال ماكيافيلي: «ثمَّة عناصر أخرى، هنا، إلى اليسار، سترون خطوطًا باهتة لما لا يمكن أن يكون سوى صولجان الأسقف، بل قد يكون الصولجان البابوي. وإلى اليسار رسم واضح للتفَّاحة. وفي الوسط تظهر لنا اثنتا عشرة نقطة راسمة شكلًا لا تزال أهميته غامضة». وفي أثناء كلامه بدأت

التفَّاحة تتوهَّج من تلقاء نفسها، ثمَّ أطلقت ضوءًا باهرًا أضاء صفحات مجلد المخطوطات كأنه يعانقه، ثمَّ عاد إلى حالته الطبيعية المعتمة.

تساءل إزيو: «لماذا فعلت ذلك؟»، متمنِّيًا وجود ليوناردو معهم ليفسِّر، أو يستنتج على الأقل. وحاول تذكُّر ما قاله صديقه عن الخصائص الفريدة لهذه الآلة العجيبة، لكنه عجز عن تذكُّر كلامه، بدا له أن ليو قال إن التفَّاحة تبدو ككائن حي بقدر ما هي آلة. لكن غريزته أوحت إليه بأن يثق بها.

قال الثعلب: «لغز آخر علينا حلُّه».

سألت باولا: «كيف يعقل أن تكون هذه الخريطة حقيقية؟ قارات لم تُكتشَف...!».

خمَّن إزيو: «ربما تنتظر القارات أن تُكتشَف». تكلَّم بنبرة انبهار.

قالت تيودورا: «كيف يمكن هذا؟».

أجاب ماكيافيلي: «ربما نجد الإجابة في الخزانة».

سأل أنتونيو العملي دومًا: «أيمكننا رؤية موقع الخزانة على الخريطة الآن؟».

قال ماكيافيلي مدقِّقًا النظر إلى الخريطة: «فلنرى... إذا تتبَّعنا الخطوط التي بين هذه النقاط...». وتتبَّعها. «فسنجدها تلتقي عند نقطة واحدة، أترون؟! في موقع واحد». تراجع مبتعدًا عن الخريطة. «لا! لا يمكن! الخزانة! يبدو أن الخزانة في روما!». نظر إلى رفاقه المجتمعين، فاستنتجوا كلامه التالي.

قال ماريو: «هذا يفسِّر إصرار رودريغو على أن يصبح البابا. وهو يحكم الفاتيكان منذ أحد عشر عامًا، لكنه ما زال يفتقد الوسيلة التي تكشف له الأسرار الدفينة، ولا بُدَّ أنه يعرف أنه في موضعها بالضبط».

قال ماكيافيلي: «بالتأكيد! لا يسع المرء سوى أن يُعجب به، إذ لم يتمكَّن من تحديد موقع الخزانة فحسب، بل صار يتحكَّم في صولجان الأسقف عندما أصبح البابا!».

تساءلت تيودورا: «صولجان الأسقف؟».

ردَّ ماريو: «كثيرًا ذُكر في مجلد المخطوطات 'قطعتَي عدن'، أي مفتاحين، لا يمكن أن تكونا شيئًا سواهما. أحدهما...» التفت إلى مجلد المخطوطات. «... التفَّاحة».

صاح إزيو مدركًا: «والآخر هو الصولجان البابوي! الصولجان البابوي هو 'قطعة عدن' الثانية!».

قال ماكيافيلي: «بالضبط».

صاح العمُّ ماريو: «رباه، إنك محقٌّ!»، ثمَّ تجهم وقال: «ظللنا نبحث عن هذه الإجابات منذ سنوات، منذ عقود».

أردفت باولا: «والآن توصلنا إليها».

قال أنتونيو: «كما يحتمل أن الإسباني توصَّل إليها. لسنا متأكدين من عدم وجود نسخ أخرى من مجلد المخطوطات، وحتَّى إذا لم تكن مجموعته مكتملة، فهو يعرف ما يكفي من المعلومات لــــ...» صمت قليلًا. «وإذا نجح، إذا وجد وسيلة لفتح الخزانة...» خفض صوته. «فستجعل محتوياتها التفَّاحة تبدو شيئًا تافهًا».

ذكَّره ماريو: «مفتاحان. يتطلَّب فتح الخزانة مفتاحان».

قال إزيو بنبرة قلق: «لكن علينا ألَّا نخاطر، يجب أن أذهب الآن إلى روما وأجد الخزانة!». لم يعارضه أحد. نظر إزيو إلى وجوههم تباعًا. «وماذا عن بقيتكم؟».

تحدَّث بارتولوميو الذي ظل صامتًا حتَّى الآن: «سأفعل ما أبرع فيه، سأسبِّب متاعب في روما، سأسبِّب إلهاءً لك حتَّى تدخل بسهولة».

قال ماكيافيلي: «جميعنا سنساعد على تهيئة الطريق لك يا صديقي».

وقال ماريو: «أخبرني عندما تستعد يا ابن أخي، سنكون كلنا خلفك. 'الجميع من أجل الفرد، والفرد من أجل الجميع'!».

قال إزيو: «شكرًا يا أصدقائي، أعرف أنكم ستساندونني عندما أحتاج إليكم، لكن دعوني أحمل عبء هذه المهمَّة الأخيرة وحدي، السمكة الوحيدة بمقدورها الإفلات من شبكة تحتجز فوجًا من الأسماك، وفرسان الهيكل سيكونون في غاية الحذر».

***

أكملوا استعداداتهم بسرعة، وبعد مرور نصف الشهر، وصل إزيو، ومعه التفَّاحة الثمينة، بالقارب إلى نهر التيبر عند الرصيف الذي بجوار قلعة سان أنجلو في روما. وكات قد اتخذ كل التحوُّطات اللازمة، لكن بسبب يقظة جواسيس رودريغو المنتشرين في كل مكان، رُصِد وصوله، ووجد نفسه في مواجهة فرقة من حراس بورجيا عند بوابة الرصيف. لم يجد خيارًا سوى شقِّ طريقه بالقتال إلى باسيتو دي بورغو، الطريق المرتفع الذي يبلغ طوله نصف ميل الرابط بين القلعة والفاتيكان. مدركًا أن عامل الوقت ضده، لا سيما وأن رودريغو صار يعرف بمجيئه، رأى إزيو أن الهجوم الخاطف الدقيق هو خياره الوحيد. وثب مثل وَشَقٍ على غطاء عربة يجُرُّها ثور تحمل براميل من الرصيف، ومن أعلى برميل قفز إلى القنطرة التي تتحرَّك فوقها الرافعة المتحركة. شاهد الحراسُ الحشَّاش فاغرين أفواههم وهو يقذف نفسه من القنطرة ورداءه يرفرف خلفه. استلَّ خنجره، ونحر قائد حراس بورجيا فأسقطه من حصانه. جرت المناورة بأكملها في وقت وجيز قبل أن يتمكَّن بقية الحراس من سحب سيوفهم. ابتعد إزيو بالحصان دون أن ينظر إلى الطريق خلفه بسرعة أعجزت جنود بورجيا عن محاولة ملاحقته.

وصل إزيو إلى وجهته، ووجد أن البوابة التي سيدخل عبرها منخفضة وضيقة على حصان وراكبه، فترجَّل وواصل طريقه سيرًا، وتخلَّص من الحارسين الواقفين عند البوابة بحركة رشيقة واحدة بنصليه. رغمًا عن تقدُّم إزيو في السنِّ وبلوغه من العمر أوسطه، فقد شدَّد تدريباته، وصار عندئذٍ في قمَّة لياقته الجسدية، وعلى رأس جماعته، صار الحشَّاش الأعظم.

وبعدما اجتاز البوابة وجد نفسه في فناء ضيق، على الجانب الآخر منه بوابة أخرى، بدت غير محروسة، لكن عندما اقترب من الذراع التي افترض أنها ستفتحها، ارتفعت صيحة من أعلى الجدار: «*أوقفوا الدخيل!*» نظر إزيو خلفه، فرأى البوابة التي دخل عبرها تُغلق، علِق في الفناء الضيق.

ألقى نفسه على الذراع التي تتحكَّم بالبوابة الثانية بينما اصطف الرماة فوقه استعدادًا لإطلاق السهام، وتمكَّن بصعوبة من الاندفاع عبر البوابة والسهام تنهمر على الأرض خلفه.

وعندئذٍ صار داخل الفاتيكان. تحرَّك مثل قِطٍّ عبر الأروقة المتاهية، وكلما لمح أحد الحراس المتحفِّزين تلاشى في الظلال، إذ ليس من مصلحته الدخول في مواجهة تكشف موقعه، وأخيرًا وصل إلى أسفل قبَّة كنيسة السِيستين.

كانت كنيسة السيستين أبرز أعمال باتشيو بونتيلي، شُيِّدَتْ من أجل عدو الحشَّاشين القديم البابا سِكستس الرابع، واكتمل بناؤها قبل عشرين عامًا. والشموع العديدة فيها تضيء المكان بما يكفي لتبديد العتمة بالكاد. تبيَّن إزيو لوحات للفنانين غيرلاندايو، وبوتيشيلي، وبيروغينو، وروسيلي، لكن قبَّة السقف الكبيرة لم تُزيَّن بعد.

كان قد دخل عبر نافذة زجاجية ملطَّخة تحت الصيانة، ووقف في كوَّة داخلية مطلَّة على القاعة الواسعة، ورأى بالأسفل ألكساندر السادس، مرتديًا زيه الخاص كاملًا، يؤدِّي مراسم القداس، ويقرأ من إنجيل سان جيوفاني:

«فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهُ. هذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللهِ. كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ. فِيهِ كَانَتِ الْحَيَاةُ، وَالْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ، وَالنُّورُ يُضِيءُ فِي الظُّلْمَةِ، وَالظُّلْمَةُ لَمْ تُدْرِكْهُ. كَانَ إِنْسَانٌ مُرْسَلٌ مِنَ اللهِ اسْمُهُ يُوحَنَّا. هذَا جَاءَ لِلشَّهَادَةِ لِيَشْهَدَ لِلنُّورِ، لِكَيْ يُؤْمِنَ الْكُلُّ بِوَاسِطَتِهِ. لَمْ يَكُنْ هُوَ النُّورَ، بَلْ لِيَشْهَدَ لِلنُّورِ. كَانَ النُّورُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي يُنِيرُ كُلَّ إِنْسَانٍ آتِيًا إِلَى الْعَالَمِ. كَانَ فِي الْعَالَمِ، وَكُوِّنَ الْعَالَمُ بِهِ، وَلَمْ يَعْرِفْهُ الْعَالَمُ. إِلَى خَاصَّتِهِ جَاءَ، وَخَاصَّتُهُ لَمْ تَقْبَلْهُ. وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ اللهِ، أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ. اَلَّذِينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ رَجُل، بَلْ مِنَ اللهِ. وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا، وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ، مَجْدًا كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ، مَمْلُوءًا نِعْمَةً وَحَقًّا...»

شاهد إزيو حتَّى انتهاء الصلاة وبدأت جماعة المصلين تخرج، وبقي البابا وحده مع كرادلته وقساوسته المساعدين.

هل عرف الإسباني أن إزيو هنا؟ هل خطط لمواجهةٍ ما؟ لم يكن إزيو متأكدًا، لكنه رأى أمامه فرصة ذهبية لتخليص العالم من فارس الهيكل الأشد حقدًا. استعد، وقفز من الكوة هابطًا قريبًا من البابا مقرفصًا، واعتدل واقفًا فورًا، وقبل أن يجد الرجل أو مساعدوه الوقت للتصرُّف أو طلب النجدة، غرز نصله بقوة في جسد ألكساندر، فتهالك البابا صامتًا على الأرض عند قدمي إزيو وظل هامدًا.

لبث إزيو اقفًا فوقه لاهثًا. «ظننت... ظننت أنني أفضل من هذا، ظننت أني بوسعي الترفُّع عن رغبة الانتقام، لكنني عجزت، إنني مجرَّد إنسان. انتظرت مدَّة طويلة، وفقدت الكثير... وأنت آفة مُفسِدة في العالم يجب استئصالها من أجل مصلحة الجميع. فلترقد بسلام أيها التعِس».

استدار ليغادر، لكن عندئذٍ حدث أمر غريب، انكمشت يد الإسباني حول الصولجان الذي يحمله، وعلى الفور بدأ الصولجان يتوهَّج بضوء أبيض باهر، وبدا تجويف الكنيسة بأكمله كأنه في خضمٍّ دوامة عارمة، ثمَّ فُتحت عينا الإسباني الخضراوان الباردتان.

قال الإسباني: «لست مستعدًّا بعد للرقود بسلام أيها البائس الحقير». اشتدَّ سطوع الضوء فجأة، ومَن بقي من المصلِّين الذين لم يخرجوا بعد والقساوسة المساعدين والكرادلة تهالكوا على الأرض صارخين من الألم، وخرجت من أجسادهم أشعة ضوء متعرِّجة كالدخان منتقلة إلى الصولجان المتوهِّج الذي يمسك به البابا واقفًا بقبضة فولاذية.

ركض إزيو نحوه، لكن الإسباني صاح: «لا، لن تفعل أيها الحشَّاش!». ولوَّح بالصولجان نحوه فأصدر قرقعة غريبة كصاعقة برق، وأحسَّ زيو بأنه يُقذف فوق أجساد الناس والقساوسة الذين يتأوَّهون ويتلوُّون. ضرب رودريغو بورجيا بصولجانه الأرض بجوار المذبح، فتدفَّق مزيد من الطاقة الشبيهة بالدخان إلى الصولجان، وإليه هو، من أجساد الرجال العاجزين.

نهض إزيو ليواجه عدوه اللدود مرَّة أخرى.

صاح رودريغو: «إنك شيطان! كيف أمكنك الصمود؟». ثمَّ خفض عينيه فرأى الجراب الذي عند خصر إزيو، وما زال يحتوي على التفَّاحة، بدأ يتوهج بضوء ساطع.

قال رودريغو وعينيه تتوهَّجان كالجمر: «حسنًا! التفَّاحة بحوزتك! عظيم! أعطِني إياها الآن!».

- اذهب وانكح نفسك!

ضحك رودريغو. «يا لك من بذيء! لكنك مقاتل دومًا! مثل والدك، حسنًا، ابتهج يا بُني، لأنك ستلتقيه عمَّا قريب!».

لوَّح بصولجانه مجددًا فضرب رأسه الندبة التي على ظاهر يد إزيو اليسرى، فسرت في عروقه صدمة وتقهقر مترنحًا، لكنه لم يسقط.

زمجر رودريغو معاودًا الهجوم: «ستعطيني إياها!».

فكَّر إزيو سريعًا. كان يعرف إمكانيات التفَّاحة، ولم ير مخرجًا سوى المخاطرة الآن أو الموت وهو يحاول. أجاب: «كما تشاء»، وأخرج التفَّاحة من جرابه ورفعها، فسطع ضوؤها قويًّا حتَّى بدت الكنيسة بأكملها مغمورة بضوء الشمس، وعندما عادت عتمة ضوء الشموع، رأى رودريغو ثماني نُسخ من إزيو مصطفَّة أمامه.

لكنه ظل هادئًا وقال: «بإمكان التفَّاحة رسم نسخ منك! عجيب! يصعب تمييز نسختك الحقيقية عن الوهمية، لكن هذه الصعوبة قائمة في كل الأوقات، وإذا ظننت أن هذه الخدعة الرخيصة ستنقذك، فأنت مخطئ!».

سدَّد رودريغو صولجانه نحو النُّسخ، وكلما ضرب نسخة تلاشت إلى دخان. راوغت أشباح إزيو وتراقصت، واندفعت نحو رودريغو الذي اعتراه القلق عندئذٍ، لكنها لم تكن قادرة على إلحاق أذًى بالإسباني ما عدا تشتيت انتباهه. إزيو الحقيقي وحده القادر على تسديد الضربات، لكنها كانت ضربات طفيفة، إذ لم يستطع الاقتراب بما يكفي من البابا الدنيء نظرًا إلى قوة الصولجان الهائلة. لكن إزيو أدرك سريعًا أن القتال يستنزف قوة رودريغو. بحلول الوقت الذي تلاشت فيه الأشباح السبعة، كان البابا البغيض منهكًا منقطع الأنفاس. الغضب يضخُّ طاقةً في الجسد لا مثيل لها، لكن رغمًا عن قوى الصولجان، كان رودريغو عجوزًا بدينًا بلغ الثانية والسبعين من عمره ومصاب بالزهري. أعاد إزيو التفَّاحة إلى جرابه.

خرَّ البابا على ركبتيه، لاهثًا بعد قتال الأشباح، ووقف إزيو فوقه، لاهثًا هو أيضًا بالقدر نفسه لأن أشباحه تستمد طاقتها منه بالضرورة. شدد رودريغو قبضته على الصولجان رافعًا رأسه، وقال: «لن تأخذه منِّي».

- انتهى الأمر يا رودريغو، ضع الصولجان أرضًا وسأضمن لك موتًا رحيمًا سريعًا.

- يا لسخائك! أتساءل عمَّا إذا كنت لتستسلم بهذه البساطة إذا كنت في مكاني.

استجمع البابا قواه ونهض سريعًا، وفي الوقت نفسه هوى بعقب صولجانه على الأرض، وفي العتمة خلفهما بدأ القساوسة والناس يتأوَّهون مجددًا وانبثقت دفقة طاقة جديدة من الصولجان نحو إزيو، فهوت عليه كمطرقة ضخمة، وقذفته في الهواء.

قال البابا بابتسامة شريرة: «ما رأيك بهذه البداية؟»، وسار إلى إزيو الممدَّد على الأرض، فحاول إزيو إخراج التفَّاحة مرَّة أخرى، لكن بعد فوات الأوان، سحق رودريغو يده بحذائه فتدحرجت التفَّاحة بعيدًا، وانحنى بورجيا ليحملها.

قال مبتسمًا: «أخيرًا! والآن... حان وقت التعامل معك!».

رفع التفَّاحة فتوهَّجت توهُّجًا مُهلكًا. بدا إزيو متسمِّرًا، عجز عن التحرُّك. انحنى البابا فوقه غاضبًا، لكنه هدأ بعدما رأى خصمه تحت رحمته، ومن عباءته أخرج سيفًا قصيرًا، وناظرًا إلى عدوه المنبطح على الأرض، طعنه في خاصرته وعلى وجهه نظرة شفقة ممزوجة بالازدراء.

لكن بدا أن ألم الجرح يضعف قوة التفَّاحة. ظل إزيو ممدَّدًا على بطنه، لكن في خضمِّ ألمه شاهد رودريغو، الذي يظن أنه آمن، يستدير وينظر إلى جدارية *إغراء المسيح*، التي رسمها بوتيشيلي، ووقف بجوارها ورفع الصولجان، فتدفَّقت منه طاقة كونية سربلت الجدارية، فدار جزءٌ منها وفُتح كاشفًا عن باب سري، دخل رودريغو عبره بعدما ألقى نظرة انتصار على خصمه المجندل. عاجزًا شاهد إزيو انغلاق الباب خلف البابا، ولم يتسنَّ له وقت سوى لتحديد موضع الباب قبل أن يغيب عن الوعي.

***

استعاد وعيه، بعدما ظل غائبًا عنه لمدَّة لم يعرفها، لكنه رأى الشموع تكاد تنطفئ والقساوسة والناس اختفوا. وجد نفسه ممدَّدًا في بركة من دمائه، لكنه اكتشف أن الجرح الذي أصابه به رودريغو لم يتضرَّر منه عضو حيوي. نهض مترنِّحًا، متكئًا على الجدار، وأخذ أنفاس عميقة منتظمة حتَّى صفا ذهنه. ثمَّ تمكَّن من إيقاف نزيف جرحه بأشرطة مزقها من قميصه. جهَّز أسلحة مجلد المخطوطات، النصل المزدوج على ذراعه اليسرى، والنصل السام على اليسرى، وسار نحو جدارية بوتيشيلي.

تذكر أن الباب مخفي في الرسم، على الجانب الأيمن منه، في رسم امرأة تحمل قربانًا. اقترب وتفحَّص الرسم بدقة متعقِّبًا الخطوط المرئية بالكاد، ثمَّ دقق النظر بعناية إلى تفاصيل الرسم التي إلى يمين المرأة ويسارها، فرأى بجوار قدميها هيئة طفل رافعًا يده اليمنى، وفي طرف يده وجد إزيو زرًّا، ضغطه ففتح الباب، وانسلَّ عبره، ولم يتفاجأ عندما انغلق الباب خلفه فورًا. لن يفكر في التراجع الآن على أي حال.

وجد نفسه في ما بدا كدهليز سرداب موتى، لكن في أثناء تقدُّمه بحذر، تحوَّلت الجدران الخشنة والأرضية الترابية إلى حجارة ناعمة وأرضية رخامية تليق بقصر، وتوهَّجت الجدران بضوء شاحب غير طبيعي.

أضعَفه جرحه، لكنه أرغم نفسه على التقدم، وقد تغلَّب انبهاره على خوفه، لكنه لم يتخلَّ عن حذره، لأنه يعلم أن بورجيا سلك هذا الطريق.

وأخيرًا انتهى الدهليز إلى حجرة ضخمة، جدرانها ملساء كالزجاج ومتوهِّجة بألوان قوس قزح المزرقَّة نفسها التي رآها سابقًا، لكن الضوء أشدُّ هنا. وفي منتصف الحجرة قاعدة مزوَّدة بحاملين عليهما التفَّاحة والصولجان. والجدار الخلفي تتخلَّله فجوات تفصل بينها مسافات متساوية، وأمامها يقف الإسباني، يائسًا يضغط مواضع على الجدار وينكزها، غير مدرك لدخول إزيو.

صاح محبَطًا غاضبًا: «افتح، عليك اللعنة، افتح!».

تقدَّم إزيو قائلًا: «انتهى الأمر يا رودريغو، استسلم، لم يعد ما تفعله عقلانيًّا».

استدار رودريغو ليواجهه.

«لن نلجأ لأي خدع». تكلَّم إزيو وهو يخرج خناجره ويلقيها أرضًا. «لن نستخدم أي قطع أثرية قديمة، ولا أي أسلحة. والآن... فلنرَ معدنك الحقيقي أيها العجوز».

ببطء ارتسمت ابتسامة على وجه رودريغو المتغضِّن القميء، وقال: «حسنًا، كما تشاء».

نزع عباءته الخارجية الثقيلة ووقف بردائه وبنطاله. بدا جسده بدينًا لكنه متماسك، وفوقه تتراقص خيوط برق صغيرة، مُستمدَّة من قوة الصولجان. تقدَّم خطوة وسدَّد الضربة الأولى، لكمة عنيفة صاعدة إلى فك إزيو جعلته يترنَّح. «لماذا لم ينشغل والدك بشؤونه؟». تساءل رودريغو بنبرة أسف وهو يرفع حذاءه ويركل إزيو على بطنه. «لماذا استمرَّ في ملاحقتنا؟... لكنك مثله تمامًا، أنتم الحشَّاشون كالبعوض لا بُدَّ من سحقكم. كم أتمنَّى لو تمكَّن ذلك المغفل ألبرتي من شنقك مع والدك وشقيقَيك قبل سبعة وعشرين عامًا!».

«الشر ليس متأصِّلًا فينا، بل فيكم أنتم فرسان الهيكل». ردَّ إزيو وهو يبصق سِنًّا. «ترون الناس، العاديين المحترمين، ملككم فتفعلون بهم ما يحلو لكم».

«لكن يا رفيقي العزيز». قال رودريغو وهو يسدِّد ضربة أسفل ضلوع إزيو. «هذه هي الغاية من وجود أولئك الناس، ليسوا سوى حثالة، نحكمهم ونستغلهم، كانت هذه هي الغاية من وجودهم وسوف تظل إلى الأبد».

قال إزيو لاهثًا: «توقَّف، هذه القتال عبثي، في انتظارنا قتال أهم. لكن أخبرني أولًا، ماذا تريد من الخزانة التي وراء ذلك الجدار؟ ألا تملك كل قوة وسلطة يمكن أن تحتاج إليها؟».

بدا رودريغو متفاجئًا. «ألا تعرف ما يوجد بالداخل؟ ألم تكتشف جماعة الحشَّاشين العظيمة القوية ذلك؟».

توجَّس إزيو من نبرة حديث البابا. «ما الذي تتحدَّث عنه؟».

لمعت عينا رودريغو. «إنه الرب! *الرب* موجود داخل الخزانة!».

منعت الصعقة إزيو من الردِّ فورًا، وكان يعرف أنه يتعامل مع رجل مجنون خطِر. «اسمع، أحقًّا تتوقَّع منِّي تصديق أن *الرب* يعيش أسفل الفاتيكان؟».

- حسنًا، أليس هذا موقعًا أكثر منطقية من مملكة فوق سحابة محاطة بملائكة يغنُّون؟ كل ذلك يرسم في الأذهان صورة جميلة، لكن *الحقيقة* أكثر إثارة للاهتمام.

- وماذا يفعل الرب هنا بالأسفل؟

- في انتظار تحريره.

تنهَّد إزيو. «هَبْ أنني أصدقك، ماذا تظن أنه سيفعل إذا تمكَّنتَ من فتح ذلك الباب؟».

ابتسم رودريغو. «لا أكترث. إنني لا أسعى لنيل موافقته قطعًا، لا أريد سوى قواه!».

- أتظن أنه سيتخلَّى عنها؟

- مهما يوجد خلف هذا الجدار فلن يقدر على مقاومة قوة الصولجان والتفَّاحة معًا... إنهما مصنوعان من أجل القضاء على الآلهة، مهما يكن الدين الذي تنتمي إليه.

- لكن الرب، ربنا، يفترض أنه كُلِّي المعرفة وكُلِّي القدرة. أتظن حقًّا أن قطعتين أثريتين قادرتان على مسِّه بسوء؟

ابتسم رودريغو ابتسامة متعالية. «لا تعرف شيئًا يا غُلام. إنك تأخذ تصوُّرك عن الخالق من كتاب قديم، كتاب كَتَبه *البشر*».

- لكنك البابا! كيف يمكنك صرف النظر عن أهم كتاب في المسيحية؟

ضحك رودريغو.

- هل أنت بهذه السذاجة حقًّا؟ صرتُ البابا لأن المنصب يضعني في هذا المكان ويمنحني السلطة! أتظن أنني أؤمن بكلمة لعينة واحدة من ذلك الكتاب السخيف؟ كُله أكاذيب وخرافات، مثل أي نص ديني كُتِب منذ أن تعلم الناس كيفية وضع القلم على الورق!

- ثمَّة أناس قد يقتلونك لقولك هذا.

- ربما. لكن هذا الاحتمال لا يقضُّ مضجعي. نحن فرسان الهيكل نفهم الطبيعة البشرية يا إزيو، ولهذا نزدريها!

انعقد لسان إزيو، لكنه واصل الاستماع إلى هذر البابا.

تابع رودريغو: «عندما ينتهي عملي هنا، ستكون مهمَّتي الأولى تفكيك الكنيسة، حتَّى يُرغَم الرجال والنساء أخيرًا على تحمُّل مسؤولة أفعالهم، ويُحاسَبوا الحساب اللائق أخيرًا!». بدت النشوة على وجهه. «سوف يكون شيئًا جميلًا، عالم فرسان الهيكل الجديد، يحكمه العقل والنظام...».

قاطعه إزيو: «كيف تتحدَّث عن العقل والنظام في حين أن حياتك لا يحكمها سوى العنف والفساد».

ابتسم البابا ابتسامة متكلفة. «أوه، أعرف أنني كائن غير مثالي يا إزيو، ولا أتظاهر بأنني مثالي. لكن كما ترى، ما من *جائزة* تُمنح مقابل السلوك الأخلاقي. تأخذ ما يمكنك أخذه وتتشبَّث به بقوة، بأي وسيلة ضرورية». بسط ذراعيه. «ففي نهاية المطاف، لا يعيش المرء سوى مرَّة واحدة!».

قال إزيو ممتقعًا: «إذا عاش جميع الناس وفقًا لرؤيتك، فسوف يسود الجنونُ العالمَ بأسره».

«بالضبط! تتحدَّث كأن ذلك لا يحدث سلفًا!». وجَّه رودريغو إصبعه نحو إزيو. «هل كنت تنام في أثناء دروس التاريخ؟ قبل قرابة بضع مئات من الأعوام فحسب، كان أسلافنا يعيشون في الوحل والأقذار، غارقين في الجهل والتعصُّب الديني، يخافون كل شيء».

- لكننا تجاوزنا تلك المرحلة منذ زمن بعيد وصرنا أقوى وأكثر حكمة.

ضحك رودريغو مرَّة أخرى. «لديك حلم جميل! انظر في ما حولك، لقد عشتَ الواقع بنفسك، سفك الدماء، والعنف، والفجوة بين الأثرياء والفقراء التي لا تزداد إلَّا اتساعًا». حدَّق إلى عيني إزيو. «لن يحدث عدلٌ أو تساوٍ *أبدًا*، وقد تصالحتُ مع هذه الحقيقة، يجدر بك أيضًا أن تتصالح معها».

- مُحال! سيقاتل الحشَّاشون دومًا في سبيل تحسين أوضاع البشرية. في النهاية ربما يتعذَّر تحقيق يوتوبيا أو جنَّة على الأرض، لكن مع مرور كل يوم نقاتل فيه، نتحرَّك خطوة إلى خارج المستنقع.

تنهَّد رودريغو. «يا للبساطة المباركة! اعذرني لأنني مللت انتظار استيقاظ البشرية. إنني عجوز، وقد رأيتُ الكثير، وباتت سنواتي معدودة». خطرت له فكرة فأطلق ضحكة خبيثة. «لكن مَن يدري؟ ربما تغيِّر الخزانة هذا الواقع، صحيح؟».

فجأة بدأت التفَّاحة تتوهج، وتزايد سطوعها حتَّى ملأ ضوؤها الحجرة، فبهرهما. خرَّ البابا على ركبتيه. ورأى إزيو من بين أصابعه صورة خريطة مجلد المخطوطات مرتسمة على الجدار الذي تتخلَّله الفجوات، ثمَّ تقدَّم وأمسك بالصولجان البابوي.

«لا!». صاح رودريغو ويده الشبيهة بالمخلب تنهش الهواء بلا جدوى. «لا يُمكن! لن أسمح لك! هذا قَدَري *أنا*. *أنا* النبي!».

وفي لحظة مرعبة تجلَّت الحقيقة، أدرك إزيو أن رفاقه الحشَّاشين، قبل زمن طويل في البندقية، قد رأوا الحقيقة التي رفضها هو. النبي موجود في الحجرة فعلًا، وعلى وشك تحقيق قدره. نظر إلى رودريغو وكاد أن يشفق عليه. «لم تكن النبي قط أيها البائس المتوهِّم».

تهالك البابا إلى الخلف، وقد صار عجوزًا مقزِّزًا مثيرًا للشفقة، ثمَّ تكلَّم بنبرة استسلام: «ثمن الفشل الموت، على الأقل اسمح لي بالموت بكرامة».

نظر إزيو إليه وهزَّ رأسه. «لا أيها العجوز الأبله، قتلك لن يعيد إليَّ أبي، أو فدريكو، أو بتروتشو، أو أيًّا من الآخرين الذي ماتوا معارضين لك أو في خدمتك. وأنا عن نفسي انتهيت من القتل». دقَّق النظر إلى عيني البابا، فبدتا له خائفتين ذابلتين، لم تعودا عينا خصمه المتَّقدتين اللتين كان يعرفهما. قال إزيو: «ما من حقيقة مطلقة، كل شيء مباح. حان الوقت لتجد سلامك بنفسك».

استدار مولِّيًا ظهره إلى رودريغو ووجَّه الصولجان نحو الجدار، وأدخل رأسه في فجوات الجدار بترتيب معين، كما أظهرت الخريطة له.

وفي هذه الأثناء ظهر إطار باب ضخم.

وحالما لامس إزيو الفجوة الأخيرة، فُتح الباب.

كشف عن رواق واسع ذي جدران زجاجية، مُدرجة فيه منحوتات عتيقة في الحجر والرخام والبرونز، وعن حجرات عديدة مليئة بتوابيت حجرية، عليها كتابات بحروف رُونِيَّة وجد إزيو نفسه قادرًا على قراءتها. كانت أسماء آلهة روما القدامى، لكن التوابيت كانت جميعها مغلقة بإحكام.

وفي أثناء مروره عبر الرواق، دُهش إزيو من غرابة المعمار والديكور، اللذين بديا له من طراز يمثِّل مزيجًا غريبًا من القديم جدًّا، وطراز عصره، وأشكال وهيئات لم يتعرَّف عليها، لكن غريزته أوحت إليه أنها ربما تنتمي إلى

مستقبل بعيد. وعلى امتداد الجدران رأى نقوشًا بارزة لأحداث قديمة، بدا أن موضوعها هو تطوُّر البشر، والقوة التي وجَّهت التطوُّر.

بدت العديد من الأشكال بشرية لإزيو، لكن بهيئات وملابس لم يتعرَّف عليها، ورأى هيئات أخرى، لم يعرف ما إذا كانت منحوتة أم مرسومة أم جزءًا من الأثير الذي يتحرَّك عبره، رأى غابة تسقط في البحر، وقرودًا، وتفاحًا، وصولجانات، ورجالًا ونساء، وكفنًا، وسيفًا، وأهرامات، وتماثيل عملاقة، وهيكل بابلي، ومركِبات ضخمة، وسفن تسبح تحت الماء، وشاشات غريبة لامعة تستخدم للتواصل ونقل كل المعارف...

لاحظ إزيو أيضًا أن التفَّاحة والصولجان، إضافة إلى سيف كبير وكفن المسيح، كلها كانت تحملها هيئات بشرية شكلًا، لكن بطريقةٍ ما ليسوا بشرًا. وتبيَّن أيضًا تصويرًا للحضارات الأولى.

وأخيرًا، في أعماق الخزانة، وجد إزيو تابوتًا حجريًّا ضخمًا، وعند اقترابه منه بدأ يتوهَّج، بضوء مُرحِّب. لمس غطاءه الضخم فارتفع بهسيس مسموع، وانزلق إلى الخلف كأنه ريشة. ومن التابوت شعَّ ضوء أصفر رائع، دافئ وحميد كضوء الشمس. رفع إزيو يده أمام عينيه.

ومن ثَمَّ، نهضت من التابوت هيئة شخص لم يستطع إزيو تبيُّن ملامحها، لكنه عرف أنه ينظر إلى امرأة. نظرت إلى إزيو بعينين متذبذبتين متَّقدتين، ونَدَّ عنها صوت أيضًا، صوت خرج في البداية كتغريد طيور، ثمَّ تحوَّل أخيرًا إلى اللغة التي يفهمها إزيو.

رأى إزيو خوذة على رأسها، وبومة على كتفها. أحنى رأسه.

قالت الإلهة: «مرحبًا أيها النبي، أنتظرك منذ عشرة ألف ألف فصل».

لم يجرؤ إزيو على رفع بصره.

تابع الطيف: «من الجيد أنك أتيت. ومعك التفَّاحة أيضًا، دعني أراها».

قدَّمها إزيو بتواضع.

«آه». داعبت يدها الهواء الذي فوق التفَّاحة، لكنها لم تمسَّها. توهَّجت التفَّاحة ونبضت. ثمَّ اخترقت عينا المرأة إزيو وقالت: «يجب أن نتحدَّث»، وأمالت رأسها كأنها تفكِّر في أمرٍ ما، وخُيِّل لإزيو أنه رأى شبح ابتسامة على وجهها قُزحي الألوان.

تجاسر على السؤال: «من أنتِ؟».

تنهَّدت. «أوه، أسمائي عديدة... عندما متُّ كان اسمي مِنيرفا، وقبل ذلك ميرفا، وميرا... ومرارًا وتكرارًا عبر الزمان... انظر!». أشارت إلى صفٍّ التوابيت التي تجاوزها إزيو سابقًا. والآن، بينما المرأة تشير إليها تباعًا، توهج كل تابوت بضوء شاحب كضوء القمر. «وعائلتي... جونو، الذي كان اسمه أوني... وجوبيتر، الذي كان اسمه تينيا...».

صُعِق إزيو. «أنتم الآلهة القديمة...».

سمع إزيو ضجة كصوت تهشم زجاج في مكان بعيد، أو كالصوت الذي قد يُحدِثه نجمٌ ساقط، كان صوت ضحكتها. «لا، لسنا آلهة. نحن ببساطة جئنا... من قبل. حتَّى عندما كُنَّا نجوب العالم كان جنسكم يعاني في فهم وجودنا. كُنَّا أكثر... تقدُّمًا في الزمن... عقولكم لم تكن مستعدَّة لنا بعد...». صمتت، ثمَّ تابعت: «وربما لا *تزال* غير مستعدَّة لنا... ربما لن تكون مستعدَّة لنا أبدًا. لكن هذا لا يهم». اخشوشن صوتها قليلًا. «رغم أنكم ربما لا تفهموننا، يجب أن تفهموا تحذيرنا...».

لاذت بالصمت، وعندئذٍ قال إزيو: «ما تقولينه لا يبدو لي منطقيًّا».

«لستَ المعنِي بهذه انكلمات يا بُنَي... المعنِي بها...» نظرت إلى الظلام الذي وراء الخزانة، ظلام لا تحِدُّه الجدران أو الزمان نفسه.

سألها إزيو مرتاعًا: «ما الخطب؟ ما الذي تتكلَّمين عنه؟ ما من أحد آخر هنا!».

انحنت منيرفا نحوه، قريبًا منه، فأحس بدفء أُمٍّ يبدِّد إرهاقه وألمه. قالت له: «لا أريد التحدُّث معك، إنما عبْر*ك*. أنت النبي». رفعت ذراعيها فوقها فصار سقف الخزانة قُبة زرقاء كالسماء، وارتسم على وجه منيرفا المتألِّق حزنٌ عميق لا قرار له. «أدَّيتَ دورك... لقد أرْسَيتَه... لكن من فضلك الزم الصمت الآن... حتَّى نتطارح الأفكار. اسمع!».

رأى إزيو السماء بأكملها وكل النجوم، وسمع موسيقاها، رأى الأرض تدور، كأنه ينظر إليها من الفضاء، وتبيَّن قارَّات، ومدينة أو مدينتين.

«عندما كُنَّا ما نزال أجسادًا حية وكانت ديارنا سليمة، بني جنسكم خانونا. نحن خلقناكم، نحن وهبناكم الحياة!». صمتت، وإذا أمكن لإلهة أن تذرف الدموع، فقد ذرفتها. ظهرت مشاهد حرب، بشر همجيون يحملون أسلحة بدائية يقاتلون بها أسيادهم السابقين.

«كنا أقوياء، لكنكم كنتم كُثُر. وكلانا كان متعطِّشًا للحرب».

ظهرت صورة جديدة للأرض، على مقربة، لكنها ما زالت تبدو كأنها تُرى من الفضاء. ثمَّ تضاءلت، وصارت أصغر، فرأى إزيو عندئذٍ أنها كوكب واحد من بين عدَّة كواكب تدور حول نجم عملاق، الشمس.

«كنا مشغولين بالشواغل الأرضية لدرجة أننا لم نلتفت إلى السماوات، وعندما التفتنا أخيرًا...».

في أثناء كلام منيرفا، رأى إزيو الشمس تتوهَّج فجأة راسمةً هالة عملاقة، ساطعةً بضوء شديد لا يُحتمل، ضوء كلسان من نار يلعق الأرض.

«منحناكم عدن، لكننا اختلقنا الحروب بيننا ونشرنا الموت فحوَّلنا عدن إلى جحيم، احترق العالم حتَّى لم يبقَ منه شيء سوى الرماد. كان ينبغي أن نتوقَّف عند ذلك الحد. لكننا كوَّناكم على صورتنا، بحيث تقدروا على النجاة!».

شاهد إزيو، كأنه وسط الدمار الشامل الذي أنزلته الشمس بالأرض، ذراعًا يغطيها الرماد تمتدُّ من بين الحطام إلى السماء، وريحًا عاتية تعصف بالسماء، التي كانت سقف الخزانة، وفي جانب منها رأى أناسًا يمشون، أناسًا محطَّمون قصيري الأجل لكنهم شجعان.

تابعت منيرفا: «وقد أعدنا البناء، تطلب الأمر منَّا قوةً وتضحيةً وشغفًا، لكننا أعِدنا البناء! وإثر تعافي كوكب الأرض ببطء، وعودة الحياة إلى العالم، وتفجُّر الخضرة مجددًا من الأرض المعطاءة... سعينا لضمان عدم تكرار مثل تلك المأساة أبدًا».

نظر إزيو إلى السماء مرَّة أخرى، فرأى في الأفق معابد وأشكالًا، ونقوشًا على صخور كأنها كتابات، ومكتبات مليئة باللفافات، وسفنًا، ومدنًا، وموسيقى ورقصًا، وأشكالًا وهيئات من أزمان غابرة وحضارات مندثرة لم يعرفها لكنه عرف أنها من صنع رفاقه البشر...

كانت منيرفا تقول: «لكننا نحتضر الآن، والزمان لن يكون رحيمًا بنا... سوف تُحوَّل الحقيقة إلى خرافة وأسطورة. ما بنيناه سوف يُساء فهمه. لكن يا إزيو، اجعل كلماتي تحفظ الرسالة وتمثِّل شاهدًا على خسارتنا».

انبثقت صورة لمبنى الخزانة، ومبانٍ أخرى مشابهة.

ظل إزيو يشاهد كأنه في حلم.

«لكن فلتكن كلماتي باعثة للأمل أيضًا. يجب عليك أن تجد المعابد الأخرى، معابد كهذه، شيدها الذين كانوا قادرين على النأي بأنفسهم عن الحرب، فهُم

الذين سعوا لحمايتنا، ولإنقاذنا من النار. إذا نجحتَ في العثور عليهم، وإذا أمكن إنقاذ ما عملوه، فربما يمكن إنقاذ هذا العالم أيضًا».

عندئذٍ نظر إزيو إلى كوكب الأرض مجددًا. وأظهر أفق سقف الخزانة مدينة تشبه سان جيمِنيانو لكنها أكبر، ومدينة في المستقبل، ومدينة من أبراج كثيفة ذات شوارع نابضة بأضواء الشفق، ومدينة على جزيرة بعيدة. ثمَّ ذابت الصور بأكملها وتحوَّلت إلى مشهد الشمس.

قالت منيرفا: «لكن عليك أن تسرع، الوقت يضيق. خذ حذرك من صليب فرسان الهيكل لأن كثيرون سيقفون في طريقك».

رفع إزيو بصره، فرأى الشمس، تحترق بغضب، كأنها تنتظر، ثمَّ بدت له كأنها تنفجر، لكن داخل الانفجار خيل له أنه يتبيَّن صليب فرسان الهيكل.

بدأ المشهد يتلاشى. وصار إزيو مع منيرفا وحدهما، وعندئذٍ بدا صوت الإلهة يتلاشى كأنه يبتعد في نفق لا نهاية له. «انتهى كل شيء... لا بُدَّ لقومي أن يغادروا هذا العالم... كلنا... لكنني بلَّغتُ الرسالة... المهمَّة على عاتقك الآن. لم يعد بوسعنا فعل شيء».

ثمَّ ساد الظلام والصمت، وعادت الخزانة حجرة مظلمة تحت الأرض كما كانت، لا شيء فيها على الإطلاق.

***

عاد إزيو أدراجه، دخل إلى حجرة الانتظار ورأى رودريغو ممدَّدًا على مقعد، ومن طرف فمه يسيل خيط لعاب أخضر.

قال رودريغو: «إنني أحتضر، تجرعت السم الذي أحتفظ به للحظة هزيمتي، إذ لم يعد لي عالم أعيش فيه الآن. لكن أخبرني، أخبرني قبل رحيلي عن عالم العنف والدموع هذا إلى الأبد، أخبرني، عندما دخلت الخزانة، ماذا رأيت؟ مَن قابلت؟».

نظر إزيو إليه وقال: «لا شيء. لا أحد».

***

سار عائدًا إلى الخارج، عبر كنيسة السيستين وخرج إلى ضوء الشمس، فوجد أصدقاءه في انتظاره.

ثمَّة عالم جديد عليهم بناؤه.

قائمة الشخصيات

جيوفاني أودِتوري: الأب

ماريا أودِتوري: الأم

إزيو أودِتوري: ثاني أبناء جيوفاني

فدريكو أودِتوري: أكبر أبناء جيوفاني

بِتروتشو: أصغر أبناء جيوفاني

كلوديا أودِتوري: ابنة جيوفاني

ماريو أودِتوري: شقيق جيوفاني

أنيتا: مُدبِّرة منزل عائلة أودِتوري

باولا: شقيقة أنيتا

أورازيو: خادم ماريو أودِتوري

دوتشو دوفيزي: حبيب سابق لكلوديا

جوليو: سكرتير جيوفاني أودِتوري

د. سيريسا: طبيب العائلة

غامبَلتو: رقيب قائد لحرَّاس ماريو أودِتوري

***

كرِستينا كالفوتشي: حبيبة إزيو في شبابه

أنتونيو كالفوتشي: والد كرستينا

مانفريدو دي أرزينتا: ابن عائلية ثرية، تزوج لاحقًا بكرستينا

جيانيتا: صديقة كرستينا

سانديو: موظف لدى والد كرستينا

***

ياكوبو دي باتزي: من أفراد عائلة باتزي، وهم مصرفيون فلورنسيون في القرن الخامس عشر

فرانسسكو دي باتزي: ابن أخ ياكوبو

فييري دي باتزي: ابن فرانسسكو

ستيفانو دي بانيوني: قِس، وسكرتير لياكوبو

الأب جيوكوندو: قِس في سان جيمِنيانو

تيرازاغو، تيبالدو، القائد روبرتو، زوهاني، برناردو: جنود وحراس في خدمة آل باتزي

***

غالياتزو ماريا سفورزا (غالياتزو): دوق ميلانو 1444–76

كاترينا سفورزا: ابنة غالياتزو، 1463–1509

جيرولامو رياريو، دوق فورلي: زوج كاترينا، 1443–88

بيانكا رياريو: ابنة كاترينا، 1478–1522

أوتافيانو رياريو: ابن كاترينا، 1479–1523

سيزاري رياريو: ابن كاترينا، 1480–1540

جيوفاني رياريو: ابن كاترينا، 1484–96

غالياتزو رياريو: ابن كاترينا، 1485–1557

نيزيتا: مرضعة طفل كاترينا

لودوفيكو سفورزا: دوق ميلانو، شقيق غالياتزو، 1452–1508

أسكانيو سفورزا: كاردينال، شقيق غالياتزو ولودوفيكو، 1455–1505

***

لورِنزو دي مِديتشي، ‘لورنزو العظيم’: رجل دولة إيطالي، 1449–92

كلاريس أورسيني: زوجة لورنزو دي مديتشي، 1453–87

لوكريزيا دي مديتشي: ابنة لورنزو دي مديتشي، 1470–1553

بييرو دي مديتشي: ابن لورنزو دي مديتشي، 1471–1503

مادالينا دي مديتشي: ابنة لورنزو دي مديتشي، 1473–1523

جوليانو دي مديتشي، شقيق لورنزو، 1453–78

فيوريتا غوريني: عشيقة جوليانو دي مديتشي

بويتيو: خادم لورنزو دي مديتشي

جيوفاني لامبونياني: مُتآمر في مقتل غالياتسو، ت 1476

كارلو فيسكونتي: مُتآمر في مقتل غالياتسو، ت 1477

جيرولامو أولغياتي: متآمر في مقتل غالياتسو، 1453–77

برناردو بارونشيلي: متآمر في مقتل جيليانو دي مديتشي

أوبرتو ألبرتي: رئيس القضاة في فلورنسا.

رودريغو بورجيا: إسباني، كاردينال، صار لاحقًا البابا ألكساندر السادس/ 1451–1503

أنتونيو مافيي: قِس، ومتآمر في مقتل جيليانو دي مديتشي

رافايلي رياريو: من أشياع آل باتزي، ابن أخ البابا، 1451–1521

فرانسسكو سالفياتو رياريو، رئيس أساقفة بيزا: مشترك في مؤامرات آل باتزي

لودوفيكو وتشيكو أورسي: الأخوان أورسي، مُرتزقان.

***

نيكولو دي برناردو دي ماكيافيلي: فيلسوف وكاتب، 1469–1527

ليوناردو دا فينشي: فنان، عالِم، نحات...إلخ، 1452-1519

أغنيولو وإنوسينتو: مُساعدا ليوناردو دا فينشي

جيرولامو سافونارولا: قِس دومينيكاني وزعيم سياسي، 1452–98

مارسيليو فيسينو: فيلسوف، 1463–94

بوليزيانو (أنجلو أمبروجيني): عالِم وشاعر، مُعلم أطفال آل مديتشي، 1454–94

بوتيشيلي (أليساندرو دي موريانو فيلِبيبي): فنان، 1445–1510

ياكوبو سالتَريلي: مساعد فنانين، و1459

الأخ دومينِكو دا بيسيا والأخ سيلفيسترو: راهبان، شركاء لسافونارولا

الأخ جيرولامو: راهب في دير مونتيسيانو، ابن عم سافونارولا

***

جيوفاني موسينِغو: دوج البندقية، 1409–85

كارلو غريمالدي: أحد أعضاء حاشية موسينِغو

كونت بيكسارو: راعي ليوناردو في البندقية

نيرو: مساعد كونت دي بيكسارو

إميليو باربَريغو: تاجر من البندقية، حليف لرودريغو بورجيا

سيلفيو باربريغو: (الأحمر): مفتش، ابن عم إميليو باربريغو

ماركو باربريغو: ابن عم سيلفيو وإميليو

أغوستينو باربريغو: شقيق أصغر لماركو

دانتي مورو: حارس ماركو الشخصي

كارلو غريمالدي: أحد أعضاء حاشية الدوج

بارتولوميو دي ألفيانو: مرتزق

***

جيلبرتو، الثعلب: أحد أعضاء جماعة الحشّاشين

كورادين: مساعد الثعلب

أنتونيو دي ماغيانس: رئيس نقابة اللصوص في البندقية

أوغو: عضو في نقابة اللصوص

روزا: عضو في نقابة اللصوص

باغانينو: عضو في نقابة اللصوص

ميشيل: عضو في نقابة اللصوص

بيانكا: عضو في نقابة اللصوص

الأخت تيودورا: صاحبة ماخور

